

شرح مقامات الحريري

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث

المكتبة العصرية
بيروت

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شَرِكَةُ ابْنِ سَيِّفٍ لِأَنْصَارِ الشَّيْخِ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

الْمَكَّةُ الْمُبَارَكَةُ الْعَصْرُ الثَّانِي وَالْبَشِيرُ

الدَّارُ الْبَنِيَّةُ حَيْثُ مَرَّ الْمَطْبَعَةُ الْعَصْرُ الثَّانِي

بَكْمَرُوت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تَلَكُمُوتُ SC52-٢٧٧LE

صَحِيدَا - ص.ب. ٢٢١ - تَلَكُمُوتُ ٢٩١٩٨LE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقامة الحادية والعشرون وهي الرازية

حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ : عُذِيتُ مُذْ أَحْكَمْتُ تَدْيِيرِي ،
وَعَرَفْتُ قَبِيلِي مِنْ دَيْرِي ، بَأَنْ أَصْغَى إِلَى الْعِظَاتِ ، وَأُنْفِي
الْكَلِمَ الْمُحْفَظَاتِ ، لِأَتَحَلَّى بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَتَخَلَّى بِمَا
يَسِمُ بِالْإِخْلَاقِ . وَمَا زِلْتُ أَخْذُ نَفْسِي بِهَذَا الْأَدَبِ ، وَأَخْذُ
بِهِ جَمْرَةَ الْأَمْضَبِ ؛ حَتَّى صَارَ التَّطَبُّعُ فِيهِ طِبَاعًا ، وَالشَّكْلُ
لَهُ هَوًى مُطَاعًا .

عُذِيتُ ، أَيْ شَغَلْتُ . أَحْكَمْتُ : أَتَقَنَّتُ . قَبِيلِي مِنْ دَيْرِي ، أَيْ مَا أَقْبَلُ
عَلَيْهِ مِنْ أُمِّي وَمَا أُدِيرُ عَنْهُ . ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : مَا يَعْرِفُ قَبِيلًا مِنْ دَيْرٍ ، أَيْ
مَا يَعْرِفُ الْإِقْبَالَ مِنَ الْأَدْبَارِ ، أَيْ مَا يَعْرِفُ مَا أَقْبَلَ بِهِ مِنَ الْقَبْلِ إِلَى الصَّدْرِ
تَمَّا أُدِيرُ عَنْهُ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : مَا يَعْرِفُ الشَّاةَ الْمُقَابِلَةَ مِنَ الْمَدَابِرَةِ ، وَالْمُقَابِلَةَ الَّتِي شَقَّ
أُذُنُهَا إِلَى قُدَامِ ، وَالْمَدَابِرَةَ الَّتِي شَقَّ أُذُنُهَا مِنْ مُؤَخَّرِهَا ، وَتَرَكَ مَا قَطَعَ مَعْلَقًا إِلَى
خَلْفٍ لَا يَبِينُ .

أَصْغَى : أَمِيلُ . الْعِظَاتُ : هِيَ الْمَوَاعِظُ . أُنْفِي : أَتْرُكُ . الْكَلِمَ : جَمْعُ كَلِمَةٍ .
الْمُحْفَظَاتُ : الْمُغَضَّبَاتُ . أَتَحَلَّى : أَتَزَيَّنُ وَأَتَنَصَّفُ . وَأَتَخَلَّى : أَزُولُ وَأَتَفَرِّغُ ،
وَتَحَلَّيْتُ مِنْ كَذَا : تَرَكْنَاهُ . يَسِمُ : يُجْعَلُ سِمَةً . الْإِخْلَاقُ : الْعُيُوبُ وَتَمْزِيقُ الْعِرْضِ
وَأَصْلُهُ فِي الثُّوبِ . أَخْذُ : أَسْكَنُ .

[الطبع والتطبع]

والتطبع له في الطبيعة أثر، وإن لم تذهب الطبيعة بالجملة، لأنه اتفقت العرب والعجم على قولهم : الطبع أملاك . وكان ملك من ملوك الفرس ، له وزير مجرب حازم ، فكان يعرف اليمن في مشورته ، فهلك وقام ابنه بعده ، فلم يرفع به رأساً ، فذكر له مكاتته من أبيه ، فقال : كان أبي يغاط فيه ، وسأريكم ذلك . فأحضره ، وقال له : أيهما أغاب على الرجل ؟ الأدب أو الطبيعة ؟ فقال : الطبيعة لأنها أصل والأدب فرع ، وكل فرع يرجع إلى أصله . فدعا الملك بسفرة فوضعت ، وأقبلت سنابير بأيديها الشمع ، فوقفت حول السفرة ، فقال له : اعتبر خطأك وضعف مذهبك ، متى كان أبو هذه السنابير شماعاً ؟ فقال له : أمهاني في الجواب إلى الليلة المقبلة ، فقال : لك ذلك . فخرج الوزير ، وأمر غلامه أن يسوق له فأرة فساقها حيةً فربطها بخيط وعقدها في سينية . فلما راح إلى الملك وضعها في كفه ، ودخل فأحضر السفرة والسنابير ألقى لها الوزير الفأرة ، فاستبهمت السنابير إليها ، وتطارب الشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم ناراً . فقال للملك : كيف رأيت غلبه الطبع للأدب ! قال : صدقت ورجع له ما كان عليه أبوه . وقال ذو الإصبع :

كل امرئ راجع يوماً لشميته وأن تخلق أخلاقاً إلى حين^(١)

وقال المتنبي :

أبى خلق الدنيا حبيباً تُدِمه فإطابي منها حبيباً تردّه^(٢) ؟
وأيسر مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء في طابعك ضده

وقال العرجي :

يأيها المتحلي غير شيمته ومن شمائله التبديل والمَلق^(٣)

(١) من مفضيلته ٣١ ص ١٦٣ ، وفيه : « صائر » . (٢) ديوانه ٢ : ١٩ .

(٣) ديوانه ٣٣ ، وفيه : « ومن شمائله الإقتصار » .

ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه^(١) إنَّ التخلُّق يأتي دونه الخلقُ
وقال المتنبي أيضاً :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل^(٢)
وقال الشريف :

هيهات لاتكلفن لي الهوى فضح التَّطَبُّعُ شِيمَةَ المطبوع^(٣)
وقال ابن طاهر الأندلسي :

تقل الطباع من الإنسان ممتنعٌ صعب إذا رامه من ليس من أربه
يريد شيئاً وتأباه طباعه والطَّبع أملك للإنسان من أدبه
فيريد أنه راض نفسه على اتباع الخير وبعد الشر ، حتى انقادت له إلى ما يريد ،
والتَّطَبُّع استعمال غير مافي طبعك ، والتكلف استعمال ما لا تقدر عليه إلا بمشقة .

فَلَمَّا حَلَّتْ بِالرَّيِّ ، وَقَدْ حَلَّتْ حَبَا أَلْمَى ، وَعَرَفْتُ
الْحَى مِنْ أَلَى ، رَأَيْتُ بِهَا ذَاتَ بُكْرَةٍ ، زُمْرَةٌ فِي إِثْرِ زُمْرَةٍ ،
وَهُمْ مُنْشِرُونَ انْتِشَارَ الْجَرَادِ ، وَمُسْتَنْوُونَ اسْتِنَانِ الْجِيَادِ ،
وَمُتَوَاصِفُونَ وَاِعْظَاً يَقْصِدُونَهُ ، وَيُحِلُّونَ ابْنَ سَمْعُونَ دُونَهُ .

[الرِّى]

قوله : « فلما حلت بالرى » :

الرى : أرض على جادة خراسان ، واسم مدينة الرى المهدية ، سميت

(١) في الديوان : « ارجع إلى الحق إما كنت قاعله » .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٢ .

(٣) ديوانه ١ : ٤٩٦ .

بهذا الاسم ، لأنّ المهدي تولّاها في خلافة المنصور لما توجه إلى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزديّ ، وبها ولد الرشيد ، والمهديّ أقام بها عدة سنين ، فشيد بناءها وأتقنه ، وأرضع نساء الوجوه من أهلها الرشيد . وأهل الرىّ أخلاط من العرب ، والعجم قليل فيها . وافتتحها قرط بن كعب الأنصاريّ في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويشرب أهلها من عيون كثيرة وأودية عظيمة ، وبها وادٍ عظيم يأتي من بلاد الديلم يقال له نهر عيسى ، ولكثرة مياه البلد كثرت ثماره وجنّاته وأشجاره ، وله رساتيق ^(١) وأقاليم . ونسب إليها الرازيّ ، وهو من شاذّ النسب .

وكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم : ماقيمك بأرض الفراعنة والجبابرة !
مرّ إلى خراسان ، أرض الفضة والعقيان ، والجوارى الحسن .

* * *

وتقدّم الحبا . والنفيّ : الضلال ، والعرب تقول : ما يعرف الحيّ من اللّيّ ، والحوّ من اللوّ ، تقوله لمن تستجهله وتنفي عنه الفطنة ، وتصريفها أنّ الحيّ مصدر حويت الشيء حزته وجمعه ، ولويت الرجل : مطلته ومنعته حقّه لوّاً وليّاً وليّانا ، فالحيّ مدح واللّيّ ذم ، فكأنّه إذا قال : عرفت الحيّ من اللّيّ إنّما قال : عرفت الخير من الشرّ ، وما يضرّ مما ينفع ، وعرفت الحيّ من اللّيّ . وقبيليّ من ديريّ ، إنّما يستعملان في النفيّ . وتجوز أبو محمد في استعمالهما في الإيجاب حيث كان أصلاً للنفيّ .

الزّمرة : الجماعة ، وتقول : فلان إثر فلان أى خلفه وقريناً منه ، كأنه يتبع أثره إذا رفع هذا قدمه وضع الآخر قدمه في الموضع . منتشرون : متفرقون . مستقنون : جارون . متواصفون : يصفه بعضهم لبعض .

* * *

(١) الرساتيق : القرى ، واحده رستان ، معرب

[ابن سمعون]

ابن سمعون : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن ^(١) عيسى بن إسماعيل المعروف بابن سمعون، الواعظ . وكان وحيد عصره وفريد دهره في الإخبار عما هجس في الأفكار ، ولتيا من الأولياء الأخيار ، كلامه في الوعظ نافع ، ونصحه في القلوب ناجع ، ومجاله في تصاريف الكلام على الخواطر رَحْب واسع . وكان يقال : له الشيخ المنطوق ^(٢) بالحكمة .

وحدث أبو الطاهر محمد بن عليّ العلاف قال : حضرت ابن سمعون يوماً وهو في مجلس الوعظ على كرسيه ، وكان أبو الفتح القواس جالساً إلى جنب الكرسي ، فغشيته النعاس فنام ، فأمسك أبو الحسن عن الكلام ساعة حتى استيقظ أبو الفتح ورفع رأسه ، فقال له : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في نومك؟ فقال نعم ، فقال أبو الحسن : لذلك أمسكت عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتنقطع عن الكلام الذي كنت فيه ^(٣) .

وذكر أبو عليّ الهاشمي ، قال : حكى لي مولى ^(٤) الطائع لله تعالى ، قال : أمرني الطائع أن أوجه إلى ابن سمعون فأحضره دار الخلافة ، ورأيت الطائع على صفة من الغضب - وكان يُتَقَى في تلك الحال ، لأنه كان ذا حدة - فبعثت إلى ابن سمعون وأنا مشغول القلب لأجله ، فلما حضر ، أعلمت الطائع حضوره - فجلس مجلسه ، وأذن له في الدخول فسلم عليه ^(٥) بالخلافة ، ثم أخذ في وعظه فأول ما ابتدأ به أن قال : روى عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ... وذكر خبراً ، ولم يزل يجري في ميدان الوعظ حتى بكى الطائع وسمع شقيقه ، وابتل منديله بين يديه بدموعه ، فأمسك ابن سمعون حينئذ ، ودفع إلى درجاً فيه طيب

(١) المنتظم : « ابن عيسى » .

(٢) المنتظم : « الناطق بالحكمة » .

(٣) المنتظم : ٧ : ١٩٩ .

(٤) المنتظم : « دجى مولى الطائع » .

(٥) المنتظم : « فدخل وسلم بالخلافة » .

وغيره ، فدفعته إليه وانصرف . وعدت إلى الطائع ، وقلت : يامولاي ، رأيته على صفة من الغضب على ابن سمعون ، ثم انتقلت عنها عند حضوره ، فما السبب ؟ فقال : رُفِعَ إلى أنه ينتقص علياً رضي الله عنه ، وأحببت أن أتيقن ذلك ، فإن صح منه قلته ، فلمّا حضريين يدى افتتح كلامه بذكره ^(١) والصلاة عليه ، وأعاد في ذلك وأبدى ، وقد كان له مندوحة في الرواية عن غيره وترك الابتداء به ، فعملت أنه وقّفت ^(٢) لما نزول به عنه الظّمة ، وتبرأ ساحتها عندي ، ولعله كوشف ^(٣) بذلك .

وله كتاب المجالس وهو كله أحاديث متصلة الأسانيد .
ومن كلامه أن القلب بمنزلة المرأة فإذا أصابها لطخة عولجت بالزيت ، فإذا زادت زيد فيها من حتات الأجر ، فإذا زادت جُلِيَتْ بالحديد ، فإذا زادت على ذلك حتى ركبها الصدا لم يكن لها بدّ من عرضها على النار حتى يتم جلاؤها .
توفى ابن سمعون في ذى القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، ودفن بداره بشارع العباسي ، فلم يزل هناك حتى نقل يوم الخميس الحادى عشر من رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ودفن بباب حرب ببغداد . وقيل : إن أكفانه لم تكن بليت بعد .

* * *

فلم يتكأذنى لاستماعِ المواعظ ، واختبارِ الواعظ ؛
أن أقاصي اللاعظ ، وأختمل الضاعظ . فأصحبت أصحاب
المطوعة ، وانخرطت في سلك الجماعة ؛ حتى أفضينا إلى
ناد جمع الأمير والمأمور ، وحشد النبى والمعمور ، وفي وسط
هالته ، ووسط أهله ، شيخ قد تقوس واقعس ،

(١) المنتظم : « يذكر على » .

(٢) المنتظم : « وقف » .

(٣) الخبر في المنتظم : ٧ : ١٩٩ ، وانظر بقية أخباره هناك .

وَتَقْلَنْسَ وَتَطَلَّسَ ؛ وَهُوَ يَصْدَعُ بوعُظْ يَشْفِي الصُّدُورَ ،
وَيُلِينُ الصُّخُورَ ؛ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ، وَقَدْ افْتَتَنْتَ بِهِ الْعُقُولُ :

. . .

قوله: يتكأ دنى ، أى يشقّ على . أقاصى : أباعد . اللاغط : الصائح بكلام
لا يفهم ، والضاغط : الذى إذا زاحمك ضغطك لحائط أو غيره حتى ينقطع نفسك،
يريد أنه لم يمنعه ما أصابه من السبّ والصياح به والضغط واللكز من مزاحمة
الناس حتى قرب من الواعظ .

وبين هذا قوله فى الخمسين: «ولم أزل أتنقل فى المراكز، وأغضى للأكز والواكز» .
أصحبت : انقذت . المطوعة : المنقادين المطاوعين . والانخراط : دخول
الإنسان فى الأمر بغير علم . وتقدّم السلك .

أفضينا : وصلنا، وأراد أن هذا المجلس جمع العامة والأمير، ومن له ذكر رفيع
وشهرة . ومن هو مجهول مخمول . وأراد بالهالة حلقة الناس ، وبالأهلة أشراف
الناس والعلماء . وحرك السين من «وسط» ، مع الهالة لأنها دائرة وساحة، العرب تقول:
فلان جلس وسط الدار واحتجم وسط الرأس بالتحريك ، وسكن مع الأهلة لأنه
أراد معنى بين ، والعرب تقول : جلس وسط القوم ، فحملوه على بين ، لما حلّ
محلّها وكان فى معناها، ولا يجوز جلس بين الدار، فهذا لا يقال جلس وسطها بالتسكين .
تقوس : انحنى . اقعنس : تقبّض واحدودب . والقعنس : دخول الظهر
وخروج الصدر ، والحذب ضده وبينه الراجز بقوله .

* أقعنس يمشى مشية التقاعس *

تقْلَنْسَ : لبس القلنسوة . تطَلَّسَ : لبس الطليسان وهو كساء أخضر يلبسه
الخواص . يصدع : يشقّ .

* * *

ابن آدم ، ما أغراك بما يعرك ، وأضرأك بما يضرأك ،
وألهأك بما يطغأك ، وأبهأك بمن يطريك . متغنى بما
يعنأك ، وتعمل ما يعنأك ، وتترع في قوس تعديك ،
وترتدي الحرص الذي يرديك ؛ لا بالكفاف تقتنع ،
ولا من الحرام تقتنع ، ولا للبعطات تستمع ، ولا بالوعيد
ترتدع . دأبك أن تتقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط
العشواء ، وهماك أن تدأب في الاحتراث ، وتجمع الثراث
للوراث ؛ يعجبك التكاثر بما لديك ؛ ولا تذكر ما بين
يديك ، وتسعى أبداً لغاريك ، ولا تبالي ألك أم عليك .
أظن أن سترك سدى ، وألا تحاسب غداً ؛ أم تحسب أن
الموت يقبل الرشا ، أو يميز بين الأسد والرشا . كلا والله
لن يدفع المنون ، مال ولا بنون ؛ ولا ينفع أهل القبور ؛
سوى العمل المبرور . فطوبى لمن سمع ووعى ؛ وحقق
مادعى ؛ ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من
ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف
يرى . ثم أنشد إنشاداً وجل ، بصوت زجل :

. . .

قوله : « ما أغراك » ما أكثر لصوقك . يعرك : يدلك على الفرار . أضرأك : أشد
ملازمتك . ألهأك : أشد حبك .

يطغأك : يردك طاعياً متجاوزاً قدرك . أبهأك : أشد سرورك . يطريك :

يمدحك في وجهك، والنفس ميالة كثيرة الانخداع بمن يعظم شأنها ويثني عليها،
فرارة من يحقرها ويذمها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «أحثوا التراب في وجوه
المداحين» تذليلهم بذلك حيث أکسبوا غيرهم عزة النفس والكبر. قال الشاعر:

وخدعته بخديعة لما أبى والحرَّ يُخدعُ بالكلام الطيبِ

تعنى: تشتغل . يفتيك : يتعبك . تنزع : ترمى . تعذيبك : ظلمك . الحرص :
أسوأ الطمع . يرديك : يهلكك .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

كعب بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ذئبان جائعان أرسلا
في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه» .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقربت الساعة ولا يزداد الناس إلا حرصاً
على الدنيا ولا تزداد منهم إلا بعداً» .

وقال محمود الوراق :

كم إلى كم أنت للحرص وللآمال عبد
ليس يمدى الحرص والسعي إذا لم يك جد
ما لما قدره الله من الأمر مرث

وفي كتاب للهند : لا ينبغي للمتمس من عيشه إلا الكفاف الذي يدفع به
الحاجة عن نفسه ، وما سوى ذلك فإنما هو زيادة في عمه .

وقالت الحكماء : أقل الدنيا يكفى ، وأكثرها لا يكفى .

وقال أبو ذؤيب :

والنفسُ رغبةٌ إذا رَغِبَتْهَا وإذا تُرِدَّ إلى قليلٍ تقنع ^(١)
وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه : يا بُنَيَّ ، إذا طلبتَ الغنى فاطلبه
بالقناعة ، فإنها مال لا ينفد ، وإياك والطَّمع فإنما هو فقر حاضر . وعليك باليأس
فإنك لم تياس من شيء قطَّ إلا أغناك الله عنه .

وقال : الغنى من استغنى بالله والفقر من افتقر إلى الناس .

قال ابن أبي حازم رحمه الله تعالى :

استغن بالله لا تضرع إلى الناس واقنع بياس فإن العزَّ في اليأس
واستغن عن كل ذي قربى وذى رحم إن الغنى من استغنى عن الناس
ومن دعاء عمر رضي الله عنه : اللهم ، لا تسكّر لى من الدنيا فأطغى ، ولا
تقلّل لى منها فأنسى ، فإنه ما قلّ وكفى ، خير مما كثر وألهى .

وقالوا : ثمرة القناعة الراحة ، وثمره الحرص التعب .

وقالوا : لا غنى إلا غنى النفس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عندك ما يكفيك وأنت تطلب
ما يطغيك ! لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع . يا بن آدم ، إذا أصبحت آمناً في مراكب
معافى في بدنك ، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء » .

وقيل لأبي حازم : ما مالك ؟ فقال : ما لان : الغنى بما في أيدي ، واليأس بما في
أيدي الناس

وقيل لآخر : ما مالك ؟ فقال : التجرّع في الظاهر والقصد في الباطن .

ومما قيل من الشعر في معنى ما تقدّم ، قال محمود الوراق :

يا عائب الفقر ألا تزدجرُ عيبُ الغنى أ كبرُ لو تعتبرُ
من شرف الفقرِ ومن فضله على الغنى لو صحَّ منك النظرُ
أنك تعصى اللهَ تبغى الغنى وليس تعصى اللهَ كي تفتقرُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ومن سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدأ
فإنّ صلاح المرء يرجع ككلّه فساداً إذا الإنسان جاز به الحدأ

وقال البحترى :

إذا ما كان عندى قوت يومٍ طرحتُ الهمَّ عني يا سعيدُ
ولم تحظر هموم غدٍ بيالى لأنّ غدأ له رزق جديدُ

وقال ابن طباطبا:

إن في نيل المني وشك الردى وقياس القصد ضدّ السرفِ
كسراج دهنه غمرٌ له فإذا غرقتُه فيه طُفي

ونال آخر :

وإذا نبا بى منزل جاوزته واعتضت منه غيره لى منزلاً
وإذا غلا شئ على تركته فيكون أرخص ما يكون إذاغلا

قوله : « ولا بالوعيد ترتدع » أى لا تكفّ عن غيئك ولا ضلالت
بما تخوف به من أهوال الآخرة . دأبك ، أى عادتك . الأهواء : جمع هوى ،
وهو ما تحبّه النفس وتميل إليه . نخط : تمشى على حماية . العشواء : الناة التى
لا تبصر . تدأب : تداوم . الاحترأث : الكسب . التراث : المال الموروث .

[نبذ من الأقوال الحكيمة أيضاً]

وفي معناه أنه وجد على حائط مكتوباً : ابن آدم غافص ^(١) الفرصة عند إمكانها ،
وكل الأمور إلى وليها ، ولا تحلّ في قلبك همّ يوم لم يأت إن يكن من أجلك ،
يأتك الله برزقك فيه ، ولا تجعل سعيك في طلب المال أسوة المغرورين ، فربّ
جامع لبعل حليته . واعلم أن تقتير المرء على نفسه توفيرٌ منه على غيره ، فالسعيد
من اتعظ بهذه الكلمات . قال بديع الزمان :

أيا جامع المال من حلة يبيت ويصبح في ظله
سيؤخذ منك غداً كله وتُسأل من بعد عن كله

وله أيضاً :

يا حريصاً على الغنى قاعداً بالمراصد
لست في سعيك الذي خضت فيه بقاصد
إن دنياك هذه لست فيها بخالد
بعد هذا فإعما أنت ساعٍ لقاعد

وقال سابق البربري :

حتى متى تلهو بمنزل باطل كأنك فيه ثابت الأصل قاطن
وتجمع مالا تأكل الدهر دائباً كأنك في الدنيا لغيرك خازن
وقال رجال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن فلاناً جمع مالا ، قال :

خهل جمع له أياماً ! أخذه الشاعر فقال :

ارفه يعيش فتى يغدو على ثقة إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسُهُ والوجه منه جديد ليس يخالفه
جمعت مالا فكّر هل جمعت له يا جامع المال أياماً تفـرقه
المال عندك مخزون لو ارثه ما المال مالك إلا حين تنفقه

(١) في اللسان : غافص الرجل مفاصة ، أخذه على غره

قوله: « التكاثر » أى كثرة المال، تقول : تكاثر المال تكاثراً : جاز الحدّ فى الكثرة .

أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أمسى وأصبح وهمه الدينار والدرهم تكاثراً حشر مع اليهود والنصارى ، والذين قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

تسعى لغاريك : تجهد فى كسبك لتدرك شهوة بطنك وفرجك ، وهما الغاران ، قيل : هما الفرج والقم . وقيل : الحنكان : الأعلى والأسفل ؛ وأخذ اللفظ من قول الشاعر :

ألم تر أن الدهر يومٌ وليلة وأن الفتى يسعى لغاريه دائباً

قوله سدّى ، أى مهمل مسيب . الرشا بالضم : جمع رشوة وهى العطية تدفع بها مضرة من يتدر عليك . الرشا ، بالفتح : الغزال . كلاً : زجر . المنون : هى المنية ، المبرور . المتقبل . وعى : حفظ الوصية . ما ادعى ، أى ما ادعاه من أنه قبل الوصية . وحققه : داوم عليه بعمله . ارعوى : رجع وتاب . ما سعى ، أى ما عمل وتعب فيه . الفائز : الظافر بحاجته . وجل : خائف . زجل : شديد ، وزجل الصوت زجلاً : ارتفع وأيضاً طرب .

وقال أبو العتاهية فيما تقدّم من ذكر الموت :

بين عيني كلّ حين علم الموت يلوحُ
كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروحُ

وقال البديع :

إنما الدنيا غرور ولن أصفى نصيحُ

ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيحُ
نحن لا هون وآجا لُ المنايا لا تريحُ

لَعَمْرُكَ مَا تُغْنِي الْمَغْنَى وَلَا الْغِنَى
إِذَا سَكَنَ الْمُثْرَى الثَّرَى وَثَوَى بِهِ
فَجَدُّ فِي مَرَاضِي اللَّهِ بِالْمَالِ رَاضِيًا
بِمَا تَقْتَنِي مِنْ أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ
وَبَادِرُ بِهِ صَرْفَ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ
بِمُخْلَبِهِ الْأَشْفَى يَقُولُ وَنَابِهِ
وَلَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ الْخَثُونَ وَمَكْرَهُ
فَكَيْفَ خَامِلٍ أَخْنَى عَلَيْهِ وَنَابِهِ
وِعَاصِ هَوَى النَّفْسِ الَّذِي مَا أَطَاعَهُ
أَخُو ضَلَّةٍ إِلَّا هَوَى مِنْ عِقَابِهِ
وَحَافِظُ عَلَى تَقْوَى الْإِلَهِ وَخَوْفِهِ
لَسْتَجُودَ مِمَّا يُتَّقَى مِنْ عِقَابِهِ
وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَابْكِهِ
بِدَمْعِ يُضَاهِي الْمَزْنَ حَالَ مَصَابِهِ
وَمَثَلُ لَعْنِكَ الْحَامِ وَوَقْعُهُ
وَرَوْعَةُ مَلَقَاهُ وَمَطْعَمُ صَابِهِ

وإنَّ قَصَارَى مَنَزِلِ الْحَيِّ حُفْرَةٌ
 سَنَزِلُهَا مُسْتَنْزِلًا عَنْ قَبَائِهِ
 فَوَاهَا لِعَبْدٍ سَاءٌ سَوْءٌ فِعْلُهُ
 وَأَبْدَى التَّلَافِي قَبْلَ إِغْلَاقِ بَابِهِ

* * *

قوله : لَعْمَرِكَ ، العَمَرُ البقاء ، فأقسم به كأنه قال : وحق بقائك الكريم على
 المحبَّب إلى .

المغاني : المنازل الشريفة . المثرى : الكثير المال . الثرى : التراب الندى ،
 وأثرى صار له كثير من المال كالثرى فى كثرته . ثوى : أقام . جُدْ : تكرم
 بمالك . تفتنى : تكتسب ، أى لاتنفع المنازل الرفيعة البناء ولا المال الكثير إذا
 آل الحال إلى الموت . بادر : سابق . صَرَفَ : تقلَّب .

الأشقى : المعوج . يقول : يهلك . نابه : ضره . الخئون : الكثير الخيانة .
 النابه والنبيه ، من النباهة وهى الجلالة والرفعة ، والخامل ضده ، وأخنى على :
 أخذ مالى . ضلّة ، أى ضلالة ، وهوى : سقط . عقابه الأول جبالة ، والثانى عذابه .
 تلّه : تشغل . يضاهاى : يشابه . الوبل : أ كثر المطر . حال مَصَابِهِ ، أى حال
 وقوعه ، والمَصَاب : مصدر صاب يصوب صوباً ومَصَاباً . الحمام : الموت . روعة :
 فزع صاحبه حين يلقاه . صابه : مرّه ، والصاب شجر مرّ . وقصارى : آخرونهاية ،
 كأنه قصر عندها أى جلس فلم يجاوزها . واهّا : عجباً . التلافي : التدارك لمافات .
 إغلاق بابه ، أى موته .

[ملك الموت]

وفى روعة ملقاه يحكى أن إبراهيم عليه السلام ، قال لملك الموت : هل تستطيع
 (٢ - مقامات الحريري - ج ٣)

أَنْ تُرَى صُورَتِكَ الَّتِي تَقْبُضُ عَلَيْهَا رُوحُ الْفَاجِرِ ، قَالَ : لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَأَعْرِضْ عَنِّي ، ثُمَّ التَفْتُ ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ أَسْوَدَ قَائِمٍ الشَّعْرَ مَمْتَنَ الرِّيحِ ، أَسْوَدَ الثِّيَابِ ، يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ وَمِنْ مَنْخَرِهِ لَهَبُ النَّارِ وَالِدُخَانٍ . فَنُفِثَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَقَدْ عَادَ إِلَى صُورَتِهِ : فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : لَوْلَمْ يَكُنْ لِلْفَاجِرِ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلَّا صُورَتُكَ لَكُنْ حَسْبُهُ .

وَفِي مَطْعَمِ صَابِهِ ، يَحْكِي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ اللَّهُ تَعَالَى : كَيْفَ وَجَدْتَ الْمَوْتَ يَا خَلِيلِي ؟ قَالَ : كَسَفُودٍ جُعِلَ فِي صُوفٍ رَطْبٍ ، قَالَ : أَمَّا إِنَّا هَوْنًا عَلَيْكَ . وَقَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ وَجَدْتَ الْمَوْتَ ؟ قَالَ كَعَصْفُورٍ يَقْتُلِي عَلَى الْقَلْبِ ، لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ ، وَلَا يَطِيرُ فَيَنْجُو . وَفِي رِوَايَةٍ : كَشَاةٍ تُسْلَخُ مِنْ جُلْدِهَا وَهِيَ حَيَّةٌ .

وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ لِعَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَقَدْ سَأَلَهُ أَنْ يُخَدِّثَهُ عَنِ الْمَوْتِ ، قَالَ : الْمَوْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَفَصْنِ كَثِيرِ الشُّوْكَ ، أَدْخَلَ جُوفَ رَجُلٍ ، فَأَخَذَتْ كُلُّ شَوْكَةٍ بَعْرَقٍ ، ثُمَّ جَذَبَهُ رَجُلٌ شَدِيدُ الْجَذْبِ ، فَأَخَذَ الْفَصْنَ مَا أَخَذَ ، وَأَبْقَى مَا أَبْقَى .

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ مَوْتِهِ يَقُولُ : «إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى سَكْرَاتِ الْمَوْتِ»

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : «لَأَغْبِطَ أَحَدًا يَهْوَنُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتَهُ مِنْ مَوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» .

فَهَذِهِ حَالُ أَحِبَّابِهِ فَكَيْفَ بِمَنْ غَمَرَ فِي بَحَارِ الْمَعَاصِي ! اللَّهُمَّ عَفْوُكَ وَشَعْرُ الْمَقَامَةِ مَزْدُوجِ الْقَوَافِي ، وَعَارِضُهُ الزَّاهِدِ بْنِ عِمْرَانَ فَقَالَ :

مَالِي وَلِلدُّنْيَا وَعَلِمِي بِهَا غَرَارَةٌ خَدَاعَةٌ مَالِي

تفرنى حتى إذا مُكِّنْتُ تَعَبْتُ في نفسى وفى مالى
هَمْتُ بها جبا فقد أفسدت ما كان من صالح أعمالى
أعمى الهوى قلبى وُحِّى، لها رأس خطاياى وأعمالى
تبكى على الفائت من حظها عيني بنسكاب وإهمالى
يارب زهّدنى فى حمها ولا تؤاخذنى بإهمالى

وله فى مثله :

ارغب عن الدنيا وأوصافها مشوبة جاءتك أوصافيه
قتل أولى الألباب من فعلها فاصنع إلى نصحي وأوصافيه
ما بالنفى يفتّر ذو فطنة كلاً ولا يفتّر بالعافيه
كم من غنى قد عاد قهراً وكم عافيه قد أصبحت عافيه

وله أيضاً :

ما الزهد - يا قوم - فلا تجهلوا - بلبس أسمالٍ وأخلاقٍ
لكنه لبس ثياب التقى فى حسن آداب وأخلاقٍ

وله أيضاً :

خليلى لا يغزرك منى ظاهرى ومهما سألت الله فاسأله لى صفحا
فلو كنت ذا علم كعلمى بباطنى لأضربت عن ذكرى أياذى النهى صفحا
ولكن أرى الله الجليل بفضله فلم يقش لى سراً ولم يُبْدِل صفحا
وقال بعض الزهاد لصاحبه : إني أحبك فى الله ، فقال له : لو علمت منى
ما أعلم من نفسى لأبفضتني فى الله .

وله أيضاً :

تحفظ بدينك لا تمتدله ولا تُلغِ عرضك عِرضاً كايّا

وعدُّ عن الذنب لاثانِه وبادر بإصلاح مامنك ليما
فأنت ابن عمران موسى المبيء ولست ابن عمران موسى الكلبي
وقال غيره :

لا تأمن الدهر الخنو ن وخف بواذر بَعَثْتَهُ
فالوت سهم مرسلٌ والعمر قَدْر مَسَافَتِهِ

* * *

قال : فضلَّ القومُ بَيْنَ عِبْرَةٍ يَذْرُونَهَا ، وَتَوْبَةٍ يُظْهِرُونَهَا ؛
حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَزُولُ ، والفريضةُ تَعُول . فلمَّا خَشَعَتِ
الأصوات ، والتَّأَمَّ الإنصاتُ ، واستكثنتِ العبراتُ والعباراتُ ؛
استصرخ مستصرخٌ بالأمير الحاضر ، وَجَعَلَ يَجَارُ إِلَيْهِ مِنْ عَامِلِهِ
الْجَائِرِ ، وَالْأَمِيرُ صَاغٍ إِلَى خَصْمِهِ ، لَاهٍ عَنْ كَشْفِ ظُلْمِهِ .
فَمَا يَثْسَ مِنْ رَوْحِهِ ، استنهض الواعظَ لنصحه ؛ فنهضَ نهضةً
الشَّمِيرِ ، وَأَنشَدَ مُعَرِّضًا بِالْأَمِيرِ .

* * *

قوله : «عبرة يذرونها» ، أى دمة يصبونها . وتَعُول ، تزيد وتضيق ، يريد يضيق
وقتها ، ويدخل عليها وقت غير هافترج صلاتين . خَشَعَت : ذَلَّت . التَّأَمَّ الإنصات :
اتَّصل السكوت . استكثنت العبرات والعبارات ، أى سكن البكاء والكلام .
استصرخ مستصرخ ، أى استغاث مستغيث . يجار : يصيح . يريد أن رجلا تشكى
للأمير من عامل له ولأه عليهم ، فجاء ، فقال الأمير مع الوالى ، وترك المشتكى .
وقوله : صاغ ، أى مائل . ولأه ، أى تارك ومشتغل . يثس : قطع رجاءه . رَوْحِهِ :

نصرته وعدله الذى يريح المشتكى ، والروح الفرح والسرور . استنهض : سأل
المهوض لينصح الأمير .

عائشة رضى الله عنها : قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان
ذا صلة لأخيه المسلم إلى السلطان فى مبلغ برّ ، وتيسير عسير ، أعانه الله على إجازة
الصراط : يوم دحض الأقدام » .
الشّمير : الماضى فى أموره : معرّضا : من التعريض وهو أن تخاطب غيره وأنت تريد .



عجبا لراج أن ينال ولاية	حتى إذا ما نال بغيته بنى
يسدى ويلحم فى المظالم والعا	فى وردها طورا وطورا مولعا
ما إن يبالي حين يتبع الهوى	فيها أصلح دينه أم أوتعا
يا ويحه لو كان يؤقن أنه	ما حالة ألا تحول ، لما طنى
أو لو تبين ما ندامة من صغا	سما إلى إفك الوشاة لما صغا
فانقد لمن أضحي الزمام بكفه	وتفاض إن ألغى الرعاية أولعا
وارع انرار إذا دعاك لرغيه	ورد الأجاج إذا حاك السيغا
واحل أذاه ولو أمضك مسه	وأسال غرب الدمع منك وأفرغا
فليضحكنك الدهر منه إذا نبا	عنه وشب لكيدة نار الوغى
ولينزان به الشّمات إذا بدا	مُتخليًا من شغل متفرغا
ولتاوين له إذا ما خذه	أضحى على ترب الهوان ممرغا

نال بغيته ، أى أدرك ما طلب . بنى : جار وظلم . يسدى ويلحم ، أى
تصرف فى المظالم طولاً وعرضاً ، ومقبلاً ومدبراً . والسدى : خيوط الثوب طولاً ،

واللحمة خيوطه عرضاً : والقآ : شارباً . وردها : ماؤها . مولعاً : مسقياً غيره ،
ويريد أنه يباشر الظلم بنفسه تارة ، ويؤليه غيره أخرى . أوتغ : أفسد وأهلك .
ياويحه ، قال الأزهرى رحمه الله تعالى : ويح كلمة رحمة ، وويل كلمة عذاب ،
والفرق بين ويح وويل أن ويح يقال لمن وقع في بليته : يُرَحَّم ويُدْعَى له بالتخلص
منها . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ويحك » ، فجزعت فقال لى : « يا حميراء ، إن ويح كلمة رحمة فلا تجزعى منها
ولكن اجزعى من الويل » .

يوقن : يحقق . تحول تنفير . طغى : ارتفع وجاز الحد فى الجور . صنى :
مال . إفك . كذب . الوشاة : جمع واش ، وقد تقدم . انقد : أطلع ، يقول : من
أصبح حاكك فاتبعه وأطلع له . تغاض : تغافل : ألقى : ترك . الرعاية : المحافظة
للحقوق . لغا : أخطأ وقال قبيحا ، ثم قال : إن حَمَلَك على الذل فاحتمله ، وكتنى
برعى المرارعه . رد الأجاج : اشرب الماء المُر والمُح . حماك السَّيِّئَا : منعك
العذب السهل للشرب . أمضك : أحرقت وصيّرك مهموماً ، والمضّ التوجع
من قول أو جرح . مسّه : وقعه بجسمك . والغزب : فيض الدمع ،
والغزب : الدلو .

هذا أنه ولسوف يؤقف موقفاً فيه يُرى ربُّ الفصاحة أَلْتغَا
وليُحشرنَّ أدلَّ مِنْ فقعِ الفلَا ويحاسبنَّ على النقيصة والشغا
ويؤاخذنَّ بما اجتنبى ومن اجتنبى وَيُطَالَبْنَ بما أَحْسَنَى وبما ارتغى
ويناقشنَّ على الدقائق مثل ما قد كان يصنع بالورى بلْ أبلغَا
حتى يَمَضَّ على الولاية كفه ويودُّ لو لم ينبغ منها ما بنى

هذا له ، إشارة إلى ذل العزل . الأثغ : الأخرس المحبوس اللسان ، وهو أيضاً الذى يُبدل الباء والراء غيناً . وربها : صاحبها . والفقعّ ضرب من الكمأة من وطئه كسره لضعفه ، وهو الفُقّاع ، وبه يضرب المثل ، فيقال : أذلّ من ققع بقرقر .

الشفا : الزيادة . اجتنى : جمع أموال الناس وضبطها لنفسه . اجتنبى : اختار ، يريد أنه يطالب بما أخذ من الدنيا ويحاسب على الوالى الذى اختاره وولاه .
احتسى : شرب الحسوة من اللبن بعد الحسوة . ارتغى : شرب الرّغوة ، أى يؤاخذ بالقليل والكثير والظاهر والباطن . يناقش : يبحث عليه ويخرج ما عنده .
أبلغ : أزيد . يبع : يدرك ويطلب .

[ذكر الولاية والعزل والتشكى من الولاية]

ونذكر هنا فصلاً من الآداب يحتوى على الولاية والعزل والتشكى من الولاية، حسبما تضمن هذا الموضع فى المقامة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستحرصون على الإمارة ، وتكون حسرة وندامة ، فنعمت المربعة ، وبئسत الفاطمة » .

أراد عمر رضى الله عنه أن يستعمل رجلاً فبدر الرجل يطلب العمل فقال : قد كتنا أردنا لذلك ، ولكن من طلب هذا العمل لم يعن عليه .

ولقى عمر رضى الله عنه أبا هريرة رضى الله عنه فقال : ألا تعمل ؟ فقال : ما أريد العمل ، قال : قد طلبه من هو خير منك ، يوسف الصديق عليه السلام قال : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

قال المغيرة بن شعبة : أحبت الإمرة لثلاث : لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء ولستر خاص الأشياء . وأكرهها لثلاث : لروعة البريد ، وذل العزل ، وشماتة الأعداء

وقال أمير لأعرابي : قل الحق وإلا أوجعتك ضرباً ، قال : وأنت فاعمل به ، فوالله لما وعدك الله على تركه أعظم مما توعدتني به .

وذَكَرَ أهل السُّلْطَانِ عندَ أعرابي ، فقال أُمّوا لله إن اعتزوا في الدنيا بالجور لقد ذلوا في الآخرة بالعدل ، ولقد رضوا بقليل ، فإن عوضاً من كثير باقٍ ، وإنما تزلّ القدم حيث لا ينفع الندم .

تظلم رجل للمأمون من عاملٍ له ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ماترك لنا فضة إلا فضها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا ماشية إلا مشى بها ، ولا غلّة إلا غلّها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علفاً إلا علقه ، ولا عرضاً إلا عرض له ، ولا جليلاً إلا أجلاه ، ولا دقيقاً إلا دقه . فعجب المأمون من فصاحته ، وقضى حاجته .

قحطبة بن حميد : إني لواقف ^(١) على رأس المأمون يوماً ، وقد جلس للمظالم ، فكان آخر من دخل عليه وتقدم إليه امرأة وقد همّ بالقيام ، عليها أهبة السفر وثياب رثة . فوقفت بين يديه ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكنم ، فقال يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمى في حاجتك ، فقالت :

ياخير منتصفٍ يُرجى له الرشدُ ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ الملكِ أرملةً عداً عليهما فلم يُترك لها سببُ ^(٢)
وابتزّ مني ضياعى بعد منعتيها ظلماً وقرق مني الأهل والولدُ
فأطارق المأمون حيناً ثم رفع رأسه فقال :

في دون ماقلت زال الصبرُ والجلدُ عني وأقرح مني القلبُ والكبدُ
هذا أو أن صلاة العصر فأنصرفي واحضري الخصر في الوقت الذي أعدُ
والجلس السبت أن يقض الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلسُ الأحَدُ

(١) الخبر في العقد ١ : ٣٣ ، نهاية الأرب ٦ : ٢٧٦

(٢) السبب في الأصل : الشعر ، يكنى به عن الغنم ، ويسكن بالغنم عن الشيء القليل .

فجلس يوم الأحد ، فكانت أول من تقدم إليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : وعليك السلام ، أين الخصى ؟ فقالت : واقف على رأسك ، وأشارت إلى ابنه العباس ، فقال : يا أحمد بن أبي خالد ، خذ بيده فأجلسه معها للخصومة . ففعل . فجلس ، فجعل كلامها يعلو كلامه . فقال لها : أحمد يا أمة الله ، أنت بين يدي أمير المؤمنين وتكلمين الأمير ، فاخفضي من صوتك ، فقال له المأمون : دعها يا أحمد فالحق أنطقها والباطل أخرسه . ثم قضى لها بردّ ضباها وظلم العباس ^(١) . وأمر لها بنفقة وبكتاب إلى عامل بلدها أن يحسن معاونتها .

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فرخان شاه يقيه على في وزارته ، فلما صُرف رهبني ، فلما لقينى سلم على فدنوت منه وقلت له : والله لقد كنت أفنع بإيمائك دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك ، والحمد لله على ما آلت إليه حالتك ، فلئن أخطأت فيك النعمة فلقد أصابت فيك النعمة ، وإن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، والله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزّهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حقّ المنعم . فتبيل له : يا أبا عبد الله ، لقد أبلغت في السب ، فما كان الذنب ؟ فقال : سألته حاجة أقلّ من قيمته ، فردّني عنها بأقبح من صورته .

وقال ابن الرومي في أبي الصقر ، وكان قد مدحه فلم يرفع به رأساً :
 فلئن نُكِيتَ لَطالما نُكِيتَ بك همة لجأت إلى سَنَدِكَ
 لو تسجد الأيام ماسجدة إلا ليوم فت في عَضْدِكَ
 يا نعمة ولت غضارتها ما كان أقبح حسنها بيدك
 فلقد غدت برداً على كبدي لما غدت حرّاً على كبدي

وقال فيه :

خَفَضَ أبا الصقر فكم طائرٍ خَرَّ صريعاً بعد تَحْلِيْقِ

(١) في العقد : « فظلم العباس ظلمه لها » .

زُوجَتْ نَعْمَى لَمْ تَكُنْ كَفُؤَهَا فَصَانَهَا اللَّهُ بِتَطْلِقِ
لَا قَدَسَتْ نَعْمَى تَسْرِبَلَتْهَا كَمْ حُجَّةٍ فِيهَا لَزْنَدِيقِ

وقال فيه قبل النكبة:

غدا يعلو الجيادَ وكان يعلو إذا ما استفره السبت الطرّاقا
أعنتها الشّسوع فإن عراها خفاء الكدّ أنعلها طرّاقا
فزوّج بعد فقر منه نَعْمَى أَرَانِي اللَّهُ صُبْحَهَا طَلّاقا

ومن غرائب التكتائب في العزل ، ما كتب به أحمد بن مهران إلى معزول:
بلغني أعزّك الله انصرفك عن عملك ، فسررت بذلك ، ولم أستفطعه لعلمي بأن
قدرك أجلّ وأعلى من أن يرفعك عمل تتولاه ، أو يضعك عزل عنه ، والله لو لم
تحتزل الانصراف ، وترد الانعزال ، لكان في لطف تدبيرك ، وثقوب رويّتك ،
وحسن تأنيك ، ما تزيل به السبب الداعي إلى عزّك والباعث على صرفك ، ونحن
إلى أن نهنتك بهذا الحال ، أولى بنا من أن نعزّيك ؛ إذ أردت الصرف فأوتيته ،
وأحببت الاعترال فأعطيته ، فبارك الله لك في منقلبك وهناك النعم بدوامها ،
ورزقك الشكر الموجب المزيد لك فيها .

كان^(١) أبو شراعة لا يسأل ابن المدبر حاجة إلا قضاها ، ولا يشفع لأحد إلا شفّعه ،
فلما عزل إبراهيم بن المدبر عن البصرة شيّعه الناس ، فردّهم حتى لم يبق إلا
أبو شراعة ، فقال يا أباشراعة ، غاية كل مودّع الفراق . فانصرف راشدا مكلّوا
من غير قتلي والله ولا ملل . وأمر له بعشرة آلاف درهم . فعانقه أبو شراعة وبكى
وأطال ، ثم قال وهو أحسن ما قيل في التهنة بالعزل :

يا أبا إسحق سِرْ في دَعَاةٍ وامنض مكلّوا فما منك خلف
ليت شعري أي أرض أجذبت فأريحمت بك من جهد العَجَفِ
نزل اللطف من الله بهمم وحُرمانك بذنب قد سَلَفِ

إنما انت ربيع باكرٌ حينما صرفه الله انصرف

ومن ملح هذا الباب أن بعض الوزراء قلدا بن حجاج عملاً، فخرج إليه يوم الخميس، وتبعه كتاب عزله يوم الأحد، فقال فيه :

يا من إذا نظر الهلا ل إلى محاسنه سجد
وإذا رآته الشمس كا دت أن تموت من الحسد
يوم الخميس بعثني وصرفتني يوم الأحد
والناس قد غنوا عـلى لما خرجت من البلد
ما قام عمرو في الولا ية قائماً حتى قعد

* * *

ثم قال : أيها المتوشح بالولاية ، المترشح للرعاية ؛ دَعِ
الإدلال بدولتك ، والاعتزاز بصولتك ؛ فإن الدولة ريح قلب ،
والإمرة برق خلّب . وإن أسعد الرعاة ، من سعدت به رعيته ،
وأشقام في الدارين من ساءت رعايته ؛ فلا تك ممن يذر الآخرة
ويبلغها ، ويحب العاجلة ويتغنيها ، ويظلم الرعية ويؤذيها ؛ وإذا
تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ؛ فوالله ما يغفل الديان ، ولا هم مل
يا إنسان ، ولا تلغى الإساءة ولا الإحسان ؛ بل سيوضع لك الميزان ،
وكما تدين تُدان .

قال : فوجم الوالى لما سمع ، وامتنع لونه وامتنع ، وجعل يتأفف
من الإمرة ، ويردف الزفرة .

[مما قيل في اللغ من الشعر]

وذكر اللغ، وللشعراء في اللغ ما يستحسن، قال ابن شهيد :

مرض الجفون ولثغة في المنطق شيآن جرّا عشق من لم يعشق^(١)
 ينبي فينبو في الكلام لسانه فكأنه من خر عينيه سقى
 لا ينمش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مهرق^(٢)
 وأحسن ما في وصفه قول الرمادي :

لا الراء تطمع في الوصال ولا أنا الهجر يجمعنا فنحن سواء
 فإذا خلوت كتبها في راحتي فبكيت منتحباً أنا والراء
 اخذه أبو القاسم بن العريف ، فقال :

أيها الأثغ الذي شفت قلبي جذّ بحرف ولو نطقت بسبي
 هجرك الراء مثل هجري سواء فكلانا معذب دون ذنب
 فإذا شئت أن أرى لى مثالا في غرامى خطت راء بجني

* * *

قوله: «التوشح» أي المحتزم. والمترشح: المهيئ للراعية أي لحفظ الناس. الاغترار
 الانخداع، صولتك: عزك وقهرك، يقال: صال الرجل على قرنه، والفحل على إبله،
 أي قهر وعلا، والفحل أيضاً عض، وربما همز فعل الفعل. قلب، أي متقلب.
 خلّب: خادع لأماء فيه، يريد أن الولاية تنقل من إنسان إلى آخر. تلغى: تهمل.
 العاجلة. الدنيا لأن خيرها معجل. تولى: صار والياً. سعى: مشى مسرعاً.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ وَلِيَ مِنْ
 أُمْرَاتِي شَيْئًا فَحَسَنْتُ سِرِّيْرَهُ رُزِقَ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَإِذَا بَسَطَ يَدَهُ لَهُم بِالْمَعْرُوفِ

(١) ديوانه ١٣٢، وفيه: «سبيان» ،

(٢) المهرق: الصحيفة

رزق المحبة منهم ، وإذا أنصف الضعيف من القوى قَوَى الله سلطانه وإذا عدل مدّ في عمره : « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « آفة الدين ولالة السوء ، وأيما والٍ وَلِيَ شيئاً من أمور المسلمين فلم ينصح لهم ، ولم يجتهد كنصيحته وجهده لنفسه ، كتبّه الله تعالى على وجهه يوم القيامة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولكن من أخذ من هذه وهذه »

الديان : المجازى وهو الله سبحانه وتعالى ، لأنه يجزى العباد على أعمالهم .
وقال الألبيري :

كل امرئٍ فيما يدين يدانُ سبحان من لم يخل منه مكانُ^(١)
باعمر الدنيا ليسلكنها وما هي بالتي يبقى بها سكانُ
تفنى وتبقى الأرض بعدك مثل ما يبقى المناخ وترحلُ الركبانُ
أأسر في الدنيا بكلّ زيادة وزيادتي فيها هي النقصانُ

تهمل تترك هملًا . وجَم : سكت غاضبًا وامتنع وانمتنع : تغبر وذهب الدم من وجهه ، ويقال في معناها : امتنع وامتنع .

يتأفف : يقول : أف أف ، وذلك فعل النادم المهموم . الزفرة : النفخة من الهم .

* * *

ثم عمَدَ إلى الشاكي فأشكاهُ ، وإلى المشكّو منه فأشجّاهُ ،
والطفَ الواعظَ وحبّاه ، واستدعى منه أن ينشأه ، فانقلب عنه
المظلوم منصوراً ، والظالم مخصّوراً ، وبرز الواعظ يترادى بين

رُفِقَتْهُ، وَيَتَبَاهَى بِفَوْزِ صَفْقَتِهِ . واعتقبتُهُ أخطو متقاصراً ، وأريه لَمَحًا
باصِراً . فلمَّا استشفَّ ما أَخْفِيهِ ، وفِطْنٍ لَتَقْلَبَ طَرْفِي فِيهِ ، قال :
خَيْرُ دَلِيلِيكَ مَنْ أُرْشِدُ ، ثم اقترَب مِنِّي وأنشد :

أنا الذي تعرفُهُ يا حَارِثُ حَدِثْ مُلُوكَ فَكِهِ مُنَافِثُ
أُطْرِبُ مَا لَا تُطْرِبُ الْمُثَالِثُ طَوْرًا أَخُو جِدِّ ، وَطَوْرًا عَابِثُ
مَا غَيَّرْتَنِي بِمَعْدِكَ الْحَوَادِثُ وَلَا التَّحَى عَوْدِي خَطْبُ كَارِثُ
وَلَا فَرَى حَدِّي نَابُ فَارِثُ بَلْ مِخْلَبِي بِكُلِّ صَيْدِ صَنَابِثُ
وَكُلِّ سَرَحٍ فِيهِ ذَنْبِي عَائِثُ حَتَّى كَأَنِّي لِلْأَنَامِ وَارِثُ
* سَامَهُمْ وَحَامَهُمْ وَيَافِثُ *

* * *

أشكاه : أنصفه ورفع عنه شكواه ، وفي الحديث : شكونا إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم حرَّ الرضاء فلم يُشْكِنَا . أى لم يزل شكوانا ، أى شكوا إليه ما
يصيب أقدامهم من شدة الحر في صلاة الظهر ، وسألوه تأخيرها إلى الإبراد ، فلم
يجبهم إلى ذلك ، وأنشد يعقوب :

* ونشكى لو أنها تُشْكِنَا *

* * *

والمشكو إليه الوالى الذى اشتكى إليه . أشجاه : آذاه وأبكاه . أطف : برّه
وأكرمه . حباه : أعطاه الجباء . يفشاه : يزوره . محصوراً . محبوساً . يتهادى :
يمشى متثاقلاً مشى الوقار . يتعاضم . بفوز صفقته ، بظفر قصته مع الوالى ،
وفاز فوزاً : ظفر بخير دنياه وأخراه ، وأصل الصفقة فى البيع هو أن تضرب بيدك
على يد مبايعك . اعتقبته : مشيت خلفه ، كأنك تطأ بصدور قدميك مواطئ عقبيه :
أخطو متقاصراً ، أى أمشى مستخفياً متشبهاً بالقصار . لحابصراً ، أى نظراً شديداً .

استشف : استقصى . فطن : تنبّه وشعر . أرشد : دلّ ، يقول : إذا كان لك دليلان ،
فغيرهما من هذالك الطريق ، فلما رآه ينظر وتشكك فيه . قال : خير دليليك من
ذلك على . اقترب : قرب .

حدث ملوك ، أى يحدثهم بما يطربون . فكه : طيب الحديث ، والفكه
المزاح الحسن الخلق ، وفكه فكهها وفكاهة : طابت نفسه وكثر ضحكها ، قال الشاعر :
فكه إلى جنب الخوان إذا غدت نكباء تقطع ثابت الأطناب^(١)
أبو عبيدة : رجل فكه : يأكل الفاكهة ، وفاكه : عنده فاكهة .
وقال الشاعر أيضاً :

فكه العشي إذا تأوب رحله صيف الشتاء مسامح باليسر
أى يأكل الفاكهة وقرىء « فاكهين وفكهين » : قال الفراء رحمه الله تعالى :
معناها واحد أى معجبين بما آتاهم ربهم ، كطمع وطامع ، وفكه وتفكه إذا تعجب
ومنه : (فظلم تفكّهون^(٢)) ، وقيل : معناه تندمون .

قوله : منافث ، أى محادث . الثالث : من أوتار العود . طوراً : حيناً .
عابث : لالعاب . الحوادث : ما يحدثه الدهر من خير أو شر . التحى : قشر .
خطب كارث : أمر ثقيل صعب . فرى : قطع . نابى : ضرمى . فارث : مفتت
للكبد ، قال الشاعر :

هوى من صخرة صلد فقرث تحتها كبده
وفرت الكرش : أخرجت ما فيها من الزبل . ضابث : قابض عليه . السرح :
المواشى تغدو راعية فى السرح وتروح منه . عاث : مفسد آكل لها .

* * *

(١) اللسان - فكه ، من غير نسبة

(٢) سورة الواقعة ٦٥ .

[ذكر سام وحام ويافث]

وسام وحام ويافث ، أولاد نوح عليه الصلاة والسلام ، وفيهم نزلت : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ الْبَاقِينَ ﴾ ^(١) . وبذلك جاءت الأخبار ، وهم لأُمٍّ واحدة . وأصاب حام امرأته في السفينة . فدعا نوح عليه السلام أن يغيّر الله نطقته ، فجاءت بالسودان .

وذكر أهل التوراة أن نوحاً عليه السلام شرب وانتشى وتعرّى ، فأبصر حام عورته ، فاطلع عليه أخواه ، فأخذوا رداءه فألقياه على عواتقهما ، ومشيا على أعقابهما ، فوارياه ، فلم نوح عليه السلام بذلك ، فقال : ملعون كنعان بن حام ، عبد العبيد يكون لأخويه ، ومبارك سام ، ويكثر الله يافث ^(٢)

وفي تفسير النقاش أن نوحاً لما أهبط من السفينة ، نام فبدت عورته فنظر إليها حام فضحك ، ولم يغيّر عليه يافث ونظر ذلك سام ، فزجره وغطّى عورة أبيه ، فلما استيقظ أخبره ، فدعا نوح ابنه حاماً فقال : يا بنيّ غيّر الله ماء صلبك ، فلا تلد إلا السودان . وقال ليافث : جعل الله ذريتك عبيداً لأولاد سام ، وقال لسام : جعل الله منك الأنبياء والصالحين والملوك . فكان سام القيم بعد أبيه في الأرض ، ونزل وسطها ، نزل الحرم إلى اليمن إلى الشام . ومن ولده الأنبياء كلهم عربوها وعجميها . ومن ولده عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق ويعرب وجرم ، وهم العرب العاربة ، لأن العربية لسانهم التي جبلوا عليها ، ويقولون لبني إسماعيل العرب المتعربة ، لأنهم إنما تكلموا بها حين سكنوا بين أظهرهم ، ومن العماليق الجبابرة بالشام والفراعة بمصر .

سعيد بن المسيّب : سام ولده العرب وفارس والروم وفي كلّ خير ، وأما يافث فن ولده الصقالبة وبرجان والأسبان والترك والخزر وأجوج ومأجوج . ابن المسيّب : وليس في واحد من هؤلاء خير .

(١) سورة الصافات آية ٧٧ .

(٢) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

وأما حام فمن ولده السند والهند وأجناس السودان كلها مثل كوش والزنج
والزغاوة والحبشة والزطّ والقبط بن كنعان بن حام ، والخلاف كثير .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت له : تالله إنك لأبو زيد ،
ولقد قتلت لله ولا عمرو بن عبيد . فمشت هشاشة الكريم إذا أم ،
وقال : اسمع يا بن أم ؛ ثم أنشأ يقول :

عليك بالصّدق ولو أنه أحرقت الصّدق بنار الوعيد
وابغِ رضا الله ، فأعجب الوري من أسخط المولى وأرضى العبيد
ثم إنه ودّع أخذانه ، وانطلق يسحب أردانه . فطلبناه من بعد
بالري ، واستنشرنا خبره من مدارج الطيّ ؛ فما فينا من عرف قراره ،
ولا درى أي الجراد عاره .

* * *

[أخبار عمرو بن عبيد الزاهد]

قوله : «ولا عمرو بن عبيد» ، هو الزاهد الذي كان يسكن بالبصرة ويجالس
الحسن البصري ؛ حتى حفظ عنه شيئاً كثيراً من علومه ، واشتهر فضله بصحبته ،
وكان له سمت وإظهار زهد .

ورآه الحسن يوماً فقال : هذا سيد شباب أهل البصرة إن لم يحدث . ثم
اعتزله ونهى عنه ، فقال بال عزل ودعا إليه ، وترك مذهب أهل السنة ، واعتزل
الحسن البصري ، ونُسبت إليه المعتزلة .

فأما قيامه الذي ذكره فهو دخوله على المنصور في جماعة من أهل العلم ، فاستشارهم
في أمر ، فكلهم أشار عليه بمراة الإعرأ فإنه لم يصحّ بهم ونصحه ، فقال : يا أمير المؤمنين
(٣ - شرح مقامات الحريري ٣)

إنّ هذا الأمر لو كان باقياً لأحد قبلك لما وصلك ، ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إرم ذات العماد ، قال : فبكى المنصور حتى بلّ ثوبه ، فقال الربيع : يا عمرو ، غممتَ أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا - يعنى الربيع - صحبتك عشرين سنة ، ما نصحك يوماً واحداً ، وما عمل وزراؤك بشيء من كتاب الله تعالى . فقال له المنصور : فماذا أصنع ؟ هذا خاتمى فى يدك ، نخذه أنت وأصحابك ، فاكفونى . فقال عمرو : ادعنا بعد ذلك تسمح أنفسنا بعودك ، يبابك ألف مظلمة ، اردد منها واحدة حتى نعلم أنك صادق .

ويروى أنه قال له المنصور : أعننى بأصحابك ، فقال : ارفع علم الحقّ يذهبك أهله . ثم قال له المنصور : ما حاجتك يا أبا عثمان ؟ فقال له : تأمر برفع هذا الطيلسان عنى ، فرفع . وكان أمر المنصور أن يطرح عليه عند دخوله . فقال له : لا تدع إتياننا ، قال : نعم ، لا يضمنى وإياك بلد إلا أتيتك ، وإن بدت لى حاجة إليك سألتك ، ولكن لا تعطينى حتى أسألك ، ولا تدعنى حتى آتيتك ، قال : إذا لا تأتينا أبداً ، فلما ولّوا للخروج ، أتبعهم المنصور بصره ، ثم قال :

كلكم يمشى رؤيدٌ كلكم حابِلٌ صيدٌ

* غير عمرو بن عبّيد *

وكان جدّه باب من سبى فارس ، وكان أبوه عبّيد بن باب نَسَاجاً ، ثم تحول خصار للحجاج شرطياً بالبصرة . وكان فظاً غليظاً خسيساً ، وبلغه أن الناس إذا رأوا ابنه قالوا : هذا خير الناس ، ابن شرّ الناس ، فقال : صدقوا ، أنا كآزر وابنى كإبراهيم .

وقال إسحاق بن الفضل : بينما أنا واقف إلى جنب عُمارة بن حمزة بباب المنصور ، إذ طلع عمرو بن عبّيد على حمار ، فنزل ونحى البساط برجله ، وجلس دونه ، فقال لى عُمارة : لا تزال بصرتكم ترمينا بأحق ، فما فصل كلامه

من فيه حتى خرج الربيع ، وهو يقول : أين أبو عثمان عمرو بن عبيد ؟ فوالله ما دلّ على نفسه حتى أُرشد إليه . فأتكأه يده ، ثم قال : أجب أمير المؤمنين جعلني الله فداءك ! فمرّ متوكئاً عليه ، فقلت لعمارة الذي استحمته : قد دُعِيَ وتركنا ، فقال : كثيراً ما يكون مثل هذا ، فأطال اللَّبث ، ثم خرج الربيع ، وعمرو متوكئاً عليه ، وهو يقول : يا غلام ، حمار أبي عثمان . فما برح حتى أقرّه على سرجه وضّمّ إليه ثوبه ، واستودعه الله عز وجل . فأقبل عمارة على الربيع ، فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل فعلاً لو فعلتموه بولّى عهدكم لستم قد قضيت حقه . قال : فما غاب والله عنك مما فعله أمير المؤمنين أكثر وأعجب . قال : فإن اتّسع لك الحديث فحدثنا ، فقال : ما هو إلا أن سمع أمير المؤمنين بمكانه ، فما أمهل حتى أمر بمجلس فقرش لبودا ، ثم انتقل هو والمهديّ إليه ، وعلى المهديّ سواده وسيفه ، ثم أذن له . فلما دخل عليه سلّم بالخلافة ، فرد عليه ، وما زال يذنيه حتى أتكأه فحذّه وتحفّى ، ثم سأله عن نفسه وعن عياله ؛ يستمهم رجلاً رجلاً وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان عِظْنِي ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والفجر ﴾ وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل في ذلك قسم لذي حجر ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالرصاد ﴾ يا أبا جعفر ، فبكى المنصور رحمه الله تعالى بكاء شديداً ، وكأنه لم يسمع تلك الآية الشريفة إلا تلك الساعة ، فقال : زدني ، قال إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا بأسرها فاشتري نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد مَنْ كان قبلك ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك ، وإني أحذرك ليلة تتمخّص صبيحتها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشدّ من بكائه الأوّل حتى رجع جنباه ، فقال له سليمان بن مالك : رفقاً بأمير المؤمنين لقد أتعبته في هذا اليوم ، فقال له عمرو : بمثلك ضاع الأمر وانتشر ، لا أبالك ! وماذا خفت على أمير المؤمنين أن بكى

من خشية الله تعالى . قال : فأنت والله الصادق البرّ ، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على سفرك وزمانك ، فقال : لا حاجة لي بها ، قال : والله لتأخذنها ، قال : والله لا آخذها ، فقال له المهديّ : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فأقبل على المنصور فقال : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال : هذا ابني محمد ، وهو وليّ عهد المؤمنين ، فقال : والله لقد سمّيته اسماً ما استحقّه عمله ، وألبسته لبوساً ما هو من لبوس الأبرار ، ولقد ملّكته أمراً ، أمتّع ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم التفت إلى المهديّ وقال : يا بن أخي ، إذا حلف أبوك حلف عمك ، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثم قال : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم ، قال : ما هي ؟ قال : لا تبعث إليّ حتى آتيك ، قال : إذاً لا نلتقي . قال : عن حاجتي سألتني ، ثم استحفظه الله عز وجل وودّعه ، وانصرف . فلما وليّ أتبعه المنصور بصره وهو يقول :

* كلّمكم يمشى رُوَيْدٌ * الأبيات

وقال إسماعيل بن مسلمة أخو القعنيّ : رأيت الحسين بن أبي جعفر بعبدان في المنام ، فقال لي يعقوب ويونس بن أبي عبيد في الجنة ، فقلت : فعمرو بن عبيد ، فقال : في النار ، ثم رأيت في الليلة الثانية والثالثة كذلك ، فقلت له في الليلة الثالثة : فعمرو بن عبيد ؟ فقال : في النار ، كم أقول لك !

* * *

قوله : « هـش » أي فرح . أمّ : قُصِد . الوعيد : التهديد . أغبي الوري : أجهل الناس به ، قال المنصور : والله ما عزّ ذو باطل ، ولو طلع في جبينه القمر ، ولا ذلّ ذو حق ولو أصفق العالم عليه .

وفي معنى قوله : « وابغ رضا الله ... » البيت . أن ابن هبيرة شاور الحسن

البصريّ ، فقال : يا أبا سعيد ، ما تقول في كتب تأنيينا من عند يزيد بن عبد الملك ، فيها بعض ما فيها ، فإن أنفذتها خفت سخط الله ، وإن لم أنفذها خفت على دمي . فقال الحسن : يا بن هبيرة ، خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، فإن الله مانعك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله . يا بن هبيرة ، لا طاعة لخلق في معصية الخالق . فاعرض كتاب يزيد على كتاب الله سبحانه وتعالى ، فما وافقه فنّفذه ، وما خالفه فلا تنفذه . فقال : صدقتني ورب الكعبة .

وساور معاوية الأحنف في استخلاف يزيد ، فسكت ، فقال : مالك لا تقول ؟ فقال : إن صدقناك أسخطناك ، وإن كذبتناك أسخطنا الله عز وجل ، فسخطك أهون علينا من سخط الله تعالى . قال : صدقت .

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية : أما بعد ، فإنه من يلتمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن يلتمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس .

وكتبت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها : أما بعد فإنه من يعمل بسخط الله تعالى يصير حامدُهُ من الناس ذامًّا له . والسلام .

قوله : « أخذانه » أصحابه . ويسحب أردانه : يجر أذياله . استنشرنا : طلبنا أن ينشر لنا . والدرجة : الورقة تكتب فيها الرسالة ، ويدرج فيها الكتاب ، وأضافها إلى الطيّ لأنها تطوى على ما فيها من الكتاب ، فكأنه قال بما أدرج في الورق من الكتاب وطوى عليه ، يريد أنه أرسل فيه الرسائل إلى البلاد ، فلم يعرف له موضع قرّ فيه وثبت . عاره : ذهب به وأتلفه .

ويكنون بالجراد عن الناس ، فكأنه قال : ما يدرى أيّ الناس ذهب به . ويقال : عارت عينه ، صارت عوراء ، ووعرتها أنا : فقأتها ؛ فكأنه ذهب كما تذهب العين وهذا بضعف . والله أعلم بالصواب .

المقامة الثانية والعشرون وهى الفراتية

حكى الحارث بن همام قال : أُوِيْتُ فِي بَعْضِ الْفُرَاتِ ، إِلَى سِقْيِ الْفُرَاتِ ، فَلَقِيتُ بِهَا كُتَّابًا أَبْرَعَ مِنْ بَنِي الْفُرَاتِ ، وَأَعَذِبَ أَخْلَاقًا مِنَ الْمَاءِ الْفُرَاتِ . فَأُطِفْتُ بِهِمْ لَتَهْذُبِهِمْ ، لِأَلَذِّهِمْ ، وَكَاثَرَتُهُمْ لِأَدَبِهِمْ ، لِأَمْلَادِهِمْ . فَجَالَسْتُ مِنْهُمْ أَضْرَابَ قَقْقَاعِ بْنِ شَوْرٍ ، وَوَصَلْتُ بِهِمْ إِلَى الْكُورِ بَعْدَ الْكُورِ ؛ حَتَّى إِهْمُمْ أَشْرَكُونِي فِي الْمَرْبَعِ وَالْمَرْتَعِ ، وَأَحْلُونِي مَحَلَّ الْأَنْمَلَةِ مِنَ الْإِصْبَعِ . وَاتَّخَذُونِي ابْنَ أَنْسِهِمْ عِنْدَ الْوِلَايَةِ وَالْأَزْلِ ، وَخَازَنَ سِرِّي فِي الْجِدِّ وَالْهَزْلِ .

...

أُوِيْتُ ، أَيْ مِلْتُ وَانْضَمَمْتُ . الْفُرَاتُ : جَمْعُ فُتْرَةٍ ، وَهِيَ الْهَدَنَةُ وَالسَّكُونُ ؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ : مَشَيْتُ فِي بَعْضِ السَّنِينَ الْأَمْنَةِ . وَالْفُتْرَةُ أَيْضًا : ضَعْفُ الْأَعْضَاءِ ، وَالْفُتْرَةُ أَيْضًا مَا بَيْنَ نَبِيٍّ وَنَبِيٍّ .

* * *

[سِقْيِ الْفُرَاتِ]

وَسَقَى الْفُرَاتُ بِلَادَ يَسْقِيهَا الْفُرَاتُ ، وَالْفُرَاتُ نَهْرٌ يَشُقُّ بِلَادَ الرُّومِ وَبِلَادَ الْعِرَاقِ ، وَيَقَعُ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ ، وَجَرِيَانُهُ خَمْسُمِائَةِ فَرَسَخٍ .
وَقَالَ الرَّشَاطِيُّ : ابْتَدَأَ الْفُرَاتُ وَفُوتَهُ مِنْ قَالِقَلَا مِنْ بِلَادِ إِرْمِينِيَّةٍ ،

ثم يسير إلى منبج من كور قنسرين إلى مُميساط ، ثم إلى مَلطية ، ثم إلى كيسوم من أرض الرّقة ، ثم إلى الرّقة وقرقيسيا والرحبة وكور الفرات ، ثم إلى الأنبار ، ثم إلى الكوفة ، ويلتقي مع الدّجلة ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابها إلى البحر ، وجريانها من الشمال إلى الجنوب .

وقال شيخنا ابن جبير : هذا ^(١) النهر كاسمه فرات ، وهو من أعذب المياه وأخفّها ، وهو نهر كبير زخارٌ ، تصعد فيه السفن وتنحدر . وأما سقيه في أحواز بغداد فنبيين لك قدره . فذكر أنه عاينه في طريقه من الكوفة إلى بغداد ، وأنه رحل مع أمير الحاجّ من الكوفة يوم السبت .

قال : ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات ، ورحلنا من ذلك الموقع ، وبقنا ليلة الأحد سلخ محرم بقرية من الحلة ، ثم جنّاها يوم الأحد . وهي مدينة عتيقة الموضع ، مستطيلة متّصلة بالفرات من جانبها الشرقي ، وهي على شاطئها ، ويمتد بطولها . ولها أسواق خفيفة جامعة للزرافق ، قوية العمارة وديارها بين حدائق النخيل ، وألفينا بها جسراً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشطّ إلى الشطّ ، أمر الأمير ^(٢) بعقدها اهتماماً بالحاجّ ، فعبرناها ، ونزلنا على الفرات على فرسخ من البلد ، والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجهاها في بسائط وعماثر تتصل بها القرى يمينا وشمالا ، ويشق هذه البسائط أغصان من [١٠٠] ^(٣) الفرات تسقيها ، فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مزاد انبساط وانفساح .

ومن مدينة الحلة يتسلسل الحاجّ أرسالاً وأفواجا ، لا يعرج المتأخر على المتقدم ، فحيثما شاءوا نزلوا ، ومن جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد لا تكاد تمشي ميلا إلا ونجد قنطرة على نهر متفرع عن

(١) رحلة ابن جبير ١٩٢ وما بعدها يتصرف (٢) ابن جبير : « الخليفة » .

الفرات ، فلوزاحم ذلك البشر تلك القناطر دفعةً ، لتراكموا وقوعاً بعضاً على بعض .
فرحلنا من الحلة ضحوة يوم الاثنين أول يوم من صفر ، ونزلنا بعصره
بقرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخصب ، كبيرة المساحة ، متدفقة فيها جداول
الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، بها قنطرة
محدودة تصعد إليها وتنحدر عنها على فرع من فروع الفرات ، فُهرت
القرية بها .

ثم رحلنا عنها بسحر الثلاثاء ، ونزلنا ضحوة بالفراس ؛ قرية كثيرة العمارة
يشقها الماء وحولها بسيط أخضر جميل المنظر ، والقرى من الحلة إلى بغداد على
صفة الفرش في الحسن والاتساع .

ثم رحلنا منها ونزلنا عشى الزهراء بزريان^(١) ، وهي قرية من أجمل قرى
الأرض وأحسنها منظرًا ، وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطا ، وأكثرها بساتين
ورياحين وحدائق من نخيل ، ولها سوق تقصر عنه أسواق المدن . وحسبك من
شرفها أن دجلة تسقى شريقها والفرات يسقى غريبها ، وهي كالعروس بينهما .
ومن شرفها أن يازائها إيوان كسرى ، وهو بناء عالٍ في الهواء على
مقدار الميل منها وأمامها يسير مدائنه . واجتازنا سحراً على المدائن ، فعابنا من
طولها وآثاعها مرأى عجيبياً .

ونزلنا قافلين بصرصر ، وهي أخت زريان حسناً ، يمر بجانبها القبلي نهر
متفرع من الفرات وهي من القرى التي تملأ النفوس حسناً وجمالاً ، لها أسواق
حفيلة ، وجامع وجسر معقود على مراكب من الشط إلى الشط وهي من بغداد
على ثلاثة فراسخ ، ورحلنا منها قبل الظهر ؛ وجئنا بغداد قبل العصر ، على بساتين
وبساتين يقصر الوصف عنها ، فمن أراد أن يعرف قدر سقى الفرات فليقف على
هذا الفصل الذي ذكرناه .

(١) في الأصول : « زريدان » ، وصوابه من ابن جبير ومعجم البلدان

وقوله : « كتابا أبرع من بنى الفرات » ، أى أحذق وأزيد فضيلة .

[ذكر بنى الفرات]

والفرات رجل من عجل كان له أبناء مشاهير بالكتابة والحذاقة والبراعة ،
وتقلد الوزارة ، قال فى بعضهم صالح بن موسى رحمه الله :

آل الفرات ندامهم على الفرات يزيد
وأنت فضلك فيهم وعليك منه شهود

وقال ابن المعتز فى على بن محمد بن الفرات :

أبا حسنٍ ثبَّتْ فى الأمر وطائى وأدركتنى فى العضلات الهزاهز^(١)
وألبستنى درعا على حصينة فنادتى صرف الدهر: هل من مبارز!
وقال على بن بسام :

وقفت شهـ ورأى للوزير أعدها فلم تمنه نحوى الخوق السوالف
فلا هو يرعانى رعاية مثله ولا أنا أستحي الوقوف وآنف

وكان موسى بن الفرات عاملا لأحمد بن الحبيب وزير المقتدر بن المتوكل ،
واستوزر المقتدر أبا الحسن على بن محمد بن الفرات ثلاث مرات ، يعزله ثم يرده .
وقُتِلَ المقتدر وأبو الفتح الفضل بن جعفر^(٢) بن الفرات وزيره .

وتولّى بعض دواوين المقتدر أبو طالب بن جعفر بن الفرات والحسن بن
أبى الحسين بن الفرات . فكان محل آل الفرات ، الوزارة والكتابة والبراعة
والحذاقة .

وحكى أن بعض الأدباء جوّز بحضرة الوزر أبى الحسن بن الفرات أن

(١) ديوانه ١١٩٤

(٢) فى الفخرى ٢٤٣ : « أبو الفضل جعفر الفرات » .

السين تقام مقام الصادق في كل موضع فقال له الوزير: أنتقرأ: ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صّاح من آبائهم﴾ ، أو «ومن سلاح ؟» فنخجل الرجل وانقطع .

ومثل هذا البادرة أن النضر بن شميل مرض ، فدخل عليه قوم يهودونه ، فقال له رجل منهم : يكنى أباصالح : مسح الله مابك ، فقال له : لا تقل مسح بالسين ولكن بالصاد بمعنى أذهب ، وهو كلام العرب . فقال أبو صالح : إيا السين تبديل من الصاد كالصراط والسرّاط وصقر وسقر ، فقال له النضر : فأنت إذا أبو صالح ! فنخجل الرجل .

قوله : « أعذب من الماء الفرات » أى أحلى ، والماء الفرات : العذب الحلو . أظفت : أى ألمت ونزلت . تهذّبهم : اغارهم وتخلصهم من عيوب الجفاء . كآثرتهم : صاحبتهن فكثرت عددهن . مآدبهم : طعامهم . أضراب : أمثال .

* * *

[الققعاق بن شور]

الققعاق بن شور ، قال الميرّد : هو رجل سيد من عبد الله بن دارم ، وكان إذا جالسه جالس فعرّفه بالقصد إليه جعل له نصيباً في ماله ، وأعاناه على عدوّه ، وشفع له في حاجته ، وغدا إليه بعد المجالسة شاكرًا له ؛ حتى شهّر بذلك .

قال الفنجديهيّ : هو الققعاق بن شور بن عمرو بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل الشيباني ، وهو من الأجواد والأسخياء ، يضرب به المثل في حسن المجالسة والمعاشرة وإتيان الجالس بالشيء النفيس . قال أبو عبيد : وكان من جاساء معاوية ، فأهدى إلى معاوية هدايا يوم المهرجان فيها جامات ذهب وفضة ، فدفعها إلى جلسائه ودفع إلى الققعاق جام ذهب ، وفي القوم أعرابي إلى جنب الققعاق ، فدفع إليه لجام فأخذه الأعرابي ونهض ينشد :

وكنـت جـليـس قـعقـاع بـن شـورٍ ولا يشـقـى بـقـعقـاع جـليـس^(١)
ضـحـوكـ السن إن نـطـقـوا بـخـيرٍ وعـند الشـرِّ مـطـراق عـبـوسٍ

[أشعار في وصف الجليس]

ومـا يـسـتـحـسن في البر بالجليس قول صاعد اللغوى :

لى من سرّ بنى العباس خـلّ وجـليـسُ
شـهـد المـجـد عـلـيـه أنه العـلـقُ النـفـيـسُ
فإذا جالسته لم تدر مَن مـنـا الجـليـس
وقال كشاجم :

جليس لى أخوثة^(٢) كأنّ حديثه خبره
يسرك حسن ظاهره وتحمده منه مختبره
ويستر عيبَ صاحبه ويستر أنه ستره
وقال آخر :

جليس لى له أدب رعاية مثله تجبُ
لو انتقدت خلائقه تهرج عندها الذهب
وقال آخر :

لى صديق غلطت بل لى مولى^(٣) مَن لمثلى بأن يكون صديق
نتلاقى النقاء رويح بروح بضروب التقبيل والتعنيق
ليس فى الأرض من يميز منا عاشقاً فى اللقاء من معشوقٍ
أين ما وصف به القعقاع من قول والبة المشهور :

قلت لندمانى على خلوة أدن كذا رأسك من راسي^(٤)

(١) الكامل للبـرد ١ : ١٧٧ ، ثمار القلوب ١٢٨

(٢) ديوانه ٧١

(٣) مختار الأغاني ٨ : ٣١٠

ونم على وجهك لى ساعة إنى امرؤ أنكح جُلّاسيا
 والبة بن الحباب شيخ الحسن بن هانى أدبه صغيراً، فتخلّق بخلقه. وقال الحسن:
 وجليس كانّ فى وجنتيه كلُّ شىء تسمو إليه النفوس^(١)
 قد أصبنا منه فتستغفر الله كثيراً وقد يصاب الجليسُ

[الحور والكور]

قوله : الكور والحور ، أى الزيادة والنقصان، وكلام العرب : نعوذ بالله
 من الحور بعد الكور ، أى من انقصان بعد الزيادة ، فقلب اللفظ على مراده،
 وهو من كور العمامة ، وهو استعارة من نقض الأمر ، كنقض العمامة بعد
 كورها وهو شدّها ، وكار عمامته : شدّها على رأسه وجمعها وحاربه فنقضها
 وأفسدها .

وأمر الحجاج رجلاً على جيش، ثم بعثه مرة أخرى تحت لواء أمير آخر، فقال:
 هذا الحور بعد الكور، فقال له الحجاج : وما الحور بعد الكور؟ قال : النقصان
 بعد الزيادة، فعلى هذا أكثر أهل اللغة .

وقيل معناها : نعوذ بالله من الخروج عن الجماعة بعد كوننا فى الكور، وهو
 الاجتماع ، من كار عمامته جمعها فى رأسه . وحارها : أفسدها .

ويروى : « بعد الكون » ، من قولهم : حار بعد ما كان، أى كان على حالة
 جميلة فرجع عنها . وقيل : معناه نعوذ بك من خروجنا عن الجماعة بعد الكون
 على الاستقامة ، فحذف العلم به .

* * *

فى المرتع والمربع ، يعنى المأكل والمنزل، والمرتع الاتساع فى الأكل الكثير
 والشرب ، والمربع : المنزل فى الربيع ، من ربت فى الموضع أقمت فيه . الأئمة .

(١) ديوان أبى نواس ١٩٦ وفيه : « كل حسن » .

طرف الأصبع أى عظموه ورفعوه فوق رؤوسهم .
ابن أنسهم ، أى الذى يأنسون به . عند الولاية والعزل ، أى زمن العمل
والعطل . خازن : كاتم وحابس .

* * *

فَاتَّفَقَ أَنْ نُدْبُوا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ، لَاسْتِقْرَاءِ مَزَارِعِ
الرُّزْدَاقَاتِ ، فَاخْتَارُوا مِنَ الْجَوَارِي الْمُنَشَّاتِ ، جَارِيَةً حَالِكَةَ الشَّيَاتِ ،
تَحْسِبُهَا جَارِيَةً وَهِيَ تَمُرُّ السَّحَابَ ، وَتَنْسَابُ فِي الْحَبَابِ كَالْحُبَابِ .
ثُمَّ دَعَوْنِي إِلَى الْمِرَافِقَةِ ، فَلَبَّيْتُ بِلِسَانِ الْمَوَافِقَةِ .

* * *

نُدْبُوا ، أى دعوا . استقراء ، أى تتبّع . الرزداقات : العمالات والأنظار ،
وأراد أنهم خرجوا عمالا على الزرع ، وكل موضع أوقرية انفصل عن المدينة
بعمله فهو رزداق ورستاق ومخلاف وكورة ، فالرزداق بخراسان وهو فارسيّ
عربيّ ، والمخلاف لليمن ، والكورة لغيرهما من الأرضين .

الجوارى : السفن . المنشآت : المصنوعات . حالكة الشيات : مسودة
اللون ، والشية فى الفرس لون يخالف لونه كالقرّة والتحجيل وغير ذلك ، فأراد أن
موضع البياض فى غير السفينة هو منها أسود فهى كلها سوداء جامدة : ساكنة .

[فى وصف السفن]

وركب السّلامىّ دجلة فى زورق ، ولم يكن رأى دجلة قبل ذلك فقال :

وميدانٍ تجول به خيولٌ تقود لدرّاعين ولا تقاد^(١)

ركبت به إلى الذات طِرفاً له جسمٌ وليس له فؤادُ
جرى فحسبت أن الأرض وجهٌ ودجلة ناظر وهو السَّوادُ

وقال القاضي التنوخي يصف دجلة في الظلام : والقمر يلمع عليها ، وينتظم
في سلك أبيات السَّلامى رحمه الله تعالى :

أحسِن بدجله والدَّجى متصوَّبُ والبدر في أفق السماء مغرَّبُ^(١)
فكأنها فيه بساطٌ أزرقُ وكأنه فيها طراز مُذهَّبُ

وقال منصور بن كيفلغ :

كم ليلةٍ سامرتُ فيها بدرها من فوق دجلة قبل أن يتغيَّبا^(٢)
رالبدر يحنح للأفول^(٣) كأنه قد سلَّ فوق الماء سيفاً مذهباً

وتسميته للسفينة جارية ، لجريانها على الماء ، قال تعالى في السفن العظام :
﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾^(٤) .

ولبعضهم :

يا من تأهَّبَ مزماً لِرَواحٍ متيمماً بغدادَ غير ملاح
في بطن جاريةٍ كفتك بسيرها رَقْلان كل شناعة وشناح
فكأنها والماء ينطح صدرها والخيزرانة في يد الملاح
جَوْنٌ من العتبان يبتدر الدَّجى يهوى بصوت واصطفاق جناح

الشَّناح : الجمل التام الخلق .

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأصطول :

(١) يتيمة الدهر ١ : ٧٥

(٢) يتيمة الدهر ١ : ٧٥

(٣) في اليتيمة : « الغروب » .

(٤) سورة الشورى ٣٢

يا حسنَهَا يوماً شهدتُ زِفَافَهَا بفت الفضاء إلى الخليج الأزرقِ^(١)
 من كلِّ لابسَةِ الشبابِ مُلَاءَةً حسب اقتدار الصَّانعِ المتأنِّقِ
 ومجاذفٍ تحكى أرقامَ ربوَةٍ نزلت لتكرع في غدير مُتَأَقِ
 والماء في شَكْلِ الهواءِ فلا تَرَى في شَكْلِهَا إلَّا جوارحَ تلتقي
 ولا بن حريق :

وكأنما سكن الأرقامُ جوفها من عهد نوح صاحب الطوفانِ^(٢)
 فإذا رأين الماء يطفح نضنضتُ من كلِّ خرقٍ حَيَّةً بلسانِ

* * *

قوله : ينساب ، أى تمشى بسلاسة . الحجاب : طرائق الماء . والحجاب ،
 بالضم : الحية . وتشبيهه المشى السهل بحجاب الماء أفشى وأعرف من تشبيهه بمشى
 الحية ، وتشبيهه بمشى الحية قد استعمل ، وهو متمكن فى المعنى ، وبه وقع التشبيه
 هنا فى المقامة ، وقال امرؤ القيس فى تشبيهه بحجاب الماء :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حالِ^(٣)
 وقال ابن الرومى :

فصفت ذلك من قولى إلى قمرٍ يلهو بمكثلٍ طوراً ومُخْتَضِبِ
 جرت تدافع من وشئٍ لها حسن تدافع الماء فى وشئٍ من الحَبَبِ
 وقال عمر بن أبى ربيعة فى مشى الحية :

فلما قدت الصوت منهم وأطفئتُ مصابيحُ سُبَّتْ بالعشاء وأنورُ^(٤)
 وغاب قُمْيرٌ كنت أرجو غيوبه وروّح رُعْيَانٌ وهو مُمَرُّ
 وخُفِّضَ عَنِ الصوتِ أقبِلت مشية الـ حُبابِ وركنى خيفة القومِ أزورُ

(١) قح الطيب ٤ : ٦٠

(٢) قح الطيب ٤ : ٥٧ ، وفيه : « خشبة الطوفان » .

(٣) ديوانه ٦٦

(٤) ديوانه ٢١

ثبت في الكتب الصحاح ضم الحاء وقول الإعرابي :

من المتصدّيات لغير سوء تسيل إذا مشت سَيْلَ الحُبابِ
يروى بالفتح والضم . وابن الإفليلي يأتي إلا الضم .

وقال أبو القاسم بن هانيّ جُمع بين التشبيهِين :

قامت تَمِيسُ كما تدافع جَدُولُ وانسابُ أَيْمُ في تَقَا يَتَمِيلُ^(١)
وانت تَرْجَى رَدْفُها بقوامِها فتأطرّ الأعلى وماج الأسفلُ
وقال آخر ورفع الاحتمال :

لما دنا الليل بأرواقه ولاحت الجوزاء والمِرْزَمُ
أقبلت والوطء خفيف كما ينساب في مكنه الأرقمُ
وما أحسن قول ابن شهيد في معناه^(٢) :

ولما تمكّن^(٣) من سُكْرِهِ ونام ونامت عيون العَسَسِ
دنوتُ إليه على رِقْبَةٍ دنوّ محبٍّ دَرَى ما التمسُ
أدبٌ إليه ديب الكرى وأسمو إليه سمو النَفَسِ
أقبل منه بياض الثّلى وأرشف منه اللَّمَى واللَّعَسِ

* * *

فالما تورّكنا على المطيّة الدهماء ، وتبطنّا الوليّة الماشية
على الماء ، أَلْفَيْنَا بها شيخاً عليه سَحَقُ سِرْبَال ، وسِبُّ بال ،
فعافت الجماعة محضره ، وعَنَفَتْ مَنْ أَحْضَره ، وَهَمَّتْ بإبرازِه

(١) ديوانه ١١٠

(٢) ديوانه ١٢٠ ، فتح الطيب ٣ : ١٩٠ ، الذخيرة قسم ١ مجلد ١ : ٢٤٥

(٣) الذخيرة والنفع .

من السفينة ، لولا ما ثاب إليها من السكينة ؛ فلما لمَح مِنَّا
استنقال ظلِّه ، واستبرادَ ظلِّه ، تعرَّضَ للمنافثة فصُمَّت ، وحمدَل
بعد أن عطِسَ فما شُمَّت .

* * *

قوله : المطية الدماء ، هي السفينة السوداء . وتورَّ كناها : قعدنا عليها
متكئين . وتبطنا : دخلنا بطنها . الولية : المطية . وأوهم اتول الناس : فلان وليّ
يمشى على الماء ، فلما كانت مطية لخدامها ماشية على الماء سماها وليّة . ألفينا :
وجدنا . سحق مر بال ، أى قيص خلق . والسبب : الخمار . فيريد أن عليه منزرا
أو خماراً بالياً ، والمئزر كالخمار للمرأة . عافت : كرهت . عنت : لامت وأغلظت
له القول ، والعنف ضدّ الرفق . ثاب : رجع .

قال القراء رحمه الله تعالى : معنى السكينة الطمأنينة .

أبو عبيدة : هي فعيلة من السكون . وتشبه حالة أبى زيد هنا في إهاتته أولاً
وإكرامه آخرأ حالة معبّد في دخول السفينة ، وقد تقدّمت في الثامنة عشرة .
لمح : رأى . والظلّ ، يوصف بالثقل مبالغة في ثقل صاحبه ، يقال للمستنقل :
ظلك علىّ ثقیل ، أى أخف ما يمكن أن يوجد منك الظلّ السريع الانتقال يثقل
علينا ، فيصوّر شخصك أى منزلته من الثقل ، وإنما يتصور ثقل الظل حقيقة إذا
أخذ عليك إنسان عين الشمس في زمن البرد أو ضوءها وأنت تنظر ما يدنى .

[ذكر الثقل]

ومما قيل في ثقیل :

أنت يا هذا ثقیلٌ وثقیلٌ وثقیلٌ

أنت في المنظر إنسا نٌ وفي الخبر فيلٌ

(٤ - شرح مقامات الحريري - ٢)

لو تعرضت لظلمٍ فسَدَ الظلمُ الظليلُ

وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيلٌ يُنشد :

فما القيل تحمله مَيِّتًا بأثقلَ من بعض جلاسيًا

وذكر ثقيلا كان يجلس إلى جانبه ، فقال : والله إني لأبغض شقي الذي يليه مني .

وكان حماد بن سلمة إذا أرى مَنْ يستثقله قرأ : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ (١) .

عائشة رضی الله عنها : نزلت آية في الثقلاء : ﴿ فإذا طمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ﴾ (٢) .

الشعبي : من فاتته ركعتا الفجر فليعلن الثقلاء .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا رأى ثقيلا قال : اللهم اغفر له وأرحنا منه .

قيل لجالينوس : لم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل ؟ قال : لأن ثقله على القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه . وقال طيب للحجاج : إياك ومجالسة الثقلاء ، فإنما نجد في الطب أن مجالستهم تسمى الروح .

وقال حكيم لآخر : لا تصحب ثقيلا ، فمن يصحبه فإنما يعدّ بروحه .

وقيل : سخنة العين النظر إلى الثقلاء .

وكان بعضهم إذا رأى ثقيلا غشي عليه . وكان آخر إذا رأى ثقيلا غمض عينيه .

وكان بعض الظرفاء إذا رأى ثقيلا قال : قد جاءكم الجبل ، فإن جلس عندهم قال : قد وقع عليكم .

وسمع الأعمش كلام ثقیل فقال : مَنْ هذا الذى يتكلم وقابى يتألم .
قال رجل لخالد بن صفوان : أتستثقل فلانا ؟ قال : أَوْه كدت والله أن
تصدع قابى بذكره ، والله هو أثقل من شراب الترنجيل بماء التين فى أيام
الحكاك بعقب النخمة وأوان الحمامة .

سلم ثقیل على بعض الظرفاء فقال : وعليك السلام شهراً .
قعد ثقیل عند ظريف ، فسئل عن ذلك ، فقال : كانت نفسى قد شمخت
على فأردت أن أهينها بذلك .

وقال رجل لغلام هاشمى : يا بغيض ، فشكاه إلى أبيه ، فقال : قد علمتُ أنك
بغيض ، فكرهت أن أقوله لك حتى يكون بفضك بإسنادك .

وسئل إنسان له ثلاث بنين ثقلاء : أىّ بنيك أثقل ؟ فقال : ليس بعد الكبير
أثقل من الصغير إلا الأوسط .

كان أبو العتاهية يقول لابنه محمد : أنت والله يا محمد ثقیل الظلّ ، مظلم
الهواء ، جامد النسيم ، بارد حامض منتن .

قال سهل بن هارون : مَنْ ثَقُلَ عليك نفسه ، وغمك سؤاله ، فأعِره أذنًا
صماء ، وعينًا عمياء .

وأنشدوا :

مشتعلٌ بالبغضِ لا تَنثنى إليه لحظًا مقلّة الرامقِ ^(١)
يظلّ في مجلسنا قاعدًا أثقل من واشٍ على عاشقٍ

وقال بعضهم :

يا مَنْ تبرّمت الدنيا بطلعتِهِ كما تبرّمت الأجفان بالسُّهْدِ ^(٢)
إنى لأذكره حينًا فأحسبُهُ من ثقله جالسًا منى على كِبْدِى

(١) زهر الإداب ٤٤٢ ، وورد البيت محرفًا فى الأصول والصواب : أثبت من زهر
الإداب . (٢) المحاسن والساوى ٢ : ٤٢٧

ولبعضهم :

نظر العين نحوه - علم الله - يمرضُ
فإذا ما أردتُمُ أن تروه فمضوا
لا تصبكم ملة واللمات تعرضُ

وقال بعضهم :

شخصك في مقلة النديم - أوحش من نحسة النجوم -
يا رجلا وجهه علينا أقل من منة اللثيم -
إني لأرجو بما أقامى منك خلاصى من الجحيم -

وقال بعضهم أيضاً :

ولى خلّتان على هامتي - جلوسهما مثل حدّ الوتد -
تقيلان لم يعرفا حِفّة - فهذا الصّدّاع وذاك الرمد -

والأشعار في الثقلاء كثيرة وفي كتب الآداب مشهورة ، فلنقتصر على هذه النبذة .

[ما جاء فى البارد]

قوله : استبراد طّله . الطّل : أضعف المطر ، وهو الرذاذ ، وأكثر نزوله ساكناً بغير ربح ، ولا برّد فى الغالب يكون معه ، فكأنّى هنا بالطّل عن كلامه القليل ، وإنه عندهم بارد الحديث ، وإن كان ما جاء منه ثقيل مؤذ .

وقد جاء فى ذلك :

ولو مازج النار فى حرّها - حديثك أطفأ منها اللهب -
وقال آخر فى شعر الصولى :

دارى دبلا خيش ولكنتى - عقدت من خيشى طاقين -

دارٌ متى ما اشتدّ بي حرّها أنشدت للصّوليّ يبتين
وكلامه :

ويوم كتنور الطهارة سجرته على أنه منه أحرّ وأوقدُ
ظلاتُ به عند المبرد جالساً فمازلت في أفساخه أتبردُ

لقد برد الخيار المغنى أبا العباس المبرد في يوم نالج بالجسر ، فقال له : أنت
المبرد وأنا برد الخيار ، واليوم كما ترى ؛ اعبر بنا لا يهلك الناس من الفالج بسببنا .

وقال كشاجم رحمه الله تعالى :

غناء مديح بأرض الحجاز يطيب وأما بجمص فلا
لبرد الغناء وبرد الهواء فإن جما خفت أن يقتلا

قوله : تعرّض ، أى تهبأ . المنافة : الكلام معهم . ضمت : سُكِّت .
ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موقع
حديث الرجل من القوم كموقه من قلوبهم » .

حمدل : قال الحمد لله . ماشمت : ما أدخل عليه السرور بقولهم : يرحمك الله تعالى .
ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دفع بها عنه سبعون داء أهونها الجذام » .

[ماجاء فى تشميت العاطس]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله ، والذي
يشمت : يرحمك الله ، وليقل هو : يهديكم الله . ويصالح بالكم » .

ومما يستظرف من حديث العطاس أن صوفيّا فى بلدنا كان حافظاً للشعر ،
فلا يعرض فى مجلسه معنى إلا وينشد عليه شعراً ، فاتفق أن عطس رجل بمحضره ،
فشتمّه الجاضرون ، فدعاهم ، فرأى الصوفى أن تشميته قطع إنشاده . بمالا يشاكله .

من النظم ، وإن لم يشمته كان تقصيراً في البر . فأصبح للطلبة رغباً أن ينظم له هذا المعنى ، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن محمد :

يا عا طساً يرحمك الله إنْ أعلنت بالحمد على عَطَسَتِكَ
ادع لنا ربك يغفر لنا وأخلص النية في دعوتِكَ
وقل له يا سيدي رغبتي حضور هذا الجمع في حضرَتِكَ
وأنت يارب النداء والندى بارك ربّ الناس في ليلتك
فإن يكن منك لنا دعوة فأنت محمود على عَوَدَتِكَ

وهذا الوزير الشريف إنما يصرف شعره في أوصاف الغزلان ، ومخاطبات الإخوان .

وكتب إلى يستهديني كتاب العقد :

أَيَا مَنْ غدا سلكا بجيد معارفه وَمَنْ لَفْظُهُ زهر أنيق لقاطفه
محبُّكَ أضحى عاطلَ الجيد فلتجدْ بعقد على لَبِّ—اته وسولِفَه

وتوَعَّك في بعض الأعياد فعاده من أعيان الطلبة جملة ، فلما هموا بالانصراف أنشدتم ارتجالاً :

لله درّ عصابة أجمادٍ شَرُفَ النداء بقصدهم والنّادى
لما أشاروا بالسلام وأرَبَعُوا أنشدتهم وصدقت في الإنشادِ
في العيد عديم وهو يوم عروبة يا فرحَتي بشالاة الأعيادِ

* * *

فأخردَ ينظرُ فيما آلت حاله إليه ، وينتظرُ نُصْرَةَ المبعيِّ عليه . وجلنا نحنُ في شُجُونٍ ، من جدِّ ومُجُونٍ ؛ إلى أن اعترضَ :
: كُرُّ الكتابتين وفضلهما ، وتبيان أفضليهما ، فقال قائل : إن كتبة

الإِنْشَاءُ أَنْبَلُ الْكُتَّابِ ؛ وَمَالَ مَاثِلٌ إِلَى تَفْضِيلِ الْحِسَابِ . وَاحْتَدَّ
 الْحِجَابُ ، وَامْتَدَّ اللَّجَاجُ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ لِلْجِدَالِ مَطْرَحٌ ، وَلَا لِلْمِرَاءِ
 مَسْرَحٌ ؛ قَالَ الشَّيْخُ : لَقَدْ أَكْثَرْتُمْ يَاقَوْمُ اللَّغَطِ ، وَأَثَرْتُمْ الصَّوَابَ
 وَالْغَلَطَ ، وَإِنَّ جَلِيَّةَ الْحُكْمِ عِنْدِي ، فَارْتَضُوا بِنَقْدِي ، وَلَا تَسْتَفْتُوا
 أَحَدًا بَعْدِي .

* * *

قوله : أخرد ، أى سكت ذلاً ، ويروى : خرد ، أى سكت حياء واستتر «
 تقول : أخردت وخردت من حرّ الشمس . أى استترت . وأقردت من لفظ القرد
 أو القراد ، وأخردت من لفظ الخريدة . ألت : رجعت . المبغى عليه ، أى المظلوم ،
 وأراد أن ينظر النصرة على أعدائه ، من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ ﴾
 جُلْنَا : تصرّفنا . شجون : ضروب من الكلام ، ومنه : الحديث شجون ،
 أى فنون ، ومشتبك بعضه ببعض . وفى الحديث : « الرحم شجنة من الله » ،
 معناه القرابة مشتبك بعضها ببعض ، كاشتباك المروق . اعترض : تصاب
 وظهر . الإنشاء : الكتابة . وكتبة الإنشاء هم كتبة بين يدي السلطان وهم
 المترسلون . أنبل : أعظم قدرا . والحساب : كتبة الزمام

احتدّ : اشتدّ والحجاج : الحاجة^(١) والحجاج : ركوب الرجل على الباطل ،
 مطروح : موضع يطرح فيه . المراء ، قد تقدّم . آثرتم : فضلم . جليّة : بيان .
 نقدي : تمييزي .

* * *

(١) ط : جمع جعة ، والوجه ما فى ا .

اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ،
 وقلم الكتّابة خاطب ، وقلم المحاسبية خاطب ، وأساطير البلاغة تُنسخ
 لتُدرس ، ودساتير الحسابات تُنسخ وتُدرس . والمنشئ جهينة
 الأخبار ، وحقيّة الأسرار ، ونجى العظماء ، وكبير الندماء ، وقلمه
 لسان الدولة ، وفارس الجولة ، ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة .
 وهو البشير والناذير ، والشفيع والسفير . به تستخلص
 الصياصي ، وتملك النواصي ، ويقتاد العاصي ، ويستدني القاصي ،
 وصاحبه برئ من التبعات ، آمن كئيد الشعاة ، مقرر بين
 الجماعات ، غير معرض لنظم الجماعات .

* * *

قوله : خاطب ، أى جامع للكلام . خاطب : جامع للخطب ، يريد أن
 المنشئ كالخطيب يختار من الكلام النفيس فيسرقه ، ولا يبالي كاتب الحساب
 بما كتب ، ويكون خاطب بمعنى جمع المال . أساطير : أحاديث ، وهى جمع
 أسطار ، وأسطار : جمع سطر . وقيل : الأساطير : جمع أسطورة وإسطارة .
 دساتير : أزمة . تدرس : تمحى أو تُترك حتى تتغير .

[أصل المثل : عند جهينة الخبير اليقين]

جهينة الأخبار ، أى العارف بها . واختلفوا فى المثل ، قال الأصمعى رحمه
 الله تعالى : جفينة بالجيم والفاء .

وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى : جفينة ، بجاء غير معجمة .
 وقال ابن الكلبي : جهينة بالجيم والماء ، وهو الصحيح .

وأصله أن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خرج يطلب فرصة فاجتمع
برجل من جُهينة يقال له الأخنس بن كعب، فنزلا في بعض منازلهما . وتعاقدا
ألا يلتيا أحداً إلا سلباه، وكلاهما فأنكر صاحبه، فلقيا رجلاً، فسلباه كلٌّ
مامنه فقال لهما: هل لكما أن تردّا على بعض ما أخذتما مني وأدلكما على
مغفم؟ فتالا: نعم، قال: هذا رجل لخمى قدم من بعض الملوك بمغفم كثير، وهو
خلفى في موضع كذا، فردّا عليه بعض ماله، وطلبا اللخمى، فوجداه نازلاً
في ظل شجرة وقدّاه طعامه وشرابه، فحياه وحياهما، وعرض عليهما الطعام،
فنزلا وأكلا، وشربا مع اللخمى. ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه، فلما رجع
أبصر سيف صاحبه مسلولاً، واللخمى يتشجّط في دمه، فسلّ سيفه، وقال:
ويحك! قتلت رجلاً قد تحرّمتنا بطعامه وشرابه! فقال: أقعد يا أخا جهينة، فهذا
وشمه خرجنا. ثم إن الجهمى شغل صاحبه بشيء، ثم وثب عليه فقتله، وأخذ
متاعه ومتاع اللخمى. ثم أنصرف إلى قومه راجعاً بماله، وكانت لحصين أخت
تسمى صخرة، فكانت تبكيه في المواسم وتسال عنه فلا تجد من يخبرها بخبره،
فقال الأخنس حين أبصرها:

وكم من فارس لا تزدريه إذا شخّصت لرؤيته العيون^(١)
علوت بياض مفرقه بعبّ
يذلّ له العزيز وكلّ ليث
من العقبان مسكنه العرين
فأضحت عرسه ولها عليه
بُعَيْدٌ هدوء رقدها أنين
كصخرة إذ تسائل في مراح
وفي^(٢) جرم وعلهما ظنون
تسائل عن حصين كلّ ركب
وعند جُهينة الخبر اليقين
فمن يك سائلاً عنه فعندى
لسائله الحديث المستبين
مراح وجرم: قبيلتان .

(١) قبله في الميداني ٢ : ٤

وكم من ضيفم وردّه هم-وس

(٢) الميداني : ٥ وأما

أنى شبلين مسكنه العرين

حقيقة : وعاء . نجى : متكلم . النُدماء : الجلساء على الخمر ، يريد أن أصحابه أعيان وأشرف . النذير : الخوف . السفير : الرسول بين القوم . تستخلص : تملك وتحصل . الصيّاصى : الحصون . النواصى : الرؤوس ، وأصل الناضية شعر مقدّم الرأس . القاصى : البعيد . التبعات : المطالبات . السعاة : جمع ساعٍ ، وهو جاني الصدقة . مقرّظ : ممدوح . نظم الجماعات : تجميعا الحساب ، والجماع : الأخطا وضروب من الناس ، والجماع : كل شيء انض بعضه إلى بعض وتجمع : أراد أن كاتب التراسيل قدأمن من مكر عمال الزكوار الذين يسرقون مال الرعية والسلطان ولا يعرض لأن يؤلف ما افترق من الخراج حتى يصير جماعات .

فَلَمَّا انْتَهَى فِي الْفَصْلِ ، إِلَى هَذَا الْفَصْلِ ، لَحَظَ مِنْ لَمَحَاتِ الْقَوْمِ أَنَّهُ أزدَرَ حُبًّا وَبُغْضًا ، وَأَرْضَى بَعْضًا وَأَحْفَظَ بَعْضًا . فَعَقَّبَ كَلَامَهُ بِأَن قَالَ : إِلَّا أَنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةَ الْإِنشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ، وَقَلَّمَ الْحَاسِبِ ضَابطَ ، وَقَلَّمَ الْمُنْشِئَ خَابطَ . وَبَيْنَ إِتَاوَةِ تَوْظِيفِ الْمَعَامِلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ طَوَامِيرِ السَّجَلَّاتِ ، بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ التَّيَّاسُ ، إِذِ الْإِتَاوَةُ تَمْلَأُ الْأَكْيَاسَ ، وَالتَّلَاوَةُ تَفَرِّغُ الرَّاسَ ، وَخَرَايُجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاظِرَ ، وَاسْتَخْرَاجُ الْمَدَارِجِ يُغْنِي النَّاظِرَ .

الفصل ، أى القضاء والحكم ، وأراد أنه فصل فى القضاء بين الصنفين من الكتاب . إلى هذا الفصل ، أى إلى هذا الحد . والفرق ، فالأول من فصل الحاكم بين الخصمين فصلا : قضى ، والثانى من فصلت بين الشئين فصلا وفصولا : فرقت ، يريد أنه فصل بين الكلام المتقدم والكلام المستأنف ، وأراد أنه ازدرع فى

قلوب كَتَبَ الإنشاء حَبَّه لمدحه لهم ، وفي قلوب كتبة الحساب بغضه لِمَا قَصَرَ بهم ، فأخذ يستأنف مدحهم .

أحفظ : أغضب . عَقِب : أَتَمَعَ ، وأراد بالتحقيق أن صنعة الحساب برهانية محققة . والتلفيق : ضمّ شيء لطيف إلى مثله ، ولققت الشيء تلفيقاً ضمنت بعض أجزائه إلى بعض . ضابط : محتق ، والضبط الأخذ بشدة ، ورجل ضابط للشيء ، إذا قوَّى عليه فلم يُفَلِّت منه . خابط : مقرر ، وخبط : مشى على غير هداية . الإتاوة : الخراج والجباية إلى بيت المال . توظيف : تقسيط . ووظف على الناس الغرم : قسّطه عليهم ، والوظيفة : نصيبك الذي تفرمه . المعاملات : أنواع من علم الحساب ، وأصلها مصدر عاملت الرجل معاملة إذا وافقته على بيع أو كراء أو إجازة أو غير ذلك مما يتعامل به الناس بعضهم مع بعض . تلاوة : قراءة . طوامير السجلات : بطائق الترسيل ، والطّومار : الكتاب . بون : بعد . يعتوره : يتداوله ويقصده . التباس : شك . الأكياس : أوعية الدراهم . والإتاوة : رشوة العمال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : هدايا العمال رشوة . تفرغ الرأس : تهوَّسه بكثرة الدروس والسر . الأوارج : أُرْمَة الخراج . وقيل : صِنْف من الخراج . الناظر : العامل فيها ، وأورجها ، إذا تولى عملها والقيام بها . المدرج : الرسائل ، سميت بذلك لأنها تُدرَج ، أي تطوى على ما فيها ، واستخراجها : تتبع معانيها بجودة النظر ودرس ألفاظها . يعتى : يتعب . الناظر : سواد العين ، يريد أن كاتب الزمام في راحة وهو يملئ على أكياسه بالدراهم . وكاتب الرسالة متعوب قليل المال .

ثمَّ إنَّ الحِسْبَةَ حَفَظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَثْقَالِ ، وَالنَّقْلَةُ الْأَثْبَاتُ ، وَالسَّقَرَةُ الثَّقَّاتُ ، وَأَعْلَامُ الْإِنصَافِ وَالْإِنْتِصَافِ ، وَالشُّرُودُ الْعَقَانِيعُ فِي الْإِخْلَافِ ، وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوِفِيُّ الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ، وَقِسْطَاسُ الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعُمَالِ ،

وإليه المآبُ في السَّلم والهَرَج ، وعليه المدارُ في الدَّخْلِ والخَرْج ، وبه مناطُ الضرِّ والنَّفع ، وفي يده رِباطُ الإعطاء والمنع .

ولولا قلم الحِسَاب ، لأودت ثَمَرَةُ الاكِتِسَاب ، ولا تَصَلَ التَّغَابُنُ إلى يوم الحِسَابِ . وَلَسَكَانَ نِظَامُ المعاملاتِ مَحْلُولاً ، وَجُرْحُ الظُّلَامَاتِ مَطْلُولاً ، وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولاً ، وَسَيْفُ التَّظَالُمِ مَسْلُولاً . على أَنَّ يَرَاعَ الإنشاءَ مَتَقَوَّل ، ويراعَ الحِسَابَ مَتَأَوَّل . والمحاسبُ مُنَاقَش ، والمنشئُ أَبُو بَرَاقِش ، ولكليهما حُمَةٌ حِينَ يَرُقَى ، إلى أن يُيْلَقَ وَيُرُقَى ، وإِعْنَاتٌ فِيمَا يُنْشَأ ، حَتَّى يُنْفَشَى وَيُرْشَى ؛ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

* * *

النَّفَلَةُ : الأَثَبَات ، أى هم على يقين وثبات فيما ينتلون . السَّفَرَةُ . السَّكْبَةُ . الثَّقَات : الأَمْنَاء . أعلام الإنصاف ، يريد المشاهير بإنصاف السلطان من الناس والناس منه ، وتقول : أنصفت الرجل : أعطيته حقه ، وانتصفت منه : أخذت حَقَّ . والمقانع : الذين يُقْنَعُ بفعلهم ، أى يرضى . والإخلاف : جودة الزرع ، تقول : أخلف الزرع ؛ إذا طاب ؛ وردَّ على أصحابه أضعاف ما أنفق عليه . المستوفى : رأس المشارب . قطب : أصل . وقُطِبَ القوم سيِّدهم الذى يدبر أمرهم ويدورون على رأيه ، بمنزلة قطب الرحى الذى تدور عليه . الديون : دار كتاب الخراج ، وهو فارسى معرَّب . قسطاس : ميزان ؛ يريد أنه ميزان العمل الذى يعتدل به . المهيمن : الشاهد . المآب : الرجوع . السَّلم والهَرَج : الصلح والحرب . المدار : المَعْوَل ، أى عليه أن يعول فى إدارة ما يدخل على السلطان من المال من رعيته ، وما يخرج عنه من لوازم الأجناد وغيرهم ، وفلان كثير الدخلى والخَرْج ،

إذا كُثِرَ ما يدخل عليه من الفوائد وما يخرج عنه من الإنفاق .

مناط : تعلّق . أودت : هلكت . نظام : خيط . مطولاً ، هدرأً أى باطلاً
لاحق فيه . التناصف : أخذ الحق وإعطاؤه ، واستعار له عنقاً ، وجعله مغلولاً ؛
أى محبوساً بغلّ . النظام : ضدّ التناصف . يراع : أقلام . متقول : منحول
ما يقوله . متأوّل : مدبّر ؛ يريد أنّ الملك يلقى للكاتب مقصده ، فيحسن
الكاتب الألفاظ ويرتب الفقر ، فيزيد في كتابته ألفاظاً على ما حدّ له بالضرورة ،
فتلك الزيادات ضرب من التقول وهو أن يقول على الرجل ما لم يقل ، وكاتب
الحساب لا يحتاج إلى تقول . مناقش : مباحث . أبو براقش ؛ أى يأتى بأنواع
مختلفة ، وأبو براقش : طائر فيه ألوان شتى ، مشتق من البرقشة ، وهى النقش
والرقم ، يقال : برقشت الثوب . وأنشد سيبويه وعزاه أبو عمرو بن العلاء
لبعض بنى أسد :

إن يبخلوا أو يحسنوا أو يعذروا لا يحفلوا

يعدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

كأبى براقش كل حين لونه يتحيلُ

وأبو براقش وأبو قلمون ، كنية للرجل الكثير التلون ، القليل الارتباط ،
وأصل أبى قلمون كنية لثياب إبريسم تنسج بمصر والروم ، تتلون للعيون ألواناً
شتى . وفى البديعية :

أنا أبو قلمون فى كل لون أكون

حُمة بالتخفيف : سمّ وشراً . يرقى : يصعد فى منزله ، ويرتفع فى أصابع الكتاب
حين يكتب به . يرقى : إشارة للرشوة لأنها تسكن شراً ، كما تسكن الرقية الوجع ،

إعنات : مشقة . يُنَشَى : يكتب . يُغَشَى : يُقَصَد ويدخل عليه .

[حائِك الكلام]

هذه المقامة بناها أبو محمد على حكاية حائِك الكلام المشهور، لأنهم حقروه أولاً في السفينة ثم عظموه آخرًا بعد الاختبار .

(١) ونذكر الحكاية وإن طالت لموافقتها للمقامة : حدث عمرو بن مسعدة (٢) أن المعتصم لما رجع من النهر ، وصار بناحية الرقة قال لى : ما زلت تسألنى فى الرخجى (٣) حتى وليته الأهواز، وقعد فى سرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً، ولم يوجه إلينا بدرهم واحدٍ ، اخرج إليه من ساعتك ، واحلف ألاّ تقيم ببغداد إلاّ يوماً واحداً ، فحلفت له، وقلت فى نفسى : أبعد الوزارة أصير مستحسناً لعامل خراج ! ولم أجد بداً من طاعته . فخرجت إلى بغداد، ففرش لى زورق، وغشى بالسُلخ (٤)، فلما صرت عند دير هزقل (٥) ، وإذا رجل يصيح : يا ملاح ، رجل منقطع ، قتل للملاح : قرب إلى الشطّ، قتال : هذا شحاذ ، وإن قعد معك ، آذاك فأمرت الغلمان فأدخلوه فى كوثل (٦) الزورق ، فلما حضر الغداء دعوته فأكل أكل جائع ، إلاّ أنه نظيف ، فلما رُفِع الطعام ، أردت أن يستعمل معى ما يستعمل العوام مع الخاصة ؛ أن يقوم فيغسل يده فى ناحية ، فلم يفعل ، فغمره الغلمان فلم يفعل ، فقلت : يا هذا ، ما صناعتك ؟ فقال : حائِك ، فقلت فى نفسى : هذه شرّة من الأولى ، ثم قال لى : جُعِلت فداك ! سألتنى عن صناعتى فأخبرتُك ، فما صناعتك ؟ فقلت : هذه والله أعظم ، فسكرهت ذكر الوزارة فقلت : كاتب .

(١) العقد ٤ : ١٧٥ .

(٢) كذا فى الأصول والمعروف أن عمر بن مسعدة توفى سنة ٢١٧ فى حياة المأمون .

(٣) الرخجى . منسوب إلى رنج ، من نواحى كابل ، وهو عمر بن فرج . كان من

أعيان الكتاب فى أيام المأمون . (٤) السُلخ الجلد .

(٥) دير هرقل : بين البصرة وعسكر مكرم (ياقوت) .

(٦) الكوثل . مؤخر السفينة أو سكانها .

فقال : الكاتب على خمسة أصناف : كاتب رسائل ويحتاج أن يعرف الفصل من الوصل ، والتهاني والتعازي والصدور وجمالاً من الإعراب . وكاتب خراج يحتاج إلى أن يعرف الزرع والمساحة والتقسيم والحساب . وكاتب جند ، يحتاج إلى أن يعرف شِيَاتِ الخيل وحُلَى الناس . وكاتب شرطة يحتاج إلى أن يَعْرِف الجراح والقصاص والديّات ، وكاتب قاضٍ يحتاج إلى أن يعرف الفقه والوثائق وما يتعلق بذلك ، فأيهم أنت أعزك الله تعالى ؟

قلت : كاتب رسائل ، قال : فأخبرني ؛ إن كان لك صديق تكتب له في المحبوب والمكروه^(٢) ، فتزوجت أمه ، كيف تكتب إليه ؟ تهنئه أو تعزیه ؟ قلت : والله لا أدري ، وهو بالتعزية أولى ، قال : صدقت ، فكيف تعزیه ؟ قلت : والله لا أدري ، وهو بالتعزية أولى ، قال : صدقت ، فكيف تعزیه ؟ قلت : والله لا أدري . قال : فلست بكاتب رسائل : فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب خراج ، قال : فما تقول وقد ولّك السلطان عملاً ، فجاء قوم يتظاهمون من بعض عمالك ، فأردت أن تُنصِفهم ، وكنت تحب العدل وتؤثر حسن الأحدثة ، وكان لأحدهم قراح^(١) فأردت مساحته ؟ قلت : أضرب العطوف في العمود . قال : إذن تظلم الرجل ، قلت : فأمسح العمود على حدة ، والعطوف على حدة ، قال : إذن تظلم الناس ، قلت : والله فما أدري ؟ قال : فلست بكاتب خراج ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب جند . فقال : فما تقول في رجلين اسم كل واحد منهما أحمد ، أحدهما مقطوع الشفة العليا ، والآخر مقطوع السفلى ، كيف تكتب عليهما ؟ قلت : أكتب أحمد الأعم وأحمد الأعم . قال : وكيف ورزق هذا مائة درهم ورزق الآخر ألف درهم ، فيقبض هذا على دعوة هذا ، فنظلم صاحب الألف ، قلت : والله ما أدري ! قال : فلست بكاتب جند ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب قاض .

قال : فما تقول في رجل توفّي وخلف زوجة ورّية ، وللزوجة بنت وللسرية^(٣)

(١) القراح : المزرعة ليس فيها بناء ولا شجر .

(٢) بعدها في المقد : « وجميع الأسباب » . (٣) السرية : الملوكة يسراها صاحبها .

ابن ، فتنازعنا فيه ، فقالت كل واحدة منهما هذا ابني وقالت واحدة هذا ابني ، كيف تحكم بينهما وأنت خليفة القاضي ! قلت : والله ما أدرى ؟ قال : فلست بكاتب قاض ، قال : فأيتهم أنت ؟ قلت : كاتب شرطة .

قال : فما تقول في رجل وثب على رجل ، فشجّه شجّة^(١) موضحة ، فوثب عليه المشجوج فشجّه شجّة مأمومة^(٢) ، قلت : لأعلم ، وقد سألت ففسّر لي ما ذكرت قال : أما الرجل الذي تزوّجت أمه ، فتكتب إليه : أما بعد فإن أحكام الله تعالى تجري بغير محابّ الخلقين ، والله يختار للمخلوق ، فخار الله لك في قبضها إليه ، فإن القبر أكرم لها ، والسلام .

قال : وأما القراح فتضرب واحداً في واحد في مساحة العظرف ، فتمّ بابه . قال : وأما المقطوع العليا فتكتب عليه أحمد الأعم ، رمال المقطوع السفلى أحمد الأشرم ، وأما المرأتان فيوزن لبيهما ، فأيتهما . أخفّ فهي صاحبة البنت . وفي الموضحة خمس من الإبل ، وفي المأمومة ثمانية وعشرون .

قلت : فما نزع بك إلى هنا ؟ قال : ابن عم لي كان عاملاً على ناحية فخرجت إليه فلقيته معزولاً ، فخرجت إلى بعض النواحي اضطرب في المعاش ، قلت : أليس قد ذكرت أنك حائك ! قال : أنا أحوك الكلام ، ولستُ بجائك الثياب . فلما بلغنا الأهواز أمرتُ الحجام فأحفي من شعره ، وأدخل الحمام ، فكسوته من ثيابي ، وكلمت الرخيّ في فيه في الأهواز فأعطاه خمسة آلاف درهم ، ورجع معي .

فقال لي المعتصم : ما كان من خبرك في طريقك ؟ فأخبرته خبري ، ثمّ خبر الرجل ، فقال : هذا لا يُستغنى عنه ، فلا شيء يصالح ؟ قلت : هو والله يا أمير المؤمنين أعلم الناس بالمساحة والهندسة ، فولّاه البناء ، فكنت ألقاه في الموكب النبيل فينزل عن دابّته فأمنعه ، فيقول : يا سبجان الله ! إنما هذه

(١) الموضحة من الشجاج : التي بلغت العظم .

(٢) المأمومة : الشجة التي بلغت أم الوأس .

نعمتك ، وبك أفدتها .

ومثل إيهامه هنا أنه حاثك إيهام أبي زيد في التاسعة أنه نظام .

* * *

قال الحارث بن همام : فلما أمتع الأسماع ، بما راق وراع ،
استنسبناه فاستتراب ، وأبى الانتساب ، ولو وجد منساباً لأنساب .
فصلت من لبسه على غمة ؛ حتى أدكرت بعد أمة . فقلت : والذي
سخر الفلك الدوار ، والفلك السيار ، إنى لأجد ريح أبي زيد ، وإن
كنت أعده ذارواً وأيد .

فتبسم ضاحكاً من قولي ، وقال : أنا هو على استحالة حالي
وحولي ؛ فقلت لأصحابي : هذا الذي لا يفري فريته ، ولا يباري
عبريته . فخطبوا منه الود ، ويدلوا له الوجد ؛ فرغب عن الألفة ،
ولم يرغب في التحفة ، وقال : أما بعد أن سحقتكم حق ، لأجل سحقي ،
وكسفتكم بالي ، لإخلاق سربالي ، فما أراكم إلا بالعين السخينة ،
ولا لكم مني إلا صعبة السفينة .

* * *

قوله : « أمتع الأسماع » أى متع الآذان ولذذاها ، ومنه يقال في الكتابة :
أبهاك الله وأمتع بك ، ومعناه : أطال الله عمره ، من الممتع وهو الطويل عند العرب ،
ومنه متع النهار ، أى علا ، وقال الأنصاري .

واهاً لأيام الصبا وزمانه لو كان أمتع بالمقام قليلاً !
وُنبلاء الكتاب يكتبون بها إلى الأتباع والأدنياء ، ولا يكتبون بها إلى
الأكفاء والأعلون .

* * *

[طرف وملح بين الأدباء والشعراء]

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر كتاباً في صدره :
وأمتع بك ، فكتب إليه ابن طاهر : ^(١)

أَحْلَتَ عما عهدت من أدبك أم نلت ما نكا قهيت في كتبك
أم قد ترى أن في ملاطفة الـ إخوان نقصاً عليك في أدبك
إن جفا كتاب ذي مقه يكون في صدره : وأمتع بك
أتعبت كفتيك في مخاطبتي حسبك مما أقيت من تعبك

فأجابه ابن الزيات :

كيف أخون الإخاء يا أملي وكل شيء أنال من سببك
إن يك جهل أنك من قبلي فعد بفضل علي من حسبك
أنكرت شيئاً ولست فاعله ولن تراه يُخطئ في كتبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل يعيش حتى الممات في أدبك

ومن ملح أجوبة ابن الزيات أن الحسن بن وهب مرض فلم يعده ، ولا
تعرف خبره ، فكتب إليه الحسن :

أي هذا الوزير أيديك الله وأبقاك لي زماناً طويلاً
أجيلاً تراه يا أكرم النا س لكما أراه أيضاً جميلاً
إنني قد أقت عسراً عليلاً ما ترى مرسل إلى رسولاً
إن يكن يوجب التعهد في الصحـ بة منا على منك طويلاً
فهو أولى ياسيد الناس برّاً وافتقاراً لمن يكون عليلاً

فأجابه ابن الزيات :

دفع الله عنك نائبة الدهر وحاشاك أن تكون عليلاً
أشهد الله ما علمت وماذا لك من العذر جائزاً مقبولاً
ولعمري أن لو علمت فلا رميتك خولاً لكان عندى قليلاً
فاجعلن لى وإلى التعاق بالعذر سبيلاً إن لم أجد لى سبيلاً
فقد يما ما جاد بالصفح والعفو وما سامح الخليل خليلاً

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له يعاتبه على ترك عيادته :

يا جافياً ترك السؤال بعبدك
اعتلّ عبدك من تشكى رأسه
نفسى فداؤك من ملولٍ قاطع
سئناً وأردفها يوم سابع
فحبست رسلك عن تعهد عاتى
وقطعت من سبب الوصال مطامعى
وعلمت منك تمادياً فى جفوتى
فرجعت فى عفوى كأحسن راجع

فأجابه الآخر :

لا والذى قسم الجلال بفضله
ما إن علمت بعلة لك سيدى
فحبأك منه بالضياء اللامع
إلا بخطك فى القريض البارع
وإذا أمتك رسالتى فقرأتها
فأقبل فديتك من مقرر خاضع

وكان^(١) الحسن بن وهب يتعشق غلاماً لأبى تمام رومياً، وكان أبو تمام يتعشق
غلاماً للحسن خزرياً، فرآه أبو تمام يعبث بغلامه، فقال : والله لئن أعنقت فى
الروم لأركضن إلى الخزر، وما أشبهك إلا بداود وأشبته^(٢) نفسى بخضمه، فقال
الحسن : لو كان هذا منظوماً خفناه، والمنثور عارض للاحقة له، فقال أبو تمام :

(١) الخبر والشعر فى كتاب أخبار أبى تمام للصولى ١٩٤ .

(٢) أخبار أبى تمام : « وأشبهنى » .

أبا علىّ لنصرف الدهر والغير وللحوادث والأيام والعبر
أذكرتني أمر داود وكنت فتى مصرف القلب في الأهواء والذكر
أعندك الشمس لم يحظ الغيب بها وأنت مضطرب الأحشاء بالقمر
إن أنت لم تترك السير الحثيث إلى جاذر الروم أعنتنا إلى الخزر

(١) وكان الحسن يكتب لابن الزيات ، فلما وقف على ما بينهما من أمر
الغلامين ، تقدّم إلى بعض ولده ، وكانوا يجلسون عند ابن وهب أن يعلموه ما يدور
بينهما ، فعزم غلام أبي تمام على الحجامة ، فكتب إلى الحسن يعلمه بذلك ، ويسأله
توجيه نبذ مطبوخ فوجه إليه مائة دنّ ومائة دينار وخامة وبخورا وكتب إليه :

ليت شعري يا أملح الناس عندي هل تداويت بالحجامة بعدي ! (٢)
دفع الله عنك لي كل سوء باكر رائح وإن خنت عهدي
قد كنت أهوى بمبلغ جهدي فبدا منه غير ما كنت أبتدي
وخلعت العذار فليعلم النسا من بآني إليك أصفي بودي
وليقولوا بما أحبوا إذا كند ت وصولا ولم ترعني بصد
من عذيري من مقلتيك ومن إذ راق وجهه (٣) من تحت حمرة حدّ

ووضع الرقعة تحت مصلاه ، وأعلم ابن الزيات خبرها ، فأرسل في الحين ،
وشغله بشيء ، ووجه من جاءه بها . فلما قرأها كتب فيها على لسان أبي تمام :

ليت شعري عن ليت شعرك هذا أبهزل تقوله أم بجِد
فلئن كنت في المقال محققا يابن وهب لقد تطرقت بعدي
وتشبهت بي وكنت أرى أتي أنا العاشق التيم وحدي
إن مولاي عبد غيري ولولا شؤم جدّي لكان مولاي عبدي

(١) فوات الوفیات ١ : ٢٦٨ ، وأخبار أبي تمام للصولي ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) الصولي : « نفر » .

ثم قال : ضموا الرقعة مكانها ، فلما قرأها الحسن قال : إنا لله إنا فوضحنا عند الوزير . وأعلم أبا تمام ، فتلقياه قتالا : إنا جعلنا هذين الغلامين سبيًا لتكاتبنا بالأشعار ، فقال لهما : ومن يظن بكما غير هذا ! فكان قوله عليهما أشد .

محمد بن إسحق : قلت لأبي تمام : غلامك أطوع للحسن من غلامه لك ، قال : إني أعطى غلامه قتيلا وقالا ، ويعطى غلامى ثيابا ومالا ، وقال أبو تمام في غلامه :

يا عمرو قل للقمر الطالع اتسع الخرق على الراقع
يا طول فكري فيك من حاملٍ لرقعة مفكوكة الطابع
ما أنت إلا رشا جوذرٌ حلّ بمغنى أسدٍ جائع

قوله : راق ، أى أعجب . راع : أفزع لأفراط حسنه . استنسبناه : سألناه عن نفسه ، وهذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا جاء الرجلُ الرجل ، فليسأله عن اسمه واسم أبيه ومن هو ، فإن ذلك أوصل للمودة » . استراب : دخلته الريبة . منسابا : موضعاً يدخل فيه . لبسه : تخليطه . وغمة القلب : ما يعطيه من الشك أو الهم ، فأراد أنه لبس عليه فلم يعرفه .

اذكرت ، أى ذكرت . أمة : حين . الفلك : مدار النجوم . والفلك السيار ، أى السفينة السريعة . والفلك لفظ يقع للواحد والجمع . أعزده : أعرفه . هرواء : فتوة وحسن هيئة . أيد : قوة . استحالة : تغير . الحول : القوة ، وأيضا الحيلة . ولو خاطبه ابن همام بشعر لكان للشريف الرضى فى جوابه للصائى ، وقد شكّا إليه الهرم والجلوس فى الحقة وامتناعه من التصرف ، فقال :

لئن رام قبضاً من بنائك حادثٌ لقد عاضنا منك انبساطِ جنان^(١)

وإن أقعدتكَ النَّائِبَاتِ فطالما مَرَى موقراً من مجدك الملوآنِ
وإن هدمتُ منك الخطوبَ بمرها فسمَّ لسان للمناقبِ بانِ
قوله : « لا يُفْرِى فَرِيَّةً » ، أى لا يقطع قَطْعُهُ ولا يعمل عمله ، قال الحوافزان :
وما ارتعشت كفى ولا طاشَ ضَرْبُهَا إذا طرَحُوا بالفارس التَّهْلَلُ
ولكنها إذ ذاك تَفْرِى فَرِيَّهَا وتقرع رأس الفارس المتقلِّلِ

مُبَارَى عبقرية : يجارى جنَّه ، ولفظ الحريرى كله منتزع من الحديث الصحيح
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت فيما يرى النائم كائى على بئر وأرى
جميع الناس ، فجاء أبو بكر فنزل ذنوباً أو ذنوبين . وفيه ضعف ، والله يغفر له .
ثم جاء عمر رضى الله عنه فاستحالت بيده غرباً ، فلم أر عبقرياً من الرجال يفرى
فريَّةً ، حتى ضرب الناس بأعطانهم » . يقال رجل عبقرى ، أى كامل قوى ،
والعبقرى أيضاً الحسن من كل شيء . الوجْد : المال . رَغِبَ عن الآفة ، أى
تباعده عن الصعبة . ولم يرغب فى التحفة ، أى لم يطعم فى العطية ، أى لم يقبل
عطيتهم ولا صحبتهم . سَحَقْتُمْ : تقضم وغيرتم . سحقي : ثوبى البالى .
وكسفتهم بالى : تنقصتم حالى وغيرتموها . سر بالى : قبضى . السخينة : الساخطة .
الحارة الدمع .

ثم أنشد :

استمع أخى وصية من ناصح
لا تعجلن بقضية مبتوتة
وقف القضية فيه حتى تجتلي
ويبين خلب برقه من صدقه
فهنالك إن تر ما يشين فواره
ما شاب محض النصح منه بنشه
فى مدح من لم تبله أو خدشه
وصفيه فى حالى رضاه وبطشه
للشائمين ، ووبله من طشه
كرماً وإن تر ما يزين فأفشه

وَمَنْ اسْتَحَقَّ الْإِرْتِقَاءَ فَرَّقَهُ
وَعَلِمَ أَنَّ التَّبَرَّ فِي عِرْقِ الثَّرَى
وَفَضِيلَةُ الدِّينَارِ يَظْهَرُ سِرُّهَا
وَمِنَ الْغَبَاوَةِ أَنْ تُعْظَمَ جَاهِلًا
أَوْ أَنْ تُهِنَّ مَهْذَبًا فِي نَفْسِهِ
وَالْأَخِي طَرِيقُ هَيْنَ لِفَضْلِهِ
وَإِذَا الْفَتَى لَمْ يَنْشِ عَارًا لَمْ تَكُنْ
مَا إِنْ يَضُرَّ الْعُضْبَ كَوْنُ قَرَابِهِ
وَمَنْ اسْتَحَطَّ مُخْطَئُهُ فِي حَشِّهِ
خَافَ إِلَى أَنْ يُسْتَأَرَّ بِنَبْشِهِ
مِنْ حَكِّهِ لَا مِنْ مَلَاخَةِ نَقْشِهِ
لِصَقَالِ مَلْبِسِهِ وَرَوْنَقِ رَقْشِهِ
لِدَوَسِ يَزْتِهِ وَرَثَةِ فُرْشِهِ
وَمَفُوفِ الْبُرْدَيْنِ عَيْبَ لَفْحَشِهِ
أَسْمَالُهُ إِلَّا مَرَاقِيَ عَرْشِهِ
خَلَقًا وَلَا الْبَاذِي حَقَارَةَ عُشِّهِ

* * *

شاب : أى خاط ، ومُخْضَه : خالصة . وغشه : عيبه وفساده .

وللزاهد بن عمران فى النصيحة :

اسمع أخى نصيحتى
لا تعرضن إلى الشها
تسلم من أن تُغزى لزو
والنصح من أصل الديانة
دة والوساطة والأمانة
ر أو فضول أو خيانة

وقال آخر فيمن لا يقبل النصيحة :

إذا ما هُديت امرأ مخطئنا
ولم تُلَفِه سامعًا قابلا
أضلَّ السبيلَ إلى قصده
فحسَّن له المشى فى ضده

وقوله : « لا تعجلان » ، وما بعده من قول الشاعر :

لا تمدحن امرأ حتى تجرَّبه ولا تدمنه من غير تجريب

ولا بن عمران أيضاً :

تحرّ سبيل القصد في الناس ولتكنْ على حذر منهم ولا تُسيْ الظنّاً
ولا تمدحَنَّ مَنْ لم تجرّب ولا تنقلْ على غير علم ذاك من ذاكمُ أسنى
فما كلَّ مَنْ يرضيك ظاهر حاله لدى الخبر محموداً وقد يُحمدُ الأذنى
القضية : الحكم . مبتوتة : مقطوعة . تبّله : تجربّه . خدشه : عيبه وإذايته ،
تجّلى : تنظر . بطشه : صولته عند الغضب ، يقول : لا تحمكم بشيء على أحدٍ
حتى تجربّه في الشدة والرخاء . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه :
إن فلانا لرجلٌ صدقٍ ، قال : أسافرت معه ؟ قال لا ، قال : فهل كانت بينك وبينه
خصومة ؟ قال : لا . قال : فهل ائتمنته على شيء ؟ قال لا . قال : فأنت الذى لا علم
لك به ، وإنما أراك رأيتّه يرفعُ رأسه ويخفّضه في المسجد . يبين : يظهر . حُلب
كاذب . الشائمين : الناظرين إلى البرق . وبله : مطره الكثير . طشه : مطره
القليل . يشين : يعيب . واره : استره . كرمًا ، أى تكرمًا منك عليه . أفشه :
حدّث به وانشره . الارتقاء : الترفع . رقه : ارفعه . استحطّ : انضع . حُشه :
كنيفه وهو المستراح . التبر : الذهب قبل السبك . يستنار : يستخرج . التّيش :
البحث عليه . الغباوة : الجهالة . رونق رقصه : حسن زينته . مهذبًا : مخلصًا .
دروس : إخالق . بزّته : لبّسته . رثّة : ضعف . طمرين : ثوبين خلقيين .
هيب : حيف . مزوف : مزين . لفحشه : لقبح كلامه . يغش عارًا : يدخله .
أسماله : ثيابه البالية . مراقى : سالام ومدارج . عرشه : سريرته ومنزلته . العضب :
السيف . قرابه : جفنه .

ومما ينتظم في هذا السلك أن النجّاد المدوّى دخل على معاوية في عبادة
فاحتقره ، فقال : يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك ، إنما يكلمك مَنْ فيها ،
ثم تكلم فملاً سمعه بيانًا ، ثم خرج ولم يسأله شيئًا ، فقال معاوية : ما رأيتُ رجلاً
أحقر أولاً ، ولا أجّل آخرًا منه .

وقال بعضهم :

إني وإن كنت أثوابي ملققةً ليست بخزّ ولا من نسج كتّانٍ
فإن في المجد همتّاي وفي لغتي فصاحةٌ ، ولساني غيرُ لحانٍ

وقال آخر :

هل ينفعنك بعد شيبك في الهوى توقير مكتسبٍ ولُبْس ثياب
هيّات ما فخر المهنّد في الوعى بحلى غمدٍ فوقه وقِرابٍ

وقال الخبازرزي :

لا تنظرنّ إلى أثوابٍ مغترب نأى الحِلّ بعيد الأهل والدّارِ
وانظر إليه إذا ما قام في ملأ بمنطقٍ لنوى الألباب سَحّارِ

وقال المعري :

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمّده والحمائلُ (١)

وقال أبو هيفان :

لعمري لئن بيعت في دار غربةٍ ثيابي إن ضاقت على المآكلِ
فما أنا إلا السيف أخلق جفنه له حاية من نفسه وهو عاطلُ

وقال لبيد :

أصبحت مثل السيف أخلق جفنه تتقدم عهد القين والسيف قاطعُ (٢)

وقال النّمري :

فإن تك أثوابي تمزّقن عن بلى فإني كنصل السّيف في خلق الغمّدِ
كان بالكوفة رجل يعرف بأبي ذؤيب ، وكان متصدّاً للشعراء ، فدخل مجلسه
محمد بن حازم الباهليّ ، وعليه ثياب رثّة ، وهم يتكلمون في معاني الشعر ، فسأله
ابن حازم عن بيت للطّرماح ، فردّ أبو ذؤيب جواباً محالاً ، وهو في ذلك

(١) سقط الزند ٥٢٦ . والحمائل : جم حالة السيف .

(٢) ديوانه ١٧١ .

كالزدرى لابن حازم ، فوثب مغضباً فقبل له : ماذا فتحت على نفسك الشر ؟ أندري من احتقرت ؟ قال : لا قيل : هو أخبث الناس لساناً ، وأهجأهم ، هذا ابن حازم ، فوثب حافياً حتى لقيه وحاف أنه لم يعرفه واستقاله فأقاله ، وقال :

أخطأ على ورد غير جوابي	وزري على وقال غير صواب
وسكت من عجب لذلك نزادني	فيما كرهت بظنه المرتاب
وقضى على بظاهر من كسوة	لم يدري ما اشتملت عليه ثيابي
من عفة وتكرم وتجمل	وتجلد لمصيبة وعتاب
لكنه رجعت عليه ندامة	لما يسب وحاف مض عتابي
فأقلته لما أقر بذنبه	ليس الكريم على الكريم بناب

وكان ابن حازم ساقط الهمة ، يرضيه اليسير على انطباعه في شعره .

وقال حماد بن يحيى : قال لي ابن حازم يوماً : مابق على شيء من اللذات إلا بيع السنابير : قلت له : ويحك ! وأى في ذلك من اللذة ؟ قال : يعجبني أن تجيء العجوز الرعناء تخاصمني ، وتقول : هذا سنوري مرق ، فأخاصمها ، ففشتمني ، فأشتيمها وأغيظها ثم أنشد :

صِلْ خمرَةً بِخَمَارٍ وَصِلْ خَمَاراً بِخَمْرِ
وَحِذْ نَصِيبَكَ مِنْ ذَا وَذَا إِلَى حَيْثُ تَدْرِي

قلت : إلى أين ويحك ! فقال : إلى النار يا أحمق .

* * *

ثُمَّ مَا عَمَّ أَنْ اسْتَوْقَفَ الْمَلَّاحَ ، وَصَعِدَ مِنَ السَّفِينَةِ وَسَاحَ ،
فَنَدِمَ كُلُّ مَنْ عَلَى مَا قَرَّطَ فِي ذَاتِهِ ، وَأَغْضَى جَفَنَهُ عَلَى قَذَاتِهِ ،

وتعاهدنا على ألا نَحْتَمِرَ شخصاً لِرِثَاثَةِ بُرْدِهِ ، وألا نَزْدِرِي
سيفاً مَجْبُوءاً في عَمْدِهِ .

* * *

قوله «ما عَتَمَ» ، أى ما أَبْطَأَ ولا تَأَخَّرَ ، ويقال: عَتَمَ الْقَرَى، إذا تَأَخَّرَ، وأَعْتَمَ حاجته: أَخْرَهَا ، ومنه صلاة الْعَتَمَةِ لتَأَخُّرِ وَقْتِهَا . استَوْفَ الْمَلَّاحُ : أمر خَادم السفينة بالوقوف . صعد : ارتقى وارتفع . ساح : ذهب في الأرض . في ذاته ، أى في نفسه . أَغْضَى جَفْنَهُ : سَدَّ عَيْنَهُ . قَذَاتِهِ : عَارُهُ وَعَيْبُهُ الَّذِي تَلَقَّى بِهِ السُّرُوجِيُّ عند الدخول في السفينة . والقذاة : ما يسقط في العين فيوجعها . نَزْدِرِي : نَحْتَمِرُ . لِرِثَاثَةِ بُرْدِهِ : لِإِخْلَاقِ ثَوْبِهِ . اللهُ تعالى الموفق .

المقامة الثالثة والعشرون وهي الشعرية

حكى الحارثُ بن همام ، قال : نبأني مَأْلَفُ الْوَطَنِ ، في شرح
 الْزَّمَنِ ؛ لَخِطْبِ خُشْيٍ ، وَخَوْفِ غُشْيٍ ؛ فَأَرَقْتُ كَأْسَ الْكَرَى ،
 وَنَصَصْتُ رِكَابَ الشَّرَى ، وَجُبْتُ فِي سَيْرِي وَغُورًا لَمْ تُدَمِّشْهَا
 الْخُطَا ، وَلَا اهْتَدَتْ إِلَيْهَا الْقَطَا ؛ حَتَّى وَرَدْتُ حِمَى الْخِلَافَةِ ،
 وَالْحَرَمَ الْعَاصِمَ مِنَ الْخَافَةِ ، فَسَرَوْتُ إِيجَاسَ الرَّوْعِ وَاسْتَشْعَارَهُ ،
 وَتَسَرَّبْتُ لِبَاسِ الْأَمْنِ وَشِعَارِهِ . وَقَصَرْتُ هَمِّي عَلَى لَذَّةِ أَجْتِنِيهَا ،
 وَمُلْحَةِ أَجْتَلِيهَا . فَبَرَزْتُ يَوْمًا إِلَى الْحَرِيمِ لِأَرْوُضَ طَرَفِي ،
 وَأُجِيلَ فِي طَرَفِهِ طَرَفِي ؛ فَإِذَا فُرْسَانٌ مُتَالُونَ ، وَرِجَالٌ مُتَالُونَ ،
 وَشَيْخٌ طَوِيلُ اللِّسَانِ ، قَصِيرُ الطَّيْلَسَانِ ، قَدْ لَبَّ فَتَى جَدِيدِ
 الشَّبَابِ ، خَلَقَ الْجِلْبَابِ ؛ فَرَكَضْتُ فِي إِثْرِ النَّظَارَةِ ؛ حَتَّى
 وَافَيْنَا بَابَ الْإِمَارَةِ ، وَهَنَّاكَ صَاحِبُ الْمَعُونَةِ مَتَرَبُّعًا فِي دَسْتِهِ ، وَمَرُوعًا
 بِسَمْتِهِ .

. . .

قوله « نبأني » أي قلبي ولم يوافقني . الوطن : المنزل . ومألفه . موضع
 الاجتماع به والتأليف فيه .

شرح : أول ، أراد في أول زمانه وشبابه . خطب : أمر مخوف . خشي :
 خيف . وغشي : نزل وغطى .

أرقت : هزقت ، وجعل للكرى وهو النوم كأساً مجازاً ، وكنى بهرقها عن

إزالة النوم عن عينه . نَصَصْتُ : رفعت وحرّكت ركاب السرى : إبل السّير .
جُبْتُ : قطعت . وعوراً : طُرْقاً صعبة . تَدَمَّيْتُها : تسَّيَّها وتلّيتها . الخطأ هنا :
الأقدام ، وقوائم الحيوان . والقطا : طائر وقد تقدم . وهدايتها : فيما زعموا أنها
تترك فراخها بالصحراء ، وتذهب عند طلوع الشمس لطلب الماء من مسيرة عشرين
ليلة فما دونها ، فيردّنه ضحوة يومهنّ فيحملن الماء لفراخهنّ فينبهنّ ثم يرجعن
بعد الزوال إلى تلك المسافة ، فيشربن ويأتين فراخهنّ في عشية يومهنّ فيستينهن
عللاً بعد نهل ، ولا يخطئن مواضع فراخهنّ ، فيقال لذلك : أهدى من القطا ،
قال الشاعر^(١) :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولوسلكت سُبُل المكارم ضلّت
ولو أن بُرغوئنا على ظهر قلة رأتَه تميمٌ يوم زحفٍ لولّت
وقال حميد بن ثور :

كما اتصلت كدراء تسقى فراخها بعردة رِفْهاً والمياه شعوب^(٢)
فجاءت ومسقاها الذي وردت به إلى الصدر مشدود العصام كئيب^(٣)
تبادر أطفالاً مساكينَ دونها فلا لا تخطاه الرقابُ رغيْبُ
وصفن لها غوثاً بأرض تنوفةٍ فما هي إلا نهلة وتؤبُ

قوله : «حى الخلافة» ، هي بغداد . الحرم : موضع الأمن . العاصم : المانع .
سروت : أزلت . إيجاس الروع : إحساس الفزع والخوف . واستشعاره ،
استفعال من شعرت بالشيء . تسربلت : لبست سِرْبَلاً . قصرت هي : حبست
همتي وأرادتني . مَاحَهُ : طُرْفَهُ وشيء عجب . أجتليها : أنظرها . الحريم : موضع
متسع حول قصر الملك يجتمع فيه أجناده وغيرهم . أروض : أعلم وأسوس .
طُرْفِي : فرسى . أجيل : أمشي . متتالون : متتابعون . مثالون : منصوبون لكثرة

(١) هو الطرماح ، كما في العقد : ١١١ وعيون الأخبار ١ : ٣١١ .

(٢) ديوانه ٥٣ وكندراء من صفة القطاة ، والقطا الكدرى : نوع من القطا غير الألوان .
رقش الظهور . وعردة هضبة . والرفه : أقصر الوردو والشعوب : البعده .
(٣) شمريت ، مرت جادة ، وتتوب : ترجع إلى الماء مرة بعد مرة .

جريمهم . الطليسان : ثوب خَزَّ أخضر . لثَبَ : جعل في عنقه ثوباً وقاده به ، وأخذ بتلابيبه وهي أطوق ثوبه ، والتلابيب مأخوذة من اللبة وهي وسط الصدر .
جديد الشباب ، أى فتى السن ، وتقدم الجلباب .

ركضت في أثر النظارة ، أى خلف الناظرين لما يفعل به ، ومن شأن الفوغاء والعامّة إذا رأوا محبوباً أو مضروباً أن يتبعوه ويتكاثروا عليه . ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم يتبعون رجلاً مُريباً ، فقال : لا مرحباً بهذه الوجوه التى لا ترى إلّا عند الشرّ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما اجتمعوا قطّ إلّا ضَرُّوا ولا تفرقوا إلّا نفعوا . قيل له : قد علمنا ضرّ اجتماعهم . فما نفع افتراقهم ؛ قال : يذهب الحجام إلى دكانه ، والحدّاد إلى كيّاره ، وكلّ صانع إلى صنّعه . وقال دعبل :

ما أكرّ الناس لابلٍ ما أقلمهمُ والله يعلم أنى لم أقْلَ فَنَدَا^(١)
إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ، ولكن لأرى أحداً

ومرّ على بن الجهم بمبرسم ، والناس قد تجمعوا حوله ، وحلقوا به ، فلما
دراهم المبرسم أخذ بعنان فرسه وأنشأ يقول :

لا تحفلن بمعشر الهـ ————— مج الذين تراهـ
فبحق من أبلى بهم نفسى ومن عافاهـ
لو قيس مولاهم بهم كانوا إذا مولاهمـ

ثم نظر حوله ، فرأى غلاماً جميل الوجه ، حسن اللبسة ، فهجم عليه وشقّ
ثيابه وهو يقول :

هذا السعيد لديهمُ قد صار بي أشقاهمُ

وافينا : وصلنا . صاحب المعونة : والى الجنائيات ، وقال الرستمى : وَلِىَ فُلَانِ
المعونة ، أى ولى العون ، أى ولأه السلطان عَوْنَهُ عَلَى حِفْظِ الْمَدِينَةِ وَلِفْظِهَا مَفْعُولَةٌ
وهى بتأويل المصدر بمنزلة قولهم : ماله معقول ، أى عتل ولا مجلود أى جلد .
مروغاً بسمته ، أى مفرغاً بهيئته ووقاره .

* * *

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : أَعَزَّ اللَّهُ الْوَالِيَّ ، وَجَعَلَ كَعْبُهُ الْعَالِيَّ ،
إِنِّي كَفَلْتُ هَذَا الْغُلَامَ فَطِيماً ، وَرَبِّيتُهُ يَتِيماً ؛ ثُمَّ لَمْ آلِهْ تَعْلِيماً .
فَلَمَّا مَهَّرَ وَبَهَّرَ ، جَرَّدَ سَيْفَ الْعُدُوَانِ وَشَهَرَ ، وَلَمْ أَخْلِهْ
يَلْتَوِي عَلَى وَيَتَّقِحْ ، حِينَ يَرْتَوِي مِنِّي وَيَلْتَقِحْ . فَقَالَ لَهُ
الْفَتَى : عَلَامَ عَثَرْتُ مِنِّي ؛ حَتَّى تَنْشُرَ هَذَا الْخَزْيَ عَنِّي ، فَوَاللَّهِ
مَا سَتَرْتُ وَجْهَ بَرِّكَ ، وَلَا هَتَكْتُ حِجَابَ سِتْرِكَ ، وَلَا شَقَقْتُ
عَصَا أَمْرِكَ ، وَلَا أَلْفَيْتُ تِلَاوَةَ شُكْرِكَ .

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : وَيْلَكَ وَأَيُّ رَيْبٍ أَخْزَى مِنْ رَيْبِكَ ، وَهَلْ
عَيْبٌ أَفْحَشُ مِنْ عَيْبِكَ ، وَقَدْ ادَّعَيْتَ سِحْرِي وَاسْتَلْحَقْتُهُ ،
وَأَتَّحَلْتُ شِعْرِي وَاسْتَرْقَيْتُهُ ، وَاسْتَرَاقُ الشُّعْرَ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ ،
أَفْظَعُ مِنْ سَرِيقَةِ الْبَيْضَاءِ وَالصَّفَرَاءِ ، وَغَيْرُهُمْ عَلَى بَنَاتِ الْأَفْكَارِ ،
كَغَيْرَتِهِمْ عَلَى الْبَنَاتِ الْأَبْكَارِ . فَقَالَ الْوَالِيُّ لِلشَّيْخِ : وَهَلْ حِينَ
سَرَقَ سَلَخَ ، أَمْ مَسَخَ أَمْ نَسَخَ !

* * *

جعل كعبه العالى ، أى جعل أسفل شيء منه يعلو أرفع شيء فى غيره .
كفلقته : ضمته وقت بمؤنته .

أبوهريرة رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين — وهو يشير بإصبعيه — وخير بيت فى المسامين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرها يتيم يساء إليه » .

أبو أسامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مسح على رأس يتيم لم يمسه إلا الله ، كانت له بكل شعرة مَرَّت عليها يده حسنة ، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وإيَّاه فى الجنة كهاتين — وفرق بين إصبعيه » .
فطيما : أى صغيرا كما منع الرضاع . لم آله : أى لم أقصر فى تعليمه . مَهَر : ظهر وصار ماهراً أى حاذقاً . بهَر : غلب أمثاله . العدوان : الظلم . يلتوى : ينعطف ، لضربى وهو من فعل الحية إذا أتبعها الرجل التوت عليه لتلسه . يتفتح : يسقط حياؤه . يلتفتح : يشرب لبن لفتحى ، واللقة : الناقة ذات اللبن . عثرت : اطلعت . الخزى : العار والشر ، والخزى : الهوان . هتكت : خرقت . حجاب سترك ، أى ثوب طاعتك . ولاشقت عصا أمرك ، أى ماخالفت حكمك ، وشق فلان العصا : خرج عن الأمر مخالفاً . وشق عصا المسلمين : فرق جماعتهم ، والأصل فى العصا الائتلاف والاجتماع ، ومنه قولهم للمطمئن : ألقى العصا ، وقيل شقَّ العصا : صار منها فى شقٍّ وخرج عن الجماعة ، وفسر قوله تعالى : ﴿ شاقوا الله ورسوله ﴾ بالمباينة ، لأن من صار فى شقٍّ عن شق صاحبه فقد باينه ، وقيل : معنى شقَّ العصا ذهب إلى شقها أى كسرها ، فجئى بالشق الذى هو من صفة العصا ؛ وفى ضمنه الجاهرة بالخروج عن الجماعة قال الشماخ :

تصدع شعب الحى وانشقت العصا كذاك النوى بين الخليل شقوق^(١)

ألفيت : تركت . تلاوة : قراءة ، والريب : الريبة والتهمة : أخزى : أضر ،

وأكثر هواناً . أفحش : أقبح . ادّعيته : نسبته لنفسك وإيس لك . سحرى :
 بديع كلامي . استأحقته : ألحقته بنفسك . انتحلت : ادّعت . أقطع : أمّر . البيضاء
 والصفراء : الفضة والذهب . بنات الأفكار ، هي الأشعار . ساخ : أخذ المعنى .
 مسخ : قلب الكلام وغيره . نسخ : نقله بعينه .

والقائلون بالتناسخ لهم ألفاظ تشبه هذه ، وهي النسخ والمسخ والرسخ
 والفسخ ؛ فالفسخ عندهم أن يحول الأدنى إلى الأعلى ، والمسخ أن يحول الأعلى من
 الحيوان إلى الأدنى ، والرسخ رد الحيوان جاداً ، والفسخ أن يتلاشى فلا يكون
 شيئاً ، وقال شاعرهم :

تموّذُ بالإله من المسوخ وسله أن تكون من النُسخ^(١)
 لقد خاب الذي أضحي وأمسي يُنقلُ في فسوخ أو رسوخ

وقال المعري :

وقال بأحكام التناسخ معشر غلوا فأجازوا الفسخ في ذاك والرسخ^(٢)

[السرقات الشعرية وأنواعها]

وتقسيم الحريري السرقة في قوله : ساخ ومسوخ ونسخ ، يدخل تحت أحكام
 السرقات التي عدّها أبو محمد الحسين بن علي بن وكيع رحمه الله تعالى في كتابه
 المترجم بالنصف في الدلالات على سرقات المتنبي ، فإنه جعلها عشرين وجهاً عشرة
 أوجه يُغفر في سرقتها ذنب الشاعر للدلالة على فطنته .

الأول منها استيفاء اللفظ الطويل في الموزن القصير ، كقول ظرفة :

أرى قبر نحامٍ بخيل بمائه كقبر غويٍّ في البطالة مفسد^(٣)

(١) من ثلاثة أبيات في شرح الزوميات ١ : ٢٢٤ من غير نسبة .

(٢) الزوميات ٢٢٥ (٣) ديوانه ٥٢ والنحام : المريض على المال

(٦ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

اختصره ابن الزبُرى ، فقال :

والعطيات خِساس يَينهم وسواء قبرٍ مثيرٍ ومُقلٍّ^(١)

ففضل صدر يديه وجاء بيت طرفه في عجز بيت أقصر منه بمعنى لائح
ولفظ واضح .

الثاني : قل اللفظ الرذل إلى الرشيح الجزل ، كقول العباس بن الأحنف :

زعموا لي أنها بانت تُحَمُّ ابتلى الله بهذا من زعم^(٢)
اشتكت أكل ما كانت كما يُكسِفُ البدر إذا ما قيل تمَّ

فهذا معنى لطيف أخذه ابن المعتز فقال :

طوى عارضُ الحَمَى سنَّاهُ فحالاً وأليس ثوباً للسَّقام هُزالاً
كذا البدرُ محتومٌ عليه إذا انتهى إلى غايةٍ في الحسنِ عادِ هالِلاً

الثالث : ما قبح مبناه دون معناه إلى ما حسن مبناه ومعناه ، كقول أبي نواس :

يُحُّ صوتُ المالِ ممَّا منك يدعو أو يصيح^(٣)
ما لهذا آخذٌ فو ق يديه مَنْ يصيح

معناه صحيح ولفظه قبيح ، أخذه مسلم فقال :

تظلمُ المال والأعداء من يده لازال للمال والأعداء ظلاماً^(٤)

فجود الصنعة وجمع بين تظلمين كريمين ، ودعا للممدوح بدوام ظلمه للمال
والأعداء ، وكل ذلك مليح جزل نقل عن ضعيف المبنى .

الرابع : عكس ما يصير بالعكس ثناء بعد ما كان هجاء ، كقول البلاذري :

قد يرفع المرء اللثيم حجابهُ ضعةً ودون الرُف منه حجابُ

(١) المؤتلف والمختلف للامدى ١٣٣ (٢) ديوانه ٢٥٢ ، ديوان المعاني ٢ : ١٦٥

(٤) ديوانه ٦٤

(٣) ديوانه ٧٠

معكوسه :

ملك أغرّ محجّبٌ معروفه لا يحجّبُ

الخامس : استخراج معنى من معنى احتذى عليه وإن فارق ما قصد إليه ،
كقول أبي نواس في الحرّ :

لا ينزل الليل حيث حلّت فدهرُ شراً بها نهارٌ^(١)

احتذاه البحترى وفارق مقصده ، فجعله في محبوب ، فقال :

غاب دجاها وأيّ ليل يدجو علينا وأنت بدر

السادس : توليد كلام من كلام لفظهما مفترق ، ومعناها متفق ، كقول
أبي تمام :

لأمرٍ عليهم أن تيمّ صدورُهُ وليس عليهم أن تيمّ عواقبُهُ^(٢)

أخذه من قول الأعرابي ، أنشده الأصمعي رحمه الله تعالى :

فكان على الفتى الإقدامُ فيها وليس عليه ما جتِ المنونُ

فجرد لفظه من أخذته ، وهو في معناه متفق معه ؛ وهذا من أدل الأقسام
على فطنة الشاعر .

السابع ، في توليد معانٍ مستحسنات في ألفاظٍ مختلفات ، وهذا من أشدّ باب
وأقلّه وجوداً ، وإنما قلّ لأنّه من أحق ما استعمل فيه الشاعر فظنته ؛ كقول
أبي نواس :

واستقيها من كميت تدعُ الليلَ نهاراً^(٣)

(١) ديوانه ٢٧٤

(٢) ديوانه ٤٤

(٣) ديوانه ٢٧٤

ثم قال أيضاً :

لا ينزل الليل حيث حَلَّتْ فدهرُ شرَّابها نهار^(١)

ثم قال أيضاً :

قال ابغني المصباح قلت له اتُّدَّ حسبي وحسبك ضوءها مصباحا^(٢)

فكل هذه معانٍ متقاربات وألفاظ متشابهات ، مولّد بعضها من بعض .

الثامن : مساواة الآخذ المأخوذ منه في الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام ، وإن كان الأول أحقَّ به لأنه ابتدع ، والثاني اتَّبَعَ ، من ذلك قول العكوك في فرس :

مطرَد يرتجّ من أقطاره كالسَّاء جالت فيه ريحٌ فاضطَّربَ

فذكر ارتجاعه ، ولم يذكر سكونه ، فأخذه ابن المعتز فقال :

فكأنه موجٌ يذوب إذا أطلقته ، فإذا حبستَ جَدَّ

فجمع بين الصفتين .

التاسع : مماثلة السارق السروق بزيادته في المعنى ما هو من تمامه ؛ كقول أبي حيّة :

فألقت قناعاً دونه الشَّمْسُ واتَّقَتْ بأحسن موصولين : كفٍ ومِعْصَمٍ

أخذه من قول النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتَّقَتْنَا بِالْيَدِ^(٣)

فلم يزد النابغة على اتقائها باليد ، وزاد عليه أبو حيّة بقوله : « دونه الشمس » . وخبر عن المتنّ بأحسن خبر فاستحقّه .

العاشر : رُجِحَانَ السَّارِقِ عَلَى الْمَسْرُوقِ مِنْهُ بزيادة لفظ على لفظ مَنْ أَخَذَ عَنْهُ ، كقول حسان :

يُفْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمَقْبِلِ^(١)

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى :

إِلَى يَدِ حَانَ لَا تَهَرَّ كَلَابُهُمْ عَلَى وَلَا يَخْشَوْنَ طَوْلَ ثَوَائِي
وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْعَنِينِ .

والسرقات المحمودة أكثر من أن تحصر .

[السرقات المذمومة]

ونريك وجه السرقات المذمومة ، وهي كالمحمودة عشرة أقسام :

الأول : نقل اللفظ القصير إلى الطويل الكثير ، كقول سالم الخامس :

أَقْبَلَانِ فِي رَأْدِ الضَّحَى بِنَا يَسْتَرْنَ وَجَهَ الشَّمْسِ بِالشَّمْسِ

أخذه الثاني فقال :

وَإِذَا الْغَزَالَةُ فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ وَبَدَا النَّهَارُ لَوَقْتَهُ يَتَرَحَّلُ

أَبَدَتْ لَعِينِ الشَّمْسِ عَيْنًا مِثْلَهَا تَلْقَى السَّمَاءَ بِمِثْلِ مَا تَسْتَقْبِلُ

المعنى صحيح والكلام مليح؛ غير أنه تطويلٌ تضيق ، والبيتان جميعاً نصف

يَدِ سَالِمٍ .

الثاني : نقل الرشيح الجزل إلى المستضعف الرذل ، كقول القائل :

كَأَنَّ لَيْلِي صَبِيرٌ غَادِيَةٌ أَوْ دُمِيَّةٌ زَيْدَتْ بِهَا الْبَيْعُ

أخذه أبو العتاهية فقال :

كَانَ عِتَابَةً مِنْ حُسْنِهَا دُمِيَّةٌ قَسِيْرٌ فَتَنَتْ قَسَهَا

فقصر لفظه عن الفصاحة ، ومعناه عن الرجاحة .

الثالث : نقل ماحسن معناه ومبناه إلى ما قبح مبناه ومعناه ، كقول امرئ القيس :

أَلَمْ تَرَ يَانِي كَلَّمَهُ أَجَبْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تَطْيَبِ^(١)

فأتى بما لا يعلم وجوده في الشر من وجود طيب ممن لم يمس طيباً ، وجاء بيت في مراده ، حسن النظام مستوفى التمام ، أخذه كثير ، فقال :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَسَنِ دِيْبَةُ الثَّرَى يَمِجُّ النَّدَى جَنَجَبُهَا وَعَرَارُهَا^(٢)
بِأَطْيَبَ مِنْ أَرْدَانٍ عَزَّةٍ مُوهِنًا إِذَا أَوْقَدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرُّطْبَ نَارُهَا

فطول وحسن ، وقصر غاية التقصير ، وأخبر أنها إذا تطيّبت كالروضة في طيبها ، وذلك مما لا يعدم في أقل البشر تنظيفاً .

الرابع : عكس ما يصير بالعكس هجاء بعد أن كان ثناء ، كقول أبي نواس رحمه الله تعالى :

فَهُوَ بِالْمَالِ جَوَادٌ وَهُوَ بِالْعَرَضِ شَجِيحٌ^(٣)
عَكَسَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَقَالَ :

مَا شِئْتُ مِنْ مَالٍ حَمِيٍّ يَأْوِي إِلَى عَرَضٍ مُبَاحٍ

الخامس : نقل ما حسنت أوزافه وقوافيه إلى ما قبح وثقل على لسان راويه،
كقول مسلم رحمه الله تعالى :

أَمَّا الْهَجَاءُ فَدَقَّ عَرْضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنْكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُ^(١)
فَاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ
أَخْذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَقَالَ :

قَالَ لِيَ النَّاصِحُونَ وَهُوَ مِتَالٌ ذَمٌّ مِنْ كَانَ جَاهِلًا إِطْرَاهُ^(٢)
صَدَقُوا فِي الْهَجَاءِ رَفَعَهُ أَقْوَا مِ طَعَامٍ فَلَيْسَ عِنْدِي هِجَاءُ
فَبَيْنَ الْكَلَامِينَ فَرَقَ بِعِيدٍ .

الثامن :^(٣) نقل العذب من القوافي إلى المستكره الجافي ، كقول أبي نواس :
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَفَشَّى الْبَرَّ فِي السَّقَمِ^(٤)

فهذا الكلام أتم بهاء من قول مسلم :
تَجْرَى مَحَبَّتُهُمْ فِي قَلْبٍ عَاشِقِهَا جَرَى الْمَعَاذَةِ فِي أَعْضَاءِ مُنْتَكَسِ^(٥)
التاسع : نقل ما يصير على التفتيش والانتقاد إلى تقصير وإفساد ، كقول القائل :
وَلَقَدْ أَرْوَحَ إِلَى النِّجَارِ مَرَجَلًا مَدَى بِمَالِي لِيَنَـا أَجْيَادِي
وإنما له جيد واحد ، وهذا وإن جاز عند بعض العرب ، فهو عند الآخرين
غير حميد ولا سديد .

(٢) ديوانه ٤ : ٣٠١ (طبع المعارف)

(١) ديوانه ٣٣٤

(٣) قوله : « الثامن » ، سقط السادس والسابع من جميع الأصول .

(٥) ملحق ديوانه ٤٢٥

(٤) الوساطة ٥٦

العاشر : أخذ اللفظ والمعنى وهو أقبح السرقات وأدناها وأوضعها
وقدأكثر الشعراء ذم السرقة والسارق ، وأول من ذم ذلك طرفة حين قال :
ولا أغير على الأشعار أسرقها عنها غنيتُ وشرَّ الناس من سرقا^(١)
وقال الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوا في بَمَدَ المشيبِ ، كفى ذاك عارا^(٢)
ومن سرقة اللفظ والمعنى ، ما يحكى عن أبي المعافى أنه لما مدح أبا العباس محمد
ابن إبراهيم الإمام بتوله :

إليك بمدحتي يا خير أبنا رسول الله من تَلَدِ النساءِ
ستأتيك المدائح من رجالٍ وما كفَّ أصابعها سواء
فأخذه آخر وغيره بأن وضع الرجال موضع النساء ، وغير عجزت اليد
الآخر قتال :

* كما اختلفت إلى الغرض النبأ *

فاستعدى عليه أبا المعالى صالح بن إسماعيل ، وهو على شُرْطة محمد بن إبراهيم
بالمدينة ، قتال :

ما سارقُ الشعر فيه وسُمُ صاحبه إلا كسارق بيتٍ دونه غلقُ
بل سارق البيت أخفى حين يسرقه والبيت يستره من ظلمة غسقُ
من جيد الشعر أن يخفى لسارقه وجيد الشعر قد سارت به الرفقُ

فقال صالح : فما تحب أن أفعل به ؟ قتال : تحلقه عند منبر النبي صلى الله
عليه وسلم ألا ينشد هذا الشعر إلا لى .

وكان محمد بن زهير يشرب ، فإذا سكر لا يفيق إلا بإنشاد الشعر ، فأمر يوماً جبار بن محمد الكاتب أن ينشده ، فأنشده أبياتاً لأبي نواس أدعى أنه قائلها وهي :

صاح مالي وللرسوم القفار ولنعت المطى والأكوار
شغلتنى المدام والقصف عنها وسماع الغناء والمزمار

ومضى في الشعر ، وأبو نواس قاعد ، فوثب وتعلق به قدام محمد بن زهير ، وأنشأ يقول :

أعذني يا محمد بن زهير يا عذاب اللصوص والذعار
يسرق السارقون ليلاً وهذا يسرق الشعر جهرة بالنهار
صار شعري قطعة لجبار أفهذا لكمة الأشعار !
قل له فليغر على شعر حما دأخى الفتك أو على بشار

وسرق محمد بن يزيد الأموي شعراً لحبيب ، فقال حبيب :

مَنْ بنو مجدلٍ مَنْ ابنُ الحباب مَنْ بنو تغلبٍ غداة الكلاب^(١)
مَنْ طفيلٌ وعامرٌ ومن الحارث أو مَنْ عتيبة بن شهاب
إنما الضيغم المصور أبو الأشبال جبار كل جيش وغاب
مَنْ عدتْ خيله على سرح شعري وهو للحين راتع في كتابي
غارة أسخنت عيون المعاني واستباح محارم الآداب
لو ترى منطقي أسيراً ولاصباح أسيراً لعلبة وانتخاب

يا عذارى الأشعار صرتن من بعدى سبايا مُبْعَنَ في الأعرابِ
 طال رهي لايك يارب يارب و رغي إليك فاحفظ ثيابي
 وعارض أبو أحمد عبد الله بن عبد الله بن طاهر قصيدة البحترى ، فاستعار
 من ألفاظها ومعانيها ما أوجب أن قال البحترى :

ما الدهر مستنفذ ولا عجبهُ تسومنا الخسفَ كله نُوبُهُ (١)
 نال الرضا ماح وامتدَحْ قتل لهذا الأمير ما غضبهُ
 أجلى لصوص البلاد يطردُهُم وظلّ لصّ القريض ينتهبُهُ
 ارددُ علينا الذى استعرتَ وقل قولك يُعرفُ لغالبٍ غلبهُ

واستعدى ابن الرومى العلاء بن عيسى على البحترى ، فقال :

قل للعلاء بن عيسى والذى نصلت به الدواهي نصول الآل في رجب (٢)
 أيسرُ البحترى الناسَ شعرُهُم جهرًا وأنت نكال اللصّ ذى الرّيبِ
 وتارة يترزُ الأرواحَ منطقهُ فالتوم ما بين مقتول ومفتصبِ
 نكلهُ إن أناسًا قبله ركبوا بدون ما قد أناه باسق الخشبِ
 إذا أجاد فأوجب قطع مقوله فقد دها شعراء الناس بالحربِ
 وإن أساء فأوجب قتله قوداً بمن أمت إذا أبقى على السلبِ
 يسىء عفاً فإن أكثرت وسائله أجاد لصّاً شديد البأس والكلبِ
 حتى يغير على الموتى فيسلبُهُم حرّ الكلام بميش غير ذى لجبِ

(١) ديوانه ١ : ٢٠٧

(٢) ديوانه ابن الرومى ٤١٤ (نشرة شريف سليم) مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات

وقال فيه ابن الحاجب :

والفقي البحترى يسرق ما قا ل ابن أوسٍ في المذح والتَّشْيِيبِ
كلّ بيت له يجود معنا • فمعناه لابن أوسٍ حبيب

ولابن الحاجب أيضاً :

هل إلى محنة تخبر مَنْ فا ضلنا في القريض والمفضول
محنة تفضح الاصوص وتفضي بالذى فيهم قضى التنزيلُ
سارق المال تقطع الكف منه واللسان السروق منها بديلُ
ليسود الذى يحق له السو د دُمْنَا ويرذل المردولُ

وبلغ صاحب بن عبّاد أن بعضهم سرق شعره ، فقال أبلغوه عني ^(١) :

سرت شعري وغيرى يُضَام فيه ويُخْدَع
فسوف أجزيك صفعا يَكَلَّ ^(٢) رأسا وأخدع
فسارق المال يُقَطِّع وسارق الشعر يُصْفَعُ

فأخذ السارق لذلك جملا وهرب من الرّى .

وبين السرى الموصلى والخالدين مستظرفات في هذه السرقات ، اشتهرت في كتب الآداب ، فلنلمّ ببعض ما قال السرى فيهما وفيه . يقول الثعالبي : السرى وما أدراك ما السرى ، صاحب الشعر الجامع بين عقود الدرّ ، والنافث في مُقَدِّ السَّخَر ؛ ولله درّه ! ما أعذب بحره ، وأصنى قطره ، وأعجب أمره ! وقد أخرجت

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٧

(٢) اليتيمة « يكد »

من شعره ما يكتب على جبهة الدهر ، ويعاق في كعبة الظرف ^(١) . وكنيت
منه محاسن وملاحاً ، وبدائع وطرفاً ، كثرتها أطواق الحمام وصدور البزاة البيض ،
وأجنحة الطواويس وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات
الحلق الملاح .

قال يتظلم إلى سلامة بن فهد من الخالدين :

تحيف شعري يا بن فهد مصالت ^٢	عليه فقد أعدمت منه وقد أثرى ^(٣)
وفي كل يوم للغبيين غارة	تروع ألفاظي الحجلة الفراء
إذا عن لي معنى تضاحك لفظه	كما ضاحك النوار في روضه القدرا
غريب كفنشر الرّوض لما تبسمت	مخائله للفكر أودعته سطرأ
فوجه من الفتيان يمسح وجهه	وصدر من الأقوام يسكنه الصّدرأ
تناوله مثر من الجهل معدم	من العلم معذور متى خلع العذرا
لأطفائما تلك النجوم بأسرها	وأدنستما تلك المطارف والأزرا
فوينحكما هلاً بشطر قنعتما	وأبقيتما لي في محاسنه الشّطرا ^(٤)

وقال يخاطب أبا الخطاب ^(٥) ، وقد سمع أن الخالدين يرجعان إلى بغداد ^(٥) :

بكرت عليك معرة ^(٦) الأعراب	فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب ^(٧)
ورد العراق ربيعة بن مكدم	وعتيبة بن الحاث بن شهاب

(١) اليتيمة : « الفكر » .

(٢) اليتيمة ٢ : ١٢٥ - تحيف : اغتصب . والمصالت : اللص .

(٣) اليتيمة : « شطرا »

(٤) في اليتيمة ٢ : ١٢٨ : « الفضل بن ثابت الضبي » .

(٥) بعده في اليتيمة ، « وذلك في أيام المهلبى الوزير »

(٦) اليتيمة « مغيرة »

(٧) اليتيمة ٢ ، ٢٨

أفعدنا شكّ بأنهما هما في الفتك لافي صحة الأنساب
 جلبا إليك الشعر من أوطانه جلب التجار طرائف الأجلاب
 شنا على الآداب أقبح غارة جرحت قلوب محاسن الآداب
 فحذار من حركات صلي^(١) غارة وحذار من فنكات ليثي غاب
 تركت غرائب منطقي في غربة مسبية لا تهتدي لإياب
 أعزز على بأن أرى أشلاءها تدمي بظفر للعدو وناب
 جرحي وما ضربت بحدّ مهتدي أسرى وما حملت على الأقتاب
 إن عزّ موجود الكلام عليهما فأنا الذي وقف الكلام يبابي
 كم حاولا أمرى فطال عليهما أن يدركا إلا مثار ترابي

والقصيدة^(٢) طويلة جمعتُ منها ما وافق الغرض ، وسنلّم بشيء منها في
 الثالثة والثلاثين بعون الله تعالى .

وقال يتظلم منهما لأبي البركات :

يا أكرم الناس إلا أن تعدّ أبا فات الكرام بآيات وآثار^(٣)
 أشكو إليك حليفي غارة شهرا سيف العقوق على ديباج أشعارى^(٤)
 ذئبين لو ظفرا بالشعر في حرّم لمزّاه بأنياب وأظفار
 سلّا عليه سيوف البنى مصلّنة في جحفل من شنيع الظلم جرّار
 وأرخصاه فظل العطر ممتّما^(٥) ليهما يشتري من غير عطار

(١) اليتيمة « صلي قفرة »

(٢) انظرها كاملة في اليتيمة ٢ ، ١٢٨

(٣) اليتيمة ٢ ، ١٢٦

(٤) اليتيمة ، « سيف الشقاق »

(٥) اليتيمة ، « ممتّما »

إِنْ قَدَّادَكَ بَدَرٍ فَهُوَ مِنْ نَجْجِي^(١) أَوْ خَتَّمَكَ فَيَا قُوتِي وَأَحْجَارِي
كَأَنَّهُ جَنَّةٌ رَاقَتْ حَدَائِقَهَا بَيْنَ الْغَبِيِّينَ فِي نَارٍ وَإِعْصَارِ
عَارٍ مِنَ النِّسْبِ الْوَضَاحِ مُنْتَسِبٍ فِي الْخَالِدِينَ بَيْنَ الْحَزَى وَالْعَارِ

وَشَتَّانَ بَيْنَ قَوَا السَّرَى فِي أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي عُثْمَانَ ابْنِي هِشَامِ الْخَالِدِينَ ،
وَبَيْنَ قَوْلِ الثَّعَالِبِيِّ فِيهِمَا^(٢) حِينَ قَالَ : إِنَّ هَذِينَ لِسَاحِرَانِ ، يُغْرِبَانِ فِيمَا يَجْلِبَانِ ،
وَيُبْدِعَانِ فِيمَا يَصْنَعَانِ ، وَكَانَ مَا يَجْمَعُهُمَا مِنْ أَخْوَةِ الْأَدَبِ مِثْلَ مَا يَنْظُمُهُمَا مِنْ
أَخْوَةِ النِّسْبِ ، وَهَمَا فِي الْمَوَافَقَةِ وَالْمُسَاعَدَةِ يَجِئَانِ بِرُوحٍ وَاحِدَةٍ ، وَيَشْتَرِكَانِ فِي
قَوْلِ الشَّعْرِ وَيَنْفَرِدَانِ ، وَلَا يَكَادَانِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ يَفْتَرِقَانِ ، وَكَانَا فِي
التَّسَاوَى ، كَمَا قَالَ أَبُو تَمَامٍ :

رَضِيعِي لِبَانٍ شَرِيكِي عِنَانٍ عَتَبَقِي رَهَانٍ حَلِيقِي صَفَاءٍ
بَلْ ، كَمَا قَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

كَالْفَرَقْدَيْنِ إِذَا تَأَمَّلَ نَاطِرٌ لَمْ يَفْعَلْ مُوَضِعَ فَرَقْدٍ عَنْ فَرَقْدٍ

بَلْ كَمَا قَالَ الصَّابِي :

أَرَى الشَّاعِرَيْنِ الْخَالِدَيْنِ نَشَرَا قِصَائِدَ يَفْنَى الدَّعْرِ وَهِيَ تَحُلُّدُ
جَوَاهِرَ مِنْ أَبْكَارِ لَفْظٍ وَعُؤُونِهِ يَقْصُرُ عَنْهَا رَاجِزٌ وَمَقْصُودُ
تَنَازَعِ قَوْمٍ فِيهِمَا وَتَنَاقُضُوا وَمَرَّ جِدَالٍ بَيْنَهُمْ يَتَرَدَّدُ
فَطَائِفَةٌ قَالَتْ سَمِعِدَ مُقَدَّمٌ وَطَائِفَةٌ قَالَتْ لَهُمْ بَلْ مُحَمَّدُ

(١) الْيَتِيمَةُ « مِنْ الْجَجِيِّ »

(٢) الْيَتِيمَةُ ٢ : ١٦٥

وصاروا إلى حكمي فأصلحت بينهم
وما قلت إلاّ بالتي هي أرشد
هما الاجتماع الفضلُ زوجٌ^(١) مؤلف
ومعناها من حيث ألفت مفردُ
كذا فرقدا الظلّاء لما تشاكلا
علاً أشكلاً ذاك أم ذاك أجدُ
فزوجهما ما مثله في انفاقه
وفردُها بين الكواكب أسعد
فقاموا على صلح وقال جميعهم
رضينا وسأوى فرقدا الأرض فرقدا

وأفاضل الشام والعراق ، بعضهم يفضل السرى عليهما ، وبعضهم يفضلهما .
فهذا كله فصل في السرقات مستظرف ، احتوى على فوائد من علم الأدب ،
وهي عشرون وجهاً والعشرون وجهاً في السرقة جلبتها من كتاب الوكيعي
على اختصار .

فقال : والذي جعل الشعَرَ ديوانَ العرب ، وَتَرْجَمَانَ الأدب ،
ما أحدث سِوَى أَنْ بَتَرَ شَمْلَ شَرْحِهِ ، وَأَغَارَ عَلَى ثَلَاثِ سَرَحِهِ .
فقال له : أَنشدنا أَيْبَاتَكَ بِرُمَّتِهَا ؛ لِيَتَضَحَّ مَا اخْتَارَهُ مِنْ جَمَلَتِهَا ؛
فَأَنشد :

يا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّيَّةِ إِنِّهَا
شَرَكُ الرَّدَى وَقَرَارَةُ الْأَكْدَارِ
دَارَ مَتَى مَا أَضْحَكْتَ فِي يَوْمِهَا
أَبْكْتَ غَدًا مُبْعَدًا لَهَا مِنْ دَارِ
وَإِذَا أَظَلَّ سَحَابُهَا لَمْ يَنْتَفِعْ
مِنْهُ صَدَى لِحَامِهِ الْغَرَارِ
غَارَتْهَا مَا تَنْقِضِي وَأَسِيرُهَا
لَا يُفْتَدَى بِجَلَالَةِ الْأَخْطَارِ
كَمْ مُزْدَوٍ يُغْرَوُهَا حَتَّى بَدَا
مَتَمَرِّدًا مُتَجَاوِزَ الْمَقْدَارِ

(١) كذا في الأصول ، وما أثبتته من البيمة .

قَدَبَتْ لَهُ ظَهْرَ الْمَجَنِّ وَأَوَّلَعَتْ فِيهِ الْمَدَى وَنَزَتْ لِأَخْذِ الثَّارِ
فَارْبَأُ بِعُمْرِكَ أَنْ يَمُرَّ مُضِيْعًا فِيهَا سُدَى مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَظْهَارِ
وَاقْطَعْ عِلَاقَ حُبِّهَا وَطِلَابَهَا تَلَقَّ الْهُدَى وَرِفَاهَةَ الْأَسْرَارِ
وَارْقُبْ إِذَا مَا سَأَلَتْ مِنْ كَيْدِهَا

حَرْبَ الْعِدَا وَتَوَثَّبَ الْقَدَارِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ خَطُوبَهَا تَفْجَأُ وَلَوْ طَالَ الْمَدَى وَوَنَتْ سُرَى الْأَقْدَارِ

. . .

قوله: «والذى جعل الشعر ديوان العرب»، أى كتاباً تدون فيه أخبارهم، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الشعر جزل من كلام العرب به يعطى السائل ويكظم الغيظ وبه يؤتى القوم فى ناديم». وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن من الشعر لحكمة» رواه ابن عمر رضى الله عنه قال: تعلموا الشعر فإن فيه محاسن تدبغى ومساوى تُتقى. وحكمة للحكام ويدل على مكارم الأخلاق.

قوله: «يا خاطب الدنيا الدنية»، أى التى لا خير فيها. شرك: مصاد. الردى: الهلاك. قرارة: موضع يستقر فيه الماء. الأكدار: ما يتكرر به الماء الصافى.

أظَلَّ: دنا وقرب. ينتفع: يرتوى. صدى: عشاء. جهامه: سحابه الذى لا ماء فيه. الغرار: الخداع. تنقضى: تنقطع وتتم، أراد أن الدنيا تُهلك مَنْ فيها، فكفى بالأسير عن ذلك وأسير الموت لا يُفدى. الجلائل: جمع جلية وهى الشئ الرفيع، وتقدمت الأخطار. مزده: مُعجب. غرورها: خداعها. متمرداً: متجاوزاً الحد فى الفساد.

الجنّ: التّرس . أولفت : جعلتها تلغ الدم . المدى ، جمع مُدَيّة : السكين .
نزت : وثبت عليه . الثّار : طلب الدم ، وأراد أنها لما بسطت الأرزاق للإنسان
فأعجب بها ، وركب رأسه في الفساد تحوّلت عليه ، وسقت سيّئتها من دمه ، والعرب
تقول : قلبت له ظهر المَجْنّ ، أى غيّرت له حالى ، وهو مثل يضرب للمحاربة بعد
المسألة ، وأصله في الحرب ، لأن الرجل إذا صالح صاحبه جعل بطن مِجَنَّهُ مما يلي
صاحبه المصالح ، فإذا حاربه قلب له ظهره للقتال . ومن جواب رسالة المهلب إلى
الحجاج : وزعمت أنى إن لم ألقهم في موضع كذا أسرع إلى صدر الرمح ، فلو فعلتُ
لقلبْتُ إليك ظهر الجن ، ثم إذا كانت الواقعة ، فهذا يبين ما ذكرناه .

اربأ بعمرّك ، أى ارفع عنها نفسك واحتفظ فيها بعمرّك ، وتقول : ربأتُ القومَ
أى صرت لهم ريثة ، وهو الحارس لهم ، والمربأ : الموضع المشرف الذى يقعد فيه
الناظر ، فعنى اربأ بنفسك : أى ارتفع بموضع ممتنع واحترس فيه لتنجو . سُدّى :
مهملاً . استظهار : استعداد ، وقد استظهرت بالشئ فظهرت به وأظهرته إذا جعلته
خلف ظهرّك حماية ووقاية ، والظهير المعاون . والعلائق : كل ما يعلق القلب بحب
الدنيا . والرفاهة : الخفض والعيش الهنىء . الأسرار : البواطن ، يريد أن مرّ
الإنسان وخاطره إذا قطع علائق الدنيا كان مترقهاً خالى السر والبال . ارقب :
احرس . سالت : صالحت . كَيْدَها : مكرها . الغدار : الذى يؤمّنك فإذا أمنتَه
خانك . وتوثبه : تهيّؤه للوثب عليك . خُطوبها : أمورها ونوازلها . تفجأ :
تأتى على غفلة . ونت : فترت : والسرى : مشى الليل . الأقدار : ما يقدره الله على
العبد من خير أو شر ، فيقول : إذا أمنتك الدينام من مكرها ، فلا تأمنها فخطوبها
تأتى على غفلة بعد أمد طويل ، وضمّن هذا الشعر وصايا في التحذير من الدنيا .

* * *

[ذكر التحذير من الدنيا وغرورها]

ونسوق هنا من النظم والنثر ما ينتظم فى سالك ما نظم ، قال النبىّ صلى الله
عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .

(٧ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

وقال: « الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ومن أخذها
بغير حقها كان كالآكل الذي لا يشبع » .

وقيل لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : صف لنا الدنيا ، فقال : ما أصف من
دار أولها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب ؛ من استغنى فيها
فُتِن ، ومن افتقر فيها حزن .

وقال ابنه محمد بن الحنفية : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .
وقيل لبعض الحكماء : صف لنا الدنيا ، فقال : أملّ بين يديك وأجلّ مطلّ
عليك ، وشيطان فتّان ، وأمانيّ جرّارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وترجرها
فتخيب .

وقيل لآخر : صف لنا الدنيا ، فقال : ناقضة للعزيمة ، مرجعة للعطية ، كل
حَنّ فيها يجرى إلى مالا يدرى .

وقال هارون الرشيد : لو قيل للدنيا : صفى نفسك ، ما وصفت نفسها بأكثر من
قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا ليدبّ تكشّفتْ له عن عدوّ في ثياب صديق^(١)
وقال آخر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسه تنحّ عن خطبتها تسلم^(٢)
إن الذي تخطب غداً قريبة العرس من المأتم
وقال أبو العرب الصقلي :

ولا يفرك منها حسن بُردٍ له علّمان من علم الذّهابِ
فأوله رجاء من سرابٍ وآخره رداء من ترابٍ

(١) ديوانه ١٩٢

(٢) العقد ٣ : ١٧٤ من غير نسبة .

وقال أبو العتاهية ،

أصبحت الدنيا لنا فتنّةً والحمد لله على ذلِكَ^(١)
قد أجمع الناس على ذَمِّها وما أرى منهم لها تاركاً
وله أيضاً :

هي الدنيا إذا كملت وتمَّ سرورها خذلت^(٢)
وتفعل في الذين بقوا كما فيعن مضي فعلت
وقال المتنبي :

أبدًا تستردّ ما تهب الدنـ يا فياليئت جودها كان بخلاً^(٣)
وهي معشوقة على الغدر لا تحـ فظ عهدا ولا تُتمّم وصلًا
كلّ دمع يسيل منها عليها وبفك اليدين عنها تخلى
شيم الغانيات فيها فلا أد رى لذا أنث اسمها الناس أم لا
وله أيضاً :

فدى الدار أخون من مؤمسٍ وأخدع من كفة الحابل^(٤)
تفاني الرجال على حبّها وما يحصلون على طائل
وقال المعري :

وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما جنى النحل أصنافُ السقاء الذي نجى^(٥)
على أم دفرٍ غضبة الله إنها لأجدر أنثى أن تحون وأن تُخني^(٦)

(١) ديوانه ١٨٦ -

(٢) العقد ٣ : ١٧٤

(٣) ديوانه ٣ : ١٣١ -

(٤) ديوانه ٣ : ٣٣ -

(٥) سقط الزند ٩١٩ . وجنى النحل ، هو العسل .

(٦) أم دفر ، كنية الدنيا . والدفر : التنن . وأخنى عليه الدهر : أهلكه .

كعاب دُجاها فرعُها ونهارها محيّا لها قاهت له الشمسُ بالحسن^(١)
 كأنّ بنيتها يولدون وما لها حليلٌ فتعشى العار إن سمعت يابن^(٢)
 وقال ابن عبدربه :

ألا إنّما الدنيا غضارة أيكّة إذا اخضر منها جانبٌ جفّ جانب^(٣)
 هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائب
 فلا تكتحلّ عينك فيها بعبرة على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهب
 وقال أبو العتاهية :

رضيت بذى الدنيا ككل مكائِر ملحّ على الدنيا وكل مفاخر^(٤)
 ألم ترها ترقيّه حتى إذا سما فرّت حلقه منها بشفيرة جازِر
 وقال أبو بكر البلوى :

إنّ الذى أصبح لا والد له على الأرض ولا والدّة
 قد مات من قبلهما آدم فأى نفس بعده خالدة
 إن جئت أرضاً أهلها كلهم عورٌ فقمض عينك الواحدة
 وقال ابن عمران :

أفّ لدنيا قد شُفِفتنا بها جهلاً وعقل للهوى متبع
 فتانّةٌ تخدع طلائبها فلا تكن ممن بها ينخدع
 أضغث أحلام إذا حُصّلت أو كوميض البرق منها لمع

(١) شبه الدنيا بالكعاب ؛ وهى الفتاة التى تكعب نديها .

(٢) قال البطانيوسى فى شرح هذا البيت : الواد : وضع التراب على الميت وتركه ؛ شبه الدنيا فى إهلاكها لأبنائها بامرأة زانية تخشى الفضيحة إذا ظهر لها ولد ، فهى تدفنه لتتطمأنّ أمره والحليل الزوج .

(٣) العقد لابن عبدربه ١ : ١٧٥ .

(٤) العقد ٣ : ١٧٤ :

وقال ابن قاضي ميلة :

لدينا نورٌ ولكنهُ ظلامٌ يَحَارُّ بِهِ البَصِيرُ
فإن عشت فيها على أنها كما قيل قنطرة تُعْبَرُ
فلا تعمُرْ بها منزلاً فإن الخراب لما تُعْمِرُ
ولا تَذخرنْ خلافَ التقى فتفى ويبقى الذى تَذخرُ
ابن عمران : واعلم أن الإنسان لا يحب شيئاً إلا أن يجانسه فى بعض طباعه ،
وإن الدنيا جانست الإنسان فى بعض طبائعه فأحبّها بكله .

وقال :

نُراعُ لذكر الموت فى حال ذِكْرِهِ وتعترض الدنيا فنلهو ونَلْعَبُ (١)
ونحن بنو الدنيا خُلِقْنَا لغيرها وما كنت منه فهو شئ محبَّبُ
وقال إبراهيم بن أدهم :

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ (٢)
فطوبى لعيدٍ آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع
وهذا مثل قول أعرابيّ وقد قيل له : كيف أنت فى دينك ؟ فقال : أخرقه
بالمعاصى ، ولا أرقعه بالاستغفار .

وللاعمى التطيّل :

تنافس الناس فى الدنيا وقد علموا أن سوف تقتلهم لذاتهم بدداً (٣)
قل للمحدث عن لقمان أو لبداً لم يترك الدهر لقماناً ولا لبداً
وللذى همّه البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر فى الثرى أحداً
ما لابن آدم لا تفنى مطالبه يرجو غداً وعسى ألا يعيش غداً

(٢) المقدم ٣ : ١٧٦ .

(١) المقدم ٣ : ١٧٦ .

(٣) ديوانه ٢٧ .

تأمل هذه المقاطع فإنها تضمنت حكماً وآداباً وكل قطعة منها ، لها تعلق بشعر الحريري إما باللفظ أو بالمعنى .

* * *

فقال الوالي : ثمّ ماذا ، صنع هذا ؟ فقال : أقدمَ للؤمة في
الجزاء ، على أيّياتي السُداسيّة الأجزاء ، خذف منها جزأين ، وتقصّ
من أوزانها وزنين ؛ حتّى صارَ الرُزءُ فيها رُزأين . فقال له : بين
ما أخذ ، ومن أين فَلَذ ؟ فقال : أرغني سمعك ، وأخلّ للتفهم عني
ذرْعك ؛ حتّى تتبين كيف أصَلت على ، وتقدرَ قدرَ اجتراحِهِ إلى ؛
ثمّ أنشد ، وأنفاسه تتصعّد :

ياخاطب الدنيا الدنيّة إنّها شَرَكُ الرّدى
دارٌ متى ما أضحكْتَ في يومها أبكتْ غداً
وإذا أطلَّ سحابُها لم ينتفعْ منه صدَى
غاراتها ما تنقضى وأسيرُها لا يُفْتدى
كم مُزدٍ بغرورها حتّى بدا مُتَرَدِّداً
قلبتْ له ظهرَ المَجَنِّ وأولّنتْ فيه المُدَى
فاربأ بعُمرِكَ أن يَمُرَّ مُضِيْعاً فيها سُدَى
واقطعْ علائقَ حُبِّها وطلائِها تَلقَ الهدى
وارقُبْ إذا ما سألَت من كَيْدِها حَرْبَ العِدا
واعلم بأنَّ خطوبها تفجأ ولو طال المَدَى

فالتفتَ الوالي إلى العُلام وقال : تَبَّا لَكَ مِنْ خَرِيٍّ مَارِقٍ ،
وتلميذٍ سَارِقٍ ! فقال الفُتَى : برئت من الأدب وبنيه ، ولحقتُ بِمَنْ
يُناوِيهِ ، ويقوِّضُ مَبَانِيهِ ؛ إن كانتْ أَيْبَاتُهُ نَمَتْ إلى عِلْمِي ، قبل أن
أَلْفَتُ نَظْمِي ؛ وإنما اتَّفَقَ تَوَارِدُ الْخَاطِرِ ، كما قَدْ يَقَعُ الْخَافِرُ عَلَى
الْخَافِرِ .

* * *

قوله : أقدم أى تقدم . لؤمه فى الجزاء ، يريد أنه جازاه على ما فعل معه
من الخير مجازاةً لئيمٍ ، فسرق شعره . السادسة الأجزاء ، لأن عروضها من السكاهل ،
وأجزاءها متفاعِلن ست مرات : الرّزء : المصاب . قَلَدَ : قطع . أُرْعَى سَمْعَكَ :
أى اسمع منى . ذَرَعَكَ : بالك وقلبك . أَصَلَتْ : جرد سيفه . تَتَصَعَّدُ : تتطلع إلى
فوق . الْخَرَّيجُ : الذى خرّجه معلمه ، وفلان خَرَّيجُك ، أى الذى خرج بتهديبك
وتعليمك . مَارِقٌ : خارج عن الطاعة . وتلميذ : طالب متعلم . برئت : زُلتُ
وانفصلت . يناويه : يعاديه . يقوِّضُ : يَهْدِمُ . نَمَتْ : انصلت . ونميت الحديث
أسندته . أَلْفَتُ نَظْمِي : جمعت شعري .

توارد الخواطر : تواطؤ الأذهان ، أى وقع لذهن الفتى من الكلام ما وقع
لذهن الشيخ ، مثل الخافر الذى وقع على الخافر .
وهذا الكلام يُعزَى لأبى الطيب المتنبي ، وسئل عن اتّفاقات الخواطر ، فقال :
الشعر مِيدَانٌ ، والشعراء فرسان ، فربّما اتَّفَقَ تَوَارِدُ الْخَواطرِ ، كما قد يقع الخافر
على الخافر .

قال الأصمعى رحمه الله تعالى : قات عمرو بن العلاء : أَرَأَيْتَ الشاعِرَيْنِ يَتَفَقَّانِ
فى المعنى ويتواردان فى اللفظ لم يلق أحدهما صاحبه ، ولا سمع شعره ؟ فقال لى :
تلك عقول رجال توافقت على ألسنتها .

[نبذ في توارد الخواطر]

ومن مشهور ذلك ما وقع في القصيدتين البائيتين لامرئ القيس وعلقمة ، وكذلك اتفاقه مع طرفة في قوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أمي وتجلد^(١)
وقال امرؤ القيس^(٢) : وتجمدا .

ومن توارد الخواطر قول ربيعة بن مقروم .

لو أنها عرضت لأشمت راهب عبد الإله ضرورة متبذل
وقال النابغة^(٣) : « ضرورة متعبد » :
وقال :

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولهم من تامله يتنزل
وقال النابغة :

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها وناله رشداً وإن لم يرشداً^(٤)
تامله : صومعته .

ومن ذلك ما حكى أبو علي أنه خرج جرير والفرزدق مردفين إلى هشام
ابن عبد الملك ، فنزل جرير يبول ، فتلفت الناقة فضر بها الفرزدق وقال :
إلام تلفتين وأنت تحتي وخير الناس كلهم أمامي^(٥)

(١) من المعلقة ؛ ديوانه ٣٠ .

(٢) من فوله في ديوانه ص ٩ .

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أمي وتجلد
(٣) من فوله في ديوانه ٣١ .

لو أنها عرضت لأشمت راهب عبد الإله ضرورة متعبد
واظطر الشعر والشعراء ١١٤ .

(٥) الأغاني ٩ : ١٦٩ .

(٤) ديوانه ٣٢ .

مَتَى تَرْدَى الرِّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي مِنْ التَّهْجِيرِ وَالذَّبَرِ الدَّوَامِي (١)
ثُمَّ قَالَ : الْآنَ يَحْيَى جَرِيرٌ ، فَأَنشَدَهُ الْبَيْتَيْنِ فِيرَدَ عَلَى :

تَلَفْتُ أَنَّهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ إِلَى الْكَبِيرِينَ وَالْفَأْسِ الْكَهْمَامِ (٢)
مَتَى تَأْتِ الرِّصَافَةُ تَخْزَنَ فِيهَا كَخِزْيِكَ فِي الْمَوَاسِمِ كُلِّ عَامٍ

قال : فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : مَا يُضْحِكُكَ يَا أَبَا فِرَاسٍ ؟
فَأَنشَدَهُ الْبَيْتَيْنِ ، فقال جرير : تَلَفْتُ أَنَّهَا الْبَيْتَيْنِ .. كما قال الفرزدق سواء ، فقال :
وَاللَّهِ لَقَدْ قَاتَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، فقال جرير : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ شَيْطَانَنَا وَاحِدَ .

ومر (٣) رجل بالفرزدق بالمِرْبَدِ فقال : مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قال : مِنْ الْيَامَةِ ،
قال : فَأَيُّ شَيْءٍ أَحْدَثَ ابْنَ الْمَرَاغَةِ ؟ فَأَنشَدَهُ :

* هَاجَ الْهُوَى لِفَوَادِكَ الْمَهْتَاجِ *

فقال الفرزدق :

* فَانْظُرْ بِتَوْضِيحٍ بَاكِرٍ الْأَحْدَاجِ *

فقال الرجل :

* هَذَا هَوًى شَغَفَ الْفَوَادِ مَبْرَحٌ *

فقال الفرزدق :

* وَنَوًى تَقَاذِفُ غَيْرَ ذَاتِ خِلَاجِ (٤) *

فقال الرجل :

* إِنَّ الْغَرَابَ بِمَا كَرِهْتَ لَمَوْلَعٌ *

(١) التهجير : المشي في الهاجرة . والدبر : فرحة في الدابة .

(٢) ديوانه ٥٠٢

(٣) ديوانه ٨٩ ، بدائع البدائنه ٦٣ ، والأحداج : جمع حديج ، وهو من مراكب النساء .

(٤) الخلاج : الشك .

فقال الفرزدق :

* بنوى الأحبة دائم التشعاج *

فقال الرجل: هكذا والله قال: أفسمعتها من غيري؟ قال: لا ولكن هكذا ينبغي أن يقال، فقال: أما علمت أن شيطاننا واحد.

ودخل الفرزدق على امرأة من عَقِيل فحدثها، وأقبل فتى من قومها كانت تألفه، فدخل فأقبلت عليه تحدّثه، وتركت الفرزدق، فغاضه ذلك، وقال للفتى: أتصارعنى؟ قال: ذلك إليك فقام الفرزدق فلم يلبث أن أخذه الفتى مثل الكرة فصرعه، وجلس على صدره، فضرط الفرزدق، فوثب الفتى عنه وقال: هذا مقام العائذ بك، والله ما أردتُ ما جرى، فقال: والله ما بى ذلك، ولكن كأتى بآبن المراغة جرير قد بلغه الخبر، فقال:

جلستَ إلى ليلٍ لتحظى بقرّبها فخانك دهرٌ لا يزال خثون
فلو كنت ذا حزم شددت وكاءها كما شدّ خرّقا بالدلاص قيون
فلما بلغ الخبر جريراً قال البيتين.

وأمر^(١) سليمان بن عبد الملك الفرزدق أن يضرب رقاب أمرى فاستعفاه، فلم يفعل، وأعطاه سيفاً لا يقطع، فضرب به عنق رومى فنبأ السيف، فضحك سليمان ومن حوله، فجلس وهو يقول:

أيعجبُ الناسُ أن أضحكتُ سيّدَهُم خليفةَ اللهِ بسُتسقى به المطرُ
لم يذبُ سَيْفِي عن رُغْبٍ ولا دهشٍ عن الأسيرِ ولكنْ أحرَ القَدَرُ

ثم قال: ما إن يعاب فرس إذا كبا، ولا يعاب صارم إذا نبا، ثم جالس.

(١) الخبر في تاريخ الطبرى ٦: ٤٧٥، ٥٤٨، الأغاني ١٥، ٣٤٣.

وهو يقول : كَأَنِّي بَابِنِ الْمِرَاغَةِ قَدْ بَلَغَهُ الْخَبَرُ فَقَالَ :

بَسِيفٍ أَبِي رَغْوَانَ سَيْفٍ مَجَاشِعٍ ضَرَبْتُ وَلَمْ تَضْرِبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمٍ
ضَرَبْتُ بِهِ عِنْدَ الْإِمَاءِ فَأَرَعِشْتُ يَدَاكَ وَقَالُوا مَحْدَثٌ غَيْرُ صَارِمٍ
ثُمَّ قَالَ : كَأَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَابِنِ الْقَيْنِ قَدْ أَجَابَنِي فَقَالَ :

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكُهُمْ إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ
فَأَخْبَرَ الْفَرَزْدَقُ الْقِصَّةَ ، فَقَالَ :

كَذَلِكَ سَيْوْفُ الْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاثُهَا وَتَقْطَعُ أحيانًا مَنَاطَ التَّمَامِ
وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكُهُمْ إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ
وَهَلْ ضَرْبَةُ الرُّومِيِّ جَاعِلَةٌ لَكُمْ أَبَا عَنْ كَلْبِيٍّ أَوْ أَبَا مِثْلِ دَارِمِ

٩ فهذا إن صح من أعجب اتفاق الخواطر .

وقال الأقيشر :

جَرَيْتُ مَعَ الْهَوَى طَلَقَ الْعَتِيقِ وَهَانَ عَلَى مَأْثُورِ الْفُسُوقِ (١)
وَجَدْتُ أَلَدَّ عَارِيَةِ اللَّيَالِي قِرَانَ النِّعَمِ بِالْوَتْرِ الْخَفُوقِ
وَمَسْمَعَةً إِذَا مَا شَتَّ غَنَّتْ مَتَى نَزَلَ الْأَحْبَبَةُ بِالْعَتِيقِ
تَمْتَعُ مِنْ شِبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى وَصَلَ بِعُرَا الصَّبُوحِ عُرَا الْغَبُوقِ

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى :

جَرَيْتُ مَعَ الْهَوَى طَلَقَ الْجُمُوحِ وَهَانَ عَلَى مَأْثُورِ الْقَبِيحِ (٢)
وَجَدْتُ أَلَدَّ عَارِيَةِ اللَّيَالِي قِرَانَ النِّعَمِ بِالْوَتْرِ الْفَصِيحِ

(١) الوساطة ١٩١ ، ١٩٢ ، قال : وأنا أرتاب بأبيات الأقيشر ، فإنها لا تشبه شعره .
ولم أرها في ديوانه . وانظر سرقات أبي نواس لمهلل . بن يعقوب ٨٣ .
(٢) ديوانه ٢٥٧ .

ومسمعةً إذا ما شئت غنَّت متى كان الخيام بذى طلوح
تمتّع من شباب ليس يَبْقَى وصلٍ بعراً الغبوق عراً الصَّبوح
ومن ذلك مانسب السرى للخالدى فيما قدّمناه من سرقة شعره، قال السرى^(١) :

وكان كاس مدامها لما ارتدت بمحبابها

توريد وجنتها إذا ملاح تحت نقابها

وقال أبو بكر الخالدى :

فكان الكأس لما ضحكت تحت الحجاب^(٢)

وجنةً سحراء لاحت لك من تحت النقاب

وقال السرى فى وصف جام فيه فالزوج :

بأنحر مبيض الزجاج كأنه رداء عروسٍ مشربٍ بمخلوق^(٣)

له فى الحشا برد الوصال وطيبه وإن كان تلقاه بلون حريق

كانّ بياض اللوز فى جنبانه كواكبٍ دُرّ فى سماءٍ عقيق

وقال أبو بكر الخالدى :

مُداماً كأنّ الكفّ من طيبٍ نشرها وصُفرتها قد خلّقت بمخلوق^(٤)

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ وقبله هناك ،

إذا شئت أن تجتاح حقاً بباطلٍ وتفرق خصماً كان غير غريق

فسائل أبا بكرٍ تجذّ منه سالكا إلى ظلماتِ الظلم كل طريق

ولاطفه بالشّهد الخلق وجهه وإن كان بالإلطف غير حقيق

(٤) يتيمة الدهر ٢ ، ١٦٣ . وقبله .

ألا فاستنى والليل قد غاب نوره لفيّةٍ بدرٍ فى الغمام غريق

وقد فضح الظلماء برق كأنه فؤاد مشوقٍ مولعٍ بمخفوقٍ

نُعَانِيهَا نَوْرًا عِلَاهُ تَجَسَّدٌ وَنَشْرِبُهَا نَارًا بَغِيرَ حَرِيقٍ
كَأَنَّ حَبَابَ الْمَاءِ فِي جَنَبَاتِهَا كَوَاكِبُ لَاحَتْ فِي مِمَاءٍ دَقِيقٍ
وَقَالَ السَّرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

رَأْتُ شَيْبًا يُصَاحِبُنِي فَصَدَّتْ وَكَانَ جَزَاؤُهُ مِنْهَا الْعُبُوسَا^(١)
وَقَالَتْ إِذْ رَأَتْ الْمُسْطَ فِيهِ سَوَادًا لَا يَشَا كُلَّهُ نَفِيسَا
تَلَقَّى الْعَاجَ مِنْهُ بِمُسْطٍ عَاجٍ وَدَعِ لِلْأَبْنُوسِ الْآبَنُوسَا
وَقَالَ أَبُو عُمَانَ أَيْضًا :

وَقَفْتَنِي مَا بَيْنَ هَجْرٍ وَبُوسٍ وَاتَّثَنَتْ بَعْدَ ضِحْكَةٍ بَعْبُوسٍ^(٢)
وَرَأْنِي مَسْطَتَ عَاجَا بِعَاجٍ وَهِيَ الْآبَنُوسُ بِالْآبَنُوسِ
وَهَذَا إِمَّا تَوَارَدَ أَوْ تَسَابَقَ ، وَالتَّسَابُقُ أَشْبَهُ بِهِمْ .

* * *

قَالَ : فَكَأَنَّ الْوَالِيَّ جَوَّزَ صَدَقَ زَعْمُهُ ، فَندَمَ عَلَى بَادِرَةِ ذَمِّهِ ؛
فَظَلَّ يَفْكَرُ فِيمَا يَكْشِفُ لَهُ عَنْ الْحَقَائِقِ ، وَيُعَيِّرُ بِهِ الْفَائِقِ مِنَ
الْمَائِقِ ، فَلَمْ يَرِ إِلَّا أَخَذَهَا بِالْمُنَاضِلَةِ ، وَلَزَّهَا فِي قَرْنِ الْمُسَاجِلَةِ .
فَقَالَ لَهُمَا : إِنَّ أَرْدَتَا افْتِضَاحَ الْعَاطِلِ ، وَاتِّضَاحَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ،
فَتَرَا سِلَاقَ النَّظْمِ وَتَبَارِيَا ، وَتَجَاوَلَا فِي حَلْبَةِ الْإِجَازَةِ وَتَجَارِيَا ؛
لَيْسَ لَكَ مِنْ هَلِكٍ عَنْ يَتْنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ يَتْنَةٍ ؛ فَقَالَا لَهُ بِلِسَانٍ
وَاحِدٍ ، وَجَوَابًا مَتَوَارِدًا : قَدْ رَضِينَا بِسَبْرِكَ ، فَرَنَا بِأَمْرِكَ .

فَقَالَ : إِنِّي مَوْلَعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ بِالتَّجْنِيسِ ، وَأَرَاهَا كَالرَّيْسِ ؛

(١) ديوانه ١٥٥ .

(٢) بَيْقِيَّةُ الدَّهْرِ ٢ : ١٨٢ .

فانظماً الآن عشرة أبيات تلحمانها بوشيه، وترصعانها بحليه، وضمناها
شرح حالي مع ألف لي بديع الصفة، ألقى الشفه، مابيح التثني،
كثير التيه والتجني، مغرئ بتناسي العهد، وإطالة الصد، واختلاف
الوعد؛ وأنا له كالعبد.

* * *

قوله : زعمه ، الزعم قول معه اعتقاد . بادرة : سابقة وهي الكلمة الرديئة
تبدر من التكلم . الفائق : الفاضل ، وفاق الناس ، فضاهم وعلاهم بقول أو علم .
المائق : الأحق الضعيف التديير . المناضلة : المراماة . لزها : ضمها وشدها .
قرن : جبل يقرن بين الشيتين .

[المساجلة ومثل منها]

المساجلة : أن يستقي ساقيان فيخرج كل واحد منهما من الماء مثل ما يخرج
الآخر ، فأيهما نكل فقد غلب ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يَسَاجِلُ مَا جَدَا يَمْلَأُ الدُّلُو إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(١)
وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ مِنْ بَيْتِ الْعَرَبِ

ومرّ الفرزدق بالفضل ، وهو يستقي وينشد البيتين ، فشمر ثيابه عن نفسه ،
وقال : أنا أساجلك ، ثقة بنسبه ، فقليل له : هذا الفضل بن العباس ، فردّ ثيابه
وقال : ما يساجله إلا من عَضَّ أُرْأْيِيهِ . ثم صارت المساجلة يقصدها قصد المفاخرة ،
وأراد هنا بالمناضلة والمساجلة ، أن يقول هذا بيتا ، وهذا بيتاً حتى يُعلم لمن الغلب .
وأكثر ما جرت به العادة فيها بأنصاف الأبيات كما شهر في قصة امرئ القيس

(١) البيت الأول في اللسان — سَجَل ، ونسبه للفضل بن عباس بن عتبة .

والتوهم حين قال امرؤ القيس :

* أحرار تَرى بُرِّيقاً هَبَّ وَهنا *

فقال التوهم :

* كنار جُجُوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعَاراً *^(١)

ثم مضيا على القطعة بالأَنصاف حتى كملت ، وهى مشهورة .

قال أبو العيَّاء : وقف على غلام يسألنى ما أحسبه بلغ الحلم ولا قاربَه
وخرج غلام لى أسود قد اغتسل ، وهو يرعد ، وكان خبيثاً ، فأومأتُ إلى
الأسود قلت :

* كأنه ذئب غَضَى أزل *

فقال الغلام :

* باتَ التَّدَى بضربُهُ والَطَّلُ *

فوصلته بدارهم وانصرف .

واجتاز ابن أبى الخصال مِنْ بلدِه شقورة بأبدة ، وهو صبيّ صغير يطلب
الأدب ، فأضافه بها القاضي ابن مالك ، ثم خرج معه إلى حديقة معروشة ، فقطاف
لهم منها عنقوداً أسود ، فقال القاضي :

* انظُرْ إليه فى العَصَا *

فقال ابن أبى الخصال :

* كرأس زنجيِّ عَصَا *

فعلوا أنه سيكون له شأن فى البيان .

ومثل ذلك ما حدثنى به الشيخ الفقيه أبو الحسين بن زرقون عن أبيه
أبى عبد الله أن أبابكر بن المبجل وأبابكر بن الملاح السَّبْلِيِّين ، كانا متواخيين

متصافين ، وكان لهما ابنان قد برعا في الطلب ، وحازا قصب السبق في حابه
الأدب ، فهاجى الابنان بأفدع هجاء ، فركب ابن المبجل في سحر من الأسحار
مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتبه على هجاء ابن الملاح ، ويقول له : قطعت ما بيني
وما بين صفى أبي بكر بإفداعك في ابنه ، فقال له ابنه : إنه بدأني ، والبادئ أظلم ،
وإنما يجب أن يلحى من بالشر تقدم ، فعذره أبوه ؛ فبينما هما على ذلك إذ أقبل
على وادٍ تنق فيه ضفادع ، فقال أبو بكر لابنه أجز :

* تنق ضفادع الوادى *

فقال ابنه :

* بصوت غير معتاد *

فقال الشيخ :

* كأن نقيق مقولها *

فقال ابنه :

* بنو الملاح في النادى *

فلما أحست الضفادع بهما صمتت ، فقال أبو بكر :

* وتصمت مثل صمتهم *

فقال ابنه :

* إذا اجتمعوا على زاد *

فقال أبو بكر :

* ولا غوث للمهوف *

فقال ابنه :

* ولا غيث لمرتاد *

والإجازة بالأبيات بكلامها كثيرة مشهورة .
وحكى الماوردي أن الناس تذاكروا حفظ السرّ بمجلس عبد الله بن طاهر ،
فقال عبد الله :

ومستودعي ميرًا تَضَمَّنْتُ سَترَه فأودعته من مستقرّ الحشى قَبْرًا (١)
فقال ابنه عبيد الله ، وهو صَبِي :

وما السرّ في قلبي كُثَاوٍ بِحَفرة لأنى أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكننى أخفيه حتى كأنه من الدهر يوماً ما أحطتُ به خُبْرًا
وحكى الفقيه أبو الحسن أن أباه حدثه أن الأديب أبا الطاهر بن أبي ركب (٢) ،
حضر عنده بَسْبَنَة بقرية شنان في عَقَب شعبان لاستقبال رمضان ، فأكل مع
مَنْ حضر ضروبًا من الأطعمة والألوان ، فقال أبو الطاهر رحمه الله تعالى
لأبي عبد الله بن زرقون أجز :

حدثت لشعبان المبارك شَبْعَةً تسهّلُ عَنى الجوع في رمضان
فقال أبو عبد الله رحمه الله تعالى :

كما سَجد الصبّ المتيمّ زورة أطاق لها الهجران طولَ زمانٍ
فقال أبو الطاهر :

دَعَوْها بشعبانية فلو أنهم دَعَوْها بشعبانية لكفانى (٣)
وحدثنى أيضاً أن أباه شيخنا الفقيه أبا عبد الله المذكور قعد مع صهره
أبي الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب على بحر الجواز ، وهو مضطرب الأمواج ،
فقال له أبو الحسن : أجز :

وملنظم الفوارب موجّة . بوارحُ في مناكبها غيومُ

(١) الشعر والخبر في كتاب أدب الدنيا والدين ٢٨ برواية مخالفة .

(٢) كذا ضبط في فتح الطيب ، بفتح الراء وسكون الكاف .

(٣) الخبر في تحفة القادم ٣٣ ، وفتح الطيب ٤ : ٣٢٣ .

(٨ — شرح مقامات الحريري ج ٢)

فقال أبو عبد الله :

تَمْنَعُ لَا تَعُومُ بِهِ سَفِينٌ وَلَوْ حَدَقْتَ بِهِ الزَّهْرَ النُّجُومُ

* * *

قوله: «افتضح العاطل» أى شهرة الفارغ من قول الشعر . تراسلا : تجاريا، والتراسل فى الغناء والنشيد، أن يتجاذب الصوت المغنيان، والتراسل فى الخيل، أن ترسل فرسين فى الطلق (١).

نباريا : تجاريا . وتجاوزا : تصرفا . والحلبة يأتى ذكرها فى المقامة ، وأراد تجاريا فى الشعر كما يتجارى خيل الحلبة فى الميدان ، سبرك : قياسك وتجربتك لنا . متوارد : متسابق متتابع . والتجنيس : أن تكون الألفاظ متناسبة والمعانى متباينة . تلحمانها : تنسجانهما . وشيه : رقه . ترصعانهما : ترينانهما ، وكل ما خرزته أو عقدته فهو مرصع . إلف : معشوق يؤلف ويؤنس به . بديع : غريب . ألتى : أثمر ، وألتى أن تقعق حمرة الشفة حتى تضرب إلى السواد . التثنى : الانطفاف . التيه : الإعجاب والاحتقار بغيره . التجنى : ادعاء الجناية على عاشقه ، وذلك أن المعشوق يحسب كل ما يفعله عاشقه ذنباً عليه وجناية ليتوصل بذلك إلى هجره ، ثم سقى الصد والإعراض تجنياً . مغرى : مولع . والتناسى : استعمال النسيان . أراد أنه يعد عاشقه بالزيارة وغيرها فإذا ذكر بها قال : نسيت . والصد : الإعراض .

* * *

قال: فبرز الشيخ مجلياً ، وتلاه الفتى مُصَلِّياً ؛ وتجاريا بيتاً فيتاً على هذا النسق ، إلى أن كمل نظم الأبيات واتسق ، وهى :

وأحوى حوى رقى برقة ثغره وغادرني إلف الشهاد بغدره
تصدى لقتلى بالصدود وإنني لئن أسره مذن حاز قلبي بأسره

(١) الطلق : الشوط فى جري الخيل .

أَصْدَقُ مِنْهُ الزُّورَ خَوْفَازُورَارِهِ وَأَرْضَى اسْتِمَاعَ الْهَجْرِ خَشْيَةَ هَجْرِهِ
وَأَسْتَعْذِبُ التَّعْذِيبَ مِنْهُ وَكَلَّمَا أَجَدَّ عَذَابِي جَدَّ بِي حُبُّ بَرِّهِ
تَنَاسَى ذِمَامِي وَالتَّنَاسَى مَذْمَمَةُ وَأَحْفَظَ قَلْبِي وَهُوَ حَافِظُ سِرِّهِ
، أَعْجَبَ مَا فِيهِ التَّبَاهِي بِعُجْبِهِ وَأَكْبَرُهُ عَنْ أَنْ أَفُوهَ بِكِبَرِهِ
لَهُ مِنِّي الْمَدْحُ الَّذِي طَابَ نَشْرُهُ وَلِي مِنْهُ طَى الْوَدَّ مِنْ بَعْدِ نَشْرِهِ
وَلَوْ كَانَ عَدْلًا مَا تَجَنَّى وَقَدْ جَنَى عَلَى وَغَيْرِي يَجْتَنِي رَشْفَ ثَغْرِهِ
وَلَوْلَا تَثْنِيهِ ثَنَيْتُ أُعْنَتِي بَدَارًا إِلَى مَنْ أَجْتَلِي نُورَ بَدْرِهِ
وَإِنِّي عَلَى تَصْرِيفِ أَمْرِي وَأَمْرِهِ أَرَى الْمَرَحْلُولَا فِي انْقِيَادِي لِأَمْرِهِ

* * *

على هذا النسق ، أى على هذا التابع والانضمام . اتسق : انضمم واجتمع .
ونسقت الشيء بالشيء ضممته إليه . أحوى : أسمر الشفة ، وألحوة : حمرة تضرب إلى
السواد ، يقال : شفة حواء حمراء . رقى ، أى ملكى ، والرتقى الملك ، ورقق الرجل
رققا : صار عبداً . برقة لفظه : بحلاوة كلامه . غادرنى إلف السهاد : تركنى صاحب
سهر . بندره : بقله وفائه . تصدّى : تعرّض . أسرّه : حبسه . بأسره : بمجملته .
والزور : الكذب . ازوراره : انقباضه ، والهجر : الفحش . أستعذب : أستطيب .
أجدّ عذابي : جدّد عذابي . جدّ : زاد واجتهد . برّه : إكرامه ، يريد متى
زادنى عذاباً وهجراناً زدت فيه حباً وبراً . ذِمَامِي : عهدى . مذمة : عيب .
أحفظ : أغضب . التباهى : التفاخر . أكبره : أعظمه وأراه كبيراً . أفوه :
أنطق . نشره : تحرّك راحته . رشف ثغره : تقبيل أسنانه . ثنيت : عطفت .
أعنتى : جمع عنان . أجتلى : أنظر . نور بدره : حسن وجهه ، يقول : لولا حسن
تثنيته لتركته وملت إلى غيره . ثم قال : وإنى على ما يلقانى به من الهجر والجفاء ،

وألقاه به من أبر والصناء ، ليرجع عندي المرء من أفعاله حلواً في اتّباعي لا يُحِبُّ
ويأمر به . وقد أنشدوا في ذلك :

لئن ساءنى أن نلتني بمساءٍ لقد سرّنى أنى خطرت ببالك^(١)
وقال في مثله :

وأهنتني فأهنتُ نفسى صاغراً ما من يهون عليك ممن يكرم^(٢)
فهذا غاية الانقياد لمراعاة مراد الحبيب .

وقال الشاعر :

ولقد منحتكم المودة محضةً وكتمت ما اشتعلت عليه ضلوعي
جازيتموني بالوصال قطيعةً شتان بين صنيعكم وصنيعي
فإذا أتيتك زائراً متشوقاً قصر الطريق وطال عند رُجوعي

وفي معنى قوله : « له مني المدح » يقول ابن رشيق ، وزاد معنى مستظرفاً :
أراك اتهمت أخاك الثقةً وعندك مقت وعندي مِقَّة^(٣)
وأنتى عليك وقد سؤتني كما طيب العود من أحرقة

وقال ابن زيدون :

بني جهورٍ أحرقتُمُ بجفائكم جنائي فما بال المدايح تعبق^(٤)
تعدوني كالنبر الندى إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرق
وهما وإن تواردا على هذا المعنى ، فإنما أخذهما من قول حبيب :

(١) ديوان الحماسة - بشرح الراجزي ٢ : ١٠٦

(٢) العقد ٥ ، ٣٧٥ من أبيات نسبها لأبي الشيعس .

(٣) تظله في التتف ٥١

(٤) ديوانه ٩٠

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العود^(١)

* * *

ونذكر هنا جملة من الشعر الرائق المستطرف الفائق ، تنسحب على أو صاف
الغلام المذكور ، وتعلق بشعر الحريري من جهة التجنيس ، أو من جهة الانقياد
للمحبيب وإن جفا وصد .

ونبدأ بذكر حكاية أبي إسحاق الحصري لتعلقها بما انبت عليه المقامة من
توارد الخواطر .

كان أبو إسحاق يختلف إلى بعض مشيخة القيروان ، وكان الشيخ كلفا بالمعذرين
وهو القائل :

ومعذرين كأن نبت خدودهم أقلام مسك تستمد خلوقاً
قرنوا البنفسج بالشقيق ونظّموا تحت الزبرجد لؤلؤا وعقيقاً
فهم الذين إذا الخلى رآهم وجد الهوى بهم إليه طريقاً
وكان يختلف إليه غلام من أعيان أشراف القيروان ، وكان به كافياً ، فبينما
هو عنده والحصري قد أخذ في الحديث إذ أقبل الغلام وهو يقول :

في صورة مكنت فخلت بأنّها بدرُ السماء لستة وثمان
يعشى العيون ضياؤها فكانتها شمس الضحى تعشى بها العينان

فقال الشيخ : يا حصري ، ما تقول فيمن هام بهذا الندى ، وصبا لهذا الخد ؟ فقال
الحصري : الهيمان والله بهذا غاية الظرف ، لا سيما إذا شام كافورة خده ذلك
المسك الفتيت ، وهجم على صبحه ذلك الليل البهيم ، والله ما خلت سواده في
بياضه إلا بياض الإيمان في سواد الكفر ، أو غيبها في ضوء الفجر . فقال للحصري :

صِفْهُ ، فقال : مَنْ مَلَكَ رِقَّ الْقَوْلِ حَتَّى انْقَادَ لَهُ صَعَابُهُ ، فَذَلَّ لَهُ جَوْحُهُ حَتَّى سَطَعَ
لَهُ شَهَابُهُ ، أَقْعَدُ مَنْى فِي ذَلِكَ ، فقال : صِفْهُ ، فَإِنِّي مَعْمَلٌ فِي ذَلِكَ فَكْرِي . فَأُطْرَقَ
سَاعَةٌ ، فَقَالَ الْحَصْرِيُّ :

أُورِدَ قَلْبِي الرَّدَى لَامٌ عِذَارٌ بَدَا
أَسْوَدُ كَالْكَفْرِ فِي أَيْضَ مِثْلِ الْهُدَى

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : أَرَأَيْكَ أَطْلَعْتَ عَلَى ضَمِيرِي ، أَوْ خُضْتَ بَيْنَ جَوَانِحِي ، فَقَالَ
لَهُ الْحَصْرِيُّ : وَلَمْ ذَاكَ ؟ قَالَ : لِأَنِّي قُلْتُ :

حَرَّكَ قَلْبِي فَطَارَ صَوْلِجٌ لَامٌ الْعِذَارُ
أَسْوَدُ كَاللَّيْلِ فِي أَيْضَ مِثْلِ النَّهَارِ

فَهَذِهِ غَايَةُ فِي بَابِهِ .

وَقَالَ السَّرِيُّ :

بَلَانِي الْحَبَّ فَيْكَ بِمَا بَلَّانِي فَشَأْنِي أَنْ تَفِيضَ غُرُوبُ شَانِي^(١)
أَبَيْتَ اللَّيْلَ مَرْتَقِبًا أَنَلَجِي بِصَدْقِ الْوَجْدِ كَاذِبَةُ الْأَمَانِي
وَيَشْهَدُ لِي عَلَى الْأَرْقِ الثَّرِيَّا وَيَعْلَمُ مَا أَقَامِي الْفَرْقَدَانِ^(٢)
سَتَصْرِفُ طَاعَتِي عَنْ نَهَائِي دَمُوعَ فَيْكَ تَلَحَّى مَنْ لَحَانِي
وَلَمْ أَجْهَلُ نَصِيحَتَهُ وَلَكِنْ جُنُونِ الْحَبِّ أَحْلَى فِي جَنَانِي
فِيَا وَلَعَ الْعَوَازِلِ خَلَّ دَنِي وَيَا كَفَّ الْغَرَامِ خَذَى عَنَانِي

وَهَذَا مِمَّا يَأْخُذُ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَيَحْتَوِي عَلَى التَّوَدُّينِ مِنَ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبِ .

(١) ديوانه ٢٦٨ ؛ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا أَبَا الْهَيْجَاءِ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ حَمْدِ اللَّهِ ، وَيَعَاتِبُهُ عَلَى جَفْوَةِ
لَحْنَتِهِ مِنْهُ ، وَقَدْ نَالَتْهُ عِلَّةٌ وَجَرَاحَاتٌ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ .

(٢) الديوان : « وَيَعْلَمُ — مَا أَجْنَى »

وقال السَّلامى :

ما ضنَّ عنك بموجود ولا بخَلَا أوزُّ ما عنده للنَّفْسِ التى بَدَلَا^(١)
يحكى المطايا حنيناً والهجير جَوَى والمُزَن دمعاً وأطلال الديارِ بَلَى
وقال أيضاً :

مُنيت بمنْ إذا منيت أفضت منأى إلى بنفسج عارضيه^(٢)
وافاضت رحمة لى حين ولَّى مدامعُ كاتِبِي وكاتبينه
وله فى غلام بدوى :

تعلَّقه بدوىً لِّلسانِ والوجه والزَّيْ ثُبَّتَ الجَنَانِ^(٣)
أعانق مَنْ قدَّه صَعْدَةً ترى اللحظ منها مكان السَّنانِ
أدار اللثامَ على خدِّه فأهدى الشقيقَ إلى الأقحوانِ
ومسك ذوائبه سائل على آس ديباجه الخسروانى
أحيَّيه بالورد والياشمــــين فيصبو إلى الشَّيخ والأَيُّهقانِ^(٤)

وله فى غلام غزى رام :

قرُّ من الأتراك تحسب أنه الـــــــخود الحصان على أقبِّ حِصانِ^(٥)
يرمى بِلَحْظَيْهِ القلوب وسهمُ فمَجِبَتْ كيف تشابه السهمانِ
بطلٌ حمائله كمارضه وحا جُبِّه الأَرْحُ كَقَوْسِهِ المِرْنانِ^(٦)
حَيَّتُهُ فدنا فأمطار راحتي قَبَلَا قايت فى مكان بنانى

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١

(٤) الأيهقان : عشب يطول وله وردة حمراء وورقه عريض (٥) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٥

(٦) القوس المرنان ، سميت بذلك لرنين صوتها .

والشريف الرضى :

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتني
أأسأت بالمشتاق حين ملكته
وتركتني ظمآن أرشف غلتي
قلبي وطرفي منك هذا في حبي
كم ليلة جرعتنه في طولها
تفلي أنامله السراب تعللاً
أبكى ويبسم والدجى ما بيننا
قمرٌ إذا استعجلته ^(٢) بعتابه
لو حيث يُستمع السرار وقفما
أعز على إذا امتلأت من الكرى

ألم الهوى من قلبي المضدوع ^(١)
وجزيت فرط نزاعه بنزوع
أسفى على ذاك اللعى المنوع
قيظ وهذا في رياض ربيع
مضض الملام وموالم التفرع
وأناملى في سنى المقروع
حتى أضاء بشغره ودموعى
لبس الغروب فلم يعد لطلوع
لمجبتما من عزه وخضوعى
أنى أيت بليلة المسوع

وللوزير ابن المغربى :

دَيفٌ بمصر وبالعراق طيبه
ماناله إلا الذى هو أهله
لزم السهاد تحيراً وتلدداً
زعم الفراق دعا به فأجابه
يُضنيه طولُ بعباده ويذيبه
إذ غاب عن بلد وفيه حبيبه
وتأسفاً إذ أوبقته ذنوبه
ونعم دعاه فلا أراه يحببه
وله أيضاً :

ولقد أراه فى الغدير يشقه من جانبيه
والماء مثل السيف وهو فرنده فى صفحتيه
صبغت بياض النيل حمرة وردة فى وجنتيه

(٢) الديوان : « استعجلته » .

(١) ديوانه ١ : ٤٩٧

ولابن الزقاق :

تَمَنَيْتُ مَنْ أَهْوَى بِهِ وَهُوَ قَاتِلِي
قَسَا فَرَمَانِي عَنْ قَسَى حَوَاجِبِي
أَذَلَّنَا دُمَاءَ فِي هَوَاهُ وَأَدْمَعًا
فَمَا بَرَحَ الشَّوْقُ الْمَبْرُحُ سَامِيَا
فَنَظَرُهُ وَالشَّغَرُ مِنْهُ وَتَرَفُهُ
لَشَمْسِ الضَّحَى وَالْدَّرِّ وَالْمِسْكِ نَفْحَةُ

وَرَبِّ مُنَى لِلْمَرْءِ فِيهَا مَنَابِيَا^(١)
تَنُوبُ لَهَا دَابَاعُنِ الرِّشْقِ عَيْنَاهُ
وَضَنَّ لَنَا ظُلْمًا بَطَلَمُ ثَنَابَاهُ
لَأَحْوَى حَوَى كُلِّ الْحَاسَنِ مَرَاهُ
وَقَامَتِهِ وَالرَّدْفُ مِنْهُ وَخَدَاهُ
وَعُصْنِ النِّقَاوَالِ عَصِ وَالْوَرْدِ أَشْبَاهُ

وَقَالَ أَيْضًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

وَمَهْفَهفٍ نَبَتِ الشَّقِيقُ بِخَدِّهِ
مَاءَ الشَّبِيهِ وَالْجَمَالِ أَرْقُ مِنْ
يُحْيِي الْأَنَامَ بِلَمْحَةٍ مِنْ وَضْلِهِ
إِنْ كُنْتَ أَهْدَيْتَ الْفَوَادِلَ فَقُلْ

وَاهْتَزَّ أَمْ لَوْدُ النَّقَا فِي بُرْدِهِ^(٢)
صَقَلِ الْحَسَامُ الْمُنْتَضَى وَفَرِنْدِهِ
مَنْ بَعْدَ مَا وَرَدُوا الْحَمَامَ بِصَدِّهِ
أَيُّ الْجَوَى لْجَوَانِحِي لَمْ يُهْدِهِ

وَقَالَ أَيْضًا :

أَرْقُ نَسِيمَ الصَّبَا عَرْفُهُ
وَمَرَّ بِنَا يَتَهَادَى وَقَدْ
وَمَدَّ لِمِسْمِهِ رَاحَةً
أَشَارَ لَتَقْبِيلِهَا فِي السَّلَامِ

وَرَأَقَ قَضِيبَ النِّقَا عِطْفُهُ^(٣)
نَضَا سَيْفَ أَجْفَانِهِ طَرْفُهُ
فَخَلَّتِ الْأَقَاحُ دَنَا قَطْفُهُ
قَالَ فِي لِبْنِي كَفُّهُ

وَلِإِدْرِيسَ بْنِ الْيَمَانِي :

وَذَى لَعَسٍ لِلْأَقْحَوَانِ ثَنَابَاهُ
وَاللَّسَّوْسَنِ الرِّيَّانَ صَفْحَةُ خَدِّهِ

وَالْوَرْدَ خَدَّاهُ وَلِلْأَسِّ صُدْعَاهُ^(٤)
وَالظَّنِّي عَيْنَاهُ وَالْمِسْكِ رَيْلُهُ

(١) ديوانه ٢٨٣

(٢) ديوانه ٢٩٢

(٣) ديوانه ٢٠٢

(٤) العس: سواد مستحسن في الشفة .

فريد جمالٍ تمّ لي توأم الهوى به ولسكلّ العاشقين فرداهُ
ولبعض أصحابنا :

كُفّ عني اللامَ يامنَ يلومُ إنّ لوم الشجى في الحبّ لومُ
جلّ هي بأن أهيم حياتي صغرت همّة امرئ لا يهيمُ
أبدا أطلبُ الغرام مجدداً فكأني إلى الغرام غريمُ
إن ربما رمت برامة قلبي مُقلّتهُ حبّي له لا يريمُ
صحّ حبّي واعتلّ جسمي فحسبي أنّ كلّي إلى هواهُ سقيمُ

وكلّ ما تضمنت هذه الجملة مع قطعة الحريري من التذلل والخضوع إلى
الحبوب، فهو حكم الباب، والجمع عليه عند ذوى الألباب، إلا قوله : « وغيرى
يجتنى رشف ثفره » ، فإن أكثر أهل هذا الشأن يابون أن يكون الحبوب بين
عاشقين، وينسبون محبة إلى خسارة الهمة، ويعتدونها على الحبوب من أكبر التهمة،
قال امرؤ القيس :

إني بحبلك واصلّ حبلي وبريش نبلِك رائش نَبلي^(١)
مالم أجذك على هدى أثرٍ يقرّو مقصّك قائف قبلي^(٢)

يقول : أنا أديم من مواصلك مالم أجِدْ غيرى يتبك طمعاً في مواصلك .
وقال أبو ذؤيب :

تريدن كيما تجمعينى وخالداً وهل يُجمع السيّقان ويحك في غمدي^(٣)
فهذا قد أبى الشراكة على التساوى ، فكيف الإقامة على الجور الذى .

(١) ديوانه ٢٣٩

(٢) يقرّو: يتبع ، والقائف : الذى يقفو الأثر . (٣) ديوان الهذليين ١ : ١٥٩

ذكر الحريري . وقد قدّمنا في العاشرة للمولدين قنّا غير هذا ، على أن الحبوب
إذا كان حسن الخلق حسن القبول زاد في أبهة جماله ، كما أن الجفاء في الحبوب
والخلق الذميم يطمس نور حسنه وينقص من كماله ، وأنشدوا :

أيا حسناً أشرت قبائحُ فعله عليه كما أزرى الكسوفُ على البدرِ

وقال عبد الصمد المصري :

فلو زُينَ الحسنُ من وجهه بهجر الصدود ووصل الوصالِ
لتمَّ والـكنَ ما إن أرى جميل الحيا جميل الفعالِ

وقال آخر :

صحّا عن حُبك القلب الشوقُ فما يصبو إليك ولا يتوقُ
جفاؤك كان عنك لنا عزاء وقد يُسلي عن الولد العقوقُ

فهذه جملة كافة .

[أنواع البلاغة في صناعة الشعر]

ونرجع إلى ذكر أنواع البلاغة في صناعة الشعر التي سَمّاها المحدثون صنعة
البدیع ، والشعراء يتفاضلون في سياقها والاعتدال عليها ، وهي في أشعار العرب
موجودة ، وفي الشعر المولّد أكثر . وأنا آتی منها بما للناظر فيه كفاية بعون
الله سبحانه وتعالى ، ونبدأ منها بالتجنيس الذي أولع به الحاكم في المقامة .

التجنيس

هو اتفاق اللفظ أو أكثره واختلاف الحكم ، قال أبو بكر حازم بن حازم :
التجنيس أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو كلام ، وهو من أضيّق
أنواع البديع ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾ ^(١) ، ﴿ وأقيم وجهك
للدین القيم ﴾ ^(٢) .

وفي الحديث «عُصِيَّةُ عصت الله ورسوله، وغِفَارُ غفر الله لها، وأَسْلَمَ سلمها الله، والظَلَمَ ظلمات يوم القيامة» .

وقال خالد بن صفوان لرجل من بني عبد الدار : هشمك هاشم ، وأمتك أمية ، وخزمتك مخزوم ، وأنت من عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبواب إذا أقبلت ، وتغلقها إذا أدبرت .

والتجنيس أنواع ، فمنه تجنيس اللفظ وهو ما تقدّم ، ومنه تجنيس الخطّ وهو ما يصح تصحيحه ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ^(١) .

وفي حديث سعد بن أبي وقاص : لما أسلمت راغمتني أمي ، فهي مرة تلقاني بالبشر ، ومرة تلقاني بالبُسر .

البحترى : من سعادة جدك ، وقوفك عند حدك .

وفي رسالة : عاد إلى المساحة والحاسنة ، بعد المشاحة والخاشنة . وقال البحتري :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه ^(٢)

وقال البحتري أيضا :

وحالاً كريش النسر مهما رأيت جناحاً لشهم عاد ريشاً على سهم ^(٣)

ومنه تجنيس السمع كقوله تعالى ﴿ وَجُودٌ يَوْمُئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ ^(٤)

ومن رسالة : لم يكن لأمره مضيعة ، ولا لسره مديعة .

البستي : مَنْ لم يكن لك نسيباً ، فلا ترج منه نصيباً . وَمَنْ لم يكن لك صدره بالحاجات فسيحاً ، فلا تسمع له بها لساناً فصيحاً . وقال :

أبوك كريم غير أنك سابق مداه فلا ضيم عليك ولا ذم ^(٥)

(١) سورة الكهف ١٠٤ (٢) ديوانه ٢١٥

(٣) ديوانه ٢٦٥٩ ، نقلاً عن الشريشي (٤) سورة القيامة ٢٢

(٥) ديوانه ٢٨٧

فلا يعجبني الناس مما أقوله وأقضى به فالغيث يقدمه القيم
وقال المعري رحمه الله تعالى :

أعوذ بالله من قومٍ إذا سمعوا خيراً أسروه أو شراً أذاعوه^(١)
وخالد بن سنان ليس ينقصه من قدره الكون في حى أضاعوه
ومنه تجنيس المضارعة ، فنه من رسالة : أنا به بين احتفاء واحتفال ، وبين
ذكر مطرٍ مطرب . وثناء مغرٍ مغرب .
وقال أبو تمام :

يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصٍ تطول بأسيافٍ قواصٍ قواصٍ^(٢)
وقال المعري : من اتقى الله فهو السالم السارى .
وقال ابن عمار :

إذا ركبوا فانظروا أول طاعنٍ وإن نزلوا فانظروا آخر طاعمٍ
وباب التجنيس فاق الناس فيه حبيب ، والناس له تبع ، كما انفرد بحسن
القطع في آخر قصائده ، فلا يكاد الشاعر الماهر يزيد بيتاً في آخر قصائده في الغالب .
كما انفرد الحسن بحسن الابتداء فله ابتداءات لا يجارى فيها ، كما انفرد ابن المعتز
بجودة التشبيه يكاد على كثرتة في شعره ألا يسقط له تشبيه واحد ، كما انفرد
المتنبي بلطف التخلص من التغزل إلى المدح . ومن تجنيس حبيب قوله :

عداك حرّ الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب^(٣)
السلسال العذب والحصب : الجارى على الحصباء ؛ شبه الريق به ، ففي هذا

(١) لزوم ٣٩٨ : ٢ ، ٣٩٩ (٢) ديوانه ٤٢ (٣) ديوانه ١٠

البيت من صنع البديع التجنيس والطباق والتتيم والترديد والتبليغ، وتأتى هذه الأنواع فى هذا الفصل ، وحيب أكثر الناس استعمالا لصنع البديع، ومن شعره يُتَمَلَّم . وقال أيضا :

كم نيل تحت سناها من سَنَّا قمرٍ وتحت عارضها من عَارِض شنب^(١)
وقال أيضا :

يامن تدمى عينه تلك الدمى فيه ويقمر لي——لة الإقمار
أخذه البحترى فقال :

جافى المضاجع لا ينفكُ فى لجبٍ يكاد يُقَمِّرُ من لألائه القمر^(٢)
وأُشْد أبو على الفارسي فى نوادره لأبى الغول الطهوى يصف سحابا :^(٣)
وقرى كلَّ قرية كان يقرو ها قرى لا يحفّ منه القرى

وفى المقامات من التجنيس كثير، وفى هذا الشرح منه ما يُستظرف ويستبدع، فَمَا يستحسن منه قول السرى يمدح سيف الدولة :

أغرَّتكَ الشَّهاب أم النهارُ وراحتك السحاب أم البحار^(٤)
خلقت منية ومنى فأضحت نمر بك البسيطة أو تمارُ
تحلّى الدين أو تحمى حماه فُنت عليه سور أو سوارُ
سيوفك من شكاة الثغر برّ ولكن للعدى فيها بوارُ
وكفالك الغمام الجود يسرى وفى أحشائه ماء ونارُ

(١) ديوانه ١١

(٢) ديوانه ٩٥٨

(٣) مع آخر فى الصناعتين ٣٣٥ (الأولى — حلب) منسوبان لأبى غمر (٤) ديوانه ١٠٥

فِيمَنَى مِنْ سَجِيَّتِهَا الْمَنَايَا وَيُسْرَى مِنْ عِطِّيَّتِهَا الْيَسَارِ
 وَمَنْ الشَّعْرَ الَّذِي جُمِعَ إِلَى التَّجْنِيسِ حَسَنَ التَّقْسِيمِ وَالطَّبَاقِ جَوَابَ الصَّابِي
 أبا أحمد الشيرازي ، من شعر يشتكى له نفرساً أصابه وأوله :
 إِلَى اللَّهِ أَشْكُو ضَنْيَ شَفْنِي وَكَمَ قَبْلَهُ مِنْ ضَنْيِ قَدْ شَفَانِي
 فَأَجَابَهُ الصَّابِي :

عَنَانِي مِنْ أَلْهَمَ مَا قَدْ عَنَانِي	فَأَعْلَيْتُ صَرَفَ اللَّيَالِي عِنَانِي ^(١)
أَلِفْتُ الدَّمُوعَ وَغَفَتِ الْهَجُوعَ	فَعَيْنَايَ عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ
لَسَقَمَ الْحَلْجَ عَلَى سَيْدٍ	بِهِ قَدْ غَفَرْتُ ذُنُوبَ الزَّمَانِ
وَكَيْفَ سَطَا بِهِمَا وَاسْتَطَا	لَ وَأَرْضَ بَسَاطَهُمَا النَّيْرَانِ
وَهَلَّا تَجَاوَزَهُ قَاصِدًا	إِلَى عَصْبَةِ عُصْبَتِ الْبَاهُوانِ
إِذَا مَاسَعَى لَطْلَابَ الْعِلَالِ	فَكَلَّ أَوَانٍ هَمٍّ فِي تَوَانِ
أَتَنَنِي بِالْأَمْسِ أَيْيَاتِهِ	تَعَالَى رُوحِي بِرُوحِ الْجَنَانِ
كَبُرْدَ الشَّبَابِ وَبَرْدَ الشَّرَا	بِ وَطَلَّ الْأَمَانُ وَنَيْلَ الْأَمَانِ
وَعَهْدَ الصَّبَا وَنَسِيمَ الصَّبَا	وَصَفْوَ الزَّمَانِ وَرَجْعَ الْقِيَانِ
أَجَبْتُ عَنِ الشَّعْرِ مُسْتَرَسَلًا	بَطْبَعِ شَجَاعِ وَقَلْبِ جَبَانِ
وَلَوْلَا سَكُونِي إِلَى فَضْلِهِ	قَبِضْتُ بِنَانِي بِقَبْضِ اللِّسَانِ

وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ :

إِنَّ أَسْيَافَنَا الْعَضَابَ الدَّوَامِي صَيَّرَتْ مَلَكَنَا قَرَيْنَ الدَّوَامِ^(٢)
 بَاقِشَامِ الْأَمْوَالِ مِنْ وَقْتِ سَامٍ وَاقْتِحَامِ الْأَمْوَالِ مِنْ وَقْتِ حَامٍ

(١) الْيَتِيمَةُ ٢ : ٣٠٣ ، وَنَسَبَهَا إِلَى الصَّاحِبِ

(٢) يَتِيمَةُ الدَّهْرِ ٤ : ١٣٨ ، مَنْسُوبَةٌ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ الْمُؤْمَلِ .

التشبيه

وقد أوردنا في هذا الكتاب منه كل غريب . والتشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهه به لونا ، ومنها تشبيهه به صوتا ، ومنها تشبيهه به حركة ومرعة ، فالأول كقوله :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهِا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(١)
أَجْمَعُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالشَّعْرِ كَأَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ وَالْأَصْمَعِي ، أن أحسن التشبيه ما يقابل به تشبيهان في بيت واحد ، وأن أحدا لم يقل ذلك كبيت امرئ القيس ، كأن قلوب الطير . وقال بشار: ما زلت مذكمت قوله : كأن قلوب الطير أراد نفسى أن أشبه شيئين بشيئين ولا أستطيع ذلك إلى أن قلت :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّتْعِ فَوْقَ رءِوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبِهِ^(٢)
ويا بعد ما بين البيتين على أن بيت بشار غريب ، ولا أحفظ للبيتين ثالثا ، إلا أن بشارا قد قال أيضا :

مِنْ كُلِّ مَشْتَهَرٍ فِي كَفِّ مَشْتَهَرٍ كَأَنَّ غَرَّتَهُ وَالسَّيْفُ نَجْمَانُ
وأما تشبيه المعنى فكأن تشبيه الشجاع بالأسد والجميل بالقمر ، وكقوله :
وَكَالسَّيْفِ إِنْ لَا يَنْتَهَ لِأَنَّ مَتْنَهُ وَحَدَاهُ إِنْ خَاشَتَهُ خَشِينَانُ^(٣)
واللون كقول ابن هرمة :

وَلَيْلٍ كَسَرِ بَالِ الْغَرَابِ ادَّرَعْتُهُ إِلَيْكَ كَمَا أَخَتَّ الْيَمَانِي أَجْدَلُ^(٤)

(١) ديوانه ٣٨

(٢) ديوانه (المختار) ١

(٣) العكبري ٣ : ٢٠١ ونسبه لأبي الشيمس .

(٤) كذا في ديوانه ١٦٦ ، وفي الأصول : « كما أخت اليماني » .

والصوت كقول النابغة :

* له صَرِيف صَرِيف القعو بالمسَدِ *^(١)

والحركة والسرعة ، كقول امرئ القيس :

* كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ *^(٢)

وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض ، فإذا اتفق في الشيء المشبه معنيان أو ثلاثة معانٍ من هذه الأوصاف قوى التشبيه ، وتأكد الصدق فيه ، وأصدق التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مشبهاً به صورة ومعنى ، كقول امرئ القيس :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنَّجُومُ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقُفَالٍ *^(٣)

فتشبيه النجوم بالمصابيح لفرط ضيائها صحيح ، وتشبيه المصابيح بالنجوم صحيح ، وربما أشبه الشيء صورة ، وخالفه معنى . وقد تقدّم ذكر ذلك في الثانية ، وربما قاربه وداناه وشابهه مجازاً للاحقيقة .

وأدوات التشبيه كأن والكاف ومثل ، وتسقط الكاف مع المصدر فيشبه بالمصدر ، وقد يشبه بقولهم : تخاله وتحسبه ، فما كان مند صادقاً قيل فيه « كأنه » أو كذا ، وما قارب الصدق قيل فيه : تراه أو تخاله ؛ فإذا حققت

(١) ديوانه ١٨ ، صدره :

* ومقدوفة بدخيس النحض بازها *

المقدوفة : الرمية . والدخيس : اللحم . والنحض : اللحم المكتنز ، واليازل : السن من الأبل .
والصريف : الصياح من النشاط والقعو : ما يضم البكرة . والمسد : الحبل .

(٢) ديوانه ١٩ ، صدره :

* مِكْرَرٍ مِقْرَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا *

(٣) ديوانه ٣١ .

هذا الفصل انكشفت لك أسرار التشبيه ، وقد تقدّم نوع من التشبيه في الثانية ، وسيأتى في الأربعين تشبيهات الغريب العقم في حكاية الأصمى .

الاستعارة

هى من العارية لأنّ الشاعر يُعير المعنى ألفاظاً غير لفظه الموضوع له ، وهى على ثلاثة أوجه : أحدها يستعيره الشاعر من الألفاظ على سبيل التمثيل وتتميم المعانى ، وهذا الضرب يعدّ في البديع ومحاسن الشعر ، وهو كثير فى كلامهم ، وعليه انبنى كتاب المقامات ، وقلماً يوجد بيت يخلو منه ، وما جاء منه فى القرآن سماه بعضهم مجازاً وأباه بعضهم ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَخَفَضْ لَهَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾^(١) ، ﴿ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسَ شَيْباً ﴾^(٢) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « دَبَّ إِلَيْكُم دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ » .

وقال امرؤ القيس :

* وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوكَ *^(٣)

وقال علقمة وهو بديع :

* وَالصَّبْحُ بِالسُّكُوكِ الدَّرَى مَنْحُورٌ *^(٤)

وقال زهير فى الحرب :

* ضَرُوسٌ تُنَوِّرُ النَّاسَ أَنْبَاءُهَا عَضْلٌ *^(٥)

(٢) سورة مريم

(١) سورة الاسراء آية ٢٤

(٣) ديوانه ١٨ وعجزه :

* عَلَى بَأْنَوَاعِ الْمَمُومِ لَيْبَتَلِي

(٤) ديوانه ١٣٧ ، وصدره :

أَوُودِثُهَا وَصُدُورُ الْعَيْسِ مُسْنَقَةٌ

(٥) ديوانه ١٠٣ ، وصدره :

إِذَا لَقِيتَ حَرْبٌ عَوَانَ مُضِرَّةً

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا أبلغ النعمان عني رسالةً فجدك حولي ولومك قارح^(١)

وقال الحسن :

في مجاسٍ ضحك الشرور به عن ناجذيه وحلتِ الخمرُ

وقال العباس بن الأحنف :

قد سحبَ الناس أذيال الحديث بنا وفرقَ الناس فينا قولهم فرقاً^(٢)
فكاذب قد رمى بالظن غيركمُ وصادق ليس يذري أنه صدقا

الثاني: أن ينتحل الشاعر قولاً لغيره فيدخله في شعره ، وهذا هو الاجتلاب
الذي نفاه جرير عن نفسه بقوله :

ألم تعلم مسرَّحِي القوافي فلا عِيًّا بهنّ ولا اجتلاباً^(٣)
الثالث : أنه يستعير الشاعر ألفاظاً كان غنياً عنها ، والمعنى غير مفتقر إليها ،
ويسمى الحشو والاستعانة ، ويحسن بقدر ما يتحمل من الفوائد ويقبح إذا فرغ
منها .

الإشارة

قال قدامة : الإشارة هي اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة باللمحة
الدالة ، ولم يأت أحد منها بمثل قول زهير :

(١) الصناعتين ٢٩٣ . والحولى : ما أتى عليه الحول . والقارح من ذى الحافر بمنزلة البازل
من البعير ، ولا يزل إلا إذا طعن في التاسعة .

(٢) ديوانه ١٦٩

(٣) ديوانه ٦٢

وإني لو لقيتك فاجتئمنا لكان لكل منكرة كفاء^(١)

وقال امرؤ القيس :

على هينكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جرني غير كز ولا وان^(٢)

فتأمل ما اشتملت عليه لفظة « أفانين » بمالوعد كان كثيراً ، وما اقترن به من جميع أصناف الجودة طوعاً من غير طلب ولا مسألة ، ثم نفى عنه السكراسة والوني ، وهما أكبر عيوب الخليل .

والإشارة من غرائب الشعر وملاحه ولا يأتي بها إلا شاعر مبرز ، وتسمى اللهجة الدالة ، وأصلها الاختصار ، وهي أنواع ، فمنها الوحى ، كقول جاهلى فى يزيد ابن الصمق :

تركت الركاب لأربابها وألزمت نفسى على ابن الصمق^(٣)

جعلت يدى وشاحاً له وبعض الفوارس لا تعتنق

فقوله : « جعلت يدى وشاحاً له » إشارة بدعية دالة على الاعتناق بغير لفظة .

الإيماء

ومنها الإيماء ، فمن ملحه قول قيس بن ذريح :

أقول إذا نفسى من الوجد أصعدت لها زفرة تعادنى هي ماهيا^(٤)

وقول كثير :

تبجافيت عنى حين لالى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح^(٥)

فقوله : « غادرت ما غادرت » إيماء مليح .

(٢) ديوانه ٩١

(١) ديوانه ٨١

(٣) الصناعتين ٣٦٧ من غير نسبة (٤) ديوانه ١٦٠

(٥) ديوانه ٥٢٥ .

التلويح

ومنها : التلويح ، ومن أجوده قول النابغة في طول الليل :
تطاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وليس الذي يَرعى النُجُومَ بِأَيِّ^(١)
فالذي يرعى النجوم هنا الصبح ، أقامه مقام الراعى ، يغدو فتذهب الإبل
والماشية ، فتلويحه هذا عجب في الجودة ، ومنه قول الجنون :
لقد كنت أعلو حَبَّ لَيْلى فلم يَزَلْ بىَ النَقْضِ والإِبْرَامِ حَتَّى علانِيا^(٢)
فلوَّح بالصحة والكتمان ، ثم بالسقم والاشتهار تلويحا عجيبا .

التعريض

ومنها التعريض ، كقول عمرو بن معد يكرب :
فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت^(٣)
أى لو أن قومي صدقوا في القتال وطعنوا برماحهم أعداءهم لنطقت بمدحهم ،
ولكنهم صرفوها عن أعدائهم منهزمين ، فكانها أجرت لسانى ، أى شقته كما
يُجرُّ لسان الفصيل ، فكانها أسكتنى . فهذا تعريض بنوب عن التصريح ، وأخذه
أبو بكر بن دريد فقال :

يا بنى مالك عَقَّتُمْ لسانى كيف يجرى المقيّد المعقول^(٤)
إن سلكتم إلى الأفعال سبيلا وضَّحْتُ لى إلى المقال سبيلا

(١) ديوانه ٢

(٢) ديوانه ٢٩٤

(٣) الأسميات ١٢٢

(٤) ديوانه ١٠٢

ومن التعريض قوله :

بنى عمتنا لاندكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا^(١)

ومنه قول حميد بن ثور ، وقد تقدّم :

أرّبى بصرى قد خاننى بعد صحتي وحسبك داء أن تصحّ وتسلماً^(٢)

التفخيم

ومنها: التفخيم ، كقول الغنوى :

أخى ما أخى لا فاحشٌ عند بيته ولا ورعٌ عند اللقاء هيّوب^(٣)

ونحو هذا حكاية الأعرابي في نوادر أبي عليّ حين سئل : أله بنون ؟ فقال :

نعم ، وخالفهم لم تقم عن مثلهم منجبة ؛ فلما ذكر أسماءهم قال : جهم وما جهّم ، غشمشم وما غشمشم ، عشب وما عشب^(٤) .

ومن هذا التفخيم ما يجيء على التهويل والتعظيم نحو قوله تعالى : ﴿ الحاقة ﴾

ما الحاقة ﴿ والقارعة ﴾ والقارعة ما القارعة ﴿ وهو كثير في كلام العرب .

ومما جاء في الإشارة على معنى التشبيه قول الأعرابي يصف لبناً ممدوقاً :

* جاؤا بمذقٍ هل رأيت الذئب قط^(٥) *

فأشار إلى تشبيه لونه إذا غلب عليه المذق بلون الذئب كما صرح به الآخر

حين قال :

فيشربه مذقاً ويسقى عياله سحاباً كأقرب الثعالب أوزقاً^(٦)

(١) من أبيات في البيان والتبيين ٢ : ١٨٦ ، ونسبها لسويد المرائد الحارثي ٢٠ (٢) ديوانه ٧

(٣) هو كعب بن سعد الغنوي من قصيدة له في الأصعيات ٩٥ والورع : الجبان

(٤) العشب : الأسد الشديد

(٥) الخزانة ١ : ١٧٦ ، وقبله

* حتى إذا كاد الظلام يختلط *

(٦) اللسان — مذق من غير نسبة . والمذق : اللبن المخلوط بالماء .

المطابقة

أبو الفرج عليّ بن الحسين ، قلت لأبي الحسن عليّ بن سليمان الأخفش -
 وكان أعلم مَنْ شاهدته بالشعر : طائفة وهم الأكثرون تزعم أن الطَّباق ذكر
 الشيء وضده ، فيجمعهما اللفظ لا المعنى ، وطائفة تقول : هو اشتراك المعنيين
 في لفظ واحد ، مثل قول زياد الأعجم :

وُنُبِّتَهُمْ يَسْتَنْصِرُونَ بِكَاهِلٍ وَلِلَّؤْمِ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَسَنَامٌ^(١)

فكاهل قبيلة وكاهل للعضو ، فقال : من ذا الذي يقول هذا ؟ قلت :
 قدامة وغيره ، فقال : هذا يا بني هو التجنيس ، ومن ادعى أنه طباق فقد ادعى
 خلافاً على الخليل والأصمعي ، قلت : أفكنا يعرفان هذا ! فقال : سبحان الله ،
 وهل غيرهما في علم الشعر وتمييز خبيثه من طيبه ! قلت : فأنشدني أحسن طباق
 للعرب ، فقال : قول عبد الله الزبير الأسدي :

فردّ شعورهنّ السّودَ بيضا وردّ وجوههنّ البيض سوداً^(٢)
 وقال أبو الفرج : وأنا أقول أن أحسن بيت قيل فيه :

للسود في السود آثار تركنَ بها . لمعاً من البيض يثنى أعين البيض

يعني أن الليالي بمرورهنّ تبيّض سواد الشعر .

قال أبو حاتم : سألت الأصمعي عن صنعة الشعر ، فذكر في بعض قوله
 المطابقة ، وقال : أصلها وَضَعَ الرجل في موضع اليد ، قلت : أنشدني أحسن ما قالت
 العرب في ذلك فقال : قول زهير :

كَيْثَ بَشَرٍ يَصْطَادُ الرِّجَالُ إِذَا مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا^(٣)

(٢) الصناعتين ٣٢١

(١) الصناعتين ٣١٦

(٤) ديوانه ٥٤

وقيل : المطابقة أن يأتي الشاعر بلفظتين مختلفتين في المعنى واللفظ في بيت واحد أو في كلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ^(١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار : « إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ » .

وقال عليّ رضي الله عنه : من رضى عن نفسه كثر مَنْ يَسْخَطُ عليه .
وقال : أعظم الذنوب ما صغر عند صاحبه .
وقال الحسن : كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعروف الحق .

وقال الفرزدق :

لَنْ إِلَهِ بِنَى كَلِيبٍ إِنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ وَلَا يَفُونُ لَجَارٍ ^(٢)
يَسْتَقْظُونَ إِلَى نَهْيِ حَمِيرٍ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ
وقال حبيب :

يَرَى الْعَلَمَ الْمَادُومَ بِالزَّأْرِ أَرِيَّةً يَمَانِيَةً وَالْأَرِيَّ بِالضَّيْمِ عُلْقَمًا ^(٣)

التقسيم

ومنها التقسيم . قال أبو الحسن عليّ بن هارون بن علي بن حماد بن إسحاق الموصلي : هو أن يستقصى الشاعر تفصيل ما ابتدأ به فيستوفيّه ، فلا يغادر قسماً يقتضيه إلا وأورده ، وإلى هذا كان يذهب أهلنا ، وأحسن ما قيل في ذلك قول زهير :
يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ضَارِبٌ حَتَّى إِذَا مَاضَ رُبَا اعْتَقَقًا ^(٤)
وقول عنتزة :

(٢) الصناعتين . ٣٢٢ ، نهاية الأرب ٧ : ١٠١

(٤) ديوانه ٥٤

(١) سورة البقرة ١٧٦ .

(٣) ديوانه ٢٩٤

إِنْ يَلْحَقُوا أَكْرُزْ وَإِنْ يَسْتَلْحَمُوا أَشَدُّ وَإِنْ يُرَمَوْا بِضَنْكَ أَنْزِلِ^(١)
 أبو العيناء : أجمع علماء الشعر أن أحسن تقسيم أتى به متقدم قول عمر
 ابن أبي ربيعة :

تَهَيَّمْ إِلَى نَعْمٍ فَلَا الشَّمْلَ جَامِعٌ وَلَا الْحَبْلَ مُوَصُولٌ وَلَا أَنْتَ تَصْبِرُ^(٢)
 وَلَا قَرَبَ نَعِيمٍ إِنْ دَنَتْ لَكَ نَافِعٌ وَلَا بُعْدَهَا يُسْلِي وَلَا أَنْتَ مُقْصِرٌ
 المبرد : لم أسمع أحسن من تقسيم لقيس بن ذريح ، وهو :
 وقد كان فيها للأمانة موضعٌ وللكلف مرتاد وللعين منظرٌ^(٣)

وقد تقدم في شرح الثانية بيت المتنبي في التقسيم وهو : بدت قرا ... البيت .
 ونسج على منواله الزاهر فقال :

سَقَرْنَ بُدُورًا وَانْتَبَهْنَ أَهْلَةً وَمِسْنَ غُصُونًا وَالتَفَنَ جَاذِرًا
 وَأَطْلَعْنَ فِي الْأَجْيَادِ بِالْدرِ أَنْجَمًا جَمَلْنَ لِحَبَابِ الْقُلُوبِ ضُرَارًا
 وقال الناشئ :

رَأَيْتَ عَلَى أَكْوَارِنَا كُلِّ مَا جَدَ يَرَى كُلَّ مَا يَفْنَى مِنَ الْمَالِ مَغْنَمًا
 نَدَوْمَ أَسْيَافًا وَنَمْلُو قَوَاضِيَا وَنَنْقُضَ عِقْبَانَا وَنَطْلُعَ أَنْجَمًا
 وقال السَّلامِيُّ :

مَاضِنَ عَنْكَ بِمَوْجُودٍ وَلَا بِخِلَآءٍ أَعَزُّ مَا عِنْدَهُ النَّفْسَ الَّتِي هَذَا^(٤)
 يَحْكِي الْمَطَايَا حَنِينًا وَالْهَجِيرَ جَوَى وَالْمَزْنَ دَمًا وَأَطْلَالَ الدِّيارِ بَلَى
 والتقسيم في الشعر كثير .

(١) ديوانه ٦٥

(٢) ديوانه ٩٢

(٣) ديوانه ٨٧ ، وفيه : د والقلب .

(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦

التسليم

قال عليّ بن هارون : هذا لقب نحن اخترعناه ، وصفة الشعر المستهم أن يسبق المستمع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليها راويه ، حتى لو سَمِعَ الشطر الأوّل استخرج الآخر قبل أن يسمعه ، وأحسن ما قيل في ذلك قول جندب أخت عمرو ذى الكلب ترثي أخاها :

فأقسمتُ يا عمرو لو نَبَّهَكَ إِذَا نَبَّهَا مِنْكَ دَاءُ عُضَالَا^(١)
 إِذَا نَبَّهَا لَيْتَ عَرِيْسَةٍ مُفِيْتَا مُفِيْدَا نَفَوْسًا وَمَالًا
 وَخَرَقِي تَجَاوَزْتَ مَجْهُولَةً بوجنَاءَ حَرْفٍ تَشْكِي الْكَلَالَا
 فَكُنْتَ النَّهَارَ بِهِ شَمْسَهُمْ وَكُنْتَ دَجَى اللَّيْلِ فِيهِ الْهَلَالَا
 قال الخاتمي : فانظر إلى ديباجة هذا الكلام ، ما أصفها ، وإلى تقسيماته مأوفها ، وانظر إلى قوله : مفيتا مفيدا ، ووصفها إياه بالشمس بالنهار والهلal بالليل ، تجد الطبع الممتنع القريب البعيد .

التسليم

هو أن يذكر الشاعر معنى فلا يترك شيئاً يتم ويتكامل الإحسان معه فيه إلا أتى به ، وأحسن ما قيل في ذلك قول طرفه :
 فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيْمَةٌ تَنْهِي^(٢)
 فقد تم الإحسان في المعنى الذي ذهب إليه بقوله : «غير مفسدها» ، ويتلوه قول خليفة بن نافع العنزي :

(١) الصناعتين ١٤٢ ، العمدة ٢ : ٢٦ ، نهاية الأرب ٧ : ١٤٢ ، أمالي المرتضى ٢ : ٢٤٣
 (٢) ديوانه ١٤٦

رجال إذا لم يقبل الحق منهم يعطوه عادوا بالشيوف القواطع
فالمعنى تم بقوله « يعطوه » ، ولولاه كان ناقصاً .
وقال حبيب :

حَتَّى لَقَدْ ظَنَّ الْغَوَاةَ وَبَاطِلَ أُنَى تَجَسُّمٍ فِي رُوحِ السَّيِّدِ (١)
قَمَّ الْإِحْسَانَ فِي الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ بِقَوْلِهِ « وَبَاطِلَ » ، والسيد الحميري له في الشيعة
مذهب رديء ، والغواة هنا القائلون بالتناسخ . يقول : لإفراط حبه في أهل البيت ،
توهم الغواة أن روح السيد تجسم في ، وتوهمهم باطل .

الترديد

هو تعليق الشاعر لفظة في البيت بمعنى ، ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها بمعنى
آخر ، وأكثر ما يستعمله المحدثون ، وأجمعوا أن أبا حنيفة النعمان سبق
إلى الإحسان جميع من تقدمه وتأخر عنه في قوله :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لِبَسَنِ الْبَلَى تَمَّا لِبَسَنِ اللَّيَالِيَا
إِذَا مَا انْقَضَى لِلْمَرْءِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمِلُ التَّقَاضِيَا

ابتدأ بالمصرع الأول فأحسن الابتداء ، وردد في المصراع الثاني فأحسن
في التردد ، ثم ابتدع في البيت الثاني ما ليس لأحد مثله .

أبو تمام : لا أعلم أحدا أحسن صنعة في التردد من زهير في قوله :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خَلْقًا (٢)

الحاتمي : وأحسن الخليل الباهلي في التردد بقوله :

لَقَدْ مَلَأْتُ عَيْنِي بِحَسَنِ مُحَاسِنٍ مَلَأَنَ فُؤَادِي لَوْعَةً وَهُمُومًا

(١) ديوانه ١١٤ .

(٢) ديوانه ٥٣ .

التجريد

وهو أن يجرد الشاعر موصوفه من صفته ، ويسندها لأجنبي في الظاهر ، وهو يريد الأول في المعنى ، مثل قول الأعشى :

ياخيرَ مَنْ يركب المطىّ ولا يشرب كأساً بكفٍّ مَنْ بَحِلًّا^(١)
فظاهره أنه لا يشرب كأساً بكفٍّ رجل ينسب إلى البخل إنما يشربها بكف
كريم ، وذلك الكريم هو المدوح في المعنى ، فجرده في الظاهر ، وهو يريد
بكفٍّ بخيل من نفسه . وأبو عليّ الفارسي اختار لهذه الصنعة اسم التجريد ، ومنه
قول طرفة :

جازتَ البیدَ إلى أرحُلنا آخرَ الليل بیغفورٍ حذرٍ^(٢)
يعنى بیغفور حذر ، من نفسها . وقال الأخطل :

رَبِيعٌ حياً ما يستقلّ بحمله سثوم ولا مُسْتَنَكِشَ البحرِ ناضِبةً^(٣)

أى ما يستقل بحمله سثوم من نفسه ، أى ليس بملول ، وقال النابغة .

لم يحزموْا حسنَ الغذاءِ وأمهم طَفَحَتْ عليكِ بتائِقٍ مَذْكَارٍ^(٤)

ومما يتعلق بنوع من التجريد قول امرئ القيس : « على لاحب لا يهتدى
بمناره » . فظاهره أن المنار الذي يهتدى به إلى الطريق لا يهتدى به . وهو في المعنى
قد جرد الطريق من المنار ، وإنما أراد : ليس به منار أصلاً ، فليس ثم اهتداء ، فنفى
السبب الذي هو الاهتداء ، وأثبت السبب الذي هو المنار في اللفظ ، واتكل على
قوة دلالة المعنى ، وأن مراده نفى سبب الهداية الذي هو المنار فتنفى الهداية ، ومثله
قول النابغة :

يحفه جانباً نيقٍ ويُقبّعه مثلَ الزجاجة لم تُسكّلْ من الرمدِ^(٥)

(٢) ديوانه ١٨

(١) ديوانه ٢٢٥

(٣) ديوانه ٢١٩ . مستنكش البحر ، أى لا ينزع ولا يستفرغ ماؤه .

(٥) ديوانه ٣٤

(٤) ديوانه ٣٧

أى ليس بهارمد فتحتاج إلى كحل .

وقال الراجز :

* ولم يقلب أرضها البيطارُ *

وقال الله عز وجل ﴿ ولم يكن له ولي من الدل ﴾^(١) وهو كثير في الكلام .

التتبيع

وهو أن يريد الشاعر معنى فلا يأتي باللفظ الدال عليه ، بل بلفظ تابع له ، فإذا قال التابع أبان عن المتبوع ، وأبدع ما في ذلك قول عمر بن أبي ربيعة :

بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ إِمَّا لِلنَّوْفِلِ أَبُوهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٍ

ذهب إلى طول العنق ، فلم يذكره بلفظ خاص به أتى بمعنى دلّ به على طوله ،

وهو قوله : « بعيدة مهوى القرط » . ومثله قول الآخر :

نَعَّاقٌ فِي مِثْلِ السَّوَارِي سَيُوفُنَا وَمَا يَنْهَاهَا الْكَفَّ مَهْوَى نَفَائِفِ

فأراد نعلّق سيوفنا في أعناق مثل السوارى في الطول والاعتدال ، وما بين

العنق والكف طول كثير ، فكنى عن طول القامة بغير لفظه الخاص به ، وأبدع

ما في التتبيع قول امرئ القيس :

* ثَمُومُ الضَّحَى لَمْ تَنْتَظِقْ عَنْ تَفَضُّلِ *

فدلّ على ترفها ، وأن لها مَنْ يكفيها المؤنة باللفظ التابع لذلك .

التبليغ

وسمّاه قوم الإيغال ، وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما قبل

انتهائه إلى القافية ، ثم يبلغ القافية بزيادة مفيدة تزيد معنى البيت براعة .

قيل للأصمعي رحمه الله تعالى : مَنْ أشعرُ الناس ؟ قال : مَنْ يَأْتِي إلى
اللفظ الخسيس فيجعلُه بلفظ حسناً أو ينقضي كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها
أفاد بها معنى ، مثل قول ذي الرثمة :

أظن الذي يُجْدِي عليك سؤالها دموعاً كتبديد الجمان المفصل^(١)
فتم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال : المفصل فزاد شيئاً .
ومن التبليغ قول امرئ القيس :

كَأَنَّ عَيُونََ الْوَحِشِ حَوْلَ خِبَانِنَا وَأَرْحِلْنَا الْجَزْعَ الَّذِي لَمْ يُنْتَبِ^(٢)
فقد أتى على التشبيه قبل القافية ، وزاد بقوله : « الذي لم ينتب » بلوغاً إلى
الغاية القصوى في الجودة ، وكذلك قوله :

إِذَا مَا جَرَى شَاوِئِنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ تقول هزيز الريح مرّت بأناب^(٣)
فرّت بأناب زيادة على التشبيه التام ، والأناب شجر يكون للريح في أغصانه
حفيف شديد ، فأفادت الزيادة في التشبيه معنى بديعاً . وقال زهير :
كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْقَنَا لَمْ يُحْطَمْ^(٤)
وسمى أصحاب البديع هذه الزيادة في آخر البيت الإيفال والتبليغ ، وفي حشوه
المبالغة والتتعيم .

التصدير

هو أن يبدأ الشاعر بكلمة في البيت ثم يعيدها في عجزه ، أو في النصف منه ،
ثم يردّها في النصف الآخر عنه ، فإذا نظم الشعر على هذه الصنعة أمكن استخراج

(١) ديوانه ٥٠١ وفيه : « كتبذير » (٢) ديوانه ٧٣ والجزع : الحرز

(٣) ديوانه ٤٩

(٤) ديوانه ١٢ . والقنا : شجر ثمره حب أحمر وفيه نقطة سوداء . والعين : الصوف .

قوافيه قبل أن يطرق أسماع مستمعيه ، وأحسن ما فيه قول عامر بن الطفيل :
 وَكُنْتُ سَنَامًا فِي فِزَارَةِ تَامَكَا وَفِي كُلِّ قَوْمٍ ذُرْوَةٌ وَسَنَامٌ^(١)
 التامك : الشديد ، وقال الآخر^(٢) :

سريع إلى ابن العثم يطمم وجهه وليس إلى داعي الندى سريع
 وقال آخر :

جَهْلٌ إِذَا أُرْزِيَ التَّحَلُّمُ بِالْفَتَى حَلِيمٌ إِذَا لَمْ يَزِرْ بِالْحَسْبِ الْجَهْلُ
 والتصدير والترديد المتقدم يسميه كثير من البلغاء ردَّ الإعجاز إلى الصدير .

الاستثناء

قيل إن أول من بدأ به النابغة ، وأحسن كل الإحسان في قوله :
 وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفِهِمْ بِهِنَ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ
 وهذا كقول الجعدي :
 فَتَى كُملتْ أَخْلَاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيًا^(٣)
 فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسِرُّ صَدِيقَهُ عَلَيَّ أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا
 ويستحسن قول أبي هفان :

فَإِنْ تَسْأَلُنِي عَنَّا فَتَحْنُ حُلَى الْعَلَا بَنِي دَارِمٍ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الْمَنَاكِبِ^(٤)
 وَلَا عَيْبَ فِيْنَا غَيْرَ أَنْ سَمَّاخَنَا أَضَرَّ بَنَا وَالْبَاسُ فِي كُلِّ جَانِبٍ
 فَأَفْنَى الرَّدَى أَعْمَارُنَا غَيْرَ ظَالِمٍ وَأَفْنَى النَّدَى أَمْوَالُنَا غَيْرَ غَائِبٍ
 ويسمى هذا تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(١) ديوانه ١٢٦ .

(٢) هو المفيزه بن عبدالله المعروف بالأقيشر والبهت في تحرير التجبير ١١٦

(٣) ديوانه ٦

(٤) ديوانه ١٧٣

الالتفات

إسحاق الموصلي قال : قال لي الأصمعي رحمه الله تعالى : أتعرف التفات جرير ؟
قلت : لا ، فأنشدني :

أَتَنْسَى إِذْ تَوَدَّعَنِي سُلَيْمِي بِيْطَنٍ بِشَامَةٍ سَقَى الْبَشَامُ^(١)
أَلَا تَرَاهُ مُقْبِلًا عَلَى شَعْرِهِ ، ثُمَّ التَفَتْ إِلَى الْبَشَامِ فَدَعَا لَهُ !

الاعتراض

ويسمى الالتفات ، وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى ، فيعدل عنه
آخذاً في غيره قبل أن يتم الأول ، ثم يعود إليه فيتمه ، فيكون فيما عدل إليه مبالغة
في الأول وزيادة في حسنه .

قال ابن المعتز : الالتفات انصراف المتكلم عن الإخبار إلى مخاطبة ، وعن
المخاطبة إلى الإخبار ، ومن أحسن ما في قول ذلك قول النابغة :
أَلَا زَعَمْتُ بَنُو عَبْسٍ بَأْنِي - أَلَا كَذَبْتُ - كَبِيرَ السَّنِّ فَانِرٍ
وقيل : بل قول كثير :

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْعَطَايَا^(٢)
قوله : « أَلَا كَذَبْتُ » وقوله : « وَأَنْتَ مِنْهُمْ » اعتراض بين أول
الكلام وآخره ، وفيه زيادة حسنة ، ويستحسن قول الآخر :
فَإِنِّي إِنْ أَفْتُكَ يَفْتُكَ مِنِّي فَلَا يَسْبِقُ بِهِ عِلْقُ نَفِيسٍ

(١) ديوانه ٥١٢

(٢) ملحق ديوانه ٥٠٧ ، وفيه : « المطالا »

قوله : « فلا تسبق به » اعتراض لطيف في معناه وموضعه، ويسمى هذا أيضاً وما تقدم من قول طرفة الحشو المفيد .
ومنه قول الأخطل :

وأقسم المجد حقاً لا يخالفهم حتى يحالف بطن الراحة الشعر^(١)
قوله : « حقاً » حشو أفاد معنى حسناً ، وكذلك قول امرئ القيس :
كأن عيون ألوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يُثَقِّبِ^(٢)
فحول خبائنا وأرحلنا لوسط لكان التشبيه تاماً والوزن ناقصاً ، فأورده
حشواً ، وفيه زيادة بارعة رائعة ، وهى الإخبار عن كثرة الصيد والتمدح بأنه
مرزوق في صيده ، وما أحسن قول ابن المعتز رحمه الله تعالى :

وخيل طواها السَيْرُ حَتَّى كَانَهَا أنايب مُمرٍّ من قَنَا الخَطَّ ذَبَلِ^(٣)
صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنَا فطارت بها أَيْدٍ خِفَافٌ وَأَرْجُلُ
فوق « ظالمين » أحسن موقع لأنه نفى بذلك عنها هجنة البطء ، وأخذه من
قول أعرابي :

وعود قليل الذنب عاودتُ ضربه إذا هاج شوقٍ من مَعَاهِدِهَا ذَكْرُ
وقلت له ذلفاء ونحكك سَبَّبت لك الضرب ، فاصبر إن عادتك الصَّبْرُ
فحسنة ابن المعتز ما شاء . وأما الحشو القبيح ، فكقول أوس بن حجر :
وَهُمْ لَمَلٌّ لَمَالٌ أَوْلَادُ عَلَّةٍ وإن كان محضاً في العمومة مُخَوِّلاً^(٤)
فذكره للمال مع قوله : « مقل » حشواً فائده فيه ، وكذلك قول المهذلي^(٥)
رحمه الله :

(١) ديوانه ١١٢ .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٥٩ ، ديوان الماتى ٢ : ١٠٧ .
(٣) ديوانه ٩١ .
(٤) هو أبو العيال الهذلي .

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب^(١)
 فذكر الرأس مع الصداع حشولا فائدة فيه ، وأهجن منه قول الأعشى :
 فرميت غفلة قلبه عن شأنه فأصبت حبة قلبها وطحالمها^(٢)
 فتكريره ذكر القلب لفائدة فيه ، وهجنه بذكر «طحالمها» . ودون هذا
 قول ديك الجن :

فتنفس في البيت إذ مزجت بالماء واستلت سنا الذهب^(٣)
 كتفنس الريحان مازجه ما ورد جور ناضر الشعب
 فذكر الماء مع المزج حشولا فائدة فيه ، وأخذه من قول أبي نواس :
 سلبوا قناع النطين عن رمي حتى الحياة مشارف الخلف^(٤)
 فتنفس في البيت إذ مزجت كتفنس الريحان في الأنف
 فلم يذكر أبو نواس الماء مع المزج ، وذكره ديك الجن فقصر عنه ، وزاد
 الحسن عليه بذكر الأنف حسنا . وذكر ديك الجن ماء الورد مع الريحان ولم يذكره
 الحسن ، لأن ذكاء الريحان أكثر ما يكون إذا أصابه بلل ، لكنه في ذكره ماء
 الورد زيادة معنى بلا شك ، إلا أنه قد انضاف إليها العيوب للمتقدمة . ومع هذا
 فالحسن قد استوفى المعنى في بيت واحد ، وديك الجن في بيتين ، وصاحب بيت
 أبدا عندهم بانفاق أشعر ، كقول امرئ القيس :

أراهن لا يُحببن من قبل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا^(٥)
 فما احتوى عليه هذا البيت ، أتى به علقمة في ثلاثة أبيات مشهورة ، وإن
 كان المعنى أبسط وأجل فالفضل لصاحب البيت ، والزمان واحد ، لأن من قال
 علقمة مرقه فقد أخطأ ، فأما إذا كان السابق مستوفى المعنى في بيت واحد ، ويسوقه

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٢٤٢ (٢) ديوانه ٢٧ .

(٣) ٢٠٩ (٤) ديوانه ٣٠٣ .

(٥) ديوانه ١٠٧ .

للتأخر في أبيات فالكلام في هذا، كقول امرئ القيس :

نَمْشُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ أَكُفِّنَا إِذَا نَحْنُ قِنَاعِنِ شِوَاءِ مُضْطَّهِبِ^(١)

أخذه عبدة بن الطبيب فقال :

لَمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أَخْضَبِيَّةٍ وَفَارَ بِاللَّحْمِ لِلتَّوَمِ الْمَرَاجِيلُ^(٢)
وَرَدَّ وَأَشْقَرُ لَمْ يُنْهِنْهُ طَائِحُهُ مَا غَيَّرَ الْغَلَى مِنْهُ فَهُوَ مَا كَوَّلُ
ثَمَّتَ قَمْنَا إِلَى جُرْدٍ مَسُومَةٍ أَعْرَافُنَ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه، وكان يجتنب غير الأدباء : ما خير المناديل ؟
فقال قائل : منايل مصر كأنها قنيطر البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن ، كأنها
أنوار الربيع ، فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً ، أفضل المناديل ما قال أخوتهم
- يعني عبدة - وأنشد الأبيات ، وهي مع جودتها قصّرت عن بيت امرئ القيس .
وكذلك قول طرفة :

نَظَرْدُ الْقُرَى بِحَرٍّ صَادِقٍ وَعَلَيْكَ الْقَيْظُ إِنْ جَاءَ بِقُرَى^(٣)
وقال الأعشى :

وَتَبْرَدَ بَرْدَ رِءَاءِ الْعَرُوسِ بِالصَّيْفِ رَقَرَقَتْ فِيهِ الْعَبِيرَا^(٤)
وتسخن ليلة لا يستطيعُ نُبَاحًا بِهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرَا

الاستطراد

البحترى : أنشد أبو تمام لنفسه يهجو عثمان بن إدريس الشامي :
وَسَابِحِ هَطَلِ التَّمْدَاءِ هَتَانٍ عَلَى الْجِرَاءِ أَمِينٍ غَيْرِ خَوَانٍ^(٥)
أَطْلَى الْفُصُوصِ وَلَمْ تَطْلَمْأَ قَوَائِمُهُ فَنَحَلَّ عَيْدُكَ فِي ظِلِّ مَآنِ رِيَانِ

(١) ديوانه ٥٤ (٢) المفضليات ١٤١ وفيها : « رفنا ظل أردية »

(٣) ديوانه ٧٣ والعلك : الشديد الحر (٤) ديوانه ٩٥

(٥) ديوانه ٤ : ٤٣٤ (طبع المارف) .

فلو تراه مُشِيحًا والحصى فَلَقْتُ بين السنايك من مَثْنَى وَوَحْدَانٍ
أَبْقَنْتَ إِنْ لَمْ تَثْبُتْ أَنْ حَافِرَهُ من صَخْرٍ تَدْمُرُ أَوْ مِنْ وَجْهِ عُمَانَ
ثُمَّ قَالَ : مَا هَذَا مِنَ الشَّعْرِ ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي ، قَالَ : هَذَا هُوَ اسْتَطْرَادُ ، قُلْتُ :
فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : يَرِيكَ وَصَفَ الْفَرَسَ ، وَهُوَ يَرِيدُ هَجَاءَ عُمَانَ ، فَأَخَذَهُ
الْبَحْتَرَى ، قَالَ فِي فَرَسٍ :

يَهْوِي كَمَا تَهْوِي الْعُقَابُ وَقَدْرَأْتُ صَيْدًا وَيَنْقُضُ انْقِضَاضَ الْأَجْدَلِ^(١)
مَا إِنْ يَظَافُ قَذَى وَلَوْ أَوْرَدْتَهُ يَوْمًا خَلَّاقَ حُدُوبِهِ الْأَحْوَلِ
وَكَانَ حُدُوبِهِ عَدُوًّا لِمَدْوَحِهِ ، فَاسْتَطْرَدَ بِهِ . وَيَقَالُ : إِنْ الْبَحْتَرَى لَمَّا عُيِّرَ
بِسُرْقَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَزَالَهُ مِنْ شَعْرِهِ . وَقَالَ دِعْبَلُ :

فَلَوْ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ فِي جُودِ مَالِكٍ وَعَزَّزْتُهُ مَا نَالَ ذَلِكَ مَطْلَبِي^(٢)
فَتَى شَقِيتُ أَمْوَالَهُ بِسَاحِهِ كَمَا شَقِيتُ قَيْسَ بِأَرْمَاحِ تَغْلِبِ
فَخَرَجَ فِي اسْتَطْرَادِهِ مِنْ مَدَحٍ إِلَى ذَمٍّ ، وَهُوَ مَتْلُوبُ اسْتَطْرَادِ زَهِيرٍ فِي قَوْلِهِ :
إِنْ الْبَخِيلُ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ الْجَوَادُ عَلَى عِلَالَتِهِ هَرِمُ^(٣)
فَخَرَجَ مِنْ ذَمٍّ إِلَى مَدَحٍ . وَقَالَ جَرِيرٌ :

تَرَى بَرَصًا بِمَجْمَعِ إِسْكَتْنِيهِ كَعَنْقَةِ الْفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا^(٤)
وَالسَّابِقُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى وَالنَّاسُ لَهُ تَبِعَ السَّمُوءِلَ حَيْثُ قَالَ :
وَإِنَّا أَنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ^(٥)
وَمَا يُسْتَحْسَنُ ، قَوْلُ بَشَارٍ :

خَلِيلِي مِنْ كَعْنِبٍ أَعَيْنَا أَخَاكَ عَلَى دَهْرِهِ ، إِنْ الْكَرِيمُ مُعِينُ^(٦)
وَلَا تَبْخَلَا بِخُلٍّ ابْنِ قَذَعَةٍ إِنَّهُ مَخَافَةٌ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ

(١) ديوانه ١٧٤٥ ، وفيه : « وينتصب انتصاب »

(٢) ديوانه ٢٦ ، ونقله عن الشريشي .

(٣) ديوانه ١٥٢ (٤) ديوانه ٦٩ ، والعنقة : ما بين الذقن وطرف الشفة السفلى -

(٥) ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ٤ : ١١١

(٦) ديوانه ٩٧ (مطبعة الشباب)

إذا جئته في حاجة سدّ بابَه فلا تَلَقَّه إِلَّا وَأَنْتَ كَينُ
قف على هذه الجملة من صناعة البديع ، ففيها كفاية بمون الله سبحانه وتعالى :
وأما قوله : فبرز الشيخ مجلياً ، وتلاه الفتي مصلياً ، فأصل ذلك في الخيل .
ونذكر من ذلك جملة تليق بهذا الموضع ، وينتظم المجلي والمصلي في حكاية الرشيد
مع المأمون .

[حكاية فرسى الرشيد والمأمون]

وذلك أن الرشيد أجزى الخيل يوماً بالترقة فوق متلوما حتى طلعت ، فإذا
في أولها فرسان في عنان واحد ، فتأملهما ، فقال : فرسى والله . ثم تأمل وقال :
وفرس ابني عبد الله ، فجاء الفرسان أمام الخيل ؛ فرسه السابق وفرس المأمون
المصلي ، فسرت بذلك الرشيد سروراً عظيماً . قال الأصمعي : فقلت للفضل : يا أبا
العباس ، هذا من أيامي ، فاحتل حتى توصاني ، فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ،
إن الأصمعي قد أعد في أمر الفرسين شيئاً يريد به سرور أمير المؤمنين ، فقال :
هات يا أصمعي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، كنت وابنك اليوم وفرسا كما ، كما
قالت الخنساء - وقد قيل لها : كيف تفضلين أخاك على أيك ؟ فقالت :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران مُلأة الخضر^(١)
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد خطا إلى وَكْرٍ
حتى إذا جدّ الجراء وقد ساوت هناك الغدر بالندر
وعلا هُتاف الناس : أيهما ؟ قال الحبيب هناك : لا أدري
برقت صحفية وجه والده ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر

قيل لأبي عبيد : ليس هذا في مجموع شعرها ، فقال : العامة أسقط من أن
يجودوا عليها مثل هذا . فقولها : « ملأه الخضر » تعني بها غبرة الفرسين التي أثارها

جعلتها كملحفة يرتديانها ويتجاذبانها . وسيأتي مَنْ أخذ منها هذا المعنى وَمَنْ سبق إليه في الأربعين .

[مراتب الخليل في الحلبة]

ومراتب الخليل في الحلبة : السابق منها يسمى المجتلى^(١) ثم المصلّي^(٢) ثم المسلي^(٣) ، ثم التالي^(٤) ثم المرتاح^(٥) ثم العاطف^(٦) ثم الحظي^(٧) ، ثم المؤمل^(٨) ، ثم اللطيم^(٩) ، ثم الشكيت^(١٠) . قال الأصمعي وأبو عبيدة : لم نسمع في سوابق الخليل اسماً لشيء منها ممن يوثق بعلمه إلا الثاني واسمه المصلّي . قال الأصمعي ، هو من الصّلا وهو جانب ذنبه . والعاشر واسمه الشكيت ، وما سواهما فإنما يسمى الثالث والرابع إلى التاسع .

وكان عند المتقي العباسي فتى راوية للخبر والشعري أنس به ، فقال ليلة جلسائه : عودوا إلى ذكر الخليل ، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين ، حدثني كلاب بن حمزة العقيلي : قال : كانت العرب ترسل خيلاً أراسيل ، عشرة عشرة ، والقصب سبعة سبعة ، فلا يدخل الحجرة من الخليل إلا ثمانية : الأول السابق المجتلى لأنه جلي عن وجه صاحبه الكرب . والثاني للمصلي لأنه وضع جحفلة على قطة المجتلى ، وهو صلاه ، والصلا عجب الذنب . والثالث المسلي ؛ لأنه كان شريكاً في سبق فسلي عن صاحبه بعض همّه . والرابع التالي ، لأنه تلا المسلي دون غيره ، والخامس المرتاح وهو المفتعل من الراحة ، لأن في الراحة خمس أصابع ، فلما كان الخامس على خامسة الأصابع سمي مرتاحاً . والسادس حظي ، لأنه نال حظاً فحظي به وإن قل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى السادس نصيباً وهو آخر حظوظ الحلبة ، وسمى السابع العاطف لدخوله الحجرة لأنه قد عطف بشيء وإن خس إذ كان قد دخل الحجرة ، الثامن المؤمل ، على القلب والتفاؤل ، كما سمي اللدبع سايباً فسمى مؤملاً لقربه من ذوات الحظوظ . التاسع اللطيم ، لأنه لورام الحجرة لطيم دونها ، لأنه أعظم جرماً من السابع والثامن . العاشر الشكيت ،

لأن صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت خزيًا وعيًا ، وكانوا يعملون في عنقه حَبَلًا ،
ويحملون عليه قردًا يركضه ليعتبر بذلك صاحبه .

أبو عبيدة يشدد السكّيت ، وسمى سكّيتًا لأنه آخر العدد الذي يقف عليه
العاذة والسكت الوقوف ، وسمّيت حَلْبَة ، لأن العرب تحلب إليها خيولها
أى تضمرها .

وأشدد ابن الأنبارى أبياتًا تجمعها وهى قوله :

جاء المجلى والمصلّى بعده ثم المسلى بعده والتالى
والخامس المراتح ينقص عدوّه والعاطف الصّال كالرّئبال
نسقا وقاد حظيها فى صهوة ذاك المؤمل غير ذى الأشكال
ثم اللطيم يقودها بجميعها قبل السكّيت العاشر الذّبال
[أشعار فى وصف الخيل]

ونذكر هنا جملة مقاطيع فى أوصاف الخيل يكمل بها الغرض المقصود ، قال
امرؤ القيس :

إذا ماركنبنا قال ولدان أهنا تعالوا إلى أن يأتينا الصيد نخطِبُ^(١)
وقال عُمارة بن عقيل :

وأرى الوحش فى يمينى إذا ما كان يوما عنائه بشّالى
وقال حبيب :

مخاق وجْهه على السّبْقِ تَخْلِقَ عروسِ الأبناء للعُرسِ^(٢)
تقتل عشرا من النّعام به بواحد الشّدّة واحد النّفس

(١) ديوانه ٣٨٩

(٢) ديوانه ١٦٩ ، ١٧

وقال أيضاً :

لَبَّ زَارَ مِيدَانًا مَضَى سَابِقًا أَوْ نَادِيًا قَامَ إِلَيْهِ الْجُلُوسُ^(١)
نَرَى رِزَانَ الْقَوْمِ قَدْ أَسْمَجَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي حُسْنِهِ وَهِيَ شُوشُ
كَأَنَّمَا لَاحَ لَهْمٌ بَارِقٌ فِي الْمَحَلِّ أَوْ زُقْتُ إِلَيْهِمْ عَرُوسُ
سَامٍ إِذَا اسْتَعْرَضَتْهُ زَانَهُ أَعْلَى ، رَطِيبٌ وَقَرَارٌ يَبِيسُ
كَأَنَّمَا خَامَرَهُ أَوْلَقٌ أَوْ عَارِضَتْ هَامَتَهُ الْخَنْدَرِيسُ
عَوَّدَهُ الْحَاسِدُ بَخْلًا بِهِ وَرَفَرَفَتْ خَوْفًا عَلَيْهِ الْتَفُوسُ

وقال البحترى :

وَأَغْرَتْ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مَحْجَلٌ قَدْ رُخْتُ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مَحْجَلٍ^(٢)
كَالْهِكْلِ الْمَبْنَى إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ
ذَنْبٌ كَمَا سَحَبَ الرِّدَاءَ يَذْبُ عَنْ عُرْفٍ ، وَعَرَفَ كَالرِّدَاءِ الْمَسْبَلِ
تَتَوَهَّمُ الْجُوزَاءُ فِي أَرْسَاعِهِ وَالبَدْرُ غَرَّةٌ وَجْهُهُ الْمُتَهَلِّلِ
وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لَهْيُهُ لَوْنًا وَشَدًّا كَالْخَرِيقِ الْمَشْعَلِ
هَزَجَ الصَّهِيلِ كَأَنَّهُ فِي نَفَمَاتِهِ هَزَاتُ مَعْبُدٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
مَلَكُ الْعَيُونِ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِيَنَّهُ نَظَرَ الْحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبَلِ

وقال عبد الله بن المعتز :

وَلَقَدْ وَطِئْتُ الْغَيْثَ يَحْمِلُنِي طَارِفٌ كُلُّونِ الصَّبْحِ حِينَ وَقَدُ^(٣)
يَمْشِي وَيَعْرِضُ فِي الْعِنَانِ كَمَا صَدَفَ الْمَعْشَقُ ذُو الدَّلَالِ وَصَدُ
جَمَاعَ أَطْرَافِ الصُّوَارِ فَمَا إِلاَّ أُخْرَى عَلَيْهِ إِذَا جَرَى بِأَشَدِّ

(١) ديوانه ١٧٩ .

(٢) ديوانه ١٧١٤ .

(٣) زهر الآداب ١٧٧ ، المقدم ١ : ٢٠٦ .

بَلِّ الْمَهَادِمَاهِنَ وَلَمْ يَنْتَلِ مِنْهُ بِالْحَمِيمِ جَسَدُ
وَكَأَنَّهُ مَوْجٌ يَذُوبُ إِذَا أُطْلِقَتْهُ وَإِذَا حَسِبْتَ جَمْدُ

وقال المتنبي :

وَعَيْنِي إِلَى أُذُنِي أَغْرَ كَأَنَّهُ مِنْ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكْبُ^(١)
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ تَجِيءُ عَلَى صَدْرِ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
شَقَقْتُ بِهِ الظُّلُمَاءُ أُذُنِي عِنَانَهُ فَيَطْفِئُ وَأَرْخِيهِ مِرَارًا فَيَلْعَبُ
وَأُصْرِعُ أَيْ الْوَحْشَ قَفْنِيَّتُهُ بِهِ وَأَنْزَلَ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أُرْكَبُ
وَمَا اخْلِيلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلُهُ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مِنْ لَا يَجْرَبُ
إِذَا لَمْ تَعَايِنْ غَيْرَ حُسْنِ شَيَاتِيهَا وَأَعْضَائِهَا فَالْحَسَنُ عَنْكَ مَغْيِبُ

وقال ابن نباتة يصف فرساً أغرَّ حمله سيف الدولة عليه :

قَدْ جَاءَنَا الطَّرْفُ الَّذِي أَهْدَيْتَهُ هَادِيَهُ يَعْقِدُ أَرْضَهُ بِسِمَانِهِ^(٢)
تَحْتَالُ مِنْهُ عَلَى أَغْرَ مَحْجَلٍ مَاءُ الدِّيَاجِي قَطْرَةٌ مِنْ مَائِهِ
وَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ فَاقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ
لَا تَعْلُقُ الْأَحْظَافُ فِي أَعْطَافِهِ إِلَّا إِذَا كَفَّكَفَّتْ مِنْ غُلُوثِهِ

وقال أيضاً :

وَأُدْهِمُ يَسْتَمِدُّ اللَّيْلُ مِنْهُ وَتَطْلُعُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ الثَّرْيَا^(٣)
سَرَى خَلْفَ الصَّبَاحِ يَطِيرُ مَشِيًّا وَيَطْوِي خَلْفَهُ الْأَفْلَاكُ طَيًّا
فَلَمَّا خَافَ وَشَكَ الْقَوْتَ مِنْهُ تَشَبَّثَ بِالْقِيَامِ وَالْحَيَا

وقال أبو منصور^(٤)، مخاطباً أبا الفضل الميكالي :

يَا مُهْدِيَ الطَّرَفِ الْجَوَادِ كَأَنَّمَا قَدْ أَنْعَلُوهُ بِالرِّيَّاحِ الْأَرْبَعِ^(٥)

(٢) هو ابن نباتة السعدي ، نهاية الأرب ١٠ : ٦٤ .

(٤) هو أبو منصور النعماني .

(١) ديوانه ١ : ١٧٩ .

(٣) نهاية الأرب ١٠ : ٦٤ .

(٥) معاهد التنصيص ٢ : ٢٧٠ .

لا شيء أسرع منه إلا خاطري
ولو أنني أنصفت في إكرامه
أقضمت حَبَّ القلوب لحبيبه
وخلعت ثم قطعت غير مضيق
في شكر نائلك اللطيف الموقع
لجلال مُهْدِيهِ الكريم الأروع
وجعلت مربطه سواد الأذمّع
بُرْدَ الشباب لجله والبرقع

وقال القسطلی :

سامي التليل كأن عقد عذاره
يهدى بمثل الفرقدين وناب عن
فكأنما أطنأ الأباطح والرُّبَا
وكأنه من تحت سوطى خارجاً
في رأس غصن البانة المياد^(١)
رعى السَّمَاء بقلبه الوقار
بُعقاب شاهقة وحيّة وادٍ
في الرُّوع شعلة قادح بزناد

ولأبي تمام الأندلسي :

وأقبّ تتقد البروق إذا جرى
ملك الرياح قواماً فجرى بها
من غيظها حسداً بأن لم تلحق
فيكاد يأخذ مغرباً من مشرق

وقال فيه أيضاً :

وتحتي ريح تسبق الريح إن جرت
له في المدى سبقٌ إلى كل غاية
وهمة نفس نزهتها عن الونى
وما خلت أن الريح ذات قوائم
كأن لنا فيه نفوذ عزائم
فيا عجباً، حتى العلا في البهائم !

وكان للمتوكل ببطلينوس فرس أخضر أغرّ محجل على كَفَلِه ست نقط
بيض ، فبذل كل شاعر في وصفه جهده ، فما سبق الغاية إلا البجلي بقوله :
حمل البدر جوادٌ سابحٌ تقف الريح لأدنى مهله

وَكأنَ الصَّبَحُ قَدْ خاضَ بِهِ فَبداَ تَحجِيلُهُ مِنْ بَلَدِهِ
لَبَسَ اللَّيْلَ قَمِيصاً سابِغاً فَالْثَرِيّاً نَقَطَ فِي كَفَلِهِ
كُلَّ مَطْلُوبٍ وَإِنْ طالتَ بِهِ رَجُلُهُ مِنْ أَجَلِهِ فِي أَجَلِهِ
وَالْبَابُ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصَرِ ، فَلَنَكْتِفَ بِهَذَا الْقَدْرِ .

* * *

فَلَمَّا أُنْشِدَاهَا الْوَالِي مَتْرَاسِلَيْنِ ، بُهِتَ لَدَ كِلَيْهِمَا الْمُتَعَادِلَيْنِ .
وَقَالَ : أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّكُمْ فَرَقْتُمْ سَمَاءً ؛ وَكَزَنْتُمْ دِينَ فِي وَعَاءٍ ، وَأَنَّ
هَذَا الْحَدَثَ لَيَنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، وَيَسْتَعْنِي بِوُجْدِهِ عَمَّنْ سِوَاهِ .
فَتُبَّ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ اتِّهَامِهِ ، وَتُبَّ إِلَى إِكْرَامِهِ .
فَقَالَ الشَّيْخُ : هَيَّأَتْ أَنْ تَرَا جَعَهُ مَقْتِي ، أَوْ تَعْلَقَ بِهِ ثِقَتِي . وَقَدْ
بَلَوْتُ كُفْرَانَهُ لِلصَّنِيعِ ؛ وَمُنِيتُ مِنْهُ بِالْعُقُوقِ الشَّنِيعِ . فَأَعْرَضَهُ
الْفَتَى وَقَالَ : يَا هَذَا ، إِنَّ اللَّجَّاجَ شَوْمٌ ، وَالْحَنْقَ لُؤْمٌ ، وَتَحْقِيقُ
الظُّلْمَةِ إِيْثْمٌ ، وَإِعْنَاتُ الْبَرَى ظُلْمٌ . وَهَبْنِي اقْتَرَفْتُ جَرِيرَةً ، أَوْ
اجْتَرَحْتُ كَبِيرَةً ؛ أَمَا تَذَكَّرُ مَا أُنْشِدْتَنِي لِنَفْسِكَ ، فِي إِبَّانِ
أَنْسِكَ :

* * *

قوله : « بُهِتَ » أى تحير . المتعادلين : المتماثلين ، وشبههما بالفرقدين لرفعتهما
وتوقدهما ، وأخذ الحريرى هذا التشبيه من البحرى فى قوله :

* كالفرقدين إذا تأمل ناظر *

وتقدّم فى الثانية ، وبالزّنين لما فىهما من النار ، وفى هذين من الذكاء وجعلهما
فى وعاء ، يريد : متى التمسهما الإنسان وجد فيما وقعت عليه يده حاجته .

وجده: غناه وما عنده من العلم: ثب: ارجع. هيهات، معناها بُعد. مَقْتَى: محبتي. تعلق به تفتي، يريد: لا أنؤ به بعد ما جربته، وبلوت كفرانه للصنيع، أى جربت قلة شكره لفعل الجليل معه مُنِيت. بليت. العقوق: المقاطعة. الشنيع: المشتهر بالقبیح.

[فصل فى كفران الصنيع]

ونسوق هنا فى كفران الصنيع فصلاً يليق بهذا الموضع. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عباد الله عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّهم ولا ينظر إليهم». قلنا: مَنْ أولئك يا رسول الله؟ قال: «التبرئ من والدیه رغبة عنهما، والتبرئ من ولده، ورجل أنعم الله عليه نعمة فكفرها».

وفى التوراة: من صنع معروفًا إلى أحقّ فهو خطيئة تُكتب عليه.

وقال الحجاج لابن الكلبي: أخبرني عن خمسة أشياء أُضيّعت فى الدنيا. قال: نعم أصلح الله الأمير! مراج يوقد فى شمس، ومطر جود فى أرض سبخة، وامرأة حسناء تُزفّ إلى عَتِن، وطعام اجتهد صاحبه فى صنّعه فقدمه إلى سكران أو شعبان، ومعروف تصنعه إلى رجل لا يشكره عليه.

عائشة رضى الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنفع الصنعة إلا عند ذى حسب ودين، كما لا تنفع الرضاة إلا فى نجيب».

للدائى: خرج فتیان فى صيد لهم فأثاروا ضبعة ففترت ومّرت، فاتبعوها، فاجأت إلى بيت رجل، فخرج إليهم بالسيف مسلولاً، فقالوا له: يا عبد الله، لِمَ تمنعنا من صيدنا؟ فقال: إنها استجارت بى. فخلّوا بينها وبينه، فنظر إليها فإذا هى مهزولة مضرورة، فجعل يسقيها اللبن صبوحةً ومَتِيلاً وغبوقاً، حتى سمّنت وحسّنت حالها، فبينما هو ذات يوم متجرد عدّت عليه فشقت بطنه وشربت دمه، فقال ابن عمّ له:

ومن يَصْنَعُ المعروف في غير أهله يلاقى الذي لاقى مُجِيرَ امٍّ عامِرٍ^(١)
 أعد لها لما استجارت بقربه مع الأمن ألبان اللقاح الدرائر
 فأشبعها حتى إذا ما تَمَكَّنَتْ فرتَه بأنياب لها وأظافر
 قتل لذوى المعروف، هذا جزاء مَنْ بُوِجَّهْ معروفًا إلى غير شاكرٍ

وعن جابر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صناعته ومعروفه في أهل الحِفاظ ، وإذا أراد به سوءاً جعلها في أهل المضائق» وقال حسان :

إن الصنِيعَةَ لا تكون صنِيعَةً حتى يصاب بها طريق المصنع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . وأنشد عبد الله بن جعفر هذا البيت فقال : هذا رجل يريد أن يبخل الناس ؛ أمطر المعروف مطراً ، فإن صدفت موضعه فهو الذى قصدت ، وإلا فكنت أحقَّ به .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لا يُزَهَّدَنَّكَ فى المعروف كفر من كفره ، فإنه يشكرك عليه من لم تصنعه إليه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اصنع المعروف إلى مَنْ هو أهله ، وإلى من ليس أهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله» . وقد قال الحريرى بعد هذا :

واحفظ صَدِيقَكَ عنده شَكَرَ الصنِيعَةَ أم غَمَطَ
 أى لا تفسد معروفك بالمن ؛ شكره من أنعمت عليه أم كفره . وغمط : ستر . وهو ضد شكر .

قوله: اعترضه ، أى واجهه وقابله : شؤم : نحس وطيرة . الحنق : الغضب . الظنة :
 التهمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لازمت أمتي : سوء الظن ، والحسد ،
 والطيرة » . قيل : ما يذهبن ؟ قال : « إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فاستغفر ، وإذا
 تطيرت فامض » . إعنات : مشقة . هبنى : احسبني . اقترفت واجترحت ، معناهما
 اكتسبت . جريرة : جناية . إبان أنسك ، أى وقت أنسى بك .

* * *

سامحْ أخاك إذا خلطَ منه الإساءة بالغلطِ
 وتجاف عن تعنيفه إن زاعَ يوماً أو قسطِ
 واحفظ صنيعك عنده شكر الصنيعة أم غلطِ
 وأطعه إن عاصى وهُنْ إن عزَّ واذنْ إذا شحطِ
 واقنَ الوفاء ولو أخلَّ بما اشتربت وما اشتراطِ
 واعلمْ بأنك إن طلبتْ مهذباً رُمْتَ الشَّطَطِ
 من ذا الذى ما ساء قطُّ ومنْ له الحسنى فقط
 أو ما ترى المحبوبَ والمكروهُ لُزَّافى نَطِ
 كالشوكِ يبدو فى العصور ن مع الجنى الملتقطِ
 ولذاذة العمر الطَّو يل يشوبها نغصُ الشَّطَطِ
 ولو انتقدتْ بنى الزَّما ن وجدتْ أكثرهم سَقَطِ
 رُضتْ البِلاغة والبرا عة والشجاعة والخطَطِ
 فوجدتْ أحسن ما يرى سِرَّ العلومِ معافَقَطِ

* * *

تجاف : تباعد . تعنيفه : لومه . زاع : مال . قسط : جار .

وقوله : وَهَنْ إِنْ عَزَّ ، لفظ المثل : إذا عز أخوك فهن ، يُرَوَى بضم الهاء وكسرهما ، فالضَّم من هان يهون ، قال ابن أحر :

دَبَبْتُ لَهَا الصَّرَاءَ وَقُلْتُ أَبْقَى إِذَا زَ ابْنُ عَمِكَ أَنْ تَهُونًا^(١)
ورواه بالكسر أبو عبيد وثعلب ، وقال أبو عبيد : معناه أن مياسرتك صديقك ليست بضيم يركبك ، فتدخلك منه حمية ، إنما هو حسن خلق وتفضل منك ، فإذا عامرك فياسره ، فالضيم الذي ذكر هو الهوان بعينه . قال ابن درستويه : معناه إذا صار أخوك عزيزاً قويا عليك فأطعته واخضع له ، تسلم من ظله . رواية الكسر من هان يهين ، ويكون معنى عز تصعب واشتد لا من العزة ، ومعناه إذا صعب أخوك فلن له ، والمثل لهذيل بن هبيرة ؛ وسببه أنه أغار على ضبة فغم ، وأقبل بالمغام ، فقال له أصحابه : أقسمها بيننا ، فقال : أخاف أن يدرككم الطلب ، فأبوا ، فعندها قال المثل ، ونزل فقسمها

قوله شحط ، أى بعد . وأقن الوفاة : أى الزمه ، وقنيت الحياء بكسر النون أقنيه قنيانا ، ألزمته . أخل : نقص . بما اشترطت وما اشترط ، أى بما جعلتما بينهما من علامة ، ومنه أنشراط الساعة أى علاماتها ومنه الشرط لأن لهم علامة يعرفون بها . مهذبا : مخلصاً . والشطط : محاوزة القدر ، قال الفضيل بن عياض : مَنْ طلب أخطأ بلا عيب بقی بلا أخ.

قال الحارث المحاسبي : ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة : حُسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة . وقال النابغة :

ولست بمستبقي أخطأ لا تلمه على شعث ، أى الرجال المهذب^(٢) !

وقال يزيد بن محمد المهلبی :

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرَضِّي سَجَايَاهُ كُلَّهَا كَفَى الْمَرْءَ فَضلاً أَنْ تَعَدَّ مَعَايِبُهُ^(٣)

(١) فصل المقال لأبي عبيد ١٩٦ .

(٢) ديوانه ٥٠ .

(٣) ط : الباهلي ، تحريف . والبيت في زهر الآداب ٧٥٥ ، نهاية الأرب ٣ : ٩٤ .

قوله: «قَطَّ» بمعنى الدهر والأبد . والخسنى: الفعل الحسن . قَطَطَ : حسب .
لذا : ربطا . النَّمَطُ : ثوب من الصوف المصبوغ ، والنَّمَطُ الطريق ، تقول : الزم
هذا النمط ، والنمط النوع من العلم والخير ، فيريد أن الخير والشر قد نظما في سلك
واحد ، فإذا أتى يوم يُرَضَّى أتى بعده يومٌ يسخط .

الجنى : الطرى مما يجنى ، نعمل بمعنى مفعول ، وأصل مجنى مجنوى فأعِلَ .
والملتقط : من قولك : لقطت هذه الفاكهة واحدة واحدة ، أى اخترتها وانتخبتها .
أبو أمامة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الناس اليوم كشجرة
ذات جنى ، ويوشك الناس أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقذتهم ناقذك ،
وإن تركهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم طلبوك» ، قيل : فكيف الخرج من
ذلك ؟ قال : « ترضهم من يرضك ليوم قهرك » ، وأنشد عمر بن الجعد :

طَبُّ عَنْ الْأُمَّةِ نَفْسًا وارض بالوحدة أنسا
لست بالواجد حءا أو تردّ اليوم أمسا
ما وجدنا أحدا يسـوى على الخبرة فلستا

قوله : «نقص» تكدر العيش ، ونقص الرجل إذا لم يتم له أمره وتكدر
عيشه . يشوبها : يخالطها . الشَّمَطُ : اختلاط الشيب بالسواد وانتقدت : فقتـ .
والسَّقَطُ : من لا خير فيه .

وللزاهد بن عمران في معنى أبيات الحريري رحمه الله :

إذا وَغَدُ جفائك فلا تَلُمُهُ لأنك إن فعلت أثرت جِيفُهُ
وإن يصل الكريمُ عليك فاصفح ستمطفه أصالته الشريفة
ومن يك بين ذاك فأغض عنه قتل مجدا ومرتبة مُنِيفُهُ
وحلّ الضغن إن آتست ضِغْنًا يسط الوجه والحيل اللطيفة

أخذ البيتين الأولين من قول حاتم :

وأغفر عوراء الكريم أذخاره وأعرض عن شتم اللئيم نكرما^(١)

* * *

قال : فجعل الشيخُ يُنَضِّنُضُ نَضْنَضَةَ الصَّلِّ ، ويُحْمَلِقُ حَمَلَقَةَ
البازي المِطْلَ ، ثمَّ قال : والذي زَيْنَ السَّمَاءِ بالشَّهْبِ ، وأنزَلَ
الماءَ من السَّحْبِ ، ما رَوَّغِي عن الاصْطِلَاحِ ؛ إلَّا لتَوَقَّى الافتِضَاحَ ،
فإنَّ هذا الْفَتَى اعتَادَ أنْ أُمُونَهُ ، وأراعى شَتُونَهُ ، وَقَدْ كَانَ الدَّهْرُ
يَسْحَ ، فَلَمْ أَكُنْ أَشِيحْ ؛ فَأَمَّا الْآنَ فالوقتُ عَبُوسٌ ، وَحَشَوُ الْعَيْشِ
بُوسٌ ؛ حتَّى إنْ بَرَّتِي هَذِهِ عَارَةٌ ، وَيَبْتِي لَا تَطُورُ بِهِ فَارَةٌ .

قال : فرقْ لِمَقَالِهِمَا قَلْبُ الْوَالِي ، وَأَوَى لَهُمَا مِنْ غَيْرِ اللَّيَالِي ، وَصَبَا
إِلَى اخْتِصَاصِهِمَا بِالْإِسْمَافِ ، وَأَمَرَ النَّظَّارَةَ بِالْإِنْصِرَافِ .

* * *

قوله : « يُنَضِّنُضُ » يحرك لسانه . الصَّلِّ : الحية . يَحْمَلِقُ : ينظر بحملاته
وهو باطن جفنه ، وذلك نظر الغضبان . المِطْلُ : المشرف على فريسته . الشَّهْبُ :
النجوم . رَوَّغِي : فرارى . تَوَقَّى : خشية . الافتِضَاحُ : الشهرة . أُمُونَهُ :
أنكف لوازمه . أراعى : أحفظ . شَتُونَهُ : أموره . يَسْحَ : يصب الرزق .
الْحَشَوُ : ما حَشَى به . بوس : ضرَّ . بَرَّتِي : ثوبى . عَارَةٌ ، أى عارية . تطوره :
تقرب منه ؛ يريد أن الفأرة ليس لها فيه مانأ كل ، وأخذ هذا المعنى من قول
امرأة وقتت على قيس بن سعد بن عبادة ، فقالت : أشكو إليك قلة الجردان ،

قال : ما أحسن هذه الكناية ! املثوا بيتها خبراً ولحماً وسمناً . وقد أعاد هذا المعنى منظوماً في الثالثة والثلاثين ، فقال ^(١) :

وَأَمَحَلَّتْ رَبِّعِي حَتَّى خَلَتْ مِنْ رَبْعِي الْمَحِلَّ جُرْذَانَهُ

وحكى الفنجديهسى بسنده إلى أنى محمد الحسن بن إسماعيل الضراب ، قال : كنت قاعداً أنسخ في السراج ، وبين يديّ قدح فيه ماء ، وظرف فيه كعك وزبيب ولوز ، فجاءت فأرة فأخذت لوزة فمضت ، ثم عادت فأخذت أخرى فبددت الماء الذى فى القدح ، فعادت الفأرة فكبيت القدح عليها واشتغلت بشغلي ساعة ، فإذا فأرة أخرى قد جاءت فشغقت وبيت ساعة على ذلك ، والفأرة الأخرى تشفق من داخل القدح ، فلم تجد حيلة فى خلاصها ، فمضت أختها ، فأتت بدينار فوضعتهُ ووقفت ، ولم أرفع القدح عن الفأرة ، فمضت وأتت بدينار آخر ، ووقفت ولم أرفع القدح ، ففعلت ذلك إلى أن أتت بسبعة دنانير ، ووقفت ساعة ، ولم أخلّ عن الفأرة ، فمضت وأتت بقرطاس فارغ فعلمت أنها لم يبق عندها شيء فخلّيت عن الفأرة .

قال الفنجديهسى : رويت هذه الحكاية عن أشخاص وأشياخ ثقة .

وعلى ذكر الفأرة والجُرْذَان كتب أبو حفص الورّاق رقعة إلى الصاحب ، منها : وحال عبد مولانا فى الحنطة مختلفة ، وجرذان داره عنها منصرفة ، فإن رأى أن يخلط عبده بما أخصب عنده فعل إن شاء الله تعالى . فوقّع فيها : « أحسنت يا أبا حفص قولاً ، وسنحسن إليك فعلاً ، فبشر جرذان دارك بالخصب ، وأمتها من الجذب ، فالحنطة تأتيك فى الأسبوع ، ولست عن غيرها من النفقة بمنوع . إن شاء الله تعالى » .

قوله « أوى » : أشفق . غَيْرَ : تَغَيَّرَ وهو من تَغَيَّرَ الحال ، وهو اسم واحد بمنزلة الجمع ، والغَيْر مذكّر وجمعه أغيار . هذا قول السكاسى . ويجوز أن يكون

جَمْعًا ، واحدة غيرة وهذا قول ابن عمرو ، يقال للدية : غيرة لأنها تغير القواد إلى الرضا به . صَبَا : مال . الإسعاف : قضاء الحاجة . النظارة : الناس الناظرون إليه .

* * *

قال الراوى : وكنت مُتَشَوِّقًا إِلَى مَرَأَى الشَّيْخِ لَعَلِّي أَعْلَمُ عِلْمَهُ ، إِذَا عَايَنْتُ وَشِمَهُ ، وَلَمْ يَكُنِ الزَّحَامُ يُسْفِرُ عَنْهُ ، وَلَا يَفْرُجُ لِي فَأَذْنُو مِنْهُ . فَلَمَّا تَقَوَّضَتِ الصُّفُوفُ ، وَأَجْفَلَ الْوُقُوفُ ، تَوَسَّيْتُ فَإِذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ وَالْفَتَى فَتَاهُ ، فَعَرَفْتُ حِينَئِذٍ مَفْزَاهُ فِيمَا أَتَاهُ ، وَكِدْتُ أَنْقُضَ عَلَيْهِ ، لِأَسْتَعْرِفَ إِلَيْهِ . فَزَجَرَنِي بِإِيْمَاءِ طَرَفِهِ ، وَاسْتَوْقَفَنِي بِإِيْمَاءِ كَفِّهِ .

* * *

مُتَشَوِّقًا : متطلعا . وَشِمَهُ : علامته . يسفر : يكشف . يفرج : يفتح لى فرجة . تَقَوَّضَتْ : تفرقت ، وأصلها الهدم . أَجْفَلَ : أصرع المشى . تَوَسَّيْتُ : نظرت . مَفْزَاهُ : مذهبه ومقصده . انقض : انحط وانصب استعريف إليه : أعرفه بنفسى . زجرنى : انتهرنى . إِيْمَاضُ : إشارة بالعين خفية ، وكثيرا ما يصرف الحريرى فى المقامات تنبيه أبى زيد لابن همام على نفسه بخفى الإشارة ، المغنية عن تصريح العبارة ، وهو مذهب للعرب ، ونبلاء أهل الأدب ، وقد قالوا : رُبَّ كُنَايَةٍ تَغْنَى عَنْ إِيْضَاحٍ ، رُبَّ لِحْظٍ يَدُلُّ عَلَى ضَمِيرٍ .

[مختار من الشعر فى إشارة اللحظ]

وفى إشارة اللحظ يقول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزونٍ ولم تتكلم
فأيقنت أن اللحظ قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتميم

وقال أبو نواس :

لهفى على التجل العيون التمهّد القبّ البطون

الناطقات عن الضمير لنا بألسنة الجفون
وقال المهدي بن المنصور :

ومُطْلَع من نفسه ما يَسْرَهُ عليه من اللحظ الخفي دليلُ
إذا هو لم يُبْدِ الذي في ضميره ففي اللحظ والإيماء منه رسولُ
وقال تميم بن المعتز :

سبحان مَنْ خلق الخدود شقائقاً تُنَنِّسُكُمْ (١)
وأعارها الأَلْحاظَ فَمَنْ يَـبْـلِـغُهَا تَكْلَمُ
وقال آخر :

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من الحجة أو بفضٍ إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامتةٌ حتى ترى من ضمير القلب تبياناً
وقال أعرابي :

وليل لم يقصِّره رقادٌ وقصَّر طوله وصلُّ الحبيب
بمجلس لذةٍ لم تَقَوْ فيه على شكوى ولا عدُّ الذنوبِ
بخلفنا أن نَقْطعه بلفظٍ فترجعت العيون عن القلوبِ
وقال الحسن بن بشير :

أما تَرَى لي ناظراً شاهداً بالحبِّ، والأعينُ رُسُلُ القلوبِ
ودون إلحاح جُفوني هوى يخبر عَمَّا في ضمير الكئيبِ
وأنتَ لا شك به عالمٌ لأنَّ عندَ اللحظ علم الغيوبِ
وقال الأحوص :

ودَعَيْنَ ولا شيء يراجِعُنِي إلا البنان وإلا الأعين الشَّجْمُ (٢)

إذا أردن كلامي عنده عرضتُ من دونه عبراتُ فارعوى الكلمُ
مسندات وقد مالتُ سوافها وما بهنّ سوى مَسِّ الهوى ألم

وقال ماني الموسوس

بنانُ يدِ تُشيرُ إلى بنانٍ تجاوبتُ وما تشكلمانِ
جرى الإيماء بينهما رسولا فأحكم وحيه المتناحيانِ
فلو أبصرتنا لفضضت طرفاً عن المتحدثين بلا لسانِ

والباب لا يحصى كثرة فلنقتصر على هذه اللمعة

قوله : « واستوقفني بإيماء كفه » : أى أمرني بالوقوف، والإيماء : الإشارة .

* * *

فلزمتُ ووقفي ، وأخرتُ مُنصرفي . فقال الوالى : مامراًمك ، ولأى
سببٍ مقامك ؟ فابتدره الشيخُ وقال : إنَّه أنيسى ، وصاحبُ ملبُوسى .
فدَسَمَحَ عِنْدَ هذا القولِ بتأنيسى ، ورَخَّصَ فى جُلُوسى . ثم أفاضَ عليهما
خِلعتين ، ووَصَلَهُمَا بنصابٍ من العَيْنِ ، واستَعَهَّدَهُمَا أن يتَعَاشِرا
بالمعروف ، إلى إِظلالِ اليومِ المخوفِ . فنهضَا مِنْ ناديه ، مُشِيدِينَ
بشُكْرِ أَيْادِيهِ ، وتَبِعْتُهُمَا لَأَعْرِفَ مِثْوَاهَا ، وأنزودَ من فِجْوَاهَا .

فلَمَّا أَجَزْنَا حِمَى الوالى ، وأفضينَا إلى الفضاءِ الخالى ، أدركنى أحدُ
جَلَاوِزَتِهِ ، مُهَيِّباً بى إلى حَوْزَتِهِ ، فقلتُ لأبى زيد : ما أَظْنُهُ
استَحْضَرَنى إِلَّا لِيَسْتَخِيرَنِى ، فماذا أقولُ ؟ وفى أىِّ وادٍ معه أجولُ ؟
فقال : بَيْنَ لَهُ غَبَاوَةٌ قَلْبِيهِ . وتَلَعَابِي بُلْبُيهِ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ رِيحَهُ لَاقَتْ
إِعْصَارَا ، وَجَدَوْلُهُ صَادَفَ تَيَّارَا ، فقلتُ : أَخَافُ أن يَتَّقَدَ غَضْبُهُ

فَيَلْفَحَكَ لَهَبُهُ ، أَوْ يَسْتَشْرِى طَيْشُهُ ، فَيَسْرِى إِلَيْكَ بَطْشُهُ ، فَقَالَ : إِنِّي
أَرْحَلُ الْآنَ إِلَى الرَّهْأ ، وَأَنْتَى يَلْتَقِي سَهْلٌ وَالسَّهْلُ !

* * *

مرامك : مرادك . مقامك : تلبثك ووقوفك . أنيسى : صاحبي الذي أتاأنس .
به . فقسَّمَح يتأنيسى ، أى أولانى منه المؤانسة . رخَّص : لئن وسهل . أفاض :
صبَّ . خلعتين : كسوتين . والنصاب : عشرون ديناراً ، والعين : الذهب .
استمدهما : استخلفهما . يتعاشرا : يتصاحبا . إظلال : قرب ودنو . اليوم
الخوف : يوم موته . ناديه : مجلسه . مُشِيدين : رافعين بشكره أصواتهما .
أياديه : نعمه . مئواها : مسكنهما . فحواها : معنى كلامهما ، ويروى : «نجواها»
أى سرَّها . أجزنا : خلفنا . أفضينا : وصلنا . الفضاء : المتسع من الأرض .
جلاوزته : شُرطه ، واحد هم جلاواز ، والجلاز عقب ملوى على القوس ، وجلزت
القوس والسوط والسكين : عصبتهما بالعقب ، فسَمُوا جلاوزة ، لأنهم يعصبون
بالسياط الناس عند الضرب ، أولأن السياط لا تفارق أيديهم ، والجاز : الشدة ،
وم يربطون الناس ويشدونهم . مهيباً : داعياً . حوزته موضعه الذى يحميه
ويمحوزه . استحضرنى : طلب حضورى . ويستخبرنى : يسألنى خبره . أجول .
أتصرف وأمشى ، أى علَّمنى فى أى غرض من الحديث آخذ معه . غباوة : جهل ،
ورجل غبى غير فطن . تلعاى بلبه ، أى لعبى بهقله ، والتلعاى بنية للمبالغة .
يستشرى : ينشتر . طيشه : خفته من الغضب . يسرى : يسير . بطشه : إيقاعه
وتناوله بما يكره .

الرَّهْأ : بلد من كورة الجزيرة تجاورها الرقة وحران ، سميت باسم صاحبها
الرها بن البلوى بن مالك بن ذعر ، وهو أول من نزلها . وقال اليعقوبى :
الرَّهْأ من ديار مضر ، وهى مدينة رومية ذات عيون كثيرة منها عجيبة ، تجرى

الأنهار وبها الكنيسة التي للنصارى ، وهى إحدى عجائب الدنيا الموصوفة ، وكان
بالرؤى رجل ضعيف الحال متجمل بين الناس ، فخرج ذات يوم من منزله وعليه
جبة له ، فلقبه سائل ، فسأله شيئا يذفته ، فقال : والله ما أملك غير جُبَّتِي هذه ،
قال السائل : ألا تحب أن تكون من الذين قال الله تعالى فى حقهم : (وَيُؤْمِرُونَ
على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، فدفعها إليه .

أتى : كيف . سهيل والسها : كوكبان لا يلتقيان ، لأن السها نجم خفي^١
فى بنات نعش ، وبنات نعش لا تغرب أبداً فى بلاد أرمينية ، وفى سمتها بلاد الشام
والغرب والأندلس ، وسهيل لا يرى فى شئ من هذه البلاد إلا رؤية لا يعتد بها
فى أيام قلائل ، فلا يلتقى سهيل والسها بوجه ، وإنما أخذ هذا من لفظ عمر بن أبى
ريعة حيث قال :

أيها المنكحُ الثريا سهيلاً عَمَرَكَ اللهُ كيف يلتقيان^(١)
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقلَّ يمان
والثريا هذه بنت على بن عبد الله بن الحارث ، وكانت موصوفة بالجمال ،
وكان عمر يشبب بها ، فتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فنقلها
إلى مصر ؛ فضرب لها عمر المثل بالكوكبين . وأبدل الحريرى لفظ الثريا بالسها ،
وأفاد عدم الالتقاء ، وسهيل هو كوكب أحمر يحيل إليك لشدة اضطرابه أنه يستدير ،
وقال للمعرى فى صفته فأحسن :

وسهيل كوجنة الحب فى اللوز نِ وَلَقِبِ الحبُّ فى الخفَقانِ^(٢)
مستبداً كأنه الفارس المعلى لم يبدؤْ مُعارضِ الفرسانِ
يُسرعُ اللوح فى احمرار كما تُسرعُ باللمح مقلَّةُ الفضبانِ

ضَرَجَتْهُ دَمًا سَيُوفُ الْأَعَادَى فَبَكَتْ رَحْمَةً لَهُ الشُّعْرِيَانِ
قَدَمَاهُ وَرَاءَهُ وَهُوَ فِي الْعَجَبِ زَكَسَّاعٍ لَيْسَتْ لَهُ قَدَمَانِ
قَالُوا : وَلَا تَقْعُ عَيْنُ بَعِيرٍ عَلَى سَهِيلٍ إِلَّا مَاتَ مِنْ حِينِهِ .

وقد أشار المعري إلى هذا في قوله :

لَا تَحْسَبَنَّ إِبِلِي سَهِيلًا طَالَمَا بِالشَّامِ فَالْمَرْئِي شَعْلَةً مَقْبَسِ
وَمَتَى طَلَعَ صَرَفَتِ الْإِبِلُ كُلُّهَا وَجُوهَهَا عَنْ مَطْلَعِهِ وَقَابَلَتْهُ بِأَعْجَازِهَا :
وَقَالَ الْمَتَنَبِيُّ :

وَتَنْكَرُ قَتْلَهُمْ وَأَنَا سَهِيلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزَّانِ (١)

وفي معنى تخويف ابن همام للسروجي بعقاب الوالي ما حُذِّثُ أَنْ أَبَا الْحَسَنِ
الْعَبَّاسُ بْنُ حَيَّوْنَ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فِي السَّجْنِ مَنْ أَعْلَمَهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَغْلَبِ يَرِيدُ
قَتْلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ مَفْرَأًا ، فَقَالَ لِمَعْلَمِهِ بِالْخَبَرِ ، وَأَحْسَنَ فِي قَوْلِهِ :

تَخَوُّفِي بِمَخْلُوقٍ ضَعِيفٍ يَهَابُ مِنَ الْمَنِيَةِ مَا أَهَابُ
لَهُ أَجَلٌ وَلِي أَجَلٌ وَكُلُّهُ سَيَبْلُغُ حَيْثُ بَلَغَهُ الْكِتَابُ

* * *

فَلَمَّا حَضَرَتْ الْوَالِيَّ وَقَدْ خَلَا مَجْلِسُهُ ، وَانْجَلَى تَعَبُّسُهُ ، أَخَذَ
يَصِفُ أَبَا زَيْدٍ وَفَضْلَهُ . وَيَذَمُّ الدَّهْرَ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : نَشِدْتُكَ اللَّهَ ، أَلَسْتَ
الَّذِي أَعَارَهُ الدَّسْتُ ؟ فَقُلْتُ : لَا وَالَّذِي أَحَلَّكَ فِي هَذَا الدَّسْتِ ، مَا أَنَا
بِصَاحِبِ ذَلِكَ الدَّسْتِ ؛ بَلْ أَنْتَ الَّذِي تَمَّ عَلَيْهِ الدَّسْتُ ، فَازْوَرتْ
مُقَلَّتَاهُ ، وَاحْمَرَّتْ وَجَنَّتَاهُ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَعْجَزَنِي قَطُّ فَضَحُ مُرِيبٍ ،

لَا تَكْشِيفُ مَعِيبٍ؛ وَلَكِنْ مَا سَمِعْتُ بِأَنْ شَيْخًا دَلَّسَ، بَعْدَ مَا تَطَلَّسَ
وَتَقَلَّسَ، فَبِهَذَا تَمَّ لَهُ أَنْ لَبَّسَ. أَفْتَدْرِي أَيْنَ سَكَعَ، ذَلِكَ اللَّكْعُ؟
قُلْتُ: أَشْفَقُ مِنْكَ لَتَعْدَى طَوْرُهُ، فَظَمَنْ عَنْ بَمْدَادٍ مِنْ فَوْرِهِ. فَقَالَ:
لَا قَرَّبَ اللَّهُ لَهُ نَوِي، وَلَا كَلَاهُ أَيْنَ ثَوِي؛ فَمَا زَاوَلْتُ أَشَدَّ مِنْ
نُكْرِهِ، وَلَا ذَفْتُ أَمْرًا مِنْ مَكْرِهِ، وَلَوْلَا حُزْمَةُ أَدْبِهِ، لَأَوَغَلْتُ
فِي طَلَبِهِ، إِلَى أَنْ يَقَعَ فِي يَدِي فَأَوْقَعَ بِهِ. وَإِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ تَشِيعَ
فِعْلُهُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، فَأَقْضِ حِينَ الْأَنَامِ، وَتَحْبِطَ مَكَاتِنِي عِنْدَ الْإِمَامِ؛
وَأَصِيرَ ضُحْكَةً بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ. فَعَاهَدَنِي عَلَى الْأَفْوَةِ بِمَا اعْتَمَدَ،
مَادُمْتُ حَيًّا بِهَذَا الْبَلَدِ.

قال الحارث بن همام: فَعَاهَدْتُهُ مُعَاهَدَةً مَن لَّا يَتَأَوَّلُ، وَوَفَّيْتُ
لَهُ كَمَا وَفَى السَّمَوِيُّ.

قوله: «النجلى»، أى زال وانكشف. * * * نشدتك: حلفتك. الدست الأول
هو الثوب، والثانى: المجلس، والثالث هو الأول، والرابع هو الخداع والحيلة،
وقدمه فى الحادية عشرة حيث قال: متى مادسته تم. ازورت مقلته: اعوجت
عيناه وتغير نظرها. والوجنتان: ما أحاط بالعين من أسفل. أعجزنى: غلبنى.
فضح مريب: كشف متهم. تطلس: لبس الطيلسان، وهو من لباس الخواص،
وهو كساء خز. لبس: خلط. سكع: ذهب. اللكع: اللثيم العاجز، قال بعض
أهل العلم: كان يقال: خمس خصال، من أقبح شئء فيمن كنّ فيه: الحدة فى السلطان،
والكبر فى ذى الحسب، والبخل فى الغنى، والحرص فى العالم، والفسق فى الشيخ،
وثلاث هن أحسن شئء فيمن كنّ فيه: تودة لغير ذلّ، وجود لغير ثواب، ونصب
لغير الدنيا.

أشفق : خاف . تعدى طوره : تجاوز قدره . ظعن : رحل . فوره :
حينه . نوى : بعد وسفر . كلاًه : حفظه . ثوى : أقام . زاوت : حاولت . نكره :
منكره . مكره : خداعه . أوغلت : أبعدت . أوقع به : أتناوله بالشر
والمكرهه والضرب .

وقال أبو حازم في معنى دعاء الوالى على السروجى :

إذا استقلت بك الركبُ فحيث لادرت السحابُ
زالت سراعاً، وزلت تجرى بينك الظبي والغرابُ
بحيث لا يُرتجى إيابُ وحيث لا يبلغ الكتابُ
والذى استعمل الناس فى الدعاء على الغائب ألا يرجع قول زهير :

* لدى حيث ألت رحلها أم قسعم*^(١)

وقال آخر :

كما سار الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار
ومثل هذا رقية للمرأة إذا سافر زوجها ، قالت : نافرك القمر ، وظل الشجر ،
شمال تشمله ، ودبورتدبره ، ونكباء تنكبه : شبك ولا انتقس ، ونعس ولا
انتعش . ثم ترمى أثره بمحصة ونواة وروثة وبعرة وتقول : حصاة حصّ أثره ،
ونواة نأت داره ، وروثة راث خبره ، وبعرة تبعره ، ولو أوغل فى طلبه كما ذكر
فأدركه لأنشده السروجى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن التئأى عنك واسِع^(٢)

(١) ديوانه ٢٣ ، صدره :

* فشّد ولم يفزغ بيوتاً كثيرة *

(٢) ديوانه ٥٥ .

وقال المعري :

إذا ما أَخَفَّتَ المرءَ جُنَّ مخافةً وأيقن أن الأرضَ كِفَّةً حابِلٌ^(١)
يرى نفسه في ظل سَنِيْفِكَ قائماً وبينكما بُعْدُ المدى المتطاوِلِ

وقال محمد بن هانيء رحمه الله تعالى :

فلا مهجة في الأرض منك منيعة ولوقطرت من ريق أرقط شَجَمٌ^(٢)
ولو أنها نِيَطَتْ بِمَخْلَبِ طائر ولو أنها باتت على قرن أَعْصَمِ

وقال أشجع السَّهْمِيّ في الرشيد ، حين بعث لإدريس بن عبد الله العلويّ من
اغتاله بالمغرب :

أَنْظَنَ بِالْإِدْرِيسِ أَنَّكَ مُفْلِتٌ كَيْدَ الْخِلَافَةِ أَوْ يَقِيكَ حِذَارُ
إِنْ السُّيُوفُ إِذَا انْتَضَاهَا عَزَمُهُ طَالَتْ وَتَقْصُرُ دُونَهُ الْأَعْمَارُ
هِيَهَاتَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِيْلَدِي لَا يَهْتَدِي فِيهَا إِلَيْكَ نَهَارُ

ولأبي العرب الصقلي :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ كَفُفَكَ إِنْ بَسِرَ بِهَا هَارِبٌ تَجْمَعُ عَلَيْهِ الْأُنَامِلَا
فَأَنْ يَفِرَّ الْمَرْءُ عَنْكَ بِجَرَمِهِ إِذَا كَانَ يَطْوِي فِي يَدَيْكَ الْمَرَاكِلا

قوله : تشيع ، أى تتصل ، يقال : شاع الخبر في الناس ، أى اتصل بكل واحد .
فاستوى علم الناس به ، ويقال : سهم شائع وهشاع ، إذا كان في جميع الدار فاتصل
كل جزء منه بكل جزء منها ، وأصله في الناقة ، يقال : أوزعت الناقة بيولها إيزاعا ،
إذا فترقته ، فإذا أرسلته متصلا ، قيل : أشاعت به . تحبط : تسقط وتبطل .
مكانتي : منزلتى . ضُحْكَة : يضحك الناس به وتسكين عينها للمفعول ، وتحريكها

(٢) ديوانه ١٢٥ ، والمعجم : الأسد .

(١) سقط الزند ١٠٧٥ .

للفاعل . أفوه : أنطق . اعتمد ، أى قصد من الخداع . حلاً : مقبلاً . يتأول :
يحتال ليمينه فيحملها في الباطن على غير ما أوقعها في الظاهر عليه ، فيريد أنه ثبت
له اليمين .

* * *

[قصة السمومل]

السمومل ، هو ابن عاديا ، يُضرب به المثل في الوفاء ، وقصة وفائه أن امرأ
القيس ، لما ألحَّ المنذر في طلبه لحق بعمر بن جابر بن مازن يستجير به ، فقال له :
يا بن حُجْر ، إني أراك في خلل من قومك ، وأنا أنفس بك ، أفلا أدلك على
رجل لم أر أحسن جواراً منه؟ فدُلَّه على السمومل بتياء ، ووصف له حسبه وحصنه ،
فقال : ومن لي به؟ فقال : أحبك من يوصلك إليه ، فأصحبه الربيع بن ضيع - وكان
الربيع يأتي السمومل ويمدحه فيحمله ويعطيه - فمشوا حتى قدموا على السمومل ،
فأنشدوه أشعاراً فعرف حقهم ، وأنزل هنداً بنت امرئ القيس في قبة من آدم ،
وأنزل القوم في مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء ، ثم طلب أن يكتب له
للحارث بن أبي شمر الفسافي بالشام ليوصله إلى قيصر ، ففعل ، فاستودعه بفته
وأدراعه الخمس ، وهي النضفاضة ، والصفاية ، والحصنة ، والحريق ، وأم الذبول ،
وكنَّ لبني آكل المرار ، وهم أجداده يُتوارثن مِلْكا عن ملك . فمضى إلى قيصر ،
وأقام عنده حتى جهزه بجيوش ، ثم بعث له بالحلة المسمومة ، فلما لبسها تقطع لحمه ،
ومات . فلما بلغ خبر موته المنذر قصد تيماء حصن السمومل ، فبعث إليه أن
يعطيه أدراع امرئ القيس وما ترك عنده من المال ، فقال له : إنما أدفع ذلك
لابنته ولورثته ، فحاصره في الحصن ، حتى أخذ ابناً له صغيراً ، فقال للسمومل إما
أن تعطيني ماترك امرؤ القيس أو أقتل ابنك وأنت تنظر إليه ، فقال له : والله
لا وفيت له في حياته ، وأغدره بعد وفاته ! اذهب ، فشأنك بابني فافعل به ما شئت ،

فذبجه وهو ينظر إليه ، ولم يرض بالقدر ، فلما جاء الموسم ذهب بالدروع فدفعها
لابنته وورثته ، وقال :

وفيتُ بأدرع السكندى إني إذا ما خان أقوامٌ وفيتُ
وقالوا إنه كنز عظيم ولا والله أغدر ما حيتُ^(١)
بنى لي عاديا حصناً حصيناً . وبئراً كلما شئت استقيت
فضرب به المثل في الوفاء^(٢) . وانظر في الثلاثين ابتداء الحكاية .

(١) موضعه في الأغاني :

وأوصى عاديا يوماً بالآه هدم يا سموءل ما بنيتُ

(٢) الخبر والشعر في كتاب الأغاني ٦ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

المقامة الرابعة والعشرون النخوية

حكى الحارث بن همام قال: عاشرتُ بقطيعة الرِّبيع ، في إِبَّانِ الرِّبيعِ ،
فتيةً وجوههم أبلجُ من أنواره ، وأخلاقهم أبهجُ من أزهاره ،
وألفاظهم أرقُّ من نسيم أسحاره .

فاجتليتُ منهم ما يُزري على الرِّبيعِ الزَّاهر ، ويُغني عن رناتِ
المرَّاهِرِ ؛ وكنا تقاسمنا على حفظِ الودادِ ، وحظرِ الاستبدادِ ، والآتِ تفرَّدَ
أحدنا بالتذادِ ، ولا يستأثِر ولو برذاذ . فأجمعنا في يومٍ سماءَ دجنه ،
ونما حسنه ، وحكم بالاصطباحِ مُزنه ، على أن نلتهي بالخروجِ ،
إلى بعض المروجِ ؛ لنسرح النواظرِ ، في الرياضِ النواضرِ ، ونصقل
الخواطرِ ، بشيمِ المواطرِ ؛ فبرزنا ونحن كالشُّهورِ عده ؛ وكنا
كندمانٍ جديمةٍ مودة .

* * *

عاشرت : صاحب .

قطيعة الربيع : بلد معروف ، والربيع حاجب المنصور ومولاه ، وهو [والد] (١)
الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة ، وكان أقطعه المنصور
بلداً بالعراق فبناه ، وبني الناس معه ، حتى صار فيه عمارات كثيرة ، وهي محلة
قريبة من كرخ بغداد في أعلى غربية بغداد ، فُسِّيت إلى الربيع .

إِبَّان : وقت . فصل الرِّبيع : الثَّوار . أبلج : أحسن لوناً وأنعم أنواره .

(١) زيادة من معجم البلدان .

أزهاره ، ونور النبات وأنور صار فيه النور ، وأبهج : أحسن لوناً ، والبهجة : حسن اللون ونسيم السحر ريحه اللينة الباردة ، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى للجنة كل يوم : طيب لأهلك فزداد طيباً » ، فذلك البرد الذي تجده الناس بسحر ذلك اليوم .

وقال ابن عمار في نسيم السحر على الرياض فأحسن :

ويوم لنّا بالسّد بين معاطفٍ من النهر تنساب انسياب الأرقام
بحيث اتخذنا الروض جارا تزورنا هداياه في أيدي الرياح النواسيم
يبلغنا أنفاسه فيردّها بأعطر أنفاس وأذكي لناهم
نسير علينا ثم عنا كأنها حواسد تمشي بيننا بالتماهم

اجتليت : نظرت . يزرى : يقصر ، وتقول : زريت عليه إذا عبت عليه
حافل ، وأزريت به قصرت . الزاهر : الناعم . رنات : أصوات . المزاهر :
عيدان الفناء . تقاسمنا : تحالفنا . حظّر : منع . الاستبداد : الانفراد بالشيء .
يستأثر : يختص : رذاذ : أقل المطر ، أى انفقوا ألا ينفرد واحد بشيء دون
أصحابه . أجمعنا : عزمنا : سما دجنه : ارتفع سحابه : نما : زاد . الاصطباح :
شرب الخمر بالسحر . مزنه : مطره ، وفي مثل بكورهم يقول عبد الجبار الصقلی^(١) :

بادِرْ إلى اللذات وارْكَبْ لها سوابقَ الآلهو ذوات المراح^(٢)
من قبل أن ترشف شمس الضحى ريقَ الفوادي من ثُغور الأفاخ
نلتهى^(٣) : نتسلى ونتفرج . والمروج : المواضع المنخفضة الخصبية ، واحدها

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن حمديس ، وشهرته ابن حمديس .

(٢) ديوانه ٨٩ ، وفيه : « باكر لى اللذات » .

(٣) ط : « انتهى » التصحيف .

مَرْج، وصمى مَرْجًا، لأنَّ البهائم تمرج فيه أى تسيب . نسرح : نسيب
النواظر : العيون، وبالضاد واعم الأزهار . والخواطر : الأذهان . شيم الماطر :
نظر السحاب . برزنا : خرجنا، وجعل خروجهم فى السَّحَر، لأنَّ أول النهار
أحد أوقات الشرب، فقال : أول النهار، ألا ترى الدَّواء يبكر به ، والمسافر
يُدلج لحاجته، لأنَّ العقول أول النهار أزكى ، والفطن أصح ، وقال العَطَوَى: (١)

قَبَّحَ اللهُ أَوَّلَ النَّاسِ سَنَ الشَّرْبِ ظَهراً ماذا أتى من خَسارِ !
مجلس مَوْنَقْ وكأس وندما ن وتأخيرها إلى الإظهار
نكتة فى السرور بادية الشَّ نين لأهل العقول والأبصار
إنَّ شرب النِّبِذ سيرة إلى الله -و- وخير المسير صدُرُ النهار
ما رأينا لتسوة الصِّبح شكلاً كنديم مساعد وعُقَّارِ
وغناء يفت فى عضد الحاء -م- ويُرْزى على النُّهى والوَقَّارِ
وأحاديث فى خلال الأغاني كافتتاح الرِّياض غِبَّ النهار

وبعضهم يمدح العَبوق ، ويذم الصبوح ، وابن المعتز ممن يذهب إلى ذلك .

[جَذِيمة وندِيماه]

قوله : كندمانى جذيمة ، أى صاحبيه على الحجر ، واسمها مالك وعَقِيل ،
وجذيمة ابن مالك بن تَيْم الأزدى ، وكان ملك أيام الطوائف بشاطىء الفرات
وما والى ذلك إلى السواد ستين سنة .

قال ابن السكلى : جذيمة : أول من ملك قُضاة بالحيرة ، وأوّل من حَدَا

(١) ط : « العَطَوَى » ، تصحيف .

النعال^(١) وأدلىج من الملوك، ورُفِع له الشمع، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً، وأظهرهم حزمًا، وهو أول من استجمع الملك له بأرض العراق، وغزا بالجيوش، وكان به برص، فكنت العرب عن البرص إعظامًا فقالت له : جذيمة الوضاح، وجذيمة الأبرش .

وكان غزا طسماً وجديساً في منازلهم، فصادف حسان بن تميم، قد أغار عليهما، فانصرف جذيمة . وصادفت خيول تبع سرية له فقتلهم، فبلغ الخبر جذيمة فقال^(٢) :

رَبِّمَا أَوْفَيْتُ فِي عَـلَمٍ تَرْفَعَنَ ثَوْبِي شِمَالَاتُ^(٣)
فِي فَتْوَى^(٤) أَنَا كَالْتُهُمُ مِنْ بَلَايَا غَزْوَةٍ مَاتُوا
لَيْتَ شَعْرِي مَا أُمَاتَهُمْ نَحْنُ أُمْرِينَا^(٥) وَهُمْ بَاتُوا

وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن، واتخذ صنمين، وسماها الضيزنين^(٦)، ومكانهما بالحيرة معروف .

وغزا إبادا بعين أباغ، فبعثوا قوماً منهم سرقوا منهم الضيزنين، وأصبحوا

(١) هذا النعل : قصرها وقطعها، وفي المعارف لابن قتيبة ٥٥٤ : « وأول من هذا الحال جذيمة الأبرش بن مالك، وهو أول من وضع التنجيق وأدلىج من الملوك، وورقه له الشمع، وكان ينادم الفرقد بن ذهابا بنفسه، وكان يشرب قدحا، ويصب لكل نجم قدحا في الأرض حتى نادمه مالك وعقيل .

(٢) وردت أبيات هذه القصيدة في سيبويه ٢ : ١٥٤ وابن سلام ٣٢، ٣٣ في الأغاني ١٤ : ٧٣ والمؤتلف للامدني ٣٤ والخزانة ١ : ٥٠٧، وفي تاريخ الطبري ١ : ٦١٣، ٦١٤ أحد عشر بيتاً، ونقل عن ابن الكلابي قال : ثلاثة أبيات منها حق والبقية باطل .

(٣) أوفيت : أشرفت . والعلم : المرتفع من الأرض . والعمالات : جمع شمال من الرياح والنون في « يرفعن » تأكيد للفعل ضرورة .

(٤) ط : « فتون » تصحيف . وفتو : جمع فتى . وكالتهم : حافظهم .

(٥) الطبري : « ونحن أدلىجنا » .

(٦) ط : « الضيزتين » تصحيف .

يهما في إِيَاد، فأرسلوا إليه : إن صنميك أصبحا عندنا، زهدا فيك ورغبة فينا، فأعطنا عهداً ألا تغزونا، ونردّها إليك. ففعل .

وكان بلغه أن غلاماً من تَحْمٍ يسمّى عدىّ بن نصر مقيم في أخواله من إِيَاد، وله ظرف ولُبّ وأنه لحسنٌ أن ينادم الملك، ويقوم بمجلسه . فاشتراط على إِيَاد أن يبعثوا مع الصنمين بعدىّ بن نصر، وكان له جمال وظرف، فدفعوه إليه معهما فضمّه إلى نفسه . وكان ينادمه ويسقيه فتعشّقته رقاش أخت جذيمة ، فبعثت إليه : إذا سقيت أخى واستنشى ، فاخطبني لك ، وأشهد عليه ، ففعل . فلما طرب جذيمة خطبها ، فأنعم عليه ، وأشهد عليه ، فقل له : عرس بأهلك ، ففعل . فلما أصبح غداً على جذيمة مضرّجاً بالطيب ، فقال له : ماهذه الآثار ؟ فقال : آثار العرس ، قال : وأيّ عرس ؟ قال : عرس رقاش ، فأكبّ جذيمة على الأرض ، وفرّ عدىّ ، وطلبه جذيمة فلم يدركه . وقيل : ظفّر به . وقال لرقاش :

حدّثيني رقاشُ لا تكذّبيني أبحرٍ زنيّتِ أم بهجينِ
أم بعبديّ فأنّت أهلٌ لعبدي أم بدونٍ فأنّت أهلٌ لدونِ

فقال له :

أنت زوجّتي وما كنتُ أدري فأتاني النساءُ للتزيينِ
ذاك من شربك المدامة صِرْفاً وتماديت في الصّبا والمجونِ

فحبسها في قصرها، فاشتملت على سَحل^(١) فأنّت بغلام ، وسمته عمرأ ، وربّته حتى ترعرع ، فجملته وعطرته وألبسته كسوة مثله ، ثم أزارته خاله فأعجب به ، وألقت عليه محبّته، وخرج جذيمة في سنةٍ قدأ كمأت، وبُسط له في روضة، وعمره

(١) الطبرى : ١ : ٦١٥ : « على جبل »

مع غلّة يجنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو ، خبأها ثم أقبلوا يتعادون^(١) وعمره يقدمهم ، ويقول :

هَذَا جَنَائِي وَخِيَارُهُ فِيهِ إِذْ كُلَّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ

فالتزمه جذيمة ، وحلّ منه بمكان . ثم إن الجنّ استهوته^(٢) ، فطلب زماناً ، وأرسل فيه في الآفاق ، فلم يجد له خبراً . ثم إن عمراً أوفى على مالك وعقيل ابني فارج بن مالك بن كعب بن التيس بن حمير بن قضاعة ، وقد نزلا منزلاً ، وهما متوجهان إلى خاله جذيمة ، ومعهما قينة ، يقال له أم عمر ، وهى تغنيهما وتسقيهما ، فرأت عمراً وقد تلبّد شعره وطالت أظفاره ، وساءت حاله ، فاحتقرته فومت إليه بكراع^(٣) من طعامها ، وناولتهما ، وأوكأت زِقَمًا ولم تناول عمراً شيئاً ، فقال عمرو :

صَدَدَتِ الْكَأْسُ عَنَّا أَمْ عَمِرُو وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا^(٤)
وَمَا شَرَّ الثَّلَاثَةِ أَمْ عَمِرُو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبَحِينَا
فَمَا شَرِبَ الشَّرَابَ كَمَثَلِ عَمِرُو وَمَا نَالَ الْمَكَارِمَ فَاصْبَحِينَا
فَلَا تَنْكَرِي عَمْرًا فَإِنِّي أَنَا ابْنُ عَدَى حَقًّا فَاعْرِفِينَا
وَخَالِي لَا أَبَالِكَ ذُو الْعَالِي جَذِيمَةُ كَيْفَ وَيَحْكُ تَنْكَرِينَا!

فقالا له : مَنْ أَنْتَ يَا فَتَى ؟ قول : أنا عمرو بن عدى ، فضمّاه إليهما ، وغسلا رأسه ، وأخذنا من شعره . وقلنا أظفاره ، وألبسناه بعض الثياب التى كانت معهما ، وقالا : ما كنا نهدى جذيمه أنفس من ابن أخته ، ثم وردّا به على جذيمة فسرّ به سروراً شديداً ، وقال : لهما تمنّيا ، فسألاه أن يكونا نديميه ماعاش وعاشا ،

(١) تهادى القوم ، أى تباروا فى العدو .

(٢) استهوته الجنّ ، أى ذهبت بهواه وعقله .

(٣) الكراع : مستدق السّاق من البقر والغنم .

(٤) البيتان الأولان ينسبان لعمره بن كاثوم ؛ وهما فى مغلته ص ٢١١ - بشرح التبريزى

فنادماه أربعين سنة ، ما أعادا عليه حديثاً ، فضرِبَ بهما المثل في تأكيد الألفة ،
ونال مالك بن نويرة في مالك :

وَكُنَّا كَعَنْدَمَانِيْ جَذِيْمَةٍ حِقْبَةٍ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَّعَا^(١)
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّيْ وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
وَتَمَثَّلَتْ بِهِمَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عِنْدَ قَبْرِ أَخِيهَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

وقال أبو خراش الهذلي يرثي أخاه:

تَقُولُ أَرَاهُ بَعْدَ عُرْوَةِ لَاهِيَا وَذَلِكَ رِزْءٌ لَوْ عَلِمْتَ جَلِيْلُ^(٢)
فَلَا تَحْسِبْ أَنْ قَدْ تَنَاسَيْتَ عَهْدَهُ وَلَكِنْ صَبْرِي يَا أُمِيْمٌ بِجَمِيْلُ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ قَدْ تَفَرَّقَ قَبْلُنَا خَلِيْلًا صَفَاءً : مَالِكٌ وَعَقِيْلُ

وغزا جذيمة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة السميذع العمليقي من العماليق ،
ومنهم قوم من حير . وكان ملك الجزيرة وملك الحضر ، وهي مدينة قديمة بين دجلة
والفرات ، فهزم جذيمة جيوش عمرو وقتله وفترق جموعه ، وقال في ذلك شاعرهم :

كَأَنَّ عَمْرُو بْنَ بَرْقَا لَمْ يَكُنْ مَلِكَا وَلَمْ تَكُنْ حَوْلَهُ الرِّايَاتُ تَخْتَفِقُ^(٣)
لَاقَى جَذِيْمَةً فِي شَعْوَاءٍ مَشْعَلَةٍ فِيهَا حَرَّاشِفُ بِالْنِيرَانِ تَرْتَشِقُ

[الزباء]

فلكت بعده الزباء ابنته واسمها نائلة .^(٤)

قال ابن الكلبي : ولم يكن في عصر الزباء أبجل منها جمالا ، وأكمل

(١) من قصيدة مفضلية ص ٢٦٧ .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ٢١٦ .

(٣) البيتان في تاريخ الطبري ١ : ٦١٨ ينسبتهما إلى الأعور بن عمرو بن هناة بن

مالك بن فهم الأزدي وفيه : « عمرو بن تربي » .

(٤) خبر الزباء وجذيمة في كتاب المغتالين من الأشراف ١١٢ - ١١٥ .

منها كمالا ، وكان لها شعر إذا مشت يتدلى وراءها ، وإذا نشرته جلّ لها ، فسميت الزباء ، لكثرة شعرها ، فجمعت خيل أبيها وغزت بالجيوش من حوالها من الملوك ، فذلتهم ، ففُضرب بها المثل فقيل : أعزّ من الزباء ، واشتهر عنها علوّ الهمة ، وسموّ القدرة ، وقوّة المنعة ، ومضاء العزم ، وبذل الأموال . فلما استحكم مُلكها أرادت أن تغزوّ جذيمة لتُدرك فيه ثأر أبيها ، ففهمتها أختها زبيبة عن ذلك . وقالت : لا طاقة لك به ، ولكن ابني أمرك فيه على المكر والحيل . فبهشت إلى جذيمة تحطبه على نفسها ، ليتصل ملكه بملكها ، فيصير بذلك أعزّ الملوك . وكان بلغه عن جماها ما أطمعه في الظفر بها . فاخبر أرباب دولته بمخاطبتها إياه ، فكلّمهم أشار عليه أن يتزوّجها ، إلا قصير بن سعد^(١) بن عمرو . وكان ليبيبا عاقلاً له ، زم وحزم ، وكان خازنه وعميد دولته . فإنه قال له : هذا رأى فاتر ، لأن الزباء قتلت أباه والدم لا ينام ، ولك في بنات الملوك الأكفاء متسع ، فقال له الملك : إن النفس إلى ما تحبّ توافقه ، وإن كان القدر قد جرى بشيء فلا مفرّ عنه .

وكتبت إليه الزباء تطلب منه قدومه عليها للنكاح ، وقالت له : لولا أن السعى في مثل هذا للرجال أجمل ، ولهم أزم ، لسرتُ إليك . وأهدت مع كتابها من العبيد وال سلاح والأموال والذهب هدية سنية ؛ فلما وصلت أبهجته ، وحسب أن ذلك لفرط رغبتها فيه ، فشاور قومه وابن أخته عمرا ، فشجعوه على المسير إليها ، واستخلف عمرأ على ملكه ، وسار في خواصّه حتى نزلوا بالفُرْضة ، فشاور خواصّه وقصيرا في الجملة ، فأشاروا عليه بالمسير إلا قصيرا ، فإنه قال : أيها الملك كلّ عزم لا يؤيّد بحزم فأخره إلى فساد ؛ ولولا أن الأمور تجري على المقدور ، لعزمت على الملك ألا يفعل ، فقال جذيمة : الرأى مع الجماعة ، فقال قصير : أرى القدر سابق الحذر ، ولا يطاع لقصير رأى . فلما قرب من ديارها أرسل إليها يعلمها

بموضعه ، فأظهرت السرور به ، وأخرجت له هدايا وأنواعا من الأطعمة والأشربة ، فقال لقصير : كيف ترى ؟ فقال قصير : مَنْ لم ينظر في العواقب لم يأمن المصائب ، فاستدرك الأمر قبل فوته ، وارجع فإن في يديك بقية تستدرك بها الصواب ، وإن كنت لا بدت فاعلا فإن القوم إن تلقوك غداً يحبىء قوم ويذهب قوم ، فالأمر في يديك ، وإن تلقوك صقّين فإذا توسطتهم وأحدقوا بك ، فقد ملكوك ، وهذه العصا — وهى فرس لجذيمة تستبق الطير — فسأعرضها لك فاركبها لتسلم عليها ، فإنه لا يشق غبارها ، فأرسلها مثلاً .

فلما كان غد لقوه صفين ، فلما توسطتهم انقضوا عليه ، فقال لتقصير : صدقت فما رأى ؟ فقال له : بقية تركت الرأى ، وهذه العصا ، اركبها ، فشغله الأمر عنها . فلما رأى قصير الجيوش نسير بجذيمة أعطى العصا عنانها ، فهوت به هوى الريح ، فتطاول إليه جذيمة ينظره ، فقال : ويل له جذيمة ؛ فجرت به إلى غروب الشمس .

— قال الأصمى رحمه الله تعالى : لم تقف حتى جرت ثلاثين ميلاً ، ثم وقفت فبالت ، فبئنى على الموضع بُرج يسمى برج العصا — وأشرفت الزباء من قصرها تنظر إلى جذيمة ، وهو يساق ، فقالت : ما أحسنك من عروس يزف إلى ! فدخلوا به إليها ، وحوّلها ألف وصيفة ، لاتشبه واحدة صاحبته في خاق ولا زى ، وهى يدينهن كالقمر حفت به النجوم ، فأمرت بالأنطاع فبسطت ، وقالت للوصائف : خذن بيد سيدكنّ وبعّل مولاتكنّ ، فأجلسنه على الأنطاع ، ففعلن به ذلك ، ثم كشفت له عن شعرتها ^(١) ، فرأى شعرها قد طال حتى عقدته من وراء ظهرها ، فقالت له : يا جذيمة أشوار ذات عروس ؟ قال : بل شوار بظراء تَفَلّة ، وأمر غدر قد بلغ المدى ^(٢) ، فقالت : والله ما ذاك من عدم المواس ، ولكنّها شيمة أناس .

(١) الأشعران : جانبا الفرج ، وفى ط : « شعرتها » .

(٢) فى المتألمين : فقالت : يا جذيمة ، أذات عروس ترى ، قال : بلغ المدى وجف الثرى . وأمر غدر أرى .

ثم أمرت به فسقى بالخمر حتى أخذت فيه ، وكانت الملوك لا تضرب أعناقهم إلا في الحرب ^(١) ، ثم أمرت أن تقطع رواهش ^(٢) ، وقالت : تحفظن بدمه ، لأنه إن قطرت من دمه قطرة في غير الطشت طُلبَ بدمه ، فجرى دمه في طشت ذهب ، فلما ضعفت يده سقطتا ، ففطرت على النطع من دمه قطرات ، فقالت : لا تضيّعوا دم الملوك ، قال لها « لا يحزنك دم ضيعة أهله » ، فذهبت مثلاً ، فقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلب ، والله ما وقي دمك ولا شفى قتلك ، ثم أمرت به فدفن .

وكان عمرو بن عدى يخرج كل يوم لبعض الحيرة ، يستطلع أمر خاله ، فنظر يوماً إلى فارس قد أقبل ، فأشرف عليه قصير ، فقال له : ما وراءك ؟ فقال له : سعى التقدر بالملك إلى حتفه ، فاطلب بثأره ، فقال عمرو : وأى ثأر يُطلب من الزبأ ، وهى أمتع من عقاب الجوّ ! فقال قصير : والله لأنام عن طيب دمه ملاح نجم ، فأجده أنفى واضرب ظهري ، ودعنى وإياها . فقال عمرو : ما أنت لذلك بأهل ، وقد علمتُ نصحك لخالى . فقال : خلّ عني إذا ، فجدع أنفه ولحق بالزبأ ، فقالت : ما جاء بك ؟ فأشار بظهره وأنفه . فقالت العرب : « لأمر ما جدع قصير أنفه ! » فقالت : يا قصير ، بيننا دم خطير ، فقال : يا ابنة الملوك العظام لا تأر ولا قود ، ولقد أتيت فيه على ما يأتى مثلك في مثله ، وقد جئتُك مستجيراً بك من عمرو . فإنه علم أنى أشرت على خاله بالجحى إليك ، فجدع أنفى وأذنى ، وأوجع ظهري ، وحال بينى وبين مالى وولدى ، فاستجرتُ بك لعلنى أتى لا أكون مع أحد أثقلَ عليه منك ، فقالت له : أهلاً وسهلاً . وكان يبلغها من رأيه وحزمه - فاحتصته وأنزله واصطفته ، فلما وثقت به ، أخذت تستشيرهُ في أمورها . فقال لها يوماً : إن عمرا يطلبك بخاله ، والرأى أن تتخذى نفقا لعلك محتاجين إليه ، فقالت له :

(١) بعدها في مجمع الأمثال : « تسكرمة لهم » .

(٢) الرواهش : « عروق ظاهر الكف » .

إني قد اتخذته تحت سريري ، وخرجت به تحت سرير أختي - وكان الفرات يشق بين قصيريهما - فأظهر لها السرور ، ثم قال لها : إن لي بالعراق أموالاً كثيرة تصلح بالملوك فإن جهزني بمال للتجارة ، توصلت فيه إلى أخذ تلك الذخائر ونقلها إليك ، فجهزته . فاحتال حتى وصل إلى عمرو ، فجهزه بطرف من الجواهر والخز والديباج والأسلحة ، فرجع بها ، فلما تحققت نصحه ، أرسلته إلى العراق ثالث سفرة ليضرب لها بها عدة من السلاح ، ويشتري لها خيلاً وعبداً لتجهز جيشاً إلى مَنْ حوالها من الملوك ، فشئ فيما أمرته به ، وتوصل إلى عمرو ، وقال : قد أصبت الفرصة من الزّباء ، فقال عمرو : قل أسمع ، ومرأفعل ، فأنت طيب هذه القرحة ، فقال : الرجال والمال ، فقال : حكك فيما عندي مسطاً ، فعمد إلى ألني رجل من أهل القتال ، وجعلهم في غرائر سود ، وجعل سلاحهم السيوف والحجف^(١) ، وجعل رؤوس الغرائر مربوطة من داخلها ، وجعل عمراً في الحملة ، وساق الخيل والعبيد ، فلما قاربها بعث إليها البشير بسلامة قصير وكل ماجاء به ، فسألت عن العير أين نزل ؟ فقيل لها : بالغوير - وكانت تنظره من غير طريق الغوير - فقالت : عسى الغوير أبؤسا ، وتقدم قصير ، فدخل عليها فبشرها ، فرقت سطحا عالياً لتنظر مجيء الإبل ، فنظرت قوائمها تسوخ في الأرض لما عليها من الأثقال ، فقالت : يا قصير :

ما للجمال مشيهاً وئيداً أجنديلاً يحملن أم حديداً !
أم صرّافاً^(٢) بارداً شديداً أم الرجال جُثماً قعوداً

وكانت قالت لجواريتها : إني أرى الموت الأحمر في الغرائر السود ،
فذهبت مثلاً

فدخلت الجبال المدينة ، فحسّ بواب بمخصرة في يده غرارة على آخر بعير ،

(١) الحجف : بالتحريك : التروس من جلود بلا خشب ولا عقب .

(٢) الصرافان . تمر وزين صلب .

فأصاب الخنصرة خاصرة رجل فضرط فصاح: الشرّ الشرّ ، فأظهروا علامة كانت بينهم ، فخلّوا رءوس الجوالق ، فخرج منها ألفا دارع بألفى سيف ، فصاحوا: يالثار الملك المقتول غدرًا ! وهربت الزباء تطلب النفق إلى تحت الفرات ، فسبق عمرو إلى بابه مع قصير ، وكانت صورة عمرو مصورة في جانبها ، فعندما رأته عرفته ، وكانت جعلت تحت فصّ خاتمها سمّ ساعة فصّصت الفصّ ، وقالت : ييدى لا بيد عمرو . فسقطت ، وعمرو وقصير يضربانها بالسيف ، فماتت بين السم والسيف ، فاستباحوا بلدّها بما فيه ، واستولى عمرو على مملكتها . واتخذ عمرو الحيرة دار ملكه ، وتوارثها بنوه واحدا واحدا إلى النعمان بن المنذر ، وهو الذى أدرك زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم وقتله كسرى ، وهو آخرهم ، وكان مقتل والد الزباء عند بعث عيسى عليه السلام . وقال ابن دريد :

وسيفُ عمرو أَسْتَعْلَتْ به همتُهُ حتى رمى أبعدَ شأوَ المرتَمَى^(١)
فاستنزل الزباء قسراً وهى من عُقاب لوح الجوّ أعلى منتهى

إلى حديقة أخذت زُخْرَفَهَا وازيّنتْ ، وتنوّعت أزاهيرها وتلوّنتْ ،
ومعنا الكميّت الشّموس ، والسقاة الشّموس . والشادى الذى يُطربُ
السّامعَ ويُلْهِيه ، وَيَقْرِى كُلَّ سَمْعٍ ما يشتهيه . فلما اطمان بنا
الجلوسُ ، ودارت علينا السكّوس ، وَغَلَّ عَلَيْنَا ذِمْرٌ ، عَلَيْهِ طِعْرٌ ،
فتجهمناه تجهم الغيدِ الشَّيب ، ووجدنا صفوّ يومنا قد شيبَ .

* * *

[فصل فى الرياض والبساتين وبعض ما ورد فيها من الشعر]

قوله : إلى حديقة أخذت زخرفها وازينت .

نريد أن نصل باب الرياض والبساتين، إذ هي جامعة ألوان لم تدخلها الصنعة، ولم تمارجها الكلفة، مع بدیع أزهارها التي سماها الله سبحانه وتعالى زينة، وزخرفاً فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾، وأن نجتني فيه بعض ما قالت العرب، ونقلته الرواة من الشعر المستحسن، والتشبيه المشاكل، فإن جُلّ النفوس مستأنسة به ونازعة إليه، ومرتاحة لذكركه، ومشتاقة إلى زمانه، ولا تكون الرياض موقفة، والأزهار مشرقة، إلّا في اعتدال الزمان، وجدة الأيام، وهي إذا حلت الشمس في برج الحمل، كما قال الحسن :

أما ترى الشمسَ حلت الحملَ وقام وزنُ الزمانِ واعتدلاً^(١)
فاشرب على جدة الزمان وقد أصبح وجه الزمانِ مقتبلاً
وغنت الطيرُ بعد عجمتها واستوفت الخمرُ حولها كمالاً

قال الأصمعي رحمه الله تعالى : سألت أعرابياً عن الفيث ، فقال : عُمّت الحياض ، وأشرقت الرياض ، وأخرجت الأرض زخرفها ، وأنبتت من كل زوج بهيج .

وقيل لأعرابي : أي شيء رأيت أحسن ؟ فقال الأعرابي : ظباء راتعة ، في رياض يانعة ، والشمس طالعة .

وقيل لآخر : صف لنا الربيع وأوحز ، فقال : هو صديق النفس بريحانه ، ومليك الطرف بريعانه ، مع أنه أشكل بالشبيهة ، وباعث الشهوة البعيدة .

وقال إبراهيم بن السدي : خرجت أريد نزهة نهر الأبلّة مما يلي كاظمة تميم وقصر معبد ، حتى غوّرت في مبنی أتمخيل الرياض ، وأجبل ناظري في مساقط الفيث ، حتى دفعتُ إلى أعرابي عند روضة غناء ، عميم نبتها ، زاهر نورها ، يطيف بها ، فقلت : يا أعرابي ، أحسن عندك ما ترى ؟ فقال : كلاً والله ، سماء

مظلة وأرض مقلة، تضحك هذه عن بكاء هذه ، فاشتت من درة بيضاء ،
وياقوتة حمراء ، وزمردة خضراء ، قد نظمها أيدي المزن في نحور الصعيد .

وقال يزيد بن ماهان الأومى : أتيت أرضَ السماوة في أنف^(١) من الربيع ،
وقد اكتمل النبت ، فلما جرت ساحة الحى دفعت إلى جوار كأنهن دُمى
العاج ، يمشن كقضيب البان ، وبين أيديهن روضة مشرقة ، وهن يطفن بها ،
ويهن الولوج فيها . قلت : مالكن لا تلجن الروضة ، فهى أوطأ لأقدامكن ،
وأقرب لإثارة أرجها من أنوفكن ؟ فقالت إحداهن : أحرام عندك أن يطأ
بعضنا حدود بعض ؟ قلت : بلى والله ، قالت : فوجه الأرض أحق بالتحريم أن
يحصد أو يتوسد .

وبعث الحجاج إلى عبد الملك بجاريتين ، وكتب إليه : هما عندى بمنزلة
روضتين من رياض السماوة ، جاد الربيع أوله وآخره عليهما ، فاعتم نبتهما ، ونور
زهرهما ، وحسن منظرهما ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بهما مبارك كاله فيهما .
وقد ذكرت الشعراء الغيث والرياض بالفاظ مستحسنة ، ووعان مستظرفة ،
وتمثيل رائع ، وتشبيه رائق ، يبعث السرور ، وينقى لوعة الحزون ، ويحبب أريحية
الفتوة والشباب ، فنذكر هنا من محاسن أشعارها ولطائف مذاهبها فى ذلك ما نرجو
به أن يفى بالغرض الذى قصده وضمّنه الحريرى صدر هذه المقامة ونواقفه ، ونشرح
منزعها الشريف فى ذلك ونحققه إن شاء الله تعالى .

أنشد السيرافى رحمه الله تعالى يصف روضة :

نضّاحة تملأ العينين بهجتها فيحاء حفت بأنواع الرياحين
فى ظل آس وجرجير ونرجسة وسوسن زان وردا بين نسرين
وكزمة ذات أعناب مذلة من كل أقطارها تحمّ الأفانين

شَبَّهَتْ فِيهَا الْعَنَاقِيدَ الَّتِي بَقِيَتْ
فَتَارَةً مِنْ يَوَاقِيتٍ مَنْضَدَةٍ
فَعَيْنُهَا غَدَقٌ وَمَاؤُهَا غَبَقٌ
فِيهَا زُرَابِيٌّ قَدْ بُشَّتْ مَلْعَمَةٌ

فعارضه حسن الكوفي ، فقال :

كَأَنَّهَا كَاعِبٌ حَسَنَاءُ أُبْرَزَهَا
تَبَرَّجَتْ لَتَرَوْقِ النَّاسِ بَهْجَتِهَا
وَالْأَيْكَ مَائِلَةٌ الْأَغْصَانُ زَائِدَةٌ
إِذَا الرَّخَاءُ جَرَتْ فِي نَوْرِهَا لَفْظَتْ
كَأَنَّمَا أَلْبَسَتْ أَكْمامَهَا حُلًّا

وقال علي بن الجهم :

لَمْ يَضْحَكِ الرُّوضُ إِلَّا حِينَ أَعْجَبَهُ
بَدَا فَأَبْدَى لَنَا دُنْيَا مُحَاسِنِهَا
مَاقَابِلَتْ قُضْبُ الرِّيحَانِ طَلْعَتَهُ
بَيْنَ النَّدِيمَيْنِ وَالْخَلَّيْنِ مَسْرَعَةً
فَبَادَرَتْهُ يَدُ الْمُشْتَقِ تَسْنُدُهُ
لَا عَذَابَ اللَّهِ إِلَّا مَنْ يَعَذِّبُهُ

وقال البحرى :

سَقَى الْغَيْثُ أَكْنَافَ الْحَمَى مِنْ مَحَلَّةٍ إِلَى الْحَقْفِ مِنْ رَمْلِ اللَّوَى الْمُتَفَاوِدِ^(١)

(١) ديوانه ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) ديوانه ٦٠٣ . والحقف . المروج من الرمل . واللوى : ما التوى منه .

ولا زال مخضراً من اللون يانع^(١) عليه بمحمرٍ من النور حاشد^(٢)
 يذكرنا رؤيا^(٣) الأحبة كلما
 شقائق يحملن الندى فكأنه
 ومن لؤلؤ كالأتحوان منظم
 وقال أيضاً :

وكان الحوادث والأقحوان
 قطرات من السحاب وروض
 وقال أيضاً :

وقد نبّه النوروز في غسق الدجى
 ومن شجر ردّ الربيع لباسه
 وقال الحسن بن وهب :

طلعت أوائل للربيع فبشّرت
 وغدا السحاب يكاد يسحب في الثرى
 ييكى فيضحك نورهن ، فياله
 وترى السماء إذا أجدّ ركابها
 وترى الفصون إذا الرياح تارّجت
 ولأبي زرعة الدمشقي :

وقد أخذت زهر الرياض حليها
 وألبست الأرض الفضاء الزخارف

(١) الديوان : مخضر من الروض .

(٢) الديوان : « حاشد » .

(٣) الديوان : « ريا » .

(٤) ديوانه ٧٢٢ ، ٧٢٣ .

(٥) ديوانه ٢٠٩٠ .

لُجَيْنٌ وَعِيقَانٌ يَرُوقُ وَجَوْهَرُ
تَهَادَى التَّلَاعُ الْغُورُ مِسْكَاً وَعَنْبَرًا
كَأَنَّ أَبَارِيقَ الْمُدَامَةِ يَدْنِيهَا
تَوَلَّفَهُ أُيْدِي الرِّيعِ اللَّطَائِفُ
تَوْدِيهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الْعَوَاصِفُ
مِنْ الْمَنْظَرِ الْأَعْلَى ظِلَابُ رَوَاعِفُ

ولبكر بن حماد :

فَسَقِيًّا لِأَيَّامِنَا الذَّاهِبَاتِ
وَهَذَا الرِّيعُ وَرَبْعَانُهُ
يَذْكُرُنِي الْوَرْدَ حَمْرَ الْخُدُودِ
وَيَوَسِّنُهُ صَحْنِ خَدِ الْفَتَا
وَنَشْرُ الرِّيحَ رِيحَ الْحَبِيبِ
يَجُودُ بِهَا الطَّلُّ وَشَى النَّبَاتِ
لَقَدْ فَارَقْتَنَا بَصْفُورِ الْهَوَى
يَجْدُدُ عَهْدًا لَهَا قَدْ مَضَى
وَأُنْقَسَ الشِّفَاهُ إِذَا مَا بَدَا
عِذَا بَرَزْتَ لِحَبِّ أَتَى
تِبَاعَدَ مَوْعِدُهُ أَوْ دَنَا
وَيَنْظُمُهُ بِلَالِي النَّدَى

ولمحمد بن يزيد :

وَرَوْضَةٌ صَنْفُ النَّوَارِ جَوْهَرَهَا
كَأَنَّ مَا تَجْتَنِيهِ مِنْ زَخَارِفِهَا
مَا أَنْفَكَ لِلْعَيْنِ فِيهَا أَعْيُنُ ذَرْفِ
حَتَّى كَأَنَّ أَفَانِينَ النَّبَاتِ بِهَا
كَأَنَّ غَدْرَانَهَا بِالرُّوضِ مُحَدَّقَةٌ
فِيهَا كَاشَتْ مِنْ حَسَنِ وَمِنْ طَيْبِ
أَخْلَافُ مُسْتَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ مَحْبُوبِ
تَبْكِي بِدَمْعٍ مِنَ الْأَنْوَاءِ مَسْحُوبِ
عَلَى الْمِيَادِينِ أَلْوَانُ الْيَعَاسِبِ
تَحْيِيرُ ثَوْبٍ مِنَ الْمَوْشِيِّ مَخْضُوبِ

وقال كشاجم :

إِلَى الرُّوضِ الَّذِي قَدْ زِينَتْهُ
بِكَيْنٍ عَلَيْهِ فَابْتَهَجَتْ رُبَاهُ
شَايِدُ السَّحَابِ بِالْبَكَاةِ
تَبَاهَى فِي زَخَارِفِ نَسِجِ مَاءِ

كَانَ الْأَتْحَوَانُ بِجَانِبِهِ — عَذَارَى يَبْتَغِينَ مِنَ الْحَيَاءِ

وقال ابن الزقاق :

وَحْدَاتِي خُضِرَ الْمَعَاطِفُ أَلَيْسَتْ مِنْ حَسَنِ بَهْجَتِهَا ثِيَابُ زَبَرْجَدٍ^(١)
جَرَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ فَضْلُ رَدَائِهَا^(٢) فَيَرَى زَبَرْجَدَ هُنَّ تَحْتَ الْعَسْجَدِ

وقال أيضاً :

وَرَوْضَةٌ عَاطِرٌ بِنَفْسِجُهَا عَطَّرَهَا وَشِيْهَا وَسَنْدُسُهَا^(٣)
لَمَّا غَذَتْهَا السَّحَابُ دِرَّتْهَا مِنْ فَوْقِ حَوَازِيهَا وَرَجْسُهَا^(٤)
خَافَ عَلَيْهِ الْغَمَامُ حَادِثَةً فَسَلَّ سَيْفَ الْبَرْقِ يَحْرِسُهَا

وقال أيضاً :

نَثَرَ الْوَرْدُ فِي الْغَدِيرِ وَقَدْ دَوَّحَهُ بِالْهَبُوبِ نَشْرَ الرِّيحِ^(٥)
مِثْلَ دَرْعِ الْكَمِي مَزَقَهَا الطُّغَمَانُ فَسَالَتْ دِمَاهُ بِجِرَاحِ

وقال أيضاً ،

وَقَزَازَةٌ زَرْقَاءُ رَاقٍ صَفَاؤُهَا قَدْ ضَمَّ زَهْرَ الْجَلْتَنَارِ رَدَاؤُهَا^(٦)
فَاعْجَبَ لِرَاحِ كَأْسُهَا مِنْ فَضَّةٍ مَا إِنْ تَسِيلُ وَقَدْ يَسِيلُ إِيَّانَاؤُهَا

(١) ديوانه ١٤٠

(٢) الديوان : « زرت عليه الشمس »

(٣) ملحق ديوانه ٢٩٤

(٤) في الأصول : « حوادتها » ، والمثبت من الديوان . والحوذان : نبت .

(٥) ديوانه ١٣٠ ، وفيه : « وقد درجه » .

(٦) ديوانه ٢٨٢ .

ومن ملح الأدباء وما تصرفوا به في الأنوار ما كتب به أبو دلف إلى
ابن طاهر يعاتبه :

إخاؤكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد^(١)
وعهدى لكم كالأس حسناً وبهجة له ورق خضر إذا فنى الورد

فأجابه ابن طاهر :

وشبهت ودَى الورد فيما تذمه وهل زهرة إلا وسيدُها الورد^(٢)
إخاؤكم كالأس متر مذاقاً وليس له في الريح قبل ولا بعد

ولم يأت أحد بأخبت من تشبيه ابن الرومي في ذم الورد :

كانه مُرمٌ بغسل حين أبرزه بعد الخراء وباقي الروث في وسطه^(٣)

وقال أبو الشيص :

يا من تجلّى بريحانه ينادمه من بين ورد وخيرى ونسرين^(٤)
وياسمين وعودٍ ما يفـيره ما كان أحسن ذا لو لم يكن دوني

وقال أبو المعلى الطائي :

كأن عيونَ النور زَيْنٌ بالندى عيونٌ تراسلن الدموع على عدلى

وقال أيضاً :

ترى للندى فيه مجالا كأنما نثرن عليه لؤلؤا فتبدداً

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٩٢

(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٩٣

(٣) نهاية الأرب ١٠ : ١٩٢ ، وقبله :

مادح الورد لا تنفك عن غلطٍ ألسنتَ تنظرُهُ في كهفٍ مُلتَمِطَةٍ

قوله : حديقة ، أى بستان . زخرفها ، أى زيفتها . تنوّعت أزاهيرها :
اختلفت أنواع أزهارها .

وهذه الحديقة التى ذكر من حسننها ، مثل البستان الذى دخله عروة بن الزبير
مع عبد الملك بن مروان - وكان عروة معرضاً عن الدنيا - فحين رأى فى البستان
الوصف الذى ذكر الحريرى قال : ما أحسن هذا البستان ! فقال له عبد الملك :
أنت والله أحسن منه ، لأنه يؤتى أكله كلّ عام وأنت تؤتى أكلك كلّ يوم ،
وكان عبد الملك يحب عروة ويعظمه ، على ما بين الزبيرية والمروانية من التباغض .
وقال لابن شهاب حين وفد عليه : عند من طلبت ؟ قال : عند سميد بن المسيب
وسليمان بن يسار وقبيصة بن ذؤيب ، فقال عبد الملك : فأين أنت من عروة بن
الزبير ! فإنه بحر لا تنكدره الدلاء . قال ابن شهاب : فلم أبارح عروة بعد حتى مات .

قال ابن وكيع فى وصف ما ذكره الحريرى :

ألمست ترى وثى الربيع تنمنا	وما صنع الربيعى فيه ونظماً ^(١)
وقد حكمت الأرض السماء بنورها	فلم أر فى التشبيه أيهما سما
فخضرتها كالخمر فى حسن لونه	وأنوارها تحكى لعينيك أنجما
فمن نرجس لما رأى حُسن نفسه	تداخله عجب به فتبسما
وأبدى على الورد الجنى تطاولا	وأظهر غيظ الورد فى خده دما
وزهر شقيق نازع الورد فضله	فزاد عليه الورد فضلاً وقدما
فظل لقرط الحزن يلطم خده	فأظهر فيه اللطم جمرًا مضرما
ومن سوسن لما رأى الصَّبغ دونه	على كل أنواع الرياض تقسما
تجلبب من زرق اليواقيت حلة	فأغرب فى الملبوس فيها وأحكما

(١) ديوانه ٩٢ ، ٩٣ ، بنية الدهر ١ : ٣٣٦ .

(١٣ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

وأَنوار منشور يخالف شكَّها
جواهر لو قد طال فيها حياؤها
وقالو أبو بكر البلوي :

وروضةٍ بات طَلَّ الغيث ينسجُها
يسكى عليها بكاء الصبِّ فارقه
إذا تنفس فيها ربحُ سوسنِها
أقول فيها لساقينا وفي يديه
لا تمزجُها بغير الربق منك فإنَّ
أقلَّ ما بى من عينيك أنَّ يدي
وقال الوزير المهلبى :

الورد بين مضنَّجٍ ومضرَّجٍ
طلع النهار فلاح نَوْر شقائق
والثلج يهبط كالنثار فقم بنا
فكانَّ يومك فى غلالة فضةٍ
وقال السرى :

وحديقة يُنسيك وثى بُرودها
يجرى التَّسليم خلالها فكأنما
طارَت قلوبُ المحلِّ تخفُّقُ بينها
طارَت عقيقة بركة فكأنما
(١) حتى تشبَّها سبائب عبقرى
غُمِسَتْ فضولُ رداها فى العنبر
بجفوق رايات السحاب المطرِ
صدعتْ ممسك غيِّمه بمعصرِ

وقال السّلامى :

نَسَبُ الرِّياضِ إلى الغمامِ شَرِيفُ ومَحَلُّها عند النسيمِ لَطِيفُ^(١)
أو ما ترى طرُقَ البروقِ تَوَسَّطُ أَهْلاً كَأَنَّ المِزْنَ فيه شَنُوفُ^(٢)
والْيَوْمُ من خَجَلِ المُتَقَيِّقِ مُضَرَّجُ خَجِلٌ ومن مرض النسيمِ ضَعِيفُ
والأَرْضُ طَرَسُ الرِّياضِ سَطُورُهُ والزَّهَرُ شَكْلُ يَينِها وَحُرُوفُ
فأَدِرْ سَقِيَتِ الرِّىَ جَامَكَ إِنَّه^(٣) يَوْمٌ على كَبَدِ الزَّمانِ خَفِيفُ

قوله : السكيت ، يعنى الخمر . الشَّمُوسُ : التى فيها حُدَّةٌ . والشَّمُوسُ :
السَّقاة الذين وجوههم كالشمس ، وللّسلامى فى ذلك :

وْظِية من بَنات الأَنْسِ فى يَدِها ووجْهها لِلصَّبَا والحِسنِ خاتَمُ^(٤)
قَدْ حَلَّتْ لَوْلُو الأَزْرارِ عن دُرَرٍ لَهْنٌ فى ثَغْرِها الفَضَى أَتْوامُ^(٥)
وَزَارَتِ الأَرْضَ مِنْها مَقْلَتانِ لَها وَحْشِيَتانِ وَعَذَبَ الرِّيقِ بَسَّامُ
والكَأْسُ لِلسَّكْرِ التَّبْرِى صائِغةُ والماءُ لِلحَبِّبِ الدَّرِّى نَظَّامُ
بَتْنًا نَكْفَكُفَ بالكاساتِ أَدْمَعنا كَأَنَّنا فى حُجُورِ الرُّوضِ أَيْتامُ

وهذه أشعار غريبة عجيبة ، ولا بن سكرة فى ذلك :

اشرب فى اليومِ فَضْلُ لَوْ عَلِمْتَ بِهِ بادرت بِاللَّهِوِ واستمَجَلْتَ بِالطَّرَبِ^(٦)
ورد الخدودِ وورد الروضِ قَدْ جُمِعا والغيمِ مَبْتَسِمِ والشمسِ فى الحُجْبِ

(١) يَتِيمة الدهر ٢ : ٣٨٠ .

(٢) اليَتِيمة : « شَفُوفٌ » .

(٣) اليَتِيمة : « فاشرب وثقل وزن جامك إنه » .

(٤) يَتِيمة الدهر ٢ : ٣٧٩ . وخاتَم ، أى خاتَم .

(٥) أَتْوام : جم تومة ؛ وهى اللؤلؤة الكبيرة .

(٦) يَتِيمة الدهر ٣ : ١٦ .

لا تحبس الكأس واثربها مشعشة حتى تموت بها موتاً بلا سبب
وقال سيف الدولة وذكر قوس قُزح :

وساقٍ صبيح للصَّبوح دعوتُهُ فقام وفي أجفانه سِنَّهُ الغَمَضِ (١)
يطوف بكاساتِ العقار كأنجمٍ فمن بين منقضٍ عليها ومنقضٍ
وقد نشرت أيدى الجنوب مَطارفا

على الجوّ دُكْنَا والحواشي على الأرضِ
يطرزُها قَوسُ السماء بأصفرٍ على أخضرٍ في أحمرٍ تحت مبيضٍ
كأذيالِ خُودٍ أقبلت في غلائلٍ مصبغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضٍ
وهذه من التشبيهات الملوكية التي لا يحضر السوقة مثلها . وقال ابن الزقاق :

وشادنٍ طاف بالكئوس ضحَى فحَثَّهَا والصَّباح قد وضَحَا (٢)
والرَّوض يُبدي لنا شقائقهُ وآسهُ العنبري قد نفَحَا
قلنا وأين الأفاح ؟ قال لنا أودعته نَعْرَ مَنْ سقى القدحَا
فظلَّ ساقى العقار يحجزه عَنَّا فلمَّا تبسَّم افتضحَا (٣)
وقال أيضاً :

نَبَّهَتْهُ ونجومُ الليل زاهرة والفجر منصدعٌ والصُّبْحُ قد لاحَا (٤)
والليل منهزم ولَّتْ عساكرهُ والرَّوض مبتسمٌ والزهر قد فاحَا
فقام يمسحُ عينيه براحتِهِ فخلَّتُهُ في ظلامِ الليل مضباحَا

(١) يذمية الدهر ١ : ١٢٤ .

(٢) ديوانه ١٢٤ .

(٣) الديوان : « فظل ساقى العقار يحجد ما قال » .

(٤) ديوانه : ٢٩٢ .

قوله الشاذى : المغنى . يلهيه : يشغله ويزيل همه . يقرى : يعطى ويهدى .
سمع : أذن . ولبعضهم فى غلام مغن - وأجاد :

فديتك يا أتمَّ الناس ظرفاً وأصلحهم لمتخذٍ حبيباً
فوجهك زهرة الأبصار حُسنًا وصوتك أمتع الأصوات طيباً
وسائلةٍ تسأل عنك قُلناً لها فى وصفك العجب العجيباً
رنا ظلياً ونغنى عندليباً ولاح شقائقنا ، ومشى قضيباً
وقال ابن الزقاق :

يذكرنى تحنانُ شدو غنائه على الأيك تحنَّان الحمام المفرد^(١)
له نغمات أفحمت كلَّ صادقٍ وصوتُ نشيدٍ قد شجا كلَّ منشِدٍ
فدع كل ماحدث عن صوت مَعْبِدٍ وطارحُ نشيدٍ أعن نشيدِ ابن معبدٍ

قوله : اطمأن ، أى استقر وسكن . وغلّ : دخل ، والواغل الداخل على
الشَّراب ولم يُدْعِ إليه . ذمِر : شجاع ، والذمر أيضاً : الخبيث ذو الدهاء ، وهو
مخفف من ذمِر ، وهو الشجاع ، والجمع أذمار ، ومنه فلان حامى الذمار ، معناه :
يحمى مايلزمه أن يحميه ، وسمى ذماراً لأنَّ الإنسان يذمر نفسه ، أى يجرسها به ،
وذمرتُ الرجل أذمره ، إذا حرَّضته . طمَّر : خلق . تَجَهَّمناه : عبسنا له ، والجهامة :
العبوس ، ويقال : تَجَهَّمنى فلان بكذا ، يتَجَهَّمنى بعباه .

[مما قيل فى الشيب والشباب]

الغيد : النساء الحسنات اللينات الأعناق . الشيب : الشيوخ ، الواحد أشيب .
شيب : كدّر ونقص ، وأوّل من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس بقوله :

أَرَاهَنَ لَا يُحِبُّنَ مِنْ قَلِّ مَالِهِ وَلَا مِنْ رَأْيِنِ الشَّيْبِ فِيهِ وَقَوَّسًا^(١)
وعلقمة في قوله :

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدَّهِنَ نَصِيبٌ^(٢)
وقال حبيب في هذا المعنى فأحسن :

لَعِبَ الشَّيْبُ فِي الْمَفَارِقِ بَلْ جَدَّ فَأَبْكِي تُمَاضِرًا وَلَعُوبًا^(٣)
يَانَسِيبَ الثَّغَامِ ذَنْبُكَ أَبْقَى حَسْفَاتِي عِنْدَ الْحَسَانِ ذُنُوبًا^(٤)
وَلِئِنْ عَيْنَ مَا رَأَيْنَ لَقَدْ أُنْ كَرْنُ مَسْتَكْرَأٍ وَعَيْنَ مَعِيَا^(٥)
لَوْ رَأَى اللَّهُ أَنَّ لِلشَّيْبِ فَضْلًا جَاوَرْتَهُ الْأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شَيْبَا
وقال علي بن الجهم :

أُنْكَرْتُ مَا رَأَتْ بَرَأْسِي وَقَالَتْ أُمُشِيبُ أَمْ لَوْلُو مَنْظُومٌ^(٦)
قُلْتُ أَوْلَاهُمَا بَرَأْسِي فَأَنْتَ^(٧) أَنَّةٌ يَسْتَشِيرُهَا الْمَهْمُومُ
حَسَرْتُ عَنِّي الْقِنَاعَ ظُلُومٌ فَتَوَلَّتْ وَدَمْعُهَا مَسْجُومٌ
وقال عمرو الوراق :

لَا تَطْلُبِينَ أَثْرًا بَعْدَ بَيْنٍ فَالشَّيْبُ إِحْدَى الْمِيقَتَيْنِ^(٨)
أَبْدَى مُقَابِحَ كُلِّ شَيْءٍ وَحَسَا مُحَاسِنَ كُلِّ زِينٍ

(١) ديوانه ١٠٧ ، وقوس ، أي كبر وانطوى كأنطواء القوس .

(٢) الفضليات ٣٩٢ .

(٣) ديوانه ٢٥ ، وتماضر ولعوب من أسماء النساء .

(٤) الثغام : شجرة بيضاء الزهر والثمر ، يشبه بها الشيب . وفي الديوان : « عند الغواني » .

(٥) الديوان : « خيرا » .

(٦) ديوانه ١٧٦ : (٧) الديوان :

* قُلْتُ شَيْبٌ وَلَيْسَ عَيْبًا أَنْتَ *

(٨) الشيب والشباب ..

فإذا رأيتَ الفانيا ت رأيتَ منك غراب بين
ولربما ناسن فيه لك وكن طوعاً لليدين
أيام همتك الشبا ب وأنت سهل العارضين

الفنجدية: من أحسن ما سمعت في هذا المعنى قول ابن البياض ، رحمه

الله تعالى :

عرض المشيب بعارضى فأعرضوا
فكان في الليل البهيم توسطوا
ولقد رأيت وما رأيت بمثله
وتقوضت خيم الشباب فقوضوا
حفرا وفي الصبح المنير تقبضوا
بيناً غراب الين فيه أبيض

وقال حبيب وزاد في الشيب نقاء الخلد :

راحت غواني الحى عنك غوانياً
من كل سابعة الشباب إذا بدت
أزرين بالمرد الغطارف بدنا
أحلى الرجال من النساء مواقعاً
حتى إذا ما الشعر سود وجهه
يابسن نأياً تارة وصدوداً^(١)
تركت عميد القريتين عميداً^(٢)
غيداً ألفتهم لدانا جيداً
من كان أشبههم بهن خدوداً
عاد المسود ينهن مسوداً^(٣)

هذا من قول الأعشى :

وأرى الغواني لا يواصلن امرأ
ولحبيب - وروى لأبي دلف :

(١) ديوانه ٨٧

(٢) الديوان : « عميد القوم »

(٣) لم يرد في الديوان

(٤) ديوانه ٢٢٧، وروايته : « إن الغواني » .

نظرت إلى بعين من لم يعدل
لما رأته وضح المشيب بلحيته
فجملت أطلب وصلها بتلطف
وقال محمد بن أمية :

رأيت الغواني الشيب لاج بمارضى
وكن إذا أبصرني أو سمعني
وللشريف الرضي رحمه الله :

قالوا المشيب فعيم صباحا بالتهى
لودام لي ود الكواعب لم أبل
لكن شيب الرأس إن يك طالما
إن أعرضت عنه الحدود فطالما^(١)
وانتد يكون وماله من عاذل
كان السواد سواد عين حبيبه
لو لم يكن في الشيب إلا أنه
واعقر مراحك للطروق الزائر^(٢)
بطلوع شيب وايبضاض غدا
عندى فوصل البيض أو ل عابر^(٣)
عطفت له بسوالف ومحاجر
واليوم عاد وماله من عاذر
فعدا البياض بياض عين الناظر
عذر الملل وحجة للهاجر

وقال أيضاً :

لجام الشيب ثني لي جيادي
لوى عني الحدود من الغواني
وصار بياضه عندى سواداً
ورباني لعدالي وراضاً^(٤)
وغض عني الحدق المراضا
وكان سواده عندى بياضاً

(١) ديوانه ٣٧٠ .

(٢) الديوان : « غائر » .

(٣) الديوان : « إن أصفحت » .

(٤) ديوانه ٤٢٢ .

ودخل أبو دلف على المأمون ، وقد ترك الخضاب ، فغمز جارية عنده أن
تعبث به ، فقالت : شبت يا أبا دلف ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! فسكت عنها ،
فقال له المأمون : أجبتها ، فأطرق برأسه ثم رفعه ، فقال :

تهزأت إذ رأت شبي فقلت لها لا تهزئي من يطُل عمرٌ به يشب^(١)
شيب الرجال لهم زين ومكرمة وشيبكن لكن الويل فاكتئبي
فينا لكن - وإن شيب بدا - أرب وليس فيكن بعد الشيب من أرب

* * *

إِلَّا أَنَّهُ سَلَّمَ تَسْلِيمَ أُولَى الْفَهْمِ ، وَجَاسَ يَفْضُ لَطَافِ النَّثْرِ
وَالنَّظْمِ ، وَنَحْنُ نَنْزَوِي مِنْ أَنْبَسَاطِهِ ، وَنَنْبِرِي لَطَى بَسَاطِهِ ،
إِلَى أَنْ غَنَى شَادِينَا الْمَغْرِبَ ، وَمَغْرَدَنَا الْمُطْرِبَ :

إِلَامَ سَعَادُ لَا تَصْلِينَ حَبْلِي وَلَا تَأْوِينَ لِي مِمَّا أَلَاقِي
صَبَرْتُ عَلَيْكَ حَتَّى عِيلَ صَبْرِي وَكَادَتْ تَبْلُغُ الرُّوحُ التَّرَاقِي
وَهَا أَنَا قَدْ عَزَمْتُ عَلَى اتِّصَافِ أُسَاقِي فِيهِ خَلَى مَا يُسَاقِي
فِي أَنْ وَصَلًا أَلَذُّ بِهِ فَوَصَّلْ وَإِنْ صَرَمًا فَصَرَّمْ كَالطَّلَاقِ

قال : فاستفهمنا العابت بالثاني ، لِمَ نصب الوصل الأوَّلَ ورفع
الثاني ؟ فَأَقْسَمَ بِتَرْبَةِ أَبِيهِ ، لَقَدْ نَطَقَ بِمَا اخْتَارَهُ سِيبَوِيهِ .

. . .

قوله : « يفض » يكسر . لطائم : أوعية الطيب ، وجعلها بالاسلام مجازاً . نزوى :

نتقبض . وننبهى : نبادر . لطفى بساطه : لقطع كلامه . المغرب : الحسن الغناء الآتى .
بالغريب فيه . والشادى والمغربد واحد وهو المغنى . المطرب : الآتى بالمطرب وهو
الاهتزاز بالسرور ، وقد يكون من شدة الحزن ، وقال ابن رشيق فى معنى :

غنى يا مجوّد الخلق عندي : « حتى مجدّوا من بأكناف نجد »^(١)
واسقى ما يصير ذو البخل منها حاتما والجبان عمرو بن معدى
فى زمانه الشباب عاجلى الشد ب فهذا أوائل الدن دردى

وقال البجلي فى مغنية :

ولاعية الشاح بفصن بان لها أثر بتقطع القلوب
إذا استولت طريق العود نقرا وغنت فى محب أو حبيب
فيمناها يفديها فوادى ويسرها تقدّرها ذنوبى

قوله : تأوين ، أى تشفقين . عيل : غلب ، وأنت الروح لأنه ذهب به إلى
النفس ، قال ابن ظفر : الروح الذى يكون به الحياة ، وإذا فارق الجسد كان الموت ،
والنفس التى بها العقل وهى المقبوضة عند النوم ، ولا معنى للإكثار فى هذا ، لأن
الشارع ليس له فيه قول يعول عليه ، ولا للاحواس على إدراكه حوّل فتهدى إليه .

التراقى : العظمان المعوجان أعلى الصدر : خلى : صاحبى . صرم : قطعة ،
ويستقبح عندهم مجازاة الحبيب على إساءته ، كبيت امرئ القيس :

* فسلى ثيابى من ثيابك تنسل *^(٢)

(١) نقله فى التنف ٢٦

(٢) ديوانه ١٣ و صدره :

* وإن تك ساءتلك منى خليفة *

وقول طرفة :

وإذا تَلَسَّنِي السُّنْهَإُ إِنِّي لست بموهون فقر^(١)

وقول الأعرابي :

إن كان أهلك يمنعوك رغبةً عني فأهلي بي أضنُّ وأرغبُ
والمستحبّ عندهم قول ابن ربيعة :

ألا يامنُ أحبُّ بكلِّ نفسٍ ومن يظلم فأغفره جميعاً
ومن هو من جميع الناس حسبي^(٢) ومن هو لا يهيم بغفر ذنبي

وقال أبو نواس :

جنان تَسْبِي - ذكرتِ بخير - وتزعم أنني رجل خبيث^(٣)
وأن مودتي كذب ومين والذى يُطَوَّى بثوثُ
وما صدقت^(٤) ولا ردَّ عليها ولكن الملول هو النكوث
ولى قلبٌ ينازعني إليها وشوق بين أضلاعي حيثُ
رأت كَلَفِي بها ودوامَ عهدي فملتني كذا كان الحديث^(٥)

وقال ابن شهيد :

كَلِفْتُ بالحب حتى لو دنا أجلي لما وجدتُ لطفم الموت من ألم^(٦)
وعاقني كَرَمِي عمن ولهُتُ به ويلي من الحب أو ويلي من الكرم
وأطرب من شعر المقامة للفناء ، ما حكى أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى

(١) ديوانه ٧٤

(٢) ديوانه ٤٨٥

(٣) ديوانه ٣٦٩

(٤) ديوانه : « وليس كذا » .

(٥) لم يرد في الديوان

(٦) ديوانه ١٥٢

من بنى يحيى ، خرج إلى حضور جنازة ، وكان رجل من إخوانه ينزل بقرب مقبرة قریش ، فعزم عليه بالليل إليه ، فنزل وأحضر له طعاماً ، وغنت جاريته :

طابت بطيب لثاتك الأقداحُ وزها بمجرة وجهك التفاحُ
وإذا الربيع تنسّمت أرواحهُ نمت بعرفِ نسيمك الأرواحُ
وإذا الحنادس ألبت ظلماءها فضياء وجهك في الدجى مضباحُ

فكتبها القاضي طرباً بها على ظهر يده ، ثم خرج . قال الراوى : فلقد رأيته يكبر على جنازة والأبيات على ظهر يده .

وقال إبراهيم بن المهدي : دخلت يوماً على الرشيد وفي رأسه فضلة خمار ، وبين يديه المغنون ، فقال : يا إبراهيم ، بحقّ عليك غنّني ، فأخذت العود فغنّيته من أشعار جرير :

أسرى خلالة الخيال ولا أرى شيئاً ألدّ من الخيال الطارق^(١)
إن البليّة من تملّ حديثه فانبع حديثك من حديث الوامق^(٢)
أهو الكفوف هوى النفس ولم يزكّ مذبّت قلبي كالجنّاح الخافق
شوقاً إليك ولم تجار مودتي ليس المكذب كالحيب الصادق^(٣)

وقال إبراهيم الموصلي لابن جامع : لو هذا طلب الغناء كان طلبه ، ما أكلنا معه الخبز ، فقال ابن جامع : صدقت .

ومما ينتظم في هذا النمط ويعنّي به قول الآخر :

قال الوشاة لهند عن تصارمنا ولست أنسى هوى هند وتنساني
قد قلت حين بدا لي بحلّ سيدتي وقد تبّع في بّني وأحزاني
هل تعلّمين وراء الحب منزلة تُدني إليك فإنّ الحب أقصاني

(١) ديوانه ٣٩٧ (٢) الديوان « فانشع فؤادك »

(٣) ديوانه : « ليس المكاذب » .

والحريري لم يتعرض بشعره في هذا ، لأنه بنى البيت في المسألة ، لكن فيما ذكرناه زيادة بيان ، وأنه يجب أن يختار المعنى ما يتلقى للغناء من كل جهاته بالاستحسان

قوله : العايب بالثاني ، أى اللاعب بأوتار عود الغناء . ومما يستحسن في وصف العود قول ابن القاضى :

جاءت بعود تناغيه ويسعدها فانظر بدائع ما خصت به الشجر
غنت على عودها الأطيار مفصحةً غضا فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزل عليه أو به طربٌ يهيجه الأعجمان : الطير والوتر

وقال ابن شرف :

سقى الله أرضاً أنبتت عودك الذى زكت منه أغصانٌ وطابت مغارسٌ^(١)
تغنى عليه الطير والعود أخضرٌ وغنى عليه الغيد والعود يابسٌ

ومما قيل في ذم مغنٍّ :

لو أبصرت عيناك بشراً جالساً والعود في يده ييثُ وساوساً
لأيت منه فتى تحب أن ترى في الرأس منه مشاوراً وطناًفساً
فإذا تربع - لا تربع بعدها - وبدا يحرك عوده متنافساً
فكان جرذان المدينة كلها في عوده يقرضن خبزاً يابساً

الثانى : أوتار بالعود، معروفة على سائر أوتاره . بتربة أبويه، يريد عظامهما التى تصير تراباً فى القبر ، ولذلك أقسم بالقبر .

[ترجمة سيديويه]

وأما سيديويه فقارسيّ، مولى لبني الحارث بن كعب، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، وتفسير سيديويه بالفارسية ربيع التفاح، وهو لقب له لأنه كان من أطيب الناس رائحة، وأجلهم وجهاً، وقد أشرنا إلى ذلك في العاشرة^(١). وقيل: معنى «سى» ثلاثون و«بويه» رائحة التفاح، فكان معناه: الذي ضعف طيب رائحته ثلاثين مرة. وقيل: إن أمه كانت ترقصه بذلك وهو صغير فازمته.

وولد بالبيضاء، وهي قرية بشيراز من عمل فارس ونشأ بها، وقدم البصرة في أوّل أيامه ليكتب الحديث، فلزم حلقة حماد بن سلمة فاستعمل عليه يوماً قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس من أصحابي إلا مَنْ لو شئت لأخذت عنه ليس أبا الدرداء» فقال سيديويه: ليس أبو الدرداء، بالرفع، وظنه اسم ليس، فقال حماد: لحت يا سيديويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما ليس هنا استثناء، فقال سيديويه: سأطلب علماً ليس يلحنني فيه أحد، فلزم الخليل، فبلغ في علم النحو الغاية، وضرب به في ذلك المثل وهو أوّل مَنْ بسط طريقته، وشرّع شريعته، وكتابه الإمام في النحو، الذي لم يُصنع قبله ولا بعده مثله، وغاية لأئمة فهمه. وأخذه الأخفش عنه.

وقيل ليونس: ألف سيديويه كتاباً نحواً من ألف ورقة في علم الخليل، فقال: متى سمع سيديويه هذا كله! فأتى بكتابه، فنظر فيه فقال: يجب أن يكون صدق عن الخليل، كما صدق فيما حكاه عني.

وناظر الأصمعيّ سيديويه، فعلمه الأصمعيّ بلسانه، فقال يونس: الحقّ مع سيديويه.

وكانت في لسانه حبة، وقلمه أبلغ من لسانه. قال أبو زيد: كان سيديويه

يختلف إلى وهو غلام له ذؤابتان، وإذا قال في كتابه: حدثني من أثق به، فإنما يعني.

قال الأخفش: كان سيبويه إذا وضع شيئاً من كتابه عرض على وهو يرى أنني أعلم منه، وكان أعلم مني.

والأخفش هذا هو سعيد بن مسعدة مولى بني مجاشع، يكنى أبا الحسن، وهو الذي أخذ الكتاب عن سيبويه، وهو أكبر من سيبويه، وصحب الخليل. وأما الأخفش الكبير شيخ سيبويه فهو عبد الحميد بن عبد الحميد، يكنى أبا الخطاب وهو الأخفش الكبير، ويونس هو ابن حبيب، يكنى أبا عبد الرحمن مولى بني ضبة، أخذ النحو عن حماد بن سلمة وعن أبي عمرو بن العلاء، وقيل: إنه جاوز المائة في سنه. ولما فاق سيبويه في علم النحو أهل عصره، وبرّز فيه على نظرائه من أهل دهره، سمع أن الكوفيين ظهروا ببغداد عند الرشيد بعلم النحو، وهم الكسائي وأصحابه، فتصدهم ببغداد، واطّهرهم بحضرة الرشيد وبحضرة يحيى بن برمك.

وناظره الكسائي، وقيل الفراء بحضرة الكسائي في المسألة الزنبورية^(١) المشهورة، وقد ذكرناها في الرابعة والثلاثين، وكان فيما ذكر - الظهور لسيبويه، وتراضوا بينهم بشهادة الأعراب الحاضرين بباب الخليفة، فقدم الكوفيون بجانبهم عند الخليفة للأعراب من لفهم أن يجيبوا بموافقة قول الكوفيين، فأجابوا بذلك، فخرج سيبويه خجلاً وكاد يموت غماً، فزعموا أنهم شفّعوا للرشيد لئلا يرجع مغلوباً خائباً، فأمر له بعشرة آلاف درهم، فانبعث إلى الأهواز ولم يعرج على البصرة. فأقام هناك مدة مديدة إلى أن مات.

وحكى أنه لما انصرف عنهم مغموماً لقي الأخفش سعيد بن مسعدة، فأخبره

بتأليم عليه، فدخل الأخفش، فسأل الكسائي عن مائة مسألة فخطأه فيها كلها، فقال له : أنت سعيد بن مسعدة ؟ فقال له : نعم ، فسأله أن يؤدب أولاده فأجابته . وقرأ عليه الكسائي كتاب سيويه ، وأعطاه سبعين ديناراً .

ويروى أنه لما بلغ الكسائي موته، قال للرشيدي : يا أمير المؤمنين، أدّ عني دينته ، فإني أخاف أن أكون شاركت في موته .

وقيل : إنه مات من ذرَب المعدة .

وقيل : إنه لما خرج عنهم سأل مَنْ يرغب من الملوك في النحو ، فقيل له : طلحة بن طاهر بخراسان ، قصده ، فلما انتهى إلى ساوة مرض ومات .

ولما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه ، ففطرت دمعة من دموعه على خده ، فرفع عينيه إليه ، وقال :

أَخْيَيْنِ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا إِلَى الْأَمْدِ الْأَقْصَى ، وَمَنْ يَأْمَنِ الدَّهْرَ !^(١)
ثم قال عند موته :

تَوَلَّى دُنْيَا لِنَبْقَى بِهَا وَتَأْتَى الْمُنِيَّةُ دُونَ الْأَمَلِ^(٢)
حَتَّى يَرَوِيَ أَصُولَ الْفَسِيلِ فَعَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلُ

وفيه أنه مات بشيراز وقبر بها سنة ثمانين . وقيل سنة أربع وتسعين ومائة .

قال أبو سعيد الصولي : رأيت على قبره مكتوباً لسليمان بن يزيد :

(١) لإنباه الرواة ٢ : ٣٥٧ .

(٢) لإنباه الرواة ٢ : ٣٦٠

ذهب الأُحبة بعد ضلّ تزوارٍ ونأى المزارُ فأسدوك وأسرعوا
تركوك أوحش ما تكون بقرّة لم يؤنسوك وكربة لم يدقوا
قضى القضاء وصرت صاحب حُفرة عنك الأُحبة أعرضوا وتصدعوا

* * *

فتشعبت حينئذٍ آراء الجمع ، فى تجويز النّضب والرفع ، فقالت
فرقة : رفعهما هو الصّواب ، وقالت طائفة : لا يجوز فيهما إلا
الاتصاف ، واستنبههم على آخرين الجواب ، واستعرّينهم الاضطخاب ،
وذلك الواغل يبدى ابتسام ذى معرفة ، وإن لم يفه يبت شفة ،
حتى إذا سكنت الزّماجر ، وصمت المزجور والزّاجر . قال : يا قوم ،
أنا أنبئكم بتأويله ، وأميز صحيح القول من عليه ؛ إنه ليجوز رفع
الوصلين ونصبهما ، والمغايرة فى الإعراب بينهما ، وذلك بحسب
اختلاف الإضمار ، وتقدير المحذوف فى هذا المضمار . قال : ففرط من
الجماعة إفراط فى مماراته ، وانخرط إلى مباراته .

* * *

قوله : تشعبت ، تفرقت ، وشعبتُ الشيء : فرقته وجففته ، وهو من الأضداد .
ورجل شعاب : يضم ويجمع . آراء : جمع رأى . واستنبههم : استغلق . استعر :
انتقد : الاضطخاب : اختلاط الأصوات ، وقد صخب صخباً . بنت شفة : كلمة .
[بعض حكايات النحويين]

ومثل اختلاف هذه الجماعة على المعانى فى رفع « وصل » وخفضه ، اختلاف
أصحاب الواثق^(١) على جارية غنت بحضرته :

أظلم إن مصابكم رجلاً أهدى السّلام نعمة ظلم
وذكر الحريرى فى الدرّة : أن أبا العباس المبرد ذكر أن أبا عثمان المازنى

(١) وردت هذه الحكاية فى درة النّوأس ٤٣ ، ولإنباه الرواة ٢٤٩ : ١ ، وطبقات الزبيدي ٩٣

(١٤ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

قصده بعضُ أهل الذمة ليقراً عليه كتاب سيمويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان من قبول بذله ، فقلت له : جعلت فداك ! أترك هذه النفقة ، مع فاتتك وشدة إضاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة كرا وكذا آية من كتاب الله تعالى ، ولست أرى أن أمكن منه ذمياً ، غيره على كتاب الله وحمية له .

قال : فاتفق أن غنت جارية بحضرة الوراق بقول العرجي : أظلوم . . . البيت ، فاختلف من بالحضرة في إعراب « رجل » فمنهم من نصبه بأن أنه اسمها ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية مُصِرَّة على أن شيخها أبا عثمان لقنها إياه بالنصب ، فأمر الوراق بإحضاره . قال أبو عثمان : فلما مثَّلتُ بين يديه قال : بمن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : من أي الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس ؟ أم مازن أم ربيعة ؟ فقلت : من مازن ربيعة ، فكلمني بكلام قومي وقال لي : باسمك ؟ يريد ما اسمك - وهم يقابون الميم باء والباء ميما إذا كان في أول الأسماء - فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لثلا أواجه بالسكر ، فقلت : بكر يأمير المؤمنين ، فظن لما قصدته وأعجب منه ، ثم قال : ماتقول في قول الشاعر :

* أظلوم إن مصابكم رجلا *

أترفع « رجلا » أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب ، قال : ولم ذلك ؟ فقلت : « إن مصابكم رجلا » مصدر بمعنى إصابتكم . فأخذ اليزيدي في معارضي فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربكم زيداً ظلم ، فالرجل منعول بمصابتكم ومنصوب به ، الدليل عليه أن الكلام معلق إلا أن تقول « ظلم » فيتم . فاستحسنه الوراق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم ، بنية يأمير المؤمنين ، قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى ^(١) :

أيا أبتأ لا ترم عندنا فإننا بخير إنا لم ترم
أرانا إذا أضمرتك البلا د نُجقي وتقطع منا الرحم
قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريكٌ ومن عند الخليفة بالنجاح^(١)
قال : أنت على النجاح إن شاء الله تعالى . ثم أمر لي بألف دينار
ورددني مكرماً .

قال أبو العباس : فلما عاد إلى البصرة قال : كيف رأيت يا أبا العباس !
رددنا لله تعالى مائة نفوسنا بألف .

قال الحريري : فهذه الحكاية ترغّب في اقتباس الأدب ودراسته حيث
استعطف المازني الوائق بيت الأعشى حتى اهتز لإحسان صلاته
قال : وفي أخبار النحويين^(٢) أيضاً أن المازني سئل بحضرة المنوكل عن
قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَأَنْتَ أُمْلِكُ بَغْيًا ﴾ ف قيل له : كيف حذفت الهاء من « بغيا »
وفعليل بمعنى فاعل ، تلحقه الهاء ، نحو فتي وفتية وغني وغني ، فقال : إن « بغيا »
ليست « فعيلًا » إنما هو فاعل بمعنى فاعل ، لأن الأصل « بغري » ومن أصول
التصريف أنه متى اجتمعت الياء والواو في كلمة وسبقت إحداهما بالسكون قلبت
الواو ياء ، كشويته شيئاً ، ويوم وأيام ، وهذا أصل مطرد لم يشذ منه إلا القليل ،
فعللى هذه القضية تحذف الهاء وجوباً لأنها بمعنى « باغية » ، كما تحذف من « صبور »
لأنها بمعنى « صابرة » .

قال المازني :^(٣) حضر يعقوب عند الوائق وقد حاز منزلة العلماء ، فقال لي
الوائق : سله عن مسألة ، فقلت له : ما وزن « نكئل » ؟ فقال : « نفعل » ، فقلت له :

(١) ديوان جرير ٩٨

(٢) طبقات الزبيدي ٩٥ .

(٣) إنباه الرواة ١ : ٧٥ .

غلطت، ثم قال لي: فستره . قمت: أصله « نكتيل »، قلبت الياء ألفاً للفتحة قبلها وسكنت اللام للجزم، لأنه جواب أمر، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فقال الوراق : هذا الجواب لا جوابك يا يعقوب ، فلما خرجنا قال لي يعقوب : ما حملك على هذا وبينى وبينك المودة ؟ قلت : والله ما ظننت أنه يعزب عنك مثل هذا ! فانظر كيف لم يثبت يعقوب الأوزان على ثبوت قدمه في العلم .

لقي هارون الرشيد الكسائي في بعض طرقه فوقف عليه ، وتحقق بسؤاله عن حاله ، فقال : أنا بخير يا أمير المؤمنين ، ولو لم أجد من ثمرة الأدب إلا ما وهب الله تعالى لي من وقوف أمير المؤمنين على لسان ذلك كافياً محتسباً .

ودخل أبو يوسف رحمه الله تعالى وهما في مذاكرة وممازحة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الكوفي قد غلب عليك ، فقال : يا أبا يوسف إنه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قابي ، وتأخذ بمجامعه ، فقال الكسائي : يا أبا يوسف ، هل لك في مسألة ؟ فقال : في نحو أو في فقه ؟ فقال : بل في فقه ، فضحك هارون حتى غص برجليه ، وقال : تلتقي على أبي يوسف الفقه ؟ قلت : نعم ، ثم قال : يا أبا يوسف ، فما تقول في رجل قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ؟ قال : إذا دخلت الدار طلقت ، قال : أخطأت يا أبا يوسف ! فضحك الرشيد ثم قال : فكيف الصواب ؟ قال : إذا قال : « أن » وجب الفعل ، دخلت بعد أو لم تدخل ، وإذا قال « إن » بالكسر لم يجب ولم يقع الطلاق .

دخل القراء على الرشيد فتكلم فلحن مرات ، فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنه قد لحن ، فقال الرشيد للقراء : أتلحن يا يحيى ؟ فقال : إن طبع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه وعلم أنه الحق ^(١) .

وهذا القدر من المناظرة النحوية كاف .

* * *

قوله : الزماجر ، أى الأصوات من الجوف كصوت الأسد ، الواحدة زججرة .
صمت : سكت . المزجور : المنهى ، والزاجر : الناهى ، وزجرته : انتهته .
أنتبكم بتأويله : أخبركم بتفسيره . المفايرة : الخالفة ، وهى من لفظ « غير » .
المضمار : الموضع يختبر فيه جرى الخيل . قرط : تجاوز الحد . مماراته :
مخاصمته . انخراط : اندفاع وانطلاق ، وخرط عبده : أطلقه على أذية
الناس ، والمرأة نكحها ، والشجرة نثر ورقها بيده . مباراته : معارضته .

* * *

فقال : أمّا إذ دَعَوْتُمْ نَزَالَ ، وتَلَبَّيْتُمْ لِلنَّضَالِ ؛ فما كلمة
هِيَ إِنْ شِئْتُمْ حَرْفٌ مَحْبُوبٌ ، أو اسمٌ لِمَا فِيهِ حَرْفٌ حَلُوبٌ ؟
وَأَيُّ اسمٍ يتردد بَيْنَ فردٍ حازمٍ ، وجمعٍ مُلَازِمٍ ؟ وأَيُّ هاءٍ إِذَا
التَحَقَّتْ أَمَاطَتِ الثَّقَلِ ، وَأُطْلِقَتِ الْمُعْتَقَلِ ؟ وَأَيْنَ تَدْخُلُ السَّيْنُ
فتمزل العاملَ ، من غير أن تجاملَ ؟ وما منصوبٌ أَبْدَأُ عَلَى الظَّرْفِ ،
لَا يَحْفِضُهُ سِوَى حَرْفٍ ؟ وَأَيُّ مضافٍ أَخْلَ من عُرَى الإِضَافَةِ
بُعْرُوةً ، واختلف حُكْمُهُ بَيْنَ مَسَاءٍ وَغُدُوَةٍ ؟ وما العاملُ الَّذِى يَتَّصِلُ
آخِرُهُ بِأَوَّلِهِ ، ويعملُ مَعكُومُهُ مِثْلَ عَمَلِهِ ؟ وَأَيُّ عَامِلٍ نَائِبُهُ أَرْحَبُ
مِنَهُ وَكُرًّا ، وَأَعْظَمُ مَكْرًّا ، وَأَكْثَرُ لِه تَعَالَى ذِكْرًا ؟ وَفِي أَيِّ
مَوْطِنٍ تَلْبَسُ الذُّكْرَانُ بِرَاقِعِ النَّسْوَانِ ، وَتَبْرُزُ رَبَّاتُ الْحِجَالِ
بِعَمَائِمِ الرِّجَالِ ؟ وَأَيْنَ يَجِبُ حِفْظُ الْمَرَاتِبِ ، عَلَى التَّضَرُّوبِ وَالضَّارِبِ ؟

وما اسم لا يُعرف إلا باستضافة كلمتين ، أو الاختصار منه على حرفين . وفي وصفه الأول التزام ، وفي الثاني إلزام ؟ وما وصف إذا أُرْدِفَ بالنون ، نقص صاحبُه في العُيُون ، وقوّم بالذُّون ، وخرَجَ من الزَّبُون ، وتعرَضَ للهُون ؟

فهذه ثنتا عشرة مسألة ، وفقَّ عددِكم ، وزينة لَدَدِكم ، ولو زِدْتُمْ زِدْنَا ، وإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا .

. . .

نزال ، أى انزلوا للحرب ، ولذلك بُنيت على السكسر لأنها فى معنى فعل الأمر ، وهى كلمة تقال فى الحرب ولها مقامان : الأول أن ينزلوا من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل ، والثانى أن ينزلوا من ظهور الخيل إلى الأرض ؛ وذلك أشد ما يكون للحرب . تَلَبَّيْتُمْ : تحزمتم . النضال : المراماة بالسهم . حرف : ناقة . حلوب : لها ابن . حازم : مشمر ، أخذ بالثقة . أماطت : أزالته . المعتقل : الحبوس . تجامل ، أى تلقى المعزول بجميل . أخل : نقص . معكوسه : مقلوبه . نائبه : القائم مقامه . أرحب منه وكرا : أوسع موضعا . مكرا : تصرفا . الحجال : جمع حَجَلَة ، وهى الستر . المرانب : المواضع . استضافة : إضافة . أُرْدِفَ : جُمِلَ رِدْفُه ، أى خلفه . قوّم : قدرت قيمته . الدون : الحخير . الزَّبُون : الكريم الكثير دفع العطايا ، أى أخرج من هذه الصفة . والهون : الهوان . وفق : مواظمة . لَدَدِكم : خصامكم . عُدْتُمْ : رجعتُم للخصام .

ومن ملح ابن رشق فى مליح نحوى :

إن زارنى يوماً على خلوة أو زرتُه فى موضعٍ خالٍ^(١)

كنت له رفعا على الابتدا وكان لى نصبا على الحال

وقال الميكالى :

أفدى الغزال الذى فى النحو كلمنى مجادلا فاجتليتُ الشهد من شفته
وأورد الحججَ المقبولَ شاهدُه مناظراً ليرينى فضلَ معرفته
ثم اتفقنا على رأىٍ رضىت به والرفع من صفى والخفض من صفته

* * *

قال المخبرُ بهذه الحكاية : فَوَرَدَ عَلَيْنَا مِنْ أَحَاجِيهِ الَّتِي هَالَتْ ، لَمَّا
انْهَالَتْ ، مَا حَارَتْ لَهُ الْأَفْكَارُ وَحَالَتْ . فَلَمَّا أَعْجَزَ الْعَوْمُ فِي بَحْرِهِ ،
وَأَسْتَسَلَمَتْ تَمَاعِنَا لِسِحْرِهِ ، عَدَلْنَا عَنْ اسْتِثْقَالِ الرَّؤْيِيَةِ لَهُ ، إِلَى
اسْتِنْزَالِ الرَّوَايَةِ عَنْهُ ، وَمِنْ بَغْيِ التَّبَرُّمِ بِهِ ، إِلَّا ابْتِغَاءَ التَّعَلُّمِ مِنْهُ .
فَقَالَ : وَالَّذِي نَزَلَ النُّحُورَ فِي الْكَلَامِ ، مَنَزَلَةُ الْمَلْحِ فِي الطَّعَامِ ،
وَحَجَبُهُ عَنْ بَصَائِرِ الطَّعَامِ ؛ لَا أَتْلِسْكُمْ مَرَامًا ، وَلَا شَفَيْتُ لَكُمْ
غَرَامًا ، أَوْ تَخَوَّنِي كُلُّ يَدٍ ، وَيَخْتَصِّنِي كُلُّ مَنْكُمُ يَدٍ . فَلَمْ يَبْقَ
فِي الْجَمَاعَةِ إِلَّا مَنْ أَذْعَنَ لِحُكْمِهِ ، وَتَبَدَّى إِلَيْهِ خُبَاءُ كُفِّهِ . فَلَمَّا
حَصَلَتْ تَحْتَ وَكَائِهِ ، أَضْرَمَ شُعْلَةً ذَكَائِهِ ، فَكَشَفَ حَيْثُ دَعَا عَنْ
أَسْرَارِ الْغَايَةِ ، وَبَدَأَ بِإِعْجَازِهِ ، مَا جَلَّ بِهِ صَدَأُ الْأَذْهَانِ ، وَجَلَّى
مَظْلَمَهُ بِنُورِ الْبِرْهَانِ .

قال الراوى : فهمنا ، حين فهمنا ، وعجبنا إذ أجبنا ، وندمنا على ما ندمنا . وأخذنا نعتذر إليه اعتذار الأكياس ، ونعرض عليه ارتضاع الكأس . فقال : مأرب لا حفاوة ، ومشرب لم يبق له عندي حلاوة ، فأطلمنا مرأودته ، ووالينا معاودته .

. . .

أحاجيه : ألغازه : هالت : عظمت في النفوس . انهالت : انصببت ، وانهاهال
الزمل : انصبب أعلاه إلى أسفله . الأفكار : الأذهان . حالت : تغيرت .
استسلمت : انقادت . تمننا : معاذتنا ، وهى الأحرار . عدلنا : ملنا . الروبة :
الفكرة . استنزال : طلبه بتلطف . بنى : ظلم . ابتغاء : طلب . التبرم : الاستئقال ،
وبرم بالأمر برماً : ضجر ، والبرم : البخيل الذى لا يدخل فى الميسر . والبصيرة :
اليقين والمعتقد وجمعها بصائر . والطعام : الأوغاد وأرذال الناس . أنلتكم : أعطيتكم .
مراما : مرادا . تخولنى : تمتكنى وتعطينى . يختصنى : يفردنى . بيد ، أى نعمة .
أذعن : انقاد وذلل . نبذ : رمى . خبأة كنه : ما خبي فيه . بدائع : غرائب .
إعجازه : ما عجز به . جلا : كشف . صدأ : وسخ . جلى : أوضح . البرهان :
الحجة . همنا : تحيرنا لحسن ما سمعنا ، وهام الرجل : ذهب فى غير طريق . فهمنا ،
من الفهم ، أى عرفنا . ند : سبق وخرج ، يريد الخصام الذى بدروه به وردوا
كلامه ، وند : أصله شرد البعير . قوله : الأكياس : الحذاق العقلاء . ارتضاع :
شرب . مأرب : حاجة ، قال يعقوب : قال الأموى : ومن الأمثال : مأرب
لا حفاوة ، يضرب للرجل إذا كان يتملك ، أى إيمانك حاجة إلى لا حفاوة لى .
قال ابن سيده : مأرب يئتنا ، يكون واحداً وهو السابق ، ويكون جمع مأربة ، من
الجمع الذى يفارق واحده بالهاء . حفاوة : تهتم ، وقد حفيت بك ، أى تهتمت
واعتنت . ومشرب لم يبق له عندي حلاوة ، قال الشاعر فى معناه :

ولم أجتنبُ شرب المدام لعلّةٍ ولم ألحق الصّهباء ذمّاً ولا عدلاً
تتافرنى أن صرتُ ضدّاً لشكلها فليستُ لنا أهلاً، ولستُ لها أهلاً

وقال ابن رشيق :

قرعت سنيّ على ما فاني ندماً من الشّباب ومنّ باللهو للشّيب^(١)
فقد رددت كنوس الرّاح مترعةً على السّقاة وكانت جلّ مشروبي
أنزّه السّمع والعينين في نغم ومنظر عابثٍ بالحسن والطّيب
من كلّ لافظةٍ بالدرّ باسميةٍ عنه محلاّ نوعٍ منه مثقوب
أيام تصحبني الغزلان آنسةً هذا على أننى أعدى من الذّوب

والسابق لردّ الكأس لعله الكبر أيمن بن خرّيم بن فاتك الأسديّ في قوله:

وصهباء جرجانية لم يطّف بها حنيفٌ ولم يسر بها ساعةٍ قدّر^(٢)
ولم يحضر القسّ المهيم نارها طروقاً، ولم يشهد على طبخها خبرٌ
أتانى بها يحيى وقد نمت نومةً وقد غابت الشّعريّ وقد جنع الذّسرُ
فقلت اغتبقها أو لغيري فاسقها فما أنا بعد الشّيب ويحك والخمرُ
تعفّفت عنها في السّين^(٣) التي خلت فكيف التّصابي بعدما كلال العُمر^(٣)
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن له دون ما يأتى حيلاً ولا سترُ
فدعه ولا تنفس عليه الذي ارتأى وإن جرّ أسباب الحياة له الدّهرُ

قال المهيم بن عدى : كنا نقول بالكوفة : من لم يرو هذه الأبيات
فلا مروءة له ، أنشدّها أبو عليّ في نوادره . وأنشد أيضاً :

(١) نقله في التنف ١٠ .

(٢) أمالي القالي ١ : ٧٨ ، وفيه : « لم تنفر » ، أى تغلى .

(٣) كلاه : انتهى إلى أقصاه .

رَأَيْتُ النَّبِيذَ يُذَبِّ الْعَزِيزُ وَيَكْسُو النَّقْيَ اتِّسَاخًا^(١)
فَهَبْنِي عَذْرَتُ الْفَتَى جَاهِلًا فَمَا الْعَذْرُ فِيهِ إِذَا الْمَرْءُ شَاخًا

وَأُنْشِدُ أَيْضًا فِي نَوَادِرِهِ لِمَنْ حَرَّمَ الْحُمْرَ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَرْوَةً جَمَلَةً
أَشْعَارَ، شَهْرَتُهَا فِي الْكِتَابِ أَغْنَتْ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَيْنَ شَرَفٌ أَوْلَتْكَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ
- عَلَى أَنَّ الْحُمْرَ مَبَاحَةٌ لَهُمْ - مِنْ مَجْهُونِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ - عَلَى تَحْرِيمِهَا عَلَيْهِمْ -
مِثْلَ الرَّمَادَى فِي قَوْلِهِ :

أَفَى الْحُمْرِ لَامَتْ خَلْقِي مَسْتَهَامَهَا كَفَرْتُ بِكَأْسِي إِنْ أَطَعْتَ مَلَامَهَا
لِحُمُولَةٍ فِي الْفَلَاحِ فِي جَبَّةِ الْمَنَى قَدْ أَوْصَى لِنُوحٍ غَرَسَهَا وَضَمَامَهَا
فَنَحَادَعُهُ إِبْلِيسُ عَنْهَا لَعَلَّهُ بِهَا فَرَأَى كِتْمَانَهَا وَاعْتِنَامَهَا
فَقَازَ بِثَلَاثِيهَا وَنُوحَ بِثَلَاثِيهَا وَلَوْلَا مَضِيَّ عَنْهُ لَمْ يَكُ رَامَهَا
لَهُ حَظٌّ أَتَى وَهُوَ حَظٌّ مَذْكُورٌ قَلِيلٌ لَعِينِي أَنْ أَطِيلَ انْسِجَامَهَا
وَإِنَّا لَوِثْرَانٍ وَقَدْ مَاتَ جَدُنَا عَنِينَا وَإِنَّا لَا نَجِيزُ اقْتِسَامَهَا

أَخَذَ هَذَا مِنْ خَيْرِ يَرْوِي، أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا نَزَلَ مِنَ السَّفِينَةِ ،
نَازَعَهُ إِبْلِيسُ أَصْلَ الْعَنْبِ ، فَاصْطَلَحَا أَنَّ لِنُوحٍ الثَّلَاثَ وَلِإِبْلِيسِ الثَّلَاثِينَ .
وَلَمَّا قِيلَ لِلْحَسَنِ : نَزَعْتَ عَنِ اللَّهِ إِلَى التَّوْبَةِ ، قَالَ :

قَالُوا نَزَعْتَ وَلَمَّا يَعْلَمُوا وَطَرِي فِي وَصَلِ أَغْيَدَ سَاجِي الطَّرْفِ مَيَّاسِ^(٢)
كَيْفَ النَّزُوعِ وَقَلْبِي قَدْ تَقَسَّمَهُ لِحَظِّ الْعَيُونِ وَلَوْنِ الرَّاحِ فِي الْكَاسِ
إِذَا نَزَعْتَ إِلَى رَشْدٍ تَكْتَفَنِي رَأْيَانٍ قَدْ شَفَلَا يُسْرِي وَإِفْلَاسِي
فَالْيَسْرِ فِي الْقَصْفِ وَاللِّذَاتِ أَخْلَسَهَا وَالْعَمْرِ فِي وَصَلِ مَنْ أَهْوَى مِنَ النَّاسِ

(١) أَمَّا الْقَائِلُ ٢ : ١٣٩ .

(٢) نَهَايَةُ الْأَرْبِ ٤ : ٩٦ ، دِيوَانُهُ ٢٩٦

لا خير لعيش إلا في الجون مع الأكلاء في الورد والخبري والآس
ومسمع يتغنى والكتوس لها حث علينا بأخماس وأسداس
يا موري النار قد أعيت قوادحه أقبس إذا شئت من قلبى بمقياس

* * *

فَشَمَخَ بِأَنْفِهِ صَلَفًا، وَنَأَى بِجَانِبِهِ أَنْفًا، وَأَنشَدَ:
نَهَانِي الشَّيْبُ عَمَّا فِيهِ أَفْرَاجِي
فَكَيْفَ أَجْمَعُ بَيْنَ الرَّاحِ وَالرَّاحِ
وَهَلْ يَجُوزُ اصْطِبَاحِي مِنْ مَعْتَقَةٍ
وَقَدْ أُنَارَ مَشِيبُ الرَّأْسِ إِبْصَاحِي
آلَيْتُ لَا خَامِرَتْنِي الْحُرُّ مَا عَالَقَتْ
رُوحِي بِجِسْمِي وَالْفَاضِي بِإِفْصَاحِ
وَلَا اكْتَسَتْ لِي بَكَاسَاتِ السُّلَافِ يَدٌ
وَلَا أَجَلْتُ قِدَاحِي بَيْنَ أَقْدَاحِ
وَلَا صَرَفْتُ إِلَى صِرْفٍ مُشْعَشَعَةٍ
هَمِّي وَلَا رُخْتُ مُرْتَاحًا إِلَى رَاحِ
وَلَا نَظَّمْتُ عَلَى مَشْمُولَةٍ أَبَدًا
شَمْلِي وَلَا اخْتَرْتُ نَذْمَانًا سِوَى الصَّاحِي
مَحَا الْمَشِيبُ مِرَاجِي حِينَ خَطَّ عَلَى
رَأْسِي، فَأَبْزِضْ بِهِ مِنْ كَاتِبِ مَا حِي

ولاحَ يَلْحَى عَلَى جَرَى العَنَانِ إِلَى
 مَلَبَى فَسُحْقاً لَهُ مِنْ لَأْمَحٍ لَاحِي
 وَلَوْ لَهَوْتُ وَفَوْدِي شَائِبٌ خَلْبَا
 بَيْنَ المَصَائِيحِ مِنْ غَسَّانٍ مِصْبَاحِي
 قَوْمٌ سَجَايَاهُمْ تَوَقِيرٌ ضَيْفُهُمْ
 وَالشَّيْبُ ضَيْفٌ لَهُ التَّوَقِيرُ يَصَاحُ
 ثُمَّ إِنَّهُ انْسَابَ انْسَابِ الأَيْمِ، وَأَجْفَلَ إِجْفَالَ النِّيمِ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ
 سِرَاجٌ سُرُوجٌ، وَبَذَرُ الأَدَبِ الذِّي يَجْتَابُ البُرُوجَ . وَكَانَ قُصَّارَانَا
 التَّحَرِّقُ لِبُعْدِهِ، وَالتَّفَرُّقُ مِنْ بَعْدِهِ .



قوله: «شبح، أى تكبر وورفع أنفه . صلفاً: قحة وصلابة وجه، وفي فلان صلف،
 أى قلة انطباع ومواقفة إذا أردت منه شيئاً تهاون بك، والتصايفان: ناحيتا العنق،
 كأنه إذا كلمته فى شيء أعرض عنك، ولوى عنك صليفته، والصلف مجاوزة
 قدر الظرف، وفي الشهاب: آفة الظرف الصلف . ناء: نهض، ويروى: نأى،
 تباعد . أنفاً: غضباً، وأنفت من كذا تنزهت عنه وترفعت، وأصله من رفع
 الأنف، فكأنه رفع أنفه تيهاً عليهم وتكبراً عن منادمتهم لاحتقارهم له أولاً
 قبل اختباره، ثم تبدلهم آخر بعد اعتباره؛ واعتذر لذلك بالشيب .

ونذكر هنا فصلاً أدبياً يأتى على جميع أغراض هذه الأبيات:

قال بعض الظرفاء يذم الخمر: الشراب: أول الخراب، ومفتاح كل باب،
 يحرق الأموال، ويذهب الجمال، ويهدم المروءة، ويوهن القوة، ويضع الشريف،
 ويذل العزيز، ويبيح الحرائر، ويفلس التجار، وينهتك الأستار، ويورث الشنار .

وقال بعضهم لابنه : كثرة الشراب تكسد القلب ، وتقلّ الكسب ، وتغيّر
اللب ، واعلم أن الظلم الذابح ، خير من الرىّ الفاضح .

وقال يزيد بن محمد المهلبى يذمه :

لعدرك ما يحصى على الناس شرّها وإن كان فيها لذة ورخاء
مرارا ترك الفىّ رشداً ، وتارةً تخيل أنّ الحسنيين أساءوا
وأنّ الصديق الماحض الودّ مبغضٌ وأنّ مديح المادحين هجاء
وجرت إخوان النبيذ قلعاً يدوم لإخوان النبيذ إخاء

وقال ابن الرومى :

مودّة إخوان النبيذ سلافةٌ يبولونها عند انقضاء المجالسِ
فبيننا نراهم أهل ألفٍ وأثرة وبيننا نراهم بينهم حربٌ داحسِ
فأما إذا ناديتهم للمة فناد التّصاوير التى فى الكنائسِ

ولهذا كتب الحسن إلى صديق له يستهدى منه مشروباً :

لما رأيت الخطّ للقاعدِ والنّاس من واشٍ ومن حاسدِ
خلوت فى بيتى وحدى ولا أقلّ فى الأعداد من واحد
فابست بها تشغلى واكفى رؤية هذا العالم الفاسد
وقال أيضاً :

خلوت بالخمر أناجيا أشرب منها وأعطيها^(١)
بدمتها إذ لم أجد صاحباً أرضاه أن يشركنى فيها
شربتها صرّفاً على وجهها فكنت ساقيةا وجانيةا

قيل اعضهم : لم لا تتخذ لك نديماً ؟ قال : لأنه مأخوذ من الندم .
واختلفوا في اختيار استعمال النديم ، فمنهم من اختار نديماً واحداً ، ومنهم
من انتهى في الاختيار إلى ستة بالساق وصاحب البيت ، وما زاد على ذلك
فمذموم بإجماع منهم . قال : وأنشدوا في ذلك :

وخير النّدَامِ سِتّةٌ من دَوَى الحِجَى فخمسة إخوانٍ وآخر يَمْنَعُ
ويحمد في الإخوان مَنْ كان محسناً بصوتٍ يَغْنِيهِ ولا يَتَمَنَعُ

* * *

قوله : نهاني الشيب ، جعله الناهي عن اللذات ، لأنه الداعي إلى الفناء
والنذير بالموت ، وما يقول بغير هذا إلامة كلف عذر ، كقول أعرابي —
ويروى لإبراهيم بن المهدي :

لقد جَلَّ قدر الشيب أن كان كلما بدت شيبة يعرى من اللهو مرَّ كَبُ
وقال المعذل :

لاح شيبى فَظِلْتُ أُمِرْحُ فيه مرح الطَّرْفِ في اللجام الحَلَى
وتولّى الشباب فازددت ركضاً في ميادين باطلٍ إذ تولّى
إنّ من ساءه الزمان بشيبٍ لأحق أمره بأن يتسلّى
أتراني أسوء نفسي لما ساءني الدهر ، لا كعمري كلاً

وقال البحتري يعتذر منه :

عَيَّرَتْنِي بالشيب وهى رَمَتْهُ في عذارى بالصدّة والاجْتِنَابِ^(١)
لا تَرَيَه عاراً فما هو بالشيب ولكنّه جلاء الشباب

وبياض البازي أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب
أخذه ابن رشيق فقال :

وإن لم تعجبني بيباض شعرٍ فلا تستغربي بَلَقَ الغراب^(١)
تعافين المشيب وليس هذا ولكن هذه شيةُ الشَّبَابِ
وقال حبيب يتشكاه :

أصبحتُ روضةً الشباب هشياً وغدت ربحه البليلُ سُمُوماً^(٢)
شعلة في المِفارِق استودعتني في صميم الفؤاد شكلاً صميماً
غُرَّةٌ بهمةٌ ألا إنما كُنْتُ أغرّاً أيام كنت بهيماً
دقة في الحياة تُدعى جلالاً مثل ما سُمِّي اللدينغ سليماً
وقال مسلم بن الوليد :

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مورود^(٣)
يمضي المشيب فلا يأتي له خلفٌ والشَّيب يذهب مفقوداً بمفقودٍ
أخذه سليمان بن وهب حين نظر إلى المرأة ، فقال : عيب لاعدمناه .
وقال أبو الفتح البستي :

يا شيبتي دومي ولا ترحلي وتيقني أني بوصلك مولعُ
قد كنت أجزع من حولك مدّة والآن من خوف ارتحالك أجزعُ
وزاد أبو الطيب على هذا فقال : وذكر أنه يتمنى الشيب في زمن الشباب :

(١) نقله في التنف ١١ .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٢٣ (دار المعارف)

(٣) ديوانه ٣١٠

مُنَى كُنَّ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خَضَابٌ فَيَخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابٌ^(١)
 لِيَالِيَّ عِنْدَ الْبَيْضِ قَوْدَايَ فَتَنَةٌ وَفَخْرٌ وَذَاكَ الْفَخْرُ عِنْدِي عَابٌ
 فَكَيْفَ أَذُمُّ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِي وَأَدْعُو بِمَا أَشْكُوهُ حِينَ أَجَابُ
 كَمَا أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ نَسِيَ مَا قَالَهُ فِي الشَّيْبِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ
 يَشْتَهِيهِ وَيَتَمَنَّاهُ^(٢) :

أَبَدْتُ بِمِدَّتِ بَيَاضًا لَا بَيَاضَ لَهُ لِأَنِّي أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظَّلَمِ
 وَقَالَ رَبْعِيُّ :

مَنْ كَانَ يَبْكِي الشَّبَابَ مِنْ أَسْفٍ فَلَسْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ مِنْ أَسْفٍ
 كَيْفَ وَشَرَّخَ الشَّبَابَ أَوْقَفَنِي يَوْمَ حَسَابِي مُوَاقِفَ التَّلَفِ
 لَا صَحِيبَتُ شِرَّةَ الشَّبَابِ وَلَا عَدِمْتُ مَا فِي الشَّيْبِ مِنْ خَلَفِ
 وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ :

أَرَاكَ لِلشَّيْبِ ذَا اكْتِثَابٍ فَأَيْنَ تَمْضِي عَنْ الصَّوَابِ^(٣)
 إِنْ كُنْتَ تَرَعَى الْوَفَاءَ حَقًّا فَالشَّيْبُ أَوْفَى مِنَ الشَّبَابِ

وحقيقة الأمر أنه مازال الناس يكرهون الشيب ويدمونه ، نثرًا ونظمًا .
 لما فيه من دليل للفناء ، والهجنة عند النساء ، وقطع اللذات بالرّقبة والحياء ،
 ويحبون الشباب ويمدحونه ، لما فيه من عذرة الجاهل ، وإتيان العاجل ، وحسن
 الشائل ؛ إلا أن لطف الحذاق من الشعراء في تحسين ما كانوا يكرهون ،
 وتقبيح ما كانوا يمدحون رياضة للنفوس ، وتوسعًا في القول ، كما قال أحدهم :

(١) ديوانه ١ : ١٨٨

(٢) ديوانه ٤ : ٣٥

(٣) نقله في التنف ١٢ .

تفريق شيب في العذار لوامعٌ وماحُسنٌ ليلٍ ليس فيه نجوم !

وقالوا : في الشيب استحكام الوقار ، وتناهى الحلال ، وميسم التجربة .
فهذه مقاصدهم قفف عليها .

قوله : أفرأحي : جمع فرح . الراح : الحمر ، والثاني جمع راحة ، وهي الكف .
معتقة : خمر قديمة شديد الحرارة . أنار : بَيَض . إضْباَحى : احرار شعري ،
والصبحُ : حمرة الشعر ، وضعه موضع السَّواد ، لأنَّ كليهما من حلية الشباب ،
وحمله على هذا ماضن الشيب من التحسين فيقول مستفهماً : هل يجوز شربي
في البكور من خمر صافية في حال تغيير الكبر شباني ، وتبديله حلية الشباب
بجلمية الشيوخ . خامرتنى : خالطتنى . إفصاحى : تبينى . السلاف : الحمر .
وأجات : صرفت . قِداحى : سهام الميسر . أقَدَّاح : جمع قِدَح ، وهو
الكأس . صرفت : رددت . صِرْف : خمر . مشعشة : رقيقة المزيج . هَمَّتْى :
إرادتى . رُحْتُ : مشيتُ بالعشى . مرتاحا : مهتزاً من الطرب ، وارتاح :
وجد راحة الطلب أو خِفة الكرم . نظمت : جمعت . مشمولة : خمر ، وهي
الشمول ، سميت بذلك لاشتمالها على عقل صاحبها ، وقيل : لأنها تشمل القوم
بريحها ، أى تعمهم . وقيل : لها عصفة كعصفة الريح الشمال . شملى : مجموع
أمرى ، والندمان : هو النديم . الصاحى : المُفَيِّق من سكره . نحَا : أزال .
مراحى : طَرَبى . خطَّ : كتب . أبفض به ، أى ما أبفضه إلى . لاح :
ظهر : يُلْحَى : يلوم ويغاظ القول . جَرَى العنان ، أى انهماكى فى الملاهى .
مَلهى : لهو . سُحُفًا : بعداً . لائح : ظاهر فى الرأس . لاح : شاتم وعائب ،
يريد أن شيبه لاح فى رأسه فلحاه على اللهو والصبا . فَوَدَى : جانب رأسى .
شائب : فيه الشيب . خبا : طوىء وسكن ضوءه . غسان : قبيلة . وأحسن
(١٥ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

ما سمعت في شيب الفؤد، وفي وخط المشيب الذي ذكر، قول عبد الرحيم بن هارون :

رأيت الشيب مبتسما بفودي فقاضت أدعبي بدم الفؤاد
وعمرى كل يوم في انتقاص وذاك النقص لقب بالزياد
ولى خط ولا أيام خط وبينهما مخالفة المداد
فأكتبه سواداً في بياض وتكتبه بياضاً في سواد

أنشدها الفنجديهي وقال عند إنشادها: ولعبد الحميد أبيات، كأنها روضات جنات.
قوله : سجاياهم ، أى طبائعهم . يا صاح ، أراد يا صاحب فرخم لكثرة
الاستعمال . ولما جعل غسان من عادتهم توقير الضيف ، والشيب ضيف وجب
عليه توقيره . ومراعاة مثل هذا العموم قد تقدم له في ذم الزجاج الذي جرت عليه
سبيله ، وأخذ هذا من قول دعبل :

أحب الشيب لما قيل ضيفٌ كحبي للضيوف النازلينا^(١)

وقال المتنبي في ذم هذا الضيف :

ضيفٌ ألم برأسي غير محتشمٍ والسيفُ أحسنُ فقلا منه بالآثم^(٢)
أبعدُ بعدت بياضاً لا بياض له لأنت أسودُ في عيني من الظلم
وقال محمود الوراق :

للضيف أن يُقرى ويُعرف حقه والشيب ضيفٌ فأقره بمخضاب
وافى بأصدق شاهد ولربما وافى المشيب بشاهد كذاب
فافسخ شهادته عليك بخضبة تنفى الظنون بها عن المرتاب
فإذا دنا وقت الرحيل فخله والشيب يذهب فيه كل ذهب

وقوله: والشيب ضيف له التوقير ، قام وكيع لسفيان فنكر قيامه إليه فقال:

(١) ديوانه ١٥٠

(٢) ديوانه ٤ : ٣٥

أَتَسْكُرُ عَلَى قِيَامِي إِلَيْكَ، وَأَنْتَ حَدَّثْتَنِي عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ إِجْلَالُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ». قَالَ : فَأَخَذَ سَفِيَانُ بِيَدِهِ، فَأَقْعَمَهُ إِلَى جَانِبِهِ .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لَسَنَتُهُ إِلَّا قَيْضُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنْ يَكْرِمُهُ عِنْدَ كِبَرِ سَنِهِ» .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَوْحَى إِلَيَّ رَبِّي يَقُولُ : الشَّيْبُ عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ نُورٌ مِنْ نُورِي ، وَأَنَا أَكْرَمُ مَنْ أَنْ أَحْرَقَ نُورِي بِنَارِي» .

وَحَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ الْخَوَّاصُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ . قَالَ : رَأَيْتُ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمٍ الْقَاضِي فِي الْمَنَامِ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ قَالَ : أَوْقَفَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : يَا شَيْخَ السُّوءِ ، لَوْلَا شَيْبَتُكَ لَأَحْرَقْتُكَ بِالنَّارِ ، فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاهُ ، فَلَمَّا أَقَفْتُ قَالُمَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً ، فَلَمَّا أَقَفْتُ قُلْتُ : يَا رَبِّ ، مَا هَكَذَا حَدَّثْتَ عَنْكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : وَمَا حَدَّثْتَ عَنِّي ؟ قُلْتُ : حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، قَالَ : حَدَّثَنِي مُعَمَّرُ بْنُ رَاشِدٍ ، عَنْ ابْنِ شَهَابٍ الزَّهْرِيُّ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ جِبْرِيلَ ، عَنْكَ يَا عَظِيمُ ؛ أَنْكَ قُلْتَ : مَا شَابَّ لِي عَبْدٌ فِي الْإِسْلَامِ شَيْبَةً إِلَّا اسْتَحْيَيْتَ مِنْهُ أَنْ أَعَذِّبَهُ بِالنَّارِ ، فَقَالَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ : صَدَقَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَصَدَقَ مُعَمَّرٌ ، وَصَدَقَ الزَّهْرِيُّ وَصَدَقَ أَنَسٌ وَصَدَقَ نَبِيُّي وَصَدَقَ جِبْرِيلُ ، أَنَا قُلْتُ ذَلِكَ ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ .

تفسير ما أودع هذه المقامة

من النكت العربية والأحاجي النحوية

أما صدر البيت الأخير من الأغنية الذي هو : « فإن وصلّا إلّٰه به » ؛ فإنه نظير قولهم : المرء مجزىٌ بعمله ، إن خيراً فخيرٌ ، وإن شراً فشرٌ ، وهذه المسألة أودعها سيديوه كتابه وجوّزَ في إعرابها أربعة أوجه :

أحدها — وهو أجودُها — أن تنصب : « خيراً » الأول وترفع الثاني . وتنصب : « شراً » الأول وترفع الثاني ، ويكون تقديره : إن كان عمله خيراً فجزاؤه خير ، وإن كان عمله شراً فجزاؤه شرٌ ، فنصب الأول على أنه خبر كان ، وترفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف . وقد حذف في هذا الوجه « كان » واسمها لدلالة حرف الشرط الذي هو « إن » على تقديرهما . وحذف أيضاً المبتدأ لدلالة الفاء التي هي جواب الشرط عليه ؛ لأنه كثيراً ما يقع بعدها .

الوجه الثاني : أن تنصبهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان عمله خيراً فهو يُجزى خيراً ، وإن كان عمله شراً فهو يُجزى شراً ؛ فينصب الأول على أنه خبر « كان » وينصب الثاني انتصاب المفعول به .

والوجه الثالث : أن ترفعهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان في عمله خير فجزاؤه خير ، فيرفع « خير » الأول على أنه اسم « كان » ويرفع « خير » الثاني على ما بيّن في شرح الوجه الأول .

وقد يجوز أن يرفع « خير » الأول على أنه فاعل « كان » وتعمل « كان » المقدّرة ها هنا هي التامة التي تأتي بمعنى حدث ووقع ، فلا تحتاج إلى خبر كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ ، ويكون التقدير في المسألة : إن كان خيرٌ فجزاؤه خير ، أي إن حدث خير فجزاؤه خير .

والوجه الرابع : وهو أضعفها أن ترفع الأول على ما تقدم شرحه في الوجه الثالث، وتنصب الثاني على ما يُبين ذكره في الوجه الثاني، ويكون التقدير : إن كان في عمله خير فهو يجزى خيراً ، وعلى حسب هذا التقدير والمقدّرات المحذوفات فيه يجري إعراب البيت الذي غنّى به . ومما يفتظم في هذا السلك قولهم : المرء مقتول بما قُتل به ؛ إن سيفاً فسيف ، وإن خِنْجَراً فخنجر .

وأما الكلمة التي هي حرف محبوب أو اسم لما فيه حرفٌ حلوب ، فهي « نعم » ، إن أردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهي حرف ، وإن عنيّت بها الإبل فهي اسم . والنعم تذكر وتؤنث وتُطلق على الإبل وعلى كل ماشية فيها إبل . وفي الإبل الحرف وهي الناقة الضامرة ، مُتميت حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف . وقيل : إنها الضخمة تشبيهاً لها بحرف الجبل .

وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، فهو : سراويل ، قال بعضهم : هو واحد وجمعه سراويلات ، فعلى هذا القول هو فرد ، وكنى عن ضمّه الخَصْرَ بأنّه حازم .

وقال آخرون : بل هو جمع ، واحده سرّوال ، مثل : شمال وشماليل ، وسرّبال وسراويل ، فهو على هذا القول جمع .

ومعنى قوله : ملازم ، أى لا ينصرف ؛ وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع ، وهو كل جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدّد ، أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرّده دون غيره من الجوع بأن لا نظير له في الأسماء والآحاد ، وقد كنى في هذه الأحجية عمّا لا ينصرف بالملازم ، كما كنى في التي قبلها عمّا ينصرف باللازم .

وأما الماء التي إذا التحقت أُمِطت الثقل ، وأُطلقت المعتقل ، فهي الماء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره ، كقولك : صيارفة وصياقلة ، فينصرف هذا الجمع عند التحاق الماء به ، لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد ، نحو : رفاهية وكراهية ، فحذف بهذا السبب وصُرف لهذه العلة . وقد كفى في هذه الأحجية عمّا لا ينصرف بالمعتقل ، كما كفى في التي قبلها عمّا لا ينصرف باللازم .

وأما السين التي تعزل العامل من غير أن تجامل ، فهي التي تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن ، التي كانت قبل دخولها من أدوات النصب ، فيرتفع حينئذٍ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير الخففة من الثقلية ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى ﴾ ، وتقديره : علم أنه سيكون .

وأما المنصوب على الظرف الذي لا يخفّضه سوى حرف ، فهو : « عند » إذ لا يجرّه غير « من » خاصة ، وقول العامة : ذهب إلى عنده لحن .

وأما المضاف الذي أدخل من عرّى الإضافة بعروّة ، واختلاف حكمه بين مساء وغدوة ، فهو « لدن » ولدن من الأسماء اللازمة للإضافة ، وكلّ ما يأتي بعدها مجرور بها إلّا غدوة ، فإن العرب نصبته بلدن لكثرة استعمالهم إياها في الكلام ، ثم نوتنها أيضاً ليتبيّن بذلك أنها منصوبة ، لأنها من نوع المجرورات التي لا تنصرف ، وعند بعض النحويين أن « لدن » بمعنى « عند » ، والصحيح أن بينهما فرقاً لطيفاً ، وهو أن « عند » يشتمل معناها على ما هو في ملكك ومكنتك ، ممادنا م لك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك .

وأما العامل الذي يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، فهو : « يا » ، ومعكوسها « أي » ، وكتاتهما من حروف النداء ، وعملهما في الاسم

المنادى سيّان ، وإن كانت « يا » أجول في الكلام ، وأكثر في الاستعمال .
وقد اختار بعضهم أن ينادى بأى ، القريب فقط كالمهزلة .

وأما العامل الذى نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرا ، وأكثر لله تعالى ذكرا ، فهو باء القسم ؛ وهذه الباء هى أصل حُرُوف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضاً على المضمر ، كقولك : بك لأفعلن ؛ وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنهما جميعاً من حروف الشفة ؛ ثم لتقارب معنيهما ؛ لأنّ الواو تفيد الجمع والباء تفيد الإلصاق ، وكلاهما متّفق ، وللمعنيين متقاربان . ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدور فى الكلام وأعلق بالأقسام ؛ ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذِكْراً . ثم إن الواو أكثر موطناً من الباء ، لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ، ولا تعمل غير الجرّة ، والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف . وتجزّ تارة بالقسم وتارة بإضممار ربّ . وتنظم أيضاً نواصب الفعل وأدوات العطف فلهذا وصفها برُحْب الوكر وعظم المكر .

وأما الموطن الذى يلبس فيه الذّكران براقع النسوان ، وتبرز فيه ربّات الحجال بعمائم الرجال ، فهو أوّل مراتب العدد المضاف ، وذلك بين الثلاثة إلى العشرة ، فإنه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بحذفها ، كقوله تعالى : ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث ، كقولك : قائم وقائمة وعالم وعالمة ، فقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضدّ قلبه ، وبرز فى بَرزّة صاحبه .

وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب عن المضروب والضارب ، فهو حيث يشقبه للفاعل بالفعل لتعذّر ظهور علامة الإعراب فيهما أو فى أحدهما ،

وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى ، أو من أسماء الإشارة نحو ذاك وهذا . فيجب حينئذٍ لإزالة اللبس إقرار كل منهما في رتبته ، ليعرف الفاعل منهما بتقدمه ، والمفعول بتأخره .

وأما الاسم الذى لا يفهم إلا باستضافة كلمتين ، أو الاقتصار منه على حرفين فهو « مهمما » ، وفيها قولان : أحدهما : أنها مركبة من « مه » التى هى بمعنى اكفف ، ومن « ما » والقول الثانى - وهو الصحيح - أن الأصل فيها « ما » فزيدت عليها « ما » أخرى ، كما تزداد على « إن » فصار لفظها « ماما » ، فنقل عليهم نوالى كلمتين بلفظ واحد ، فأبدلوا من ألف « ما » الأولى « ها » فصارتا « مهمما » . ومهما من أدوات الشرط والجزاء ، ومتى لفظت بها لم يتم الكلام ، ولا عُقِلَ المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها ، كقولك : مهما تفعل أفعل وتكون حينئذٍ ملتبزما للفعل ، وإن اقتصرت منهما على حرفين وهما « مه » التى بمعنى اكفف ، فهم المعنى وكنت ملتبزماً من خاطبته أن يكف .

وأما الوصف الذى إذا أردف بالنون نقص صاحبه فى العيون ، وقوّم بالدون ، وخرج من الزّيون ، وتعرض للهون ، فهو « ضيف » إذا لحقته النون استحالة إلى « ضيفن » وهو الذى يتبع الضيف ويتنزل فى النقد منزلة الزّيف .

المقامة الخامسة والعشرون وتعرف بالكرجة

حكى الحارث بن همام قال : شتوت بالكرج لدين
أقتضيه ، وأرب أقضيه ، فبلوت من شتائها الكالج ، وصيرها
النافع ، ما عرفني جهد البلاء ، وعكف بي على الاصطلاء ؛ فلم
أكن أزايل وجارى ، ولا مستوقد نارى ، إلا لضرورة أذفع
إليها ، أو إقامة جماعة أحافظ عليها ، فاضطرت في يوم جوّه
مزمهر ، ودجنه مكفهر ، إلى أن برزت من كيناني ، لهمم عناني ؛
فإذا شيخ عارى الجلدة ، بادى الجردة ، وقد اعم بریطة ،
واستفرف بفيطة ، وحواليه جمع كثيف الحواشي ، وهو ينشد ولا يحاشي .

* * *

شتوت : أقت في الشتاء

[الكرج]

والكرج : مدينة معروفة ، وبشدة البرد موصوفة ، وهى بين أصبهان
وهمدان ، وقد تقدم برد همدان^(١) فى الأولى ، ومن همدان إلى نهاوند مرحلتان ، ومن
الكرج إلى مدينة أصبهان ستون فرسخاً . وهى منازل عيسى بن إدريس بن
مقل المعلى ، ولم تكن فى أيام العجم مدينة مشهورة ، وإنما كانت فى عداد القرى
العظام من رساتيق كورة أصبهان ، فنزلها العجليون فبنوا بها الحصون والقصور ،
وجعلها أبو دلف مدينة عظيمة .

وقال أبو دلف : دخلت على الرشيد ، فقال لى : يا قاسم ، ما خبر أرضك ؟
قلت : خراب ياب ، خرّ بها الأكراد والأعراب ، فقال قائل : هذا آفة الجبل
وهو أفسده ، قلت : فأنا أصلحه . قال الرشيد : وكيف ذلك ؟ قلت : أفسدته وأنت على ،

وأصلحه وأنت معي . ففعل ذلك ، وعمر الكرج ، حتى صار دار أجناد ، ومحل وفود وقصّاد .

وقال علي بن جبلة^(١) : زرت في الجبل ، فلما حلت بالكرج ، أظهر من برّي وإكرامى أمراً مفرطاً ، حتى تأخرت عنه تأخراً كبيراً . فوصل إلى معقل بن عيسى ، فقال : يقول الأمير : انقطعت عني ، وأحسبك استقلت برّي ، فلا يفضبتك ذلك ، فسأزيد فيه حتى ترضى . فقلت : والله ما قطعني عنه إلا إفراطه بالبر . قال : وكتب إليه في ذلك :

هجرُك لم أهجرُك من كفرِ نعمةٍ	وهل يُرتجى نيلُ الزيادةِ بالكفرِ
ولكنني لما أتيتك زائراً	فأفرطت في برّي عجزت عن الشكرِ
فأليت لا آتيك إلا مسلماً	أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهرِ
فإن زدتنى برّاً ترايدت جفوةً	ولم تلقني طول الحياةِ إلى الحشرِ

فلما وصلت إليه ، قال : قاتله الله ما أشعره ، وأدق معانيه ! فأجاني لوقته ، وكان حسن البديهة :

ألا ربّ ضيف طارق قد بسطته	وآنسته قبل الضيافة بالبشرِ
أتأني برّجيني فما حال دونه	ودون القرى والعرف من نيله سترِ
وجدت له فضلاً عليّ بقصده	إلى وبرّاً راد فيه على برّي
فزوّدته مالا يقلّ بقاؤه	وزوّدني مدحاً يدوم مع الدهرِ

وبعث إلى بها وبألف دينار مع وصيفة ، فقلت حينئذ :

إعما الدنيا أبودلفٍ	بين مبداءٍ ومختصرةٍ
فإذا ولي أبو دلفٍ	ولت الدنيا على أثره
ملك تندي أنامله	كانبلاج التور عن مطره

مستهلٌّ عن مواهبه كابتسام الزهر عن زهرة
 جبلٌ عزَّتْ مناكبهُ أمنتْ عدنان في كفرة
 كلٌّ من في الأرض من عربٍ بين بادية ومحتضرة
 مستعيرٌ منه مكرمة يكتسبها يوم مفتخرة

والبيت الثاني أحفظ المأمون على ابن جيلة حتى سلّ لسانه من قفاه .

* * *

قوله : أقتضيه ، أى أجمعه . أرب : حاجة . بلوت : قاسيت . الكالـح :
 الشديد ، وكلح كلوحاً . أبدى أسنانه عند العبوس ، والبرد الشديد يبدى الأسنان
 عند رعده . صرّها : يردها الشديد . النافـح : المتحرك بالريح الباردة . جهد
 البلاء : مشقة الضرر ، ويقال : بلغ جهده ، أى أقصى قوته ، فأراد بجهد البلاء
 المشقة التي يتمنى الإنسان عندها الموت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يستعيد منه .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا
 الدعاء : « اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، ودرك الشقاء ،
 وشماتة الأعداء » ؛ وروى في « جهد البلاء » ، أنه القتل عبراً
 أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه قال : قتل الصبر جهد البلاء .

وقال صلى الله عليه وسلم : « جهد البلاء أن تحتاج إلى ما في أيدي الناس فيمنعوك »
 مجاهد قال : كنت جالسا عند عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر
 بالكوفة ، فأتي برجل أن يضرب عنقه ، فقلت : هذا والله جهد البلاء ، فقال :
 والله ما هذا إلا كشرطة حجام بمشراط ، ولا كن جهد البلاء فقر مدقع بعد
 غنى مؤسع .

الأحنف : جهد البلاء خمسة : خادم مذموم ، وحطب رطب ، وبيت يصف ،

وخوان ينتظر ، وجبار على الباب يدق .

عكف بي على الاصطلاء : ألزمني التسخن بالنار وعكف على الشيء عكوفاً:لزمه. أزايل وجارى : أفارق يتي، والوجار جحر الضبع. إقامة جماعة ، أى حضور الصلاة مع الجماعة، وبردشكير بفرناطة كان أشد على ابن صارة - حيث منعه الصلاة - من برد السكرج على ابن هام حيث يقول ابن صارة :

أحلّ لنا ترك الصلاة بأرضكم وشرب الحمى وهو شىء محرّم
فراراً إلى نار الجحيم فإنها أرقّ علينا من شكير وأرحم
لئن كان ربى مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمِ ففى مثل هذا اليوم طابت جهنّم

جوة مزمهر : هواؤه بارد ، والزمهير : البرد . دَجَنَه مكفهر : سحابه متراً كم مظلم . كنانى : يتي : مهمم : أمر لا يؤخر . عنانى : عرض لى وقصدنى . الجردة الجلدة : التى تجرد عنها ثوبها، وفلان جسن الجردة والتجرد ، أى حسن العرى ، وقيل : الجردة الثوب المتجرد البالى . والريطة عند العرب : شىء رقيق ، شبه الملحفة ، ولذلك شُمِّىَ به المرأة ، ولا معنى لهذه الصفة لأنه قد وصفه بالعرمى ، وإنما أراد هنا شبه الكراز لفظ مغير عن أصله كالقوطة عندنا ، ضرب مما يعتم به ، وهى مغيرة عن أصلها ، وإنما أصل القوطة ثوب يجلب من الهند غليظ ، وتصغيرها قُوَيْطَة ، يلبسه أهل مصر وأهل المشرق كما يلبس أهل المغرب وأهل الأندلس الإحرام والمئزر . واستنفر : بالثوب إذا لواه على فخذه ، ثم أخرجه من بينهما ، فشده فى حُجْرَتِهِ ، واستنفر الكلب بذنبه : جعله بين فخذه فتخيل صورة السروجى هنا التى نهاية فى القبح على ما يتّصف به أبداً ، وقد لوى على رأسه نطعة من عمامة بالية ، واستنفر بمنائها ، فلا تجدله مثلاً إلا ما قال أبودلامة فى نفسه :

إذا لبس العمامة كان قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامة :

وَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ ابْنِ رَشِيقٍ فِي غِلَامٍ مَعْتَمٍ بِعِمَامَةٍ حَمْرَاءَ :
يَا مَنْ يَمُرُّ وَلَا تَمُرُّ بِهِ الْقُلُوبُ مِنَ الْحَرَقِ
بِعِمَامَةٍ مِنْ خَدِّهِ أَوْ خَدِّهِ مِنْهَا سَرَقَ
فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا قَمَرٌ أَحَاطَ بِهِ شَفَقُ
شَغَلِ الْجَوَارِحَ وَالْجَوَا نَحْ وَالْخَوَاطِرَ وَالْحَدَقَ

وَقَالَ السَّلَامِيُّ فِي عِمَامَةٍ :

حَسَنَاءُ ضَافِيَّةٌ ، بِيَضَاءِ صَافِيَّةٍ كَأَنَّ رَوْنَهَا فِي صَارِمٍ ذَكَرِ
يَزِينُ أَطْرَافَهَا طَرَزٌ كَمَا رَقَّتْ عَلَى الْجُرَّةِ طَرَزُ الْأَنْجَمِ الزَّهَرِ
كَشِيفٌ : خَشَنٌ مَنْضَمٌ بَعْضُ حَوَاشِيهِ إِلَى بَعْضٍ مِنَ السَّكْرَةِ . يَحَاشَى :
يَسْتَنِي .

* * *

يَا قَوِّمِ لَا يَنْدِيْكُمْ عَنْ فَقْرِي
أَصْدَقُ مِنْ عُرْيِي أَوْ أَوَانَ الْقُرِّ
فَاعْتَبِرُوا بِمَا بَدَأَ مِنْ ضُرِّي
وَحَازِرُوا انْقِلَابَ سِلْمِ الدَّهْرِ
بَاطِنَ حَالِي وَخَفِيَ أَمْرِي
فَإِنِّي كُنْتُ نَبِيَّهِ الْقَدْرِ
أَوِي إِلَى وَفَرٍ وَحَدَّ يَفْرِي
تَفِيدُ صُفْرِي وَتُبِيدُ سُورِي
وَتَشْتَكِي كَوِي غَدَاةَ أَقْرِي
فَجَرَدَ الدَّهْرُ سَيُوفَ الْغَدْرِ
وَمِنْ غَارَاتِ الرِّزَايَا الْغُبْرِ
حَتَّى عَفْتُ دَارِي وَغَاضَ دَرِّي
وَبَارَ سِنْرِي فِي الْوَرَى وَسِعْرِي

وَصِرْتُ نِضْوًا فَاقَةً وَعُسْرًا
عَارَى الْمَطَا مَجْرَدًا مِنْ قَشْرِي
كَأَنِّي الْمِغْزَلُ فِي التَّعَرِّي لَادِفٌ لِي فِي الصَّنِّ وَالصَّنْبَرِ
غَيْرُ التَّضَحِّيِّ وَاصْطِلَاءِ الْجَمْرِ فَبَلْ خِضَمٌ ذُو رِءَاءٍ غَمْرِ
يَسْتُرُنِي بِمُطَرَفٍ أَوْ طَمْرِ طِلَابَ وَجْهِ اللَّهِ لَا لَشَكْرِي!

ينبيء : يخبر . أوان القر : وقت البرد . حاذروا : خافوا . سِلْم : صلح .
نبيه القدر : رفيع المنزلة . آوى : ارجع . وفر : مال كثير . يفرى : يقطع .
تفيد : تأتي بالفوائد . صُفْرِي : دنائري . مُبِيد : تلتف . مُمْرِي : رماحي .
كُوْنِي : إيلي ، والكوماء : الناقة العظيمة السنام أقرى : أطعم الأضياف ،
أى تشتكى إيلي من كثرة ما أنحرها للضيافان . شن : فرّق . الرزايا : المصائب .
الغبر : الآتية في الزمان المحل . يَسَحْتُنِي : يستأصل مالى . يبرى : يقطع لحمي .
عَفَتْ : درست . غاض : ذهب وجف . درى : لبن إيلي . بار : كسد وضاع .
سعرى : سوقى . نضو : هزيل . فاقة : حاجة وفقر . عسر : ضيق حال . المطا : الظهر .
قشري : ثيابي . والدفع : ذهاب البرد ، وقد دفى ، يدفأ ، أى سخن وذبح برده .
الصَّنِّ والصَّنْبَر : يومان من أيام العجوز ، وهى سبعة : أربعة من آخر فبراير ،
وثلاثة من أول مارس . وقال الشاعر لجمعها :

كُيِّعَ الشِّتَاءُ بِسَبْعَةِ عُسْرِ بِالصَّنِّ وَالصَّنْبَرِ وَالْوَبْرِ^(١)
وَبَأْمَرٍ وَأَخِيهِ مُؤْتَمِرٍ وَمَعْلَلٍ وَمِطْفِيءِ الْجَمْرِ

التَّضَحِّي : الجلوس للشمس . خِضَم : كريم ، شَبَّهَ بِالْبَحْرِ ، وَهُوَ الْخِضَم .
ذُو رِءَاءٍ غَمْر : ذو عطاء كثير . مطرف : ثوب مربع فى طرفه علم .
الفرء : قيل مُطَرَفٌ لَأَنَّهُ أَطْرَفَ ، أى جُعِلَ فى طَرَفِيهِ الْعِلْمَان . طَمْر : ثوب خلق .

ثُمَّ قَالَ : يَا أَرْبَابَ الثَّرَاءِ ، الرَّافِلِينَ فِي الْفِرَاءِ ؛ مَنْ أُوتِيَ خَيْرًا فَلْيَنْفِقْ ، وَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُرْفِقَ فَلْيُرْفِقْ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا غَدُورٌ ، وَالذَّهْرَ عَثُورٌ ، وَالْمُسْكَنَةُ زَوْرَةٌ طَيْفٌ ، وَالْفُرْصَةُ مُزْنَةٌ صَيْفٌ . وَإِنِّي وَاللَّهِ لَطَالَمَا تَلَقَّيْتُ الشِّتَاءَ بِكَأَوَاتِهِ ، وَأَعَدَدْتُ الْأَهْبَ لَهُ قَبْلَ مَوَافَاتِهِ ، وَهِيَ أَنَا الْيَوْمَ يَا سَادَتِي ، سَاعِدِي وَسَادَتِي ، وَجِلْدَتِي بُرْدَتِي ، وَحَفَنَتِي جَفَنَتِي ، فَلْيَعْتَبِرِ الْعَاقِلُ بِحَالِي ، وَلْيَبَادِرْ صَرْفَ اللَّيَالِي ؛ فَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ اتَّعَظَ بِسَوَاهِ ، وَاسْتَعَدَّ لِسَمَرَاهِ .

* * *

أرباب الثراء : أصحاب المال . الرافلين : الماشين بجيلاء وتبختر : الفراء : جمع فروة . أوتي : أعطى . خيراً : مالاً . يرفق : يعين ، وأرفقه : أعطيته ما يرتفق به . غدور : كثيرة الخداع . عثور : واقع بأهله . المسكنة : الغنى . طيف : ما يرى في النوم .

ابن الأنباري : في طيف الخيال قولان : قيل : أصله طيف فخفف ، وقال الأصمعي رحمه الله تعالى : هو مصدر طاف ، وبه أخذ السهيلي رحمه الله تعالى ، فقال : هو مصدر طاف الخيال يطيف طيفاً ، ولا يقال : منه طائف على فاعل ، لأنه لا حقيقة للخيال ، إنما هو توهم وتخيل . فإن كان شيء له حقيقة قلت : فيه طائف ، نحو قوله تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ ، لأن الذي طاف عليها له حقيقة ، ويقال : إنه جبريل عليه الصلاة والسلام . وأما قوله تعالى : ﴿ إذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا ﴾ فقد قرئ ﴿ طائف ﴾ أيضاً فطائف لأن له حقيقة ، وطيف لأنه غرور الشيطان وأمانيه تشبه بالخيال وما لاحقيقة له ، فتحصل من هذا ثلاث مراتب الخيال ، ولا حقيقة له فيعتبر بالطيف ، ويتال في وسوسة الشيطان : طائف وطيف ، وما عدا هذين فهو باسم الفاعل ، ولا يمتزج عنه بطيف

فقف عليه . الفرصة : ما تهيأ لك وتيسر لك من مطالبتك . مزنة صيف ، أى
سحابة لا دوام لها ، وأراد قول عمران بن حطان :

أرى أشقياء الناس لا يستؤونها على أنهم فيها غراب وجوع
أراها وإن كانت تحب فإنها سحابة صيف عن قريب تقشع

ولما ولي بلال بن أبي بردة البصرة ، كان إذا اجتاز في مواليه بخالد بن
صفوان يقول : * سحابة صيف عن قريب تقشع *
فبلغ قوله بلالا ، فقال : والله لا تقشع حتى يصيبك منها شوبوب ، فردّه ثم
ضربه مائة سوط .

كافات : جمع كاف ، وأراد بها آله وما يستعد له بها وهى الأهب التى أراد .
موافاته : مجيئه وحضوره . ساعدى : ذراعى . بردتى : ثوبى ، الحفنة : ما يملأ
الكف . الحفنة : الصفحة . فليتعض ، أى يعتبر ويجعلنى عبرة . صرف : قلب .
استعد : أعد : لسراه : مثواه . وقال الألبيرى فى هذا المعنى :

وذى غنى أو همته همته أن الغنى عنه غير منفصل^(١)
فجر أذبال عجبه بطراً واحتال للكبرياء فى حُكَل
برته أيدى الخطوب برته فاعتاض بعد الحديد بالسمل
فلا تثق بالغنى فأفته الفقر وصرف الزمان ذو دُول
كنى بنيل الكفاف منه غنى فكف به الدهر غير مُحْتَفَل

[من مقامة البديع البخارية]

ومن مقامات البديع : حدثنا^(١) عيسى بن هشام قال : أحلتنى جامع بخارى يوم
وقد انتظمت مع رقعة فى سلك الثريا . وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو
طمرين ، قد أرسل صوانا ، واستتلى طفلا عريانا ، يضيق بالضرّ وسهه ، ويأخذه
القرّ ويدعه ، لا يملك غير القشرة بردة ، ولا يكتفى لحماية رعدة ، فوقف الرجل
وقال : لا ينظر لهذا الطفل إلا من الله طغله ، ولا يرق لهذا الضرّ إلا من لا يامن

مثله . يا أصحاب الجودود المفروزة ، والأردية المطروزة ، والدُّور المنجدة ، والقصور
 المشيدة . إنكم لن تأمنوا حادثنا ، ولن تتمدّموا وارثنا ، فبادروا الخير ما أمكن ،
 وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طعمينا السُّكباج ، وركبنا المملاج ،
 ولبسنا الديباج^(١) ، وافترشنا الحشايا بالمشايا ، فمارعنا إلا هبوب الدهر بفدّره ،
 وانقلاب الجنّ لظهره ، فعاد المملاج قُطوفاً^(٢) ، والديباج صوفاً ، وهلمّ جرا إلى
 ما تشاهدون من حالي وزيتي ؛ فيها نحن نرتضع من الدهر ندى عقيم ، ونركب
 من الفقر ظهر بهيم ، فلا نزنو إلاّ بعين اليتم ، ولا نعدّ إلاّ يد العديم . فهل
 من كريم يخلو غياهب هذه البثوس ، ويفلّ شبا هذه النحوس . ثمّ قعد
 مرتفقاً^(٣) ، وقال للطفل : أنت وشأنك ، قال : ماعسى أن أقول وهذا الكلام
 لولقي الشعر لحلقه ، أو الصخر لقلقه ، وإن قلباً لم ينضجه ما قلت لى ، وقد سمعتم
 يا قوم ، ما لم تسمعوا قبل اليوم ، فليشغل كلٌّ منكم بالجود يده ، وليذكر
 غده ، واقياً بى ولده ، وامنعوني أشكركم ، واذكرونى أذكركم . وتماها
 فى العشرين .

* * *

ف قيل له : قدّ جلوت علينا أدبك ، فاجلّ لنا نسبك ،
 فقال : تبّاً لمفتخر ، بعظم نخر ، إنّما الفخر بالتقى ، والأدب المُنْتقى ؛
 ثمّ أنشد :

لعمرك ما الإنسان إلاّ ابنُ يومِهِ
 على ما تجلّى يومه لا ابنُ أمسه

(١) السكباج: لحم يطبخ بالخل ويحمل معه مرق ، والمملاج: الدابة السريعة ، والديباج: الحرير -

(٢) القطوف : الدابة الطليئة فى سيرها .

(٣) مرتفقاً ، أى فى مكان عال .

وما الفخرُ بالعظمِ الرَّمِيمِ . وإنَّما
فَخَارُ الذِّى يَبْغى الفَخَارَ بِنَفْسِهِ

ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ مُتَحَوِّقًا ، وَاجْرَثَمَ مُتَقَفِّقًا . وَقَالَ : اللَّهُمَّ يَا مَنْ
غَمَرَ بِنَوَالِهِ ، وَأَمَرَ بِسُؤَالِهِ ؛ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَأَعِنِّي عَلَى الْبَرْدِ
وَأَهْوَالِهِ ، وَأَتَمِّحْ لِي حُرًّا يُوَثِّرُ مِنْ خَصَاصَةِ ، وَيُوَاسِي وَلَوْ
بِقِصَاصَةٍ .

* * *

قوله : « جلوت » ، أظهرت وكشفت . أجلُ : اكشف وبين عنه . تَبًّا :
خسرانا . فَنَحَرَ : بال . المنتقى : المختار . تَجَلَّى : تبدى وظهر . الرَّمِيمِ : البالى .
يَبْغى : يطلب .

وقوله : « تَبًّا لِمُتَفَخَّرٍ ، بِعَظَمِ نَحْرِ » ، كانت العرب تتفاخر بالأحساب ، وتعاظم
بكرم الآباء ، فنزل القرآن العظيم بترك ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ ﴾ و ﴿ إِنَّا أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم في حجة الوداع : « أيها الناس ، إنما الناس إخوة وليس لعربي على عجمي
فضل إلا بالتقوى . أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم
وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله اتقاكم » ، فلذلك قال : إنما الفخر بالتقى .

وقال على كرم الله وجهه ورضى عنه :

الناس من جهة التمثيل أكفاه أبومُ آدَمُ والأمَّ حَوَاهِ
فإن يكن لهم من قبل ذاك نسبٌ يفاخرون به فالطين والماء

وقال عامر بن الطفيل :

ولمّا وإن كنتُ ابن سيّد عامرٍ وفي السرِّ منها والعريج المهدب^(١)
فما سودتني عامرٌ عن ولادة^(٢) أبى الله أن أسمو بأمّ ولا أب
ولكنني أحى حياها وأتقى أذاها وأرّمي من رماها بمنكب^(٣)

فهذا مع إمكانه الفخر بالآباء لم يفخر إلا بنفسه . وأخذه عبد الله بن معاوية
ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرَمَتْ يوماً على الأحساب نَتَكِلُ
بَنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وهذا مثل قول الحسن رضى الله تعالى عنه وقد أجزل صلة شاعر ، فلم في
ذلك فقال : أتراني خفت أن يقول : إني لست ابن فاطمة بنت النبي صلى الله
عليه وسلم ، ولا ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ولكنني خفت أن يقول :
لست كمثلهم فيصدق ويحمل عنه ، ويبقى مخلداً في الكتاب محفوظاً على السنة
الرواة ، فقال الشاعر : أنت والله يا بن رسول الله أعرف بالمدح والدم منى .

قوله : والأدب للنتقى ؛ حدث يحيى بن أكرم قال : بينما أنا جالس مع
المأمون إذ دخل الدار فتى ، أبدع الناس زياً وهيبة ووقاراً ، وهو لا يلتفت إعجاباً
بنفسه ، فنظر إليه المأمون ، فقال : يا يحيى إن هذا الفتى لا يخلو أن يكون هاشمياً
أو نحويّاً ، ثم بعثنا من يتعرف ذلك منه . فعاد الرسول فأخبر أنه نحوى ، فقال
المأمون : يا يحيى ؛ أعلمت إن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلو
الهمة منزلة بني هاشم في شرفهم ! يا يحيى ، من قعد به نسبه قام به أدبه .
قال : وأنشد الشاعر :

(٢) الديون : « ورائته » .

(١) ديوانه ٢٨ .

(٣) الديوان : « بجنب » .

كُنْ ابْنَ مَنْ شئتَ واتَّخِذْ أدباً يُغْنِيكَ مَأْثُورُهُ عَنِ النَّسَبِ
 ابْنُ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ مَا أَنَا ذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي
 مَالِي عَقْلِي وَهَمِّي حَسْبِي مَا أَنَا مَوْلَى وَلَا أَنَا عَرَبِي
 ابْنُ انْتَمَى مِنْتُمْ إِلَى أَحَدٍ فَإِنِّي مُنْتَمٍ إِلَى أَدَبِي
 وتكلم رجل عند عبد الملك بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فقال له وقد
 أعجبه : ابن مَنْ أَنْتَ يا غلام؟ فقال : ابن نفسي يا أمير المؤمنين ، التي نلت بها
 هذا ألقمك منك ، قال : صدقت . أخذه ابن دريد فقال :

كُنْ ابْنَ مَنْ شئتَ وَكُنْ مُؤَدِّباً فَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِفَضْلِ حِسِّهِ (١)
 وَلَيْسَ مَنْ تَكْرَمَهُ لغيره مِثْلَ الَّذِي تَكْرَمَهُ لِنَفْسِهِ
 وقالت عائشة رضي الله عنها : كل كرم دونه لؤم ، فاللؤم أولى به ، وكل
 لؤم دونه كرم فالكرم أولى به — يعني أن أفعال الإنسان إذا كرمت لم يضره لؤم
 آبائه ، وإذا لؤمت لم ينفعه كرم آبائه . وقال المعري :

لَوْ عَرَفَ الْإِنْسَانُ مَقْدَارَهُ لَمْ يَفْخَرْ الْمَوْلَى عَلَى عَبْدِهِ (٢)
 لَوْلَا سَجَايَاهُ وَأَخْلَاقُهُ لَكَانَ كَالْمَدُومِ فِي وُجْدِهِ
 وَمَجْدُهُ أَفْصَالُهُ لَا الَّذِي مِنْ قَبْلِهِ كَانَ وَلَا بَعْدَهُ
 قوله : ما تجلّى يومه ، أى على ما ظهر وانكشف يومه من أعماله الحمودة .
 أو المذمومة . محققنا : منحنياً . اجرثم : انقبض . مقققنا : مرتعداً ، ويقال :
 قفّ شعره إذا ارتفع من دعر أصابه . وقفّ جلدى من هذا الحديث : إذا اقشعر
 من استئشاع ما سمع .

غمر بنوالة ، أى غطى بعطاياه . وأمر بسؤاله : يريد قوله تعالى : ﴿ واسألوا

(١) ديوانه ٧٠ ، وفيه : « كيسه » .

(٢) سقط الزند ١٠١٦ مع اختلاف في الألفاظ وترتيب الأبيات .

الله من فضله . آله : أهله . أهواله : شدائده ومخاوفه . أنح : قدر . يؤثر :
يفضّل غيره على نفسه . خصاصة : جوع ، وهذا منتزع من القرآن .

* * *

قال الراوى : فلما جَلَى عن النفس العِصَامِيَّة ، والملح
الأصمِيَّة ، جعلت ملامح عيني تعجمه ، ومرايى لخطي ترجمه ،
حتى استبنت أنه أبو زيد ، وأن تعريه أحبولة صيد . ولمح هو
أن عِرْفاني قد أدرّكه ، ولم يَأْمَنْ أن يهتكه ، فقال : أقسم
بالسمر والقمر ، والزهر والزهر ، إنه لن يسترني إلا من طاب
خيمه ، وأشرب ماء المروءة أديمه . فعقلت ما عناه ، وإن لم يذر
القوم معناه ، وسأني ما يعاينه من الرعدة ، واقتصرار الجلدة .
فعمدت لفروة هي بالنهار رياشي ، وفي الليل فراشي . فنضوتها عني ،
وقلت له : أقبلها مني ؛ فما كذب أن افترها ، وعيني
تراها . ثم أنشد :

لله من ألبسني فروة أضحت من الرعدة لي جنة
ألبسنيها واقيا من هجتي وقي شرّ الإنس والجنه
سيكتسي اليوم ثنائي وفي غد سيكتسي سندس الجنة

. . .

والعصامية : منسوبة إلى عصام بن شهر بن الحارث الجرمي ، حاجب النعمان ابن المنذر الذي يقول له النابغة :

فإني لا ألام على دخولٍ ولكن ما وراءك يا عصام^(١)
ولم يكن عصام شريفاً ، ولا نشأ في قومه ، ولكن كان من أشدّ الناس
بأساً ، وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، وأقربهم إلى النعمان ، وقال له رجل
يوماً : كيف بلغت هذه المنزلة من الملك وأنت دنيء الأصل ؟ فقال :

نفسُ عصامٍ سودتِ عِصاماً^(١) وعلمته الكرم والإقداما^(١)

* وصيرته سيّدا هاما *

ويقال : كن عصاميا ولا تكن عظاميا ، أي افتخر بنفسك لا بأبائك
الذين ماتوا وبقيت عظامهم . فكلّ من ليس له شرف قديم ، وشرف بنفسه ،
يقال له عصاميّ .

وكانت لرجل عند الحجاج حاجة ، فوصف بالجهل والحق ، فأراد
أن يختبره ، فقال : أعصاميّ أنت أم عظاميّ ؟ فقال له الرجل : عصاميّ
عظاميّ ، فظنّ أنه يريد افتخاره بنفسه لفضله وبآبائه لشرفهم ، فقال الحجاج :
هذا من أفضل الناس ، وقضى حاجته ، ثم جرّبه بعد ذلك ، فوجده أجهل
الناس ، فقال له : أصدقني وإلا قتلُك ، أجبتني بعصاميّ وعظاميّ ، فقال له
الرجل : لم أعلم معناهما ، فخشيت أن أقول أحدهما فأخطئ ، فقلت في نفسي : أقولها
معا ، فإن ضررتني أحدهما نفعني الآخر ، فقال الحجاج : للماذير تصير الغبيّ خطيبا ،
فذهبت مثلا .

وسمع المأمون رجلا يفخر بنفسه وهو ناقص ، فقال : أنت عظامي لا عصاميّ .

(١) ديوانه ٧٤ .

(١) ديوانه ٧٩ .

ولهذا أشار بما تقدم من قوله « تَبَا لِمَفْتَخِرٍ ، بِمُعْظَمِ مَخِرٍ » ، يريد أن عصاما ساد بنفسه لا بآبائه ، وكذلك السَّروحي لم يفخر إلا بنفسه .

الأصمعي : التي حكاهما الأصمعي ، وقد مرّ من مُلح الأصمعي في هذا الكتاب جملة كافية بحمد الله تعالى . والأصمعي عَصَاحِيّ لأنه من باهلة ، وهي أجن قبيلة في العرب والأما، وذكر المبرد في كامله جملة أخبار في أمثالها ، قال فيها الشاعر :

ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم ذاك النَّسَبِ^(١)
وهو مع ذلك خامل المنشأ ، وقد ذكرنا في الأربعين خول أبيه إلا أنه ساد
الناس بنفسه أدباً وعلماً وديناً . ومن مُلحه أنه قال : بينما أنا في طرق البصرة إذا
أنا بكناس يكنس كنيفاً ، وإذا هو يقول :

فإياك والسكفي بأرض مذلة تعدّ مسيئاً فيه إن كنت مُحسناً
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك بها فاطلب لنفسك مسكناً
قال : فوقفت عليه ، قلت : والله ما بقى عليك من الهون شيء إلا وقد أهنتها
به ، فما الذي نلت من كرامتها ؟ قال : والله لكنس ألف كنيف أحسن من
القيام على باب مثلك ساعة .

الأصمعي : كان أعرابيان متواخيان بالبادية ؛ ثم إن أحدهما استوطن
الريف ، واختلف إلى باب الحجاج ، فولاه أصبهان . فسمع أخوه خبره فغضب
إليه ، فأقام بيابه حيناً لا يصل إليه ، ثم أذن له بالدخول ، فأخذه الحاجب فمشی
به وهو يقول :

فلستُ مسلماً ما دمتُ حيّاً على زيد بتسليم الأمير

فقال زيد : لا أبالي ، فقال الأعرابي :

أتذكر إذ لحافك جلدُ شاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال : نعم ، فقال الأعرابي :

فسيحان الذي أعطاك ملكاً وعلتك القعود على السرير

ترجمه : تختبره . مراعى لحظي : نظرات عيني وسهام نظري ، واحده المرامي
مرماة ، وهي السهم .

ترجمه : ترميه وتقع عليه . أحبولة : شبكة . يَهْتَسِكُ : يكشفه . السَمَرُ :
ظل القمر ، ثم سُمِّيَ حديث الليل سمرا به . الزُّهْرُ : النجوم . خِيَمَهُ : طبعه .
أشرب : سُقِيَ . المروءة : الفعل الجميل . أديمه : وجهه ، ويقال : أشرب فلان
حبَّ فلان ، إذا خالط حُبَّهُ قلبه . ماعناه : ما أراد ، يريد أنه لما قال : لن يسترنى ،
إنما أراد لن يستر على هذه الحيلة التي أريد بها خداع الناس بعد ما عرفها بالإمن
هو كما وصف .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن
أحيا موءودة من قبرها » .

ساءنى : شقّ على . يعانيه : يقاسيه . اقشعرار : انقباض وارتعاد .
عمدت : قصدت . رياشي : لباسي . نضوتها : جردتها . افترأها : اتخذها .
جَنَّة : سترًا ووقاية . واقيا : صائنا . مهجتي : نفسي . وقى : كفى . الجِنَّة :
الجن : سندس : ثياب خضر .

قال : فَلَمَّا فَتَنَ قُلُوبَ الْجَمَاعَةِ ، بِافْتِنَانِهِ فِي الْبَرَاةِ ، الْقَوَاعِلِيَّةِ
مِنَ الْفِرَاءِ الْمُنَشَّاةِ ، وَالْجُبَابِ الْمَوْشَاةِ ، مَا آدَهُ ثِقَلُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ

يَقْلَهُ ، فَاَنْطَلَقَ مُسْتَبْشِرًا بِالْفَرَجِ ، مُسْتَسْقِيًا لِلْكَرَجِ ، وَتَبِعْتُهُ
إِلَى حَيْثُ ارْتَفَعَتِ التَّقِيَّةُ ، وَبَدَتْ السَّمَاءُ نَقِيَّةً ، فَقُلْتُ لَهُ : لَشَدَّةُ
مَا قَرَسَكَ الْبَرْدُ ، فَلَا تَتَعَرَّ مِنْ بَمْدٍ ، فَقَالَ : وَيْكَ ! لَيْسَ مِنَ الْعَذْلِ ،
سُرْعَةُ الْعَذْلِ ، فَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمٍ هُوَ ظُلْمٌ ، وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ ؛ فَوَالَّذِي نَوَّرَ الشَّيْبَةَ ، وَطَيَّبَ تَرْبَةَ طَيِّبَةٍ ، لَوْ لَمْ أَتَعَرَّ
لَرُحْتُ بِالْخَيْبَةِ ، وَصَفَرَ الْعَيْبَةَ .

. . .

افتتنانه : تنوعه . البراعة : الجودة والنصاحة المنعشة : المغطاة بغيرها من
الثياب . الموشاة : المزينة بالرقم . آده : أثقله . يقله : يرفعه . مستسقياً : داعياً
بأن يسقيها الله تعالى . التقية : الخشية .

قوله : بدت السماء نقية ، مَثَلٌ ضَرِبَ لَخُلُوعِ الْمَوْضِعِ مِنَ النَّاسِ وَظُهُورِهِ
فِيهِ وَحْدَهُ . وَيْكَ ، أَيْ عَجَبًا لَكَ . الْعَذْلُ : اللوم .

تقف : تتبع ، يقال : قفوت أثره أقفوه قفواً ، إِذَا تَقَبَّعْتَهُ ، وَمِنْهُ : قَفَا فُلَانٌ
فُلَانًا إِذَا أَتْبَعَهُ بِكَلَامٍ قَبِيحٍ ، وَيُقَالُ : قَفَاهُ بِالْتَّخْفِيفِ .

أبو عبيدة رحمه الله تعالى : أصل القفوة والتقافى : البهتان يَرْمِي بِهِ الرَّجُلُ
صَاحِبَهُ ، وَاحْتِجَ بِحَدِيثِ حَبَانَ بْنِ عَطِيَّةٍ : « مَنْ قَفَا مُؤْمِنًا بِمَا لَيْسَ فِيهِ حِسْبُهُ اللَّهُ
تَعَالَى فِي رَدْعَةٍ ^(١) الْخَبَالِ حَتَّى يَأْتِيَ بِالْخُرْجِ » . قَالَ الْفَرَاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : الْقَفْوُ
مَأْخُوذٌ مِنَ الْقِيَاةِ ، وَهُوَ تَتَبُّعُ الْأَمْرِ ، يُقَالُ : قَافَ الْقَائِفُ يَقْفُو قِيَاةً ، فَهُوَ
قَائِفٌ ، بِتَقْدِيمِ الْفَاءِ عَلَى الْوَاوِ ، كَمَا قَالُوا فِي جَذَبٍ : جَبَذَ ، وَقُرِئَ : « وَلَا تَقِفْ »
مِثْلَ تَقْلٍ . نَوَّرَ : بَيَّضَ .

(١) الردغة : الطين والوحل ؛ كَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ وَأُورِدَهُ فِي التَّهْيِيزَةِ .

[ذكر طيبة]

طيبة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وطيب الله تربتها بأن صيرها موطناً
لنبيه صلى الله عليه وسلم ، في حياته ومستقراً له بعد مماته . وذكر شيخنا ابن جبير
المدينة فقال : للمدينة ^(١) المكرمة أربعة أبواب وهي تحت سورين في كل سور
باب يقابله آخر : باب الحديد ، وباب الشريعة ، وباب القبلة ، وباب البقيع ،
وبين سورها الغربي وخندق النبي صلى الله عليه وسلم مقدار غلوة ، وبين السور
والخندق عين النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه حلق عظيم مستدير ، ومنبع العين
وسطه ، كأنه الحوض المستطيل ، وتحت العين سقايتان بينهما جدار لطهر
الناس وغسل أثوابهم ، والعين للاستقاء والعين تمد السقايتين ، وتهبط إليهما على
خمس وعشرين درجة ، وماؤها يعم أهل الأرض فضلاً عن أهل المدينة . وبمقربة
من الحوض مما يلي الحوض حجر الزيت ، يقال : إن الزيت رشح للنبي صلى الله
عليه وسلم من ذلك الحجر . وبالقرب منه بئر بضاعة وبازائها من الجهة
اليسار جبل الشيطان حيث صرخ يوم أُحد : قتل نبيكم . وعلى شفير
الخندق حصن العزاب ، وهو خرب . كان عمر رضى الله عنه بناه لعزاب المدينة ،
وأمامه لجهة الغرب على بعد بئر رومة التي اشتراها عثمان رضى الله عنه بعشرين
ألفاً . وداخل باب الحديد سقاية يهبط إليها على أدراج ، وهي بمقربة من الحرم
المكرم ، وبمبلى الحرم دار مالك بن أنس رضى الله عنه . ويطيف بالحرم شارع
مبلى بالحجر المنحوت ، وفي جوف المدينة جبل أحد على ثلاثة أميال منها ، وبمبليّه
مسجد حمزة ، وقبره برحلة بجوف المسجد ، وبازائه قبور الشهداء ، وحوله تربة
حمراء أنزل فيها سورة الفتح الشريفة ، وشرقي المدينة بقيع العرقد ، وإذا
خرجت على باب البقيع تلقى على يسارك قبر صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم
وأم الزبير ، وأمامها قبة مختصرة البناء على قبر مالك بن أنس . وأمامه قبر

(١) رحلة ابن جبير ، ١٧٦ ، بتصرف .

السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم عليه قبة بيضاء وعلى يمينها قبر عبد الرحمن بن عمر ، الذى جلده أبوه الحدّ فات ، ويازائه قبر عقيل بن أبى طالب وعبد الله بن جعفر ، ويازائه روضة صغيرة فيها ثلاثة من أبنائه صلى الله عليه وسلم ، ويليها روضة العباس والحسن رضى الله عنهما ، وعليها قبة مرتفعة فى الهواء ، وقبراها مرتفعان على الأرض مغشيان بألواح ملتصقة أبدع التصاق ، مرصعة بالصفايح الصفر مسكوكة بمسامير على أبدع صفة ، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم عليه السلام بن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى آخر البقيع قبر عثمان بن عفان الشهيد ، وعليه قبة مختصرة البناء ، وبمقربة منه قبر فاطمة بنت أسد أم على كرم الله وجهه ، ومشاهد البقيع أكثر من أن تُحصى لأنها مدفن الصحابة رضى الله عنهم . وقبل المدينة على نحو الميلىن قُباء ، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرّمة ، وبها المسجد الذى أسس على التقوى وهو مربع مستوى الطول والعرض له باب واحد من جهة الغرب ، وهو سبع بلاطات فى الطول ، ومثلها فى العرض ، وفيه صومعة طويلة بيضاء تظهر على البعد ، وفى وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، عليه حلق قصير شبه الروضة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى صحته مما يلى القبلة شبه محراب على مسطبة ، وهو أوّل موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى قبليته دار بنى النجار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارى ، ويليها دار عائشة رضى الله تعالى عنها ، ويازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين ورضى عنا بهم ، ويازائها بئر أريس حيث نفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم فعاد عذبا بعد أن كان أجابا ، وفيه وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه ، وحديثه مشهور ، وفى آخره تلّ مشرف يعرف بعرفات لأنه كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، ومنه زويت له الأرض فأبصر الناس بعرفات ، ويدخل من التل على دار الصفة ، وبها كان عمار وسلمان وأصحابهما . والطريق من قبل قُباء إلى المدينة بين حدائق النخل المتصلة ، والنخيل تحديق بالمدينة من

جهاها ، وأعظمها جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة الغرب . وآثار المدينة وقباء
لا تحصى . فلما خص الله تعالى تربة طيبة بصفوة عباده أقسم الحريري بمن طيها .
صفر العيية : خلو الوعاء .

* * *

ثمَّ نَزَعَ إِلَى الْفِرَارِ ، وَتَبَرَّقَعَ بِالْكَفَرِارِ ، وَقَالَ : أَمَا
تَعْلَمُ أَنَّ شِنْشِنَتِي الْإِتْقَالُ مِنْ صَيْدٍ إِلَى صَيْدٍ ، وَالْإِنْعَاطُفُ مِنْ
عَمَرٍ إِلَى زَيْدٍ ، وَأَرَاكَ قَدْ عَقَّتَنِي وَعَقَقْتَنِي ، وَأَفْتَنِي أَضْعَافَ
مَا أَفَدْتَنِي ، فَاغْفِنِي عَافَاكَ اللَّهُ مِنْ لُغُوكَ ، وَاسْتَدُّ دُونِي بَابَ جَدِّكَ
وَلَهُوكَ . فَجَبَذَهُ جَبَذَ التَّنْعَابَةِ ، وَجَعَجَعْتُ بِهِ لِلدُّعَابَةِ ، وَقُلْتُ لَهُ :
وَاللَّهِ لَوْ لَمْ أُوَارِكَ ، وَأَعْطُ عَلَى عَوَارِكَ ، لَمَا وَصَلْتَ إِلَى صَلَةِ ،
وَلَا تَقَلَبْتَ أَكْسَى مِنْ بَصَلَةٍ ، فَجَازَنِي عَنْ إِحْسَانِي إِلَيْكَ ،
وَسَتَرِي لَكَ وَعَلَيْكَ ، بَأَنْ تَسْمَحَ لِي بِرَدِّ الْفَرُوةِ ، أَوْ تَعْرِفَنِي
كَفَاتِ الشُّتُوَةِ . فَنَظَرَ إِلَى نَظَرِ الْمُتَعَجِّبِ ، وَازْمَهَرَّ ازْمِهْرَارِ
الْمُتَغَضِّبِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا رَدُّ الْفَرُوةِ فَأَبْعُدُ مِنْ رَدِّ أَمْسِ الدَّابِرِ ، وَالْمَيْتِ
الْغَابِرِ .

. . .

نَزَعَ : مال وحن . وتبرقع : ستر وجهه . الا كفهرار : العبوس . شِنْشِنَتِي :
طبيعتي . الانعطاف : الرجوع . عقتني : حبستني . عقتني : قطعني . أفتني :
حرمتني . أفدتني : أكسبتني فائدة . اعفني : أرحمني وعافني . لغوك : باطلاك .

التلابة : كثرة اللعب ورجل تلابة : حسن اللعب مزاح ، وفي الحماسة :

هُوَ الظَّهْرُ الْمَيُّونُ إِنْ عَادَ وَاعْتَدَى بِهِ الرُّكْبُ وَالتَّلَابَةُ الْمُتَجَبُّ

جميعت : صحت ودعوت به ، والجمعة : رُغَاءُ الْإِبِلِ . الدُّعَاءُ : المزاح .
أوارِك : أسترِكَ . عوارِك : عيبك . صلة : عطية . سترى لك ، أى ثوبى ،
وأراد بعليك ، سكوتى عنك حين قلت : لن يسترنى إلا من طاب خيمه . ازمهر :
توقدت عيناه غضبا . المتغضب : المستعمل الغضب . الدابر : الماضى . والغابر :
الذاهب .

* * *

وَأَمَّا كَافَاتِ الشَّتْوَةِ ، فَسَبْحَانِ مَنْ طَبَعَ عَلَى ذِهْنِكَ ،
وَأَوْهَى وَعَاءَ خَزْنِكَ ، حَتَّى أَنْسَيْتَ مَا أَنْشَدْتِكَ بِالذَّمِّ مَكْرَةً ،
لَا بِنِ مَكْرَةٍ :

جاء الشتاء وعندي من حوائجه

سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا

كين وكيس وكانون وكاس طلاء

بعد الكباب وكس ناعم وكسا

ثم قال : لجواب يشنى ، خير من جلباب يذنى ؛ فاكتفِ
بِمَا وَعَيْتَ وَأَنْكِنِي . ففارقته وقد ذهبت فروتي لشقوتي ،
وحصلت على الرعدة طول شتوتي

. . .

وقوله : سبحان من طبع ، معناه تنزيهاً لك ياربنا من الولد والصاحب والشريك ، أى نزهتك من ذلك ، وانتصابه على المصدر ، كأنك قلت : سبحت الله تسبيحاً ، فجعلت « سبحان » فى موضع التسبيح ، ومعنى طبع على قلبك ، أى غشاه الصداً والدنس والوسخ ، قال الله تعالى : ﴿ قَطَّبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ وقال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وفى الحديث « نعوذ بالله من طبع يبدى إلى طبع » . وقال الشاعر :

لا تطعمن طمعاً يبدى إلى طبعٍ إن المطامع فقر والغنى يأسُ

وأنشده يعقوب :

لا خير فى طمع يبدى إلى طبعٍ وغُفَّةٌ من قوام العيش تكفينى^(١)

والذهن : قوة ادراك العقل . أوهى : أضعف . خزنك : تثقيفك وحرزك .
السكرية : هنا قرية معروفة بينها وبين بغداد على طريق خراسان ستة عشر فرسخاً .

[ترجمة ابن سكرة]

وابن سكرة من شعراء اليتيمة قال صاحبها^(٢) : ابن سكرة الهاشمى هو أبو الحسن محمد بن عبدالله بن محمد . شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الظرف والملح ، أحد الفحول والأفراد ، وجال فى ميدان المجون والسخف بما أراد . وكان يقال ببغداد : إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لمسخى جداً ، وما أشبههما إلا بجرير والفرزدق فى عصرهما . ويقال إن ديوان ابن سكرة يربو على خمسين ألف بيت .

(١) البيت فى اللسان - غفا من غير نسبة . والغفة : بلغة من العيش . (٢) اليتيمة ٣-٤ .

ومن شعره في غلام في يده غصن نوار :

غصن بابٍ بدا وفي اليد منه غصن فيه لؤلؤ منظوم^(١)
فتحيرت بين غصنين في ذا قمر طالع وفي ذا نجوم
وله في غلام يعرف بابن برغوث :

بليت ولا أقول بمن لاني إذا أنا قلت من هو تمشقوه^(٢)
حبيب قد نفي عني رقادى فاب غمضت أيقظي أبوه
وله في غلام أعرج :

قالوا بليت بأعرج فأجبتهم العيب يحدث في غصون البان^(٣)
ماذا على إذا استجدت شاملا وروادفا تغنى عن الكتبان
إني أحب جلوسه وأريده للنوم لا للجري في الميدان
في كل غصن منه حسن كامل ماضرتني إن زلت القدمان
وله في غلام سميه :

إذا باسمي دُعيت حنت شوقا وذكرني به الداعي حبيبي^(٤)
فليت كما اتفقنا في الأسمى وألفتها اتفقنا في القلوب
وله أيضا :

بنفسي عذار بدا طامعا على ناضر الورد ما أملحاً^(٥)
كتمت هواه زمان الصبا وبوحت^(٦) بالحب لما التحى

(٢) البيت ٣ : ٨

(٤) البيت ٣ : ٤

(٦) البيت : « صرحت »

(١) البيت ٣ : ٣

(٣) البيت ٣ : ٦

(٥) البيت ٣ : ٥

وقالوا محّا الشعر لما بدا محاسنه منه واستقبجا
فقلت لهم ما محّا حسنه ولكن صبرى عنه محّا

وله فى مثله :

وغزال لولا تَمِيمة شعر ذكّرتُه لقلت بعض الجوارى^(١)
شارِبٌ أَشْرَبَ الصّباةِ قلبى وعذار خلعتُ فيه عذارى

وله فى مثله أيضاً :

مَنْ عذِرى من شادنٍ لا يرانى وهو روجى أهلا لردّ السلام^(٢)
أنا من خده وعينه والثغـر ومن ريقه البعيد المرام
بين وردٍ ونرجس ولّالٍ أخوانٍ وبالحى مُدام

وله فى مثله أيضاً :

فى وجه إنسانة كلّفت بها أربعة ما اجتمعن فى أحدٍ^(٣)
الخدّ ورد والصّدغ غالية ولارىق خمر والثغر من برّدٍ

وله فى مثله أيضاً :

لقد أمسكت من عمر بن يحيى بحبل ما أخاف له ابتئاتا^(٤)
حبّانى فى الحياة ورمّ حالى وأوصى بى أبا حسن وماتا
فـكنت مجاورا للبحر منه فلمّا مات جاورتُ القرّانا

وله فى وزير المهلبى :

لا عذب الله ميتا كان يهشنى فقد لقيت بضرّى مثل مالاقى

(١) التيممة ٣ : ٤

(٢) للتيممة ٣ : ٢٢

(٣) التيممة ٣ : ٣

(٤) التيممة ٣ : ٦

طواه موتٌ طوى عنى مكارمهُ فذقت من بعده بأنقر ماذا^(١)
وقال فيه أيضاً :

مضى ملك عمّ البرية جوده رءوف وإن راع الأسود شفيق^(٢)
سكرتُ بنعماء وجود وزيره فقالت لى الأيام : سوف تذوقُ
وقال رحمه الله أيضاً :

لقد كان الشباب فكان غصاً له ثمرٌ وأوراق تظللُك^(٣)
وكان البعض منك فمات فاعلم متى ما مات بعضك مات كلُّك
ويبعد ما بين حاله وقت قوله : جاء الشتاء ... البيتتين . وبين حاله وقت
موت المهلبى، وقد أدرك فاقة، فمثل عما أعدّ للشتوة فقال :

قيل ما أعددت للبر د فقد جاء بشده^(٤)
قلت : دراعة عُرِي تحتها جُبّة رعدة

* * *

قوله : « إذا انقطر عن حاجتنا حبسا » ، فى معنى ذلك أن الحسن بن وهب
تأخر عن ابن الزيات وهو يكتب له ، فاستبطأه فكتب الحسن إليه :

أوجب العذر فى تراخى اللقاء ما ترى بى من هذه الأنوان^(٥)
لست أدري ماذا أقول وأشكوا من سماء تعوقنى عن سماء
غير أنى أدعو على تلك بالشكـل وأدعو لهذه بالبقاء
فسلام الإله أهـديه منى لك غصاً يا سيّد الوزراء
كان لابن عبد ربه فتى يهواه ، فأعلمه أنى راحل غدا ، فلما أصبح عاقه عن

(١) البيتية ٣ : ٢٠ (٢) البيتية ٣ : ٢١ (٣) البيتية ٣ : ٢٤

(٤) البيتية ٣ : ٢٢ (٥) الأغاني ٢٠ : ٥٤ - سابع

(١٧ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

السفر تكأثر المطر ، فأنجلي عن ابن عبد ربه هته ، وكتب إليه :

هلاً ابتكرت لبين أنت مبتكرٌ هيات يأتي عليك الله والقدر^(١)
مازأت أبكي حذار البين ملتهباً حتى رثا لي فيك الريح والمطر
يا برّده من حيا مزنٍ على كبدٍ نيرانها بغليل الشوق تستمر
آليت ألا أرى شمساً ولا قرأ حتى أراك ، فأنت الشمس والقمر

وعدا بن رشيقي محبوبه الصائغ أن يكون عنده يوم عيد فصلّي وارقبه ،
فإذا بالسما قد أرعدت وأبرقت ، فكتب إليه :

تجهم العيد وانهلت مدامعه وكنت أعهد منه البشر والضحكا^(٢)
كأنه جاء يطوى الأرض من بعدٍ شوقاً إليك فلما لم يجدك بكى
وكتب السلاحي إلى أصحابه والمطر قد قطعه عنهم :

قطعتكم برغم المجد شهراً أشدُّ على من شهر الصيام^(٣)
وكيف أزوركم والزن تبكي على داري بأربعة سجام
وكانت منزلاً طلق الحيا فصارت وادياً صعب المرام
تهافت ركع الجدران فيها سجوداً للرعود بلا إمام
أنادى كلما ارتفعت سحب فأبكتنا البوارق بابتسام
حوالينا بذاك ولا علينا كفانا الله شرك من غمام

كن ، أي بيت . كيس : وعاء الدراهم . كانون : حيث تجعل النار فيه .
طلا : خمر . كباب : لحم يشرح ويشوى ، وكتبته : فعلت ذلك به ، وقيل :
انكباب قطع السكرش تلوى عليها المصارين ، وأراد بها هاهنا شواء اللحم .
والكس : اسم فرج المرأة وليس بعربي ، قال الفنجديهي رحمه الله تعالى : سمعت

(١) معجم الأدباء ٤ : ٢١٥ (٢) نقله في التنف ٥٦ (٣) القيمة ٢ : ٣٩٤

بعض الفضلاء يقول : كتب ابن سكرة في يوم مطر إلى صديق له :

يوم مطير وعندي من خواطره سبعٌ إذا القطر عن حاجاتنا حُبسا^(١)
حروف كافاتها فيها مقومة إذا تلاها الفتى ذو اللب أو درسا
لنَّ وكيس وكانون وكأس طِلا مع الكباب وكُسْ ناعم وكِسا
فلو مطرت البحار الدهر لم ترني أقول : أحسن هذا اليوم بي وأسا

وزاد ابن مسعود عليه كافا ثامنة فقال :

وكم ليلة في شهر كانون بثها أعانق من حبي بها الدَّعص والغُصنا
سمعت من الكافات فيها ثمانيا فاشتت من مرأى أتيق حوى الحسنا
كبابا وكيزانا وكيسا وكاعبا كساء وكوباو الكوانين والكسا

كانقصه الأمير تميم بن المعز السابعة ، قال :

إذا هبَّ سلطان المريسى ضاحكا سُجِّيراً وحلَّ القرب كلَّ نقاب^(٢)
وَزَرَ على الأرض الغمام ثيابهُ ققم والقه في عُدَّة وحرابِ
بكينَ وكانون وكأس مدامة وكيس وكُسِّ وافِرٍ وكباب

نقلت أبيات ابن مسعود من شرح شيخنا ابن اللبان ، قال : ولما جمعنا في أيام الشتاء ما جمعنا من الكافات ، قلت في ضدها من الحرَّيتين ، جمعت فيهما من الراءات ثمانية وهي :

عندي فديتك راءات ثمانية ألقى بها الحرَّانَ وآفَى وإن بردا
رَقَّ ورُوح ورَيْنحان وربق رشاً ورفرف ورياض ناعم وردا
جلباب : ثوب يلبس على الثياب . اكتف : اقتنع . وعيت : حفظت .
انكفي : ارجع إلى موضعتك . طول : مدة . والله تعالى أعلم .

(١) ابن خلكان ١ : ٥٢٧ . (٢) ديوان تميم ٥١ والمريسى ربيع جنوبية .

المقامة السادسة والعشرون وتعرف بالرقطاء

حدث الحارث بن همام قال : حَلَلْتُ سُوقَ الْأَهْوَازِ ، لَابِسًا حُلَّةَ الْإِعْوَازِ ، فَلَبِثْتُ فِيهَا مُدَّةً ، أَكْبَدُ شِدَّةً ، وَأُزْجَى أَيَّامًا مُسْوَدَّةً ، إِلَى أَنْ رَأَيْتُ تَمَادِيَ الْمَقَامِ ، مِنْ عَوَادِيِ الْإِنْتِقَامِ ، فَرَمَقْتُهَا بِعَيْنِ الْقَالِي ، وَفَارَقْتُهَا مَفَارِقَةَ الظَّلِيلِ الْبَالِي . فَظَعَنْتُ عَنْ وَشَلِّهَا كَمِشَ الْإِزَارِ ، رَكُضًا إِلَى الْمِيَامِ الْغِزَارِ ؛ حَتَّى إِذَا سِرْتُ مِنْهَا مَرَّحَلَتَيْنِ ، وَبَعُدْتُ سُرَى لَيْلَتَيْنِ ، تَرَأَيْتُ لِي خِيْمَةً مَضْرُوبَةً ، وَنَارَ مَشْبُوبَةٍ ، فَقُلْتُ : آتِيَهُمَا لَعَلِّي أَنْقَعُ صَدَى ، أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى .

* * *

حَلَلْتُ : نَزَلْتُ . الْأَهْوَازِ : مَدِينَةٌ وَاسِعَةٌ لَهَا سَبْعُ كُورٍ بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَفَارَسَ ، قَالَ الرَّشَاطِيُّ : الْأَهْوَازِ : مُتَّصِلَةٌ بِالْجَبَلِ وَأَصْبَهَانَ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْأَهْوَازَ بَلَدٌ مَنْ سَكَنَ قَصْبَتَهُ ، ضَعُفَ عَقْلُهُ وَلَزِمَتْهُ الْحَمَى .

حُلَّةُ الْإِعْوَازِ : ثَوْبُ الْفَقْرِ ، وَالْحُلَّةُ إِزَارٌ وَرْدَاءٌ ، وَلَا يُقَالُ لَثَوْبٍ وَاحِدٍ : حُلَّةٌ . لَبِثْتُ : أَقْبْتُ . أَكْبَدُ : أَقَامِي . أَزْجَى : أَسْوَقُ . مُسْوَدَّةٌ : شِدَادُ مَشْوُومَةٍ . تَمَادَى : دَوَامٌ وَطَوَّلَ . الْمَقَامُ : الْإِقَامَةُ . عَوَادِيِ : جَمْعُ عَادِيَةٍ ، مِنَ الْعُدَّانِ وَهُوَ الظُّلْمُ . وَالْإِنْتِقَامُ : الْعَذَابُ وَالنَّكَايَةُ . رَمَقْتُهَا : نَظَرْتُهَا . الْقَالِي : الْبَغِيضُ . الظَّلِيلُ : مَا شَخِصَ مِنْ آثَارِ الدَّارِ . ظَعَنْتُ : ارْتَحَلْتُ . وَشَلَّهَا : مَاؤُهَا الْقَلِيلُ .

كميش: مشمرٌ، وانكس في طلب حاجته: أمرع فيها، والإزار واللنز: ما يلبس عرساً من السراويل، ولا تعرف العرب السراويل، ووجدها أعرابي فظنها قميصاً، فأدخل يديه من على ساقها، والتمس من أين يخرج رأسه فلم يجد، فرمى بها، وقال: هذا قميص الشيطان.

قوله: راكضاً، أى جارياً، وهمزة ماء مبدلة من هاء «مياه». الفزار: الكثير. سرى ليلتين، أى سرت مقدار ما يسار فيه ليلتين. تراءت: ظهرت. مشبوبة: موقودة. أنقع صدى: أروى عطشا. أجد على النار هدى، أى أجد عليها من يرشدني إلى الطريق

* * *

فلما انتهيتُ إلى ظلِّ الخيمة، رأيتُ غلامَةً رُوقَةً، وشارَةً
مرْمُوقَةً، وشيخاً عليه بزةٌ سَنِيَّةٌ، ولَدَيهِ فَاكِهَةٌ جَنِيَّةٌ. فَحَيَّيْتُهُ
ثُمَّ تَحَامَيْتُهُ. فَضَحِكَ إِلَيَّ، وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيَّ، وَقَالَ: أَلَا تَجْلِسُ
إِلَى مَنْ تَرُوقُ فَاكِهَتُهُ، وَتَشُوقُ مُفَاكِهَتَهُ! فَجَلَسْتُ لِإِغْتِنَامِ
مُحَاضَرَتِهِ، لَا لِاتِّهَامِ مَا بِحَضَرَتِهِ، فَخِنَ سَفَرَ عَنْ آدَابِهِ، وَكَشَرَ
عَنْ أُنْيَابِهِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ بِحُسْنِ مُلَاحِظِهِ، وَقُبُحِ قَلْبِهِ.
فَتَعَارَفْنَا حِينَئِذٍ، وَحَفَّتْ بِي فَرَحَتَانِ سَاعَتُذٍ، وَلَمْ أَذَرِ بَأَيِّمَا
أَنَا أَضْفَى فَرَحًا، وَأَوْفَى مَرَحًا! أَيَسْفَارُهُ، مِنْ دُجْنَةِ أَسْفَارِهِ،
أَمْ بِخِصْبِ رِحَالِهِ، بَعْدَ إِحْمَالِهِ.

* * *

رُوقَة: حسنا، وغلّام رُوقَة، إذا أعجبك، وغلّمان رُوقَة، الواحد والجمع
سواء، وقيل: رُوقَة لفظ مفرد والجمع رُوق، والهاء للبالغة. شارَة: هيئة حسنة

يُشار إليها . مرموقة : محبوبة . بَزَّة سنية ثياب حسان ، والبَزَّة والبَزَّ أفضل الثياب . جَنِيَّة : طرية كما اجتنيت . حَيَّيْتُهُ : سلَّمت عليه . تحاميته : تباعدت عنه . تروق : تعجب . تشوق : تشوق وتدعو إلى الطرب . مفاكهته : ممازحته ، وفاكهته : حدِّثته بما يعجب . التهام : ابتلاع . سَفَر : كشف وبين أنه من أهل الأدب . كَشَرَ عن أنيابه : كشف عن أسنانه عند الضحك . مَلَّحه : مَلَّحه : كلامه . قَلَّحه : صفرة أسنانه . تعارفنا : عرَّفته من أنا وعرفني من هو . حَفَّت : أحاطت . والمرح : شدة الفرح ؛ وأوفى مرحاً ، أى أكل طرباً ونشاطاً . إسفاره : طلوعه وإضاءته . دجنة : سواد وظلام . أسفاره : جمع سفر . رحاله : أوقاره ، يصف كثرة ماله ، وأنه إذا نزل منزلاً أخصب بكثرة أحماله . إحاله : جذبته .

* * *

وَتَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى أَنْ أَفْضَ خَتَمَ سِرِّهِ ، وَأَبْطُنَ دَاعِيَةَ
يُسْرِهِ ، فَقَامَتْ لَهُ : مِنْ أَيْنَ إِيَابُكَ ، وَإِلَى أَيْنَ انْسِيَابُكَ ، وَبِمَ
امْتَلَأْتَ عِيَابُكَ ؟ فَقَالَ : أَمَّا الْمَقْدَمُ فَمِنْ طُوسَ ، وَأَمَّا الْمَقْصَدُ فإِلَى
السُّوسِ . وَأَمَّا الْجِدَّةُ الَّتِي أَصْبَبْتُهَا ، فَمِنْ رِسَالَةٍ اقْتَضَيْتُهَا . فَسَأَلْتُهُ
أَنْ يَفْرُشَنِي دِخْلَتَهُ ، وَيَسْرُدَ عَلَيَّ رِسَالَتَهُ ، فَقَالَ : دُونَ مَرَامِكَ
حَرْبُ الْبَسُوسِ ، أَوْ تَصْحَبَنِي إِلَى السُّوسِ . فَصَاحَبْتُهُ إِلَيْهَا قَهْرًا ،
وَعَكَفْتُ عَلَيْهِ بِهَا شَهْرًا ، وَهُوَ يَعْلَمُنِي كَاسَاتِ التَّعْلِيلِ ، وَيَجِرُّنِي
أَعْنَةَ التَّأْمِيلِ .

* * *

تَأَقَّتْ : اشتاقت . أَفْضَ : أكرم . خَتَمَ : ربط وشد . أَبْطُنَ : أعرف
باطنه . يُسْرُهُ : غناه . إِيَابُكَ : رجوعك . انْسِيَابُكَ : ذهابك . عِيَابُكَ :
أوعية متاعك .

طوس : مدينة منها إلى نيسابور مرحلتان ، قال اليعقوبى : مدينة طوس العظمى ، يقال لها لوبان ، وبها قبر الرشيد ، وبها توفى الرضا على بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، وهى من ثغور الجبال المتصلة بخراسان ، ومجاورتها أيضاً مدينة أصبهان ، وهى عظيمة .

وأما السوس ، فمدينة بأرض فارس ، تعمل بها الثياب السوسية من الخز ، قال الرشادى : السوس من كور الأهواز ، والسوس فى بلاد الغرب ، وذكر الجاحظ أن من طنجة إليها عشرين يوما .

وسوسة من بلاد إفريقية على البحر ، تُصنع بها ثياب رفّاع ، والسوس اسم مشترك ، والذي قصده الحريرى منهما الأولى .

الجلدة : الفنى . اقتضبتها : ارتجلتها . يُفْرِشْنى دخلته : يسطل بطن أمره ، وأفرشتك حديثى : بسطته لك وبينته . يسرد : يقرأ . مرامك : مطلبك . وتقدّمت حرب البسوس فى التاسعة عشرة .

عكفت : أفتت . يعانى : يسقى مرّة بعد مرّة ، والتعليل أن يطعمك فى قضاء حاجتك فإذا تقاضيته أظهر لك عللاً وعوائق ثم يَمْنِيكَ ، فتمى ما جئته اعتلّ لك بعلّة مانعة من قضاء حوائجك .

يجرّنى : يعلقها بى ويجعلنى أجرتها . أعنة : جمع عنان . التأميل : مصدر أمّله ، إذا رجاه وحقق له أمّله .

* * *

حَتَّى إِذَا حَرَجَ صَدْرِى ، وَعَمِلَ صَبْرى قُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَكَ عِلَّةٌ ، وَلَا لى فى الْمَقَامِ تَعِلَّةٌ ، وَفى غَدٍ أَزْجُرُ غُرَابَ الْبَيْنِ ، وَأَرْحَلُ عَنْكَ بِخُفَى حُنَيْنٍ ، فَقَالَ : حَاشَ لِلّهِ أَنْ أَخْلِفَكَ ، أَوْ أَخَالَفَكَ ؛ وَمَا أَرْجَأْتُ أَنْ أَحْدَثَكَ إِلَّا لِالْبَيْتِكَ . وَإِذَا كُنْتَ قَدِ امْتَرَبْتَ

بِعِدَّتِي ، وَأَغْرَاكَ ظَنُّ الشُّوءِ بِمَاعِدَتِي ، فَأَصِخْ لِقَصَصِ سِيرَتِي
الْمُتَدَّةِ ، وَأَصِفْهَا إِلَى أَخْبَارِ الْفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَّةِ .

فَقُلْتُ لَهَا : هَاتِ فَمَا أَطْوَلَ طِيلَكَ ، وَأَهْوَلَ حِيلَكَ . فَقَالَ :
اعْلَمْ أَنَّ الدَّهْرَ الْعَبُوسَ ، أَلْقَانِي إِلَى طُوسٍ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ فَقِيرٌ
وَقَبِيرٌ ، لَا قَيْلَ بِهَا وَلَا تَقِيرَ ، فَأَجَانِي صَفْرُ الْيَدَيْنِ ، إِلَى التَّطَوُّقِ
بِالدَّيْنِ ، فَادَّنتُ لِسُوءِ الْإِتْفَاقِ ، مِمَّنْ هُوَ عَسِيرُ الْأَخْلَاقِ ، وَتَوَهَّمتُ
تَسْنَى التَّفَاقِ ، فَتَوَسَّعتُ فِي الْإِنْفَاقِ ، فَمَا أَفْقَتُ حَتَّى بَهَظَنِي دَيْنٌ
لَزِمَنِي حَقُّهُ ، وَلَا زَمَنِي مُسْتَحَقُّهُ ، فَحِرَّتْ فِي أَمْرِي ، وَأَاطَلَمْتُ غَرِيبي
عَلَى عُسْرِي .

* * *

حَرَجَ صَدْرُهُ ، إِذَا ضَاقَ . عِيلَ : غَلَبَ ، وَعَالَى الْأَمْرَ بَعُولَى عَوْلًا : غَلَبَنِي .
وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَائِلَةً ﴾ أَيْ خِصْلَةً تَعُولُكُمْ وَتَقْلِبُكُمْ .
تَعْلَةٌ : مَا تَبْدِيهِ مِنَ الْعِلَلِ فِي اعْتِذَارِكَ لِمَنْ يَتَقَاضَاكَ ، وَفِي غَدٍّ أَزْجَرَ غَرَابِ الْبَيْنِ ،
أَيْ التَّفَاوُلَ بِهِ لِفِرَاقِكَ ، وَإِنَّمَا يَنْسَبُونَ الْفِرَاقَ لِلْغَرَابِ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا ارْتَحَلُوا عَنْ
مَوْضِعٍ اجْتَمَعَتِ الْغُرَبَانُ فِيهِ يَلْتَقِطْنَ مَا تَرَكَوْا مِنْ بَقَايَا طَعَامِهِمْ وَزَبَلِ دَوَابِهِمْ ،
وَإِذَا أَخَذُوا فِي هَذْمِ الْبُيُوتِ لِلرَّحِيلِ وَأَبْصَرَهُمُ الْغَرَابُ صَاحَ رَغْبَةً فِيمَا يَلْتَقِطُ ،
فَيَقُولُونَ عِنْدَ ذَلِكَ : نَعَقَ غَرَابِ الْبَيْنِ ، فَصَارُوا يَتَشَاءُمُونَ بِهِ ، وَزَجَرَ الطَّيْرُ
يَذْكُرُ فِي الثَّامِنَةِ وَالثَّلَاثِينَ . قَالَ الْعَرَبِيُّ فِي صَدَقِ التَّفَاوُلَ بِالْغَرَابِ :

نَبِيٌّ مِنَ الْغُرَبَانِ لَيْسَ عَلَى شَرِّعٍ يَخْبِرُنَا أَنَّ الشُّعُوبَ عَلَى صَدْعٍ ^(١)
أُصْدَقَهُ فِي مِرْيَةٍ وَقَدْ اِمْتَرَتْ صَحَابَةُ مُوسَى بَعْدَ آيَاتِهِ التَّسْعِ

(١) ثَمْرُوح سَقَطَ الزُّنْدُ ١٣٣٢ . وَالشُّعُوبُ : الْقَبَائِلُ .

كَانَ بَفِيهِ كَاهِنًا أَوْ مَنْجَمًا يَخْبِرُنَا عَمَّا لَقِينَا مِنَ الْفَجَعِ
وَمَا كَانَ أَفْعَى أَهْلِ نَجْرَانَ مِثْلَهُ وَلَا كَانَ لِلْإِنْسِ الْفَضِيلَةُ فِي السَّمْعِ^(١)
أَتَى وَهُوَ طَيَّارُ الْجَنَاحِ وَإِنْ مَشَى أَشَاحَ بِمَا عَمِيَا سَطِيحًا مِنَ السَّجْعِ^(٢)

قوله : أخلفك ، أ كذب وعدك . أ رجأت : أخرت . لأثبتك : لأثبتك
وأجعلك تقيم معي . استربت : تشككت ، وداخلتك الريبة . أغراك : حرّضك
وألصقت . أصيخ : أسمع : قصص : خير وحديث . سيرتي : عادتي . أضفها :
ضمها . وأخبار الفرج بعد الشدة أن ينزل بالإنسان شدة فيشرف منها على الهلاك
ثم ينزل الله تعالى تفرجها ، فالحديث بها يسمى خبر الفرج بعد الشدة .

[قصص في الفرج بعد الشدة]

ومنها ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه ، قال : كان رجلٌ على عهد
النبي صلى الله عليه وسلم يتجبر من بلام الشام إلى المدينة ، ولا يصحب القوافل
توكلًا منه على الله تعالى ، فبينما هو جاء من الشام عرض له لصٌ على فرس ،
فصاح بالتاجر : قِفْ ، فوقف التاجر ، وقال له : شأنك بمالي ، فقال له اللص :
المال مالي ، وإنما أريد نفسك ، فقال له : أنظرني حتى أصلي ، قال : افعل ما بدا
لك . فصلّى أربع ركعات ورنع رأسه إلى السماء يقول : ياودود ياودود ، إذا العرش
الجيد ، يا مبدىء يا معيد ، يا قتلًا لما يريد ، أسألك بنور وجهك الذي ملأ
أركان عرشك ، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على جميع خلقك ، وأسألك
برحمتك التي وسعت كل شيء ، لا إله إلا أنت يا مغيث أغثني ، ثلاث مرات .
وإذا بفارس بيده حربة ، فلما نظره اللص ترك التاجر ومضى نحوه ، فلما دنا منه

(١) أفعى أهل نجران : كاهن منهم . ونجران أقدم بلاد اليمن ، وكانت لها كعبة تحج فغربت

(٢) سطيح كاهن ، والكهان : معروفون بالسجم .

طعنه ، فأذراه عن فرسه ثم قتله ، وقال للتاجر : اعلم أنى ملك من السماء الثالثة ، لما دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقة قلنا: أمرٌ حدث ، ثم دعوت الثانية ، ففتحت أبواب السماء ولها شرر ، ثم دعوت الثالثة ، فهبط جبريل عليه السلام ينادى : مَنْ لهذا المكروب ؟ فدعوت الله أن يوليئني قتله . واعلم يا عبد الله أن مَنْ دعا بدعائك في كل شدة أغاثه الله ، وفرج عنه . ثم جاء التاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر ، فقال : لقد لقنك الله أسماءه الحسنى التي إذا دُعِيَ بها أجاب ، وإذا سُئِلَ بها أُعْطِيَ .

وقال عمرو السرايا : كنت أعبرُ في بلاد الروم وحدي ، فبينما أنا نائم إذ ورد عليّ علج فخر كني ، ثم قال : يا أعرابي ، اختر إما مسابقة ، وإما مطاعنة ، أو مصارعة ! فقلت : للمسابقة والمطاعنة لامي ، وللمكن المصارعة ، فلم ينهني أن صرعى وقعد على صدرى ، وقال : أى قتلة تريد أن أقتلك ، فذكرت الدعاء ورفعت رأسى إلى السماء ، وقلت : أشهد أن كل معبود مادون عرشك إلى منتهى الأرضين باطل ، عز وجل الكرم ؛ فقد ترى ما نزل بى . وأغمى عليّ ، فأقتت والرومى قتيل إلى جانبي ، فقامت ، وكنت أعلم الناس هذا الدعاء .

ووجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ، فأطلق أهل سجون الحجاج وضيق على يزيد بن أبي مسلم كاتبه . فظفر به يزيد لما ولى إفريقية ، فجعل محمد يقول : اللهم احفظ لى إطلاق الأسرى ، وإعطاء الفقراء ، فلما دنا يزيد منه وفى يده عنقود ، قال : يا محمد ما زلت أسأل الله أن يُظفرنى بك . فقال له محمد : وما زلت أستجير الله منك ، قال : فوالله ما أبارك ولا أعاذك منى . ووالله لأقتلنك قبل أن آكل هذه الحبة من العنب ؛ ووالله لو رأيت ملكا

يريد قبض روحك اسبقته إليها . وأقيمت الصلاة فوضع حبة العنب بين يديه ،
وتقدّم فصلّى بهم ، وكان أهل إفريقية اجتمعوا على قتل يزيد ، فلما ركع ضربه
رجل بمود حديد فقتله ، وقال للمحمد: اذهب حيث شئت .

وقال حماد الراوية : كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك ، وكان أخوه
هشام يحفوني في أيامه لذلك ، فلما مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ،
فكنت في بيتي سنة ؛ لا أخرج إلا لمن آمن إليه من إخواني سرّاً . فلما لم أسمع
أحدًا يذكرني في السنة أمنت فخرجت ، وصليت الجمعة في الرصافة ، فإذا شرطيان
قد وقفا عليّ ، وقالا : يا حماد ، أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت في نفسي :
من هذا كنت أخاف ، ثم قلت للشرطيين : هل لسكما أن تدعاني حتى آتي
أهلي فأودعهم وداع من لا يرجع إليهم أبداً ، ثم أسير معكما إليه؟ فقال : ما إلى
ذلك من سبيل ، فاستسلمت في أيديهما ، ومرت إلى يوسف بن عمر وهو في
الإبوان الأحمر ، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ورمى إلى كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر . أما بعد
فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير تروّع ولا تمتع ،
وادفع إليه خمسمائة دينار وجلاً مهريّاً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق ، فأخذت
الدنانير وجعلت رجلي في غرّز جلّ أعدّه لي ، ووافيت دمشق لاثنتي عشرة ليلة .
واستأذنت على هشام ، فأذن لي ، فدخلت عليه فوراً في دار مفروشة بالرخام ،
وبين كلّ رخامتين قضيب من ذهب ، وهو جالس على طنفسة حمراء ، وعائنه
ثياب حمراء من الخزّ ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ السلام
واستدانني فدنوت منه ، حتى قبلت رجله ، فإذا جاريّتان لم أر مثلهما قط ، في
أذني كلّ واحدة منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان ثوقدان ، فقال : كيف أنت
يا حماد وكيف حالك ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : أتدرى فيم بعثت
إليك ؟ قلت : لا ، قال : في بيت خطر ببالي لم أدر من قائله ، قلت : وما هو ؟ قال :

وَدَعَوْا بِالصُّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
فَقُلْتُ : هُوَ لَعْدِي بَن زَيْدٍ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ ، قَالَ : أَنْشَدْنِيهَا فَأَنْشَدْتُهُ :

بَكَرَ الْمَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبْحِ يَقُولُونَ لِي : أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَيُلُومُونَ فِيكَ يَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَدْرِي إِذَا كَثُرَ وَالْمَذَلُ فِيهَا أَعْدَوْ كَيْلُومِي أَمْ صَدِيقُ !

حتى انتهيت إلى قوله :

ودعوا بالصُّبُوحِ يَوْمًا . . . البيت

قَدَمْتُهُ عَلَى سُلَافٍ كَمِينِ الدَّيْكَ صَفَّى سَلَا فَهَا الرَّأْوُوقُ^(١)
مُرَّةٌ قَبْلَ مَزْجِهَا فَإِذَا مَا مُزِجَتْ لَدَّ طَعْمِهَا مَنْ يَذُوقُ
وَطَافًا فَوْقَهَا قَفَاقِيعُ كَالِيَا قُوتُ حَمَرٍ يَزِينُهَا التَّصْفِيقُ^(٢)
ثُمَّ كَانَتْ الْمَزَاجُ مَاءِ سَحَابٍ لَا صِرَى آجِنٌ وَلَا مَطْرُوقُ^(٣)

قال : فطرب ، ثم قال لي : أَحَسَنْتَ وَاللَّهِ يَا حِمَادُ ! ثُمَّ قَالَ لِإِحْدَى الْجَارِيَتَيْنِ :
اسْقِيهِ ، فَسَقَتْنِي شَرْبَةً ذَهَبَتْ بَثْثُ عَقْلِي ، ثُمَّ قَالَ : أَعَدَّهُ فَأَعَدْتُهُ ، عَلَيْهِ ، فَاسْتَنْخَفَهُ
الطَّرِبُ حَتَّى نَزَلَ عَنْ فَرْشِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِلْأُخْرَى : اسْقِيهِ ، فَسَقَتْنِي شَرْبَةً فَذَهَبَ
ثَلَاثُ آخِرٍ مِنْ عَقْلِي ، ثُمَّ قَالَ : سَلْ حَاجَتَكَ ، فَقُلْتُ : لِإِحْدَى الْجَارِيَتَيْنِ ، فَقَالَ :
هَاجِمِيَّامًا لَكَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْأُولَى اسْقِيهِ ، فَسَقَتْنِي شَرْبَةً سَقَطَتْ مِنْهَا فِلْمٌ أَفْقَى إِلَّا
وَالْجَارِيَتَانِ عِنْدَ رَأْسِي وَعِشْرَةٌ مِنَ الْخُدَمِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ بَدْرَةٌ ، فَقِيلَ لِي يَقُولُ :
لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : انْتَفِعْ بِهَذَا فِي سَفَرِكَ ، فَأَخَذْتُهَا وَالْجَارِيَتَيْنِ وَعَاوَدْتُ أَهْلِي .

(١) الرَّأْوُوقُ : الصَّفَاةُ وَنَاجِدُ الشَّرَابِ الَّذِي يَرُوقُ فِيهِ . وَالنَّاجِدُ : الرِّعَاءُ .

(٢) التَّصْفِيقُ : الْمَزْجُ .

(٣) الصِّرَى : الْمَاءُ الَّذِي طَالَ اسْتِنْقَاعُهُ . وَالْآجِنُ : التَّغْيِيرُ طَعْمُهُ . وَالْمَطْرُوقُ : مَاءٌ يَخْضُ

فِيهِ النَّاسُ وَغَيْرُهُمْ .

وذكر أبو محمد هذه الحكاية في الدرّة^(١) وقال : هذه حكاية تنشر ما أثر
الأجواد ، وترغب المتأدب في الازدياد . وهذه النبذة دالة على أخبار الفرج بعد
الشدة فلنقتصر عليها .

* * *

قوله : ما أطول طيلك ، أى ما أكثر حيلتك . يقال ذلك للكثير الدهاء
والتصرّف ، والطَّيْل : الحبل . أهول : أخوف وأغرب وقيّر : إبتاع لفقير ،
وفائدة الإبتاع المبالغة في معنى الأوّل ، وذلك أنك تقول : فلان فقير فيكون له
الشيء اليسير من المال ، فإذا قلت : وقيّر ، فليس له شيء البتة . وقيل : معنى
وقيّر مثقل بالدين موقرّ به ، والإبتاع قصد لأنه فسرّه بقوله : لا فتيل لى ولا نقير ،
كأنّ إنسانا توهم أن له شيئا فذكر وقيرا لنفسه ، ثم زاده بيانا بما بعده ، ولأنه
ذكر استئناف الدين بعد ذلك .

ويكون الوقيّر أيضا من الوقّر في العظم ، وهو الكسر كأنه مكسور
العظم ، كما أن الفقير أصله المكسور الفقار . والفتيل : الخيط الذى فى شَوْءٍ
النواة مثل الفتيلة ، والنقيير الفرض الصغير الذى فى ظهرها ، وفيه كالنقطة ومنه
تنبت النخيل ، والقطمير : اللقافة التى عليها ، وهى القشرة اللطيفة .

صفر اليدين : فراغهما من المال . التطوق : لبس الطوق : أراد أنه لبس من
الدين طوقا . أدنت : أخذت الدين ، والاتفاق ، ضد الاختلاف . عسر :
صعب توقّعت : حسبت . تسنى : تيسر . التفّاق ، ضد الكساد . توسّعت :
كثرت . بهظنى : غلبنى وثقل على . حقه : واجبه .

أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن أبواب الرزق مفتوحة
إلى باب العرش فينزل الله تعالى إلى عباده أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن

(١) درة الغواص ١١٠ ، وهى أيضا فى نزهة الألباء ٣٧ ، ٣٨

قَلَّ قَلَّ لَهُ ، وَمِنْ كَثْرَ عَلَيْهِ .

مستحقّه : صاحبه فخرت في أمرى ، أى في همّ الدين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : علمنى جبريل دعاء فى الدين ، وهو أن يصلى إذا زالت الشمس أربع ركعات ، يقرأ فى كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد ، فإذا سلم قرأ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، ثم يقول : يا فارح الهمّ يا كاشف الغمّ ، يا مجيب دعوة المضطرّ يا رحيم الدنيا والآخرة ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن سواك واقض دىنى ؛ فإن الله تعالى يقضى دينه عنه وفيها اسم الله الأعظم .

غريمى : صاحب دىنى ، سُمّيَ غريماً لإدامته التقاضى وإلحاحه وملازمته مَنْ عليه الدين ، ويكون الغريم أيضاً المطلوب بالدين لازم له كما قال الشماخ :
تلوذ ثعالب الشرفيف منها كما لاذ الغريم من التبعيع^(١)
عسرى : قهرى .

* * *

فَلَمْ يُصَدِّقْ إِمْلَاقِي ، وَلَا نَزَعَ عَنِّي إِرْهَاقِي ، بَلْ جَدَّ فِي التَّقَاضِي ، وَلَبَّجَ فِي اقْتِيَادِي إِلَى الْقَاضِي . وَكَلَّمَا خَضَعْتُ لَهُ فِي الْكَلَامِ ، وَاسْتَنْزَلْتُ مِنْهُ رِفْقَ الْكِرَامِ ، وَرَغَبْتُهُ فِي أَنْ يَنْظُرَ لِي بِمَيَاسَرَةٍ ، أَوْ يُنْظِرَنِي إِلَى مَيَسَرَةٍ . قَالَ : لَا تَطْمَعُ فِي الْإِنْظَارِ ،

وَاجْتَبَانِ النَّضَارَ ، فَوَحِّقْ مَا تَرَى مَسَالِكَ الْخِلَاصِ ، أَوْ تَرَيْنِي
 سَبَائِكَ الْخِلَاصِ . فَلَمَّا رَأَيْتُ اخْتِدَادَ لَدِّهِ ، وَأَلَّا مَنَاصَ لِي مِنْ يَدِهِ ،
 شَاغِبْتُهُ ، ثُمَّ وَابَيْتُهُ ، لِيَرَا فَعْنِي إِلَى الْوَالِي الْجَرَائِمَ ، لَا إِلَى الْحَاكِمِ فِي الْمَظَالِمِ ،
 لِمَا كَانَ بَلَّغَنِي مِنْ إِفْضَالِ الْوَالِي وَفَضْلِهِ ، وَتَشَدُّدِ الْقَاضِي وَبُخْلِهِ .
 فَلَمَّا حَضَرَ نَا بَابَ أَمِيرِ طُوسَ ، آنَسْتُ أَلَّا بَأْسَ وَلَا بُوسَ .
 فَاسْتَدْعَيْتَ دَوَاةَ يَبِضَاءَ ، وَأَنْشَأْتُ رِسَالَةً رَقُطَاءَ ؛ وَهِيَ :

* * *

ومثله إملاق ، وأملق . ذهب ماله ، مشتق من اللقات وهي الصخور الملس ،
 كأنه افتقر حتى لم يبق له ما يلبس إلا جلده الأملس . نزع : كفت . إرهاب :
 تكليف مالاً أطيق ، وأرهقته : كلفته مشقة ، والرهق : الظلم . جدّ : عزم واجتهد ،
 التقاضى : طلب المال . لج : عزم وركب رأسه . استنزلت : طلبت . رفق
 الكرام : لطفهم وحنانهم على الفقير . مياسرة : لين ومساهلة . يُنْظَرُنِي : يؤخّرني
 والإنظار الإمهال ، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من أنظر
 معسراً أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

ميسرة : غنى . اجتبان : اختزان ، واحتجنت الشيء : ضمته بالمعجن ،
 وهو عود معقّف . النضار : الذهب . مسالك الخِلاص . طرق النجاة . سبائك :
 فقر وقطع . الخِلاص ، بالكسر : الذهب الخالص . اختداد : اشتداد ، وقد
 احتدّ . لده : خصامه وإلحاحه . مناص : مخلص ومقرّ ، وناص عن قريبه نوصاً
 ومناصاً ، إذا فزع وفرّ ، وما أحسن ما قال العبدى في محمد بن إبراهيم يشكو
 غريماً لازمه :

اقض عني يا بن عمّ المصطفى أنا بالله من الدين وبك

مِنْ غَرِيمٍ فَاحْشٍ قَدْ عَرَّتْنِي أَسْوَدَ الْوَجْهِ لِعَرْضِي مَنْتَهَكٌ
أَنَا وَالظِّلُّ وَهُوَ نَالُثُنَا أَيَّمَا زَلَّتْ مِنَ الْأَرْضِ سَلَاكٌ

شاعبته : شاررته ، أى أوقعت بينى وبينه الشغاب . وائنته : ضاربته ووثبت إليه ، ووثب إلى . والى الجرائم : حاكم الجنايات ، والحاكم فى المظالم : هو القاضى . إفضال : إنعام . فضله : جوده وكرمه . وتشدد : بجّل ، ورجل شديد ومشدّد ، أى بجيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٍ ﴾ ، أى لبخيل من أجل حبه الخير وهو المال ، أو تشدد شدته على من تعين قبله حق . آنتت : علمت وأحسنّت بأس : ضرّ . وبوس : شدة . بيضاء : ورقة يكتب فيها ؛ ولابن الزقاق فيها :

وواضحة كمثل النصل تجرى مع الإبصار كالماء القَرَّاحُ (١)
ترى حُبُّكَ المداد بجسم نورٍ كمخضرة الفرند على الصَّفَّاحِ
كأنّ سواده فى صفحتيّها بقايا الليل فى وَجْهِ الصَّبَّاحِ

رقطاء : فيها حرف منقوط وآخر غير منقوط ، والرقطاء عندهم الدّجاجة المرقشة ، وهى المنقطة بسواد وبياض ، ومنه قيل للنهر أرقط ؛ لأن فيه تنقيطاً خلاف لونه ، ولو شكر اعطيه الدّواة لأنشد هذه الأبيات ، وهى لابن سكرة :

أخ مزجت بروحى روحه وجرى منه كجرى دمي فى الجسم أفديه (٢)
أهدى إلى دواة لو كتبتُ بها دهرى أياديه لم تنفد أياديه

وهذه الرسالة التى أنشأها أبو محمد أبدع فيها بما أراد ، وأغرب بها وأجاد

ونشد من الشعر التّفيس فى مدح الرسائل مايجرى لها كالوصف ، ويسرى بذكرها طيب العرف ، فمن ذلك قول أبى تمام :

مداذٌ مثل خافية الغرابِ وقرطاس كرقراقِ السَّرَابِ^(١)
وألفاظ كإتفاظ المثاني وخطٌ مثل وشم يدِ السَّكَابِ
كتبت ولو قدرت هوًى وشوقاً لكنت إليك سطرّاً في الكتاب

وله في كتاب جاء من الحسن بن وهب :

لقد جلى كتابك كل بثَّ جَوٍّ وأصاب شاكلة الرّمي^(٢)
وكان أغصّ في عيني وأندى على كبدي من الزّهرِ الجنى
وأحسن موقماً منى وعندي من البشرى أنت بعد النّعي
فكائن فيه من معنىٍ خطيرٍ وكائن فيه من لفظٍ بهي
فيا ثلج الفؤاد وكان رضعاً ويا شبعي بروقه وريني
من أبيات كلها عيون، وفيما ذكرنا دليل على ما تركنا .

وقال أبو نواس في كتاب ورد عليه من صديق :

وواردٍ ورد إنشاء يؤكده صدورهُ عن سليم الورد والصّدْرِ
شدّت بتيجانه منه على نزه تقسم الحسن بين السمع والبصر
عذوبة صدرت عن منطقي ينع كالماء يخرج ينبوعاً من الحجر
وروضة من رياض الفكر دبّجها صوب القرائح لا صوب من المطر
كأنما نشرت أيدى الرّبيع بها بُرداً من الوشي أو ثوباً من الحرير
ولابن طاهر في ابن ثوابة :

في كل يوم صدور الكتب صادرة عن رأيه وندى كنفه عن مثلي
عن خط أقلامه خط القضاء على الأعـداء بالموت بين البيض والأتل
لعابها عسل في الصدر تبعته وربما كان فيه النفع للعَلل
كأن أسطارها في بطن مُهرقة نوّز يضاحك دمع الوالكف الخضيل

(١) ورد البيت الأول في ديوان المعاني ٢ : ٨٣ من بيتين نسباً إلى الحسن بن وهب .

(٢) ديوانه ٣٤٤ ، أدب الكتاب ٤٦ .

وقال بعضهم :

كتاب فيه من غُررِ المعاني قلائد لا تنظمها اليَدانِ
إذا نشرت صحائفه تجلَّتْ بروضتها أزهيرُ المعاني
ترود العين منها في مرّادٍ مرّيع جاده فيض البنانِ
كأن مجال عين الفكرِ فيه مجال اللحظ في غُررِ الحسانِ

وقال آخر :

يدير على القرطاس أسمر مرهقاً إذا دار لم تلحق به البيضُ والشُمُرُ
كأنَّ المعاني روضة وهو غيْثُها فمهما سقى أغصانها ضحك الزهْرُ

وقال الرمادى :

قلم الوزير وكفه هذا يصول وذا يطولُ
أضفى كليث خفيّةٍ ودواته لليثِثِ غيلُ

* * *

أخلاقٌ سيِّدنا تحبّ ، وبعقوته يُلبّ ، وقرْبُهُ تُحفّ ، ونأْيُهُ
تَلَفّ ، وخلّته نَسَبْ ، وقطيّعتُهُ نَصَبْ ، وغرْبُهُ ذَلِقْ ، وشُهْبُهُ
تَأْتَلِقْ ، وظلّفهُ زانَ ، وقويمُ نهجِهِ بَانَ ، وزهْنُهُ قَلْبَ وجَرَبَ ،
ونَعْتُهُ شَرَقَ وغَرَبَ

سَيِّدُ قَلْبٍ سَبَقَ مُبِرُّ فِطْنُ مُغْرِبٍ عَزُوفُ عِيُوفُ
مُخْلِفُ مُثْلِفٍ أَغْرُ فَرِيدُ نَابِهٌ فَاضِلٌ ذِكْيُ أَنْوُفُ
مُفْلِقُ إِنْ أَبَانَ ، طَبُّ إِذَا نَا بَ هِيَاجُ وَجَلَّ خَطْبُ نَخُوفُ

* * *

قوله : أخلاق سيدنا تحب ، حسن أخلاق الإنسان من كمال سمادته، وكرم فضيلته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي » مع أن الله عز وجل يقول فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ .
 قوله : وبمقوته يلَبّ ، أى بمنزله يقام لحماية الممدوح من يلوذ به وإكرامه له .
 وقربه تحف ، أى من قرب منه أتخفه وهاداه ، ومن بُعد منه فقد الأمن فهلك .
 والنأى : البعد ، ولما كان القرب سبباً للتحف والنأى سبباً للتلف ، جعل نفس تقرب والبعد هما الحياة والموت . خلّته : صداقته . نسب ، أى هو للصديق بمنزلة النسيب ، قيل لبزُر جُمَهر : مَنْ أَحَبَّ إِلَيْكَ : أخوك أم صديقك ؟ فقال : لأحبّ أخى إلا إذا كان صديقى . وقال أكرم بن صيفى : القرابة تحتاج إلى مودة ، ونودة لا تحتاج إلى قرابة . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : القرابة قد تقطع ، والمعروف قد يكفر ، وما رأيت كتقارب القلوب ، أخذه ابن منذر فقال :
 قَدْ يُقَطَّعُ الرَّحِمُ الْقَرِيبُ وَتُسْكَفَرُ النَّعْمَى وَلَا كَتَقَارِبِ الْقَلْبَيْنِ^(١)
 يُدْنِي الْهَوَىٰ هَذَا ، وَيَدْنِي ذَا هَوَىٰ فَإِذَا هَا نَفْسٌ تَرَىٰ نَفْسَيْنِ
 أخذه أبو تمام فحسّنه فقال :

فَإِنَّ الْفَتَىٰ فِي كُلِّ حَالٍ مِّنَاسِبٌ مِّنَاسِبٌ رُّوحَانِيَّةٌ مِّنْ يَشَاكُلُ^(٢)
 وَلَنْ تَنْظُمَ الْعِقْدَ الْكَعَابُ لَزِينَةٍ كَمَا تَنْظُمُ الشَّمْلَ الْأَشْتَّ الشَّمَائِلُ^(٣)
 وقد تقدّم حديث : الأرواح جنود مجنّدة ، ونظم الحسن له .

وقال الشاعر :

لَاخِرَ فِي قَرْبَىٰ بِغَيْرِ مَوْدَةٍ وَلِرُبِّ مُنْتَفِعٍ بَوْدٍ أَبَاعِدِ

(١) الأغاني ١٧ : ٢٦ - ساسى

(٢) ديوانه ٢٥٦ ، وفيه : « فى كل ضرب مناسب » .

(٣) الديوان : « الشئيت » .

وإذا وجدت من البعيد مودّةً فامدّدْ له كفّ القبول بساعِدِ

قوله : وقطيعة نصب ، أى عداوته همّ وتعب ، وقد قال أبو تمام :

وإلا فأعلمه بأنك ساخطٌ ودعه فإن الخوف لاشك قاتله^(١)

غربه : أى حدة . ذلق ، أى حاد . شبهه : نجومه ، يعنى أخلاقه ومكارمه تأتلق : تضىء . وظلّفه : منعه وكفه ، وظلّفت نفسى عن الشيء : منعتهامنه .
زان : يزين ، يقول : إن قمع من تجاوز قدره ومنعه من سأل ما لا يحب زُين بالمنوع ، وشرّف بالمقموع ، فتأديب الملوك لآعابه ، وإنما العار أن يهينك كفؤك ، ومن لا حكم له عليك . وقال المتنبي :

ومن شرف الإقدام أنك فيهم على القتل موموق كأنك شاكد^(٢)
وإنّ دما أجريته بك فاخرٌ وإنّ فؤادا رُعته لك حامدٌ
وقال حبيب :

خضعوا لصولتك التى هى عندهم كاللوت يأتى ليس فيه عار^(٣)
وقال آخر :

وإنّ أمير المؤمنين وعثبه ككالدهرٍ لآعارٍ بما فعل الدهر^(٤)

وإذا تزين بمنعه ، فما ظنك بمطائه! على أن اليد القابلة للجدوى ، وهى اليد السفلى ، لاتنفك عن حشمة أو ذلة ، وقد اعتذروا لهذا المعنى ، قال أبو تمام :

رأيتُ رجائى فيك وحدك همة ولكنّه فى سائر الناس مطمع^(٥)

(١) ديوانه ٢٣٢ .

(٢) ديوانه ١ : ٢٧٦ . موموق : محبوب . والشاكد : المعطى .

(٣) ديوانه ١٤٦

(٤) البيت فى شرح العكبرى ٢ : ١١٣ ، بسون نسبة

(٥) ديوانه ١٩٢

وقال أيضاً :

تُدْعَى عطاياه وَفراً وهي إن شهرتُ كانت فخاراً لمن يعروه مؤثماً^(١)
مازلت منتظراً أعجوبة زمناً حتى رأيت نوالاً يقتضي شرفاً

وقال إبراهيم بن العباس :

إذا طمع يوماً عرائي منحتهُ كتائب يأس كثرها وطرادها^(٢)
سوى طمع يدني إليك فإنه يبلغ أسباب العلا من أرادها

وقال الخريجي :

عطاؤك زين لامرئٍ إن أصبته بخير وما كلّ العطاء يزين^(٣)
وليس بعار لامرئٍ بذل وجهه إليك كما بعضُ السؤال يشينُ

وقال أبو الطيب :

وفيضُ نواله شرفٌ وزينُ وفيضُ نوال بعض الناس ذمٌ

وقال ابن أبي خالد :

شرف للشرif منك نوال رُبَّ نيل تَعافهُ الأحرارُ

فزاد بقوله : للشرif على من سبق .

قوله: قويم نهجه، أى مستقيم طريقه . بان تبين . قلب: بحث . شرق وغرب: أى مشى بوصفه المادحون شرقاً وغرباً، وأنشد المتنبي وزاد فيه معنى :

ستحيا بك السّمار ملاح كوكبٌ وتحمدو بك السفار ماذر شارق^(٤)

(١) ديوانه ٢٠١ (٢) ديوانه ١٨٣ .

(٣) البيتان في ديوان أُمّية بن أبي الصلت ٦٣ .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٤٨ ، وفي ترتيبه ؛ الثانى قبل الأول .

تَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا لِيُنْسَى فَمَا خَلَّتْ مَغَارِبُهَا مِنْ ذِكْرِهِ وَالْمَشَارِقُ

قَلْبٌ : دَرْبٌ بِالْأُمُورِ ، وَفُلَانٌ حَوْلَ قَلْبٍ ، إِذَا كَانَ مُتَصَرِّفًا فِي أُمُورِهِ ،
نَفَاعًا لِأَوْلِيَائِهِ ، ضَرَارًا لِأَعْدَائِهِ ، كَأَنَّهُ لَمَعْرِفَتِهِ بِالْأُمُورِ قَدْ حَوَّلَ الْأُمُورَ وَقَفَّهَا .
وَمُبَرَّ ، أَيْ غَالِبٌ لِأَعْدَائِهِ . فَطَنٌ : ذَكِيٌّ . مُغْرِبٌ : يَأْتِي بِالْغُرَائِبِ . عَزُوفٌ :
تَزْيِيدُ النَّفْسِ بَعِيدًا مِنَ الرِّيبِ . عِيُوفٌ : كَارِهِ لِلدُّنْيَا . وَالتَّخَلَّفَ عِنْدَ الْعَرَبِ : الَّذِي
يَتَلَفَّ مَالَهُ بِالْجُودِ . وَالتَّخَلَّفَ : الَّذِي يَخَافُ مَا أَتَلَفَ بِالْإِغَارَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَأَخَذَ
أُمُورَهُمْ ، يَصِفُهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ . وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

بَارَوْعَ مِنْ طَيِّ كَأَنَّ قَيْصَهُ بُرْزٌ عَلَى الشَّيْخَيْنِ زَيْدٌ وَحَاتِمٌ ^(١)
سَمَاحًا وَبَاسًا كَالصَّوَاعِقِ وَالْحَيَا إِذَا اجْتَمَعَا فِي الْعَارِضِ الْمَتْرَاكِمِ
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

لَمْ تَخْلُ قَطُّ مِنْ صَنَائِعِكَ الْفَرِّ وَلَا مِنْ حُرُوبِكَ الْفَرَسِ
تَصَرَّفَ الْفَيْثُ فِي صَوَاعِقِهِ وَتَارَةً فِي سِجَالِهِ الْبَحْسِ
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

ضَحُوكٌ إِلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ قَرِيبُهُمْ وَلِلْسَيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْنَقٌ ^(٢)
حَيَاةٌ وَمَوْتُ وَاحِدٌ مُمْتَهَاهُمَا كَذَلِكَ غَمْرُ الْمَاءِ يُرْوَى وَيُفْرَقُ
وَقَالَ دِيكَ الْجَنْ :

هُوَ عَارِضٌ زَجَلٌ فَمَنْ شَاءَ الْحَيَا أَرْضَى ، وَمَنْ شَاءَ الصَّوَاعِقُ أَغْضَبَا ^(٣)

(١) ديوانه ١٩٧١

(٢) ديوانه ١٤٩٦ ، وفيه : « وهو يروعه »

(٣) ديوانه ١٥٠٠

وقال أبو مسهر :

تحيا الأنام به في الجذب إن قطعوا جوداً وتشقى به يوم الوغى الهام
كأزنى يجتمع الحلالن فيه معاً ماء ونار، وإرهام وإضرارم

وقال ابن الرومي :

والناس طراً بين مرتقب سلواته ومؤمل نفقه
كالعارض التهب صواقه وسقى البلاد فلم يدع بقعه

قوله : أغرّ : مشهور . فريد : ليس له نظير . نابه : رفيع الذكر . ذكي : متوقد الفطنة ، ويروى : « زكي » ، وهو الطاهر العفيف ، وقيل : هو المتزيد في الخير ، والزكاء : النماء والزيادة . أنوف : كثير الحمية والغضب لما يستراب منه . مفلق . فصيح ، وأفلق : جاء بالفلق ، وهي الداهية كأنه جاء من الفصاحة بملا يطاق . أبان : بين كلامه . طبّ : حاذق حسن التدبير . ناب هياج : حدث شر واختلاف . جلّ خطب : عظم أمر . مناخلم : جمع منظوم . تأتلف : تجتمع ، يريد أن ما ينظم في شرفه من المدائح يأتلف بلا تكلف على الشعراء لكثرة صفات الفضل والسؤدد ، كما قال حبيب :

تغابّر الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل^(١)

وقال أبو الطيب :

لك الحمد في الدرّ الذي لي لغناه فإنك مـ عليه وإني ناظم^(٢)

وقال آخر :

مالقينا من فضل جود ابن يحيى صير الناس كلهم شعراء

* * *

مَنَاطِمُ شَرَفِهِ تَأْتَلِفُ ، وَشُؤْبُوبُ حَبَائِهِ يَكِفُ ، وَنَائِلُ
يَدَيْهِ فَاضٌ ، وَشُحُّ قَلْبِهِ غَاضٌ ، وَخِلْفُ سَخَائِهِ يُحْتَلَبُ ، وَذَهَبُ
عِيَابِهِ يُحْتَرَبُ . مَنْ لَفَّ لَفَّهُ فَلَجَ وَغَلَبَ ، وَتَاجِرُ بَابِهِ جَلَبَ
وَخَلَبَ . كَفَّ عَنْ هَضْمِ بَرِي . وَبَرِي مِنْ دَنَسِ غَوِي ، وَقَرَنَ
لِيَانِهِ بِعِزٍّ ، وَنَكَبَ عَنْ مَذْهَبِ كَرٍّ . لَيْسَ بُوَثَابٍ عِنْدَ نُهُزَةٍ
شَرٍّ ، بَلْ يَعْفُ عَفْةَ بَرٍّ .

فَلِهَذَا يُحِبُّ وَيُسْتَحَقُّ عَفَاةُ

شَقْفًا بِهِ فَلْبَابُهُ خَلَابٌ

أَخْلَاقُهُ غُرٌّ تَرْفَ وَفُوقَهُ

فُسُوقٌ إِذَا نَاضَلْتَهُ غَلَابٌ

سُجُجٌ يَهْشُ وَذُو تَلَاوٍ إِنْ هَفَا

خِلٌ فَلَيْسَ بِحَقِّهِ يُرْتَابُ

لَا بِأَخْلُ بَلْ بِأَذْلُ خِرْقٌ إِذَا

يُعْتَرُّ ، بَرَزُ لَا يَلِيهِ بَابُ

إِنْ عَضَّ أَزْلُ فَلْ غَرَبَ عِضَاظُهُ

بِمَنَابِهِ فَانْحَتَّ مِنْهُ نَابُ

. . .

شُؤْبُوبُ حَبَائِهِ : دَفْعُ عَطَائِهِ ، وَالشُّؤْبُوبُ : دَفْعُ الْمَطَرِ . يَكِفُ : يَقْطُرُ
وَيَسْقُطُ . نَائِلُ : نَائِلٌ . فَاضٌ : سَالٌ وَخَرَجَ عَلَى الْأَرْضِ . غَاضٌ : غَابَ وَجَفَّ .

والخِئْف : حمة الضَّرْع الذى يُحلب منه اللبن ، وهو أيضاً اسم للضَّرْع .
 سخائه : جوده . عيابه : جمع عيبة . يُحترَب : يستلب ، أى لكثرة جوده كَانَ
 ماله يسلبه القاصدون له . مِن لَفٍ لِفَه ، أى من التف به ودخل فى جماعته ،
 وَاللَّف : لفيف الناس ، وَلَفَّ القوم : اجتمعوا والتف بعضهم ببعض ، وأخذ
 هذا اللفظ من قول الأعشى :

وقد ملأت بكرٍ وَمَنْ لَفٍ لِفَهَا نُبَا كَأَفْحَواضِ الرِّبَا فَالنَّوْاعِصَا^(١)
 بكرُ قبيلة ، وَمَنْ لَفٍ لِفَهَا ، أى مَنِ التفَ بها . فليج ، أى ظفر بما أحب .
 جلب : ساق ، أى التاجر الذى يقصد بابه بما جلب إليه من الفوائد يجازيه على
 ذلك بالعطاء الكثير ، فلكثرة ما أخذ فكأنه قد خدعه ، والمالك المفضل
 بوصف أنه يُخدع لكثرة هباته ، وقيل لعرابة : بم سدت قومك ؟ قال : أنخدع
 لهم فى مالى . هضم : نقص ، أراد أنه لا يهضم ولا يظلم من لم يذنب إليه غَوَى :
 ضالٌّ مفسد . ليانه ، أى لين خلقه . بعزَّ : بمنع وبغظم ، والعزة فى اللغة : الشدة
 والمنعة ، والعزاز : الأرض الصلبة ، يريد أن الأمير إذا انبسط لم يهب ، وإذا
 اشتدَّت سطوته لم يُؤَلَف ، فحالة هذا الممدوح بين العزة واللين ،

وقال أبو تمام :

المجدُّ شيمته وفيه فكاهةٌ سَمِجٌ وَلَا جَدَّ لِمَنْ لَمْ يَلْعَبِ^(٢)

شَرِسٌ يَقْبَعُ ذَاكَ لَيْنُ خَلِيقَةٍ لَأَخِيرَ فِي الصَّهْبَاءِ مَا لَمْ تَقْطَبِ^(٣)

نَسَكَب : عدل ومال . مذهب : طريق : كَرَّ : بجعل قليل الخير . وثأب :
 عجزول كثير الثوب . نُهْزَةٌ : فرصة وغنيمة . ويعفَّ : يكف نفسه . بَرَّ :
 مطيع لله ، أراد أنه عفيف عن المحارم . قوله : شعفا ، أى حبا يطلب الغاية ،
 وشعاف القلب : أعلاه ، يريد أن عفافه بلغه غاية الحب من القلوب ، وفلان

(١) ديوانه ١٤٩ .

(٢) ديوانه ١٣ . (٣) تقطب : تخرج .

مشعوف بفلان ، إذا ذهب به حبّه كل مذهب . الفراء : هو من الشّعف ، وهى رؤوس الجبال ، واحدها شعفة ، فكأن معنى شعف بفلان ، ارتفع حبه إلى أعلى موضع فيه .

لبابه : خالصه . خلاّب : أخذ للنفس غالب عليها . غرّ : حسان . ترفّ : تتلأأ وتشرق ، والرفيف : بريق اللون . وفوقه : سهمه والفوق : طرف السهم الذى إلى الوتر . ناضلته : راميته ، يقول : سهمه ، غلاب لمن راماه . سحج : سهل الخلق . يهشّ : يهتزّ طرباً . تلاف : تدارك . هفا : زلّ وسقط ، والهفوة : الزلّة . خلّ : صاحب . يرتاب : يشكّ . خرق : كريم جواد يتخرق فى العطاء . يعتزّ : يقصد . برّز : ظاهر غير محتجب . قال الفنجديهيّ : رجل برّز ، أى عفيف عاقل كريم . لا يليه باب ، أى لا يحتجب بيباه دون قصاده .

[مما قيل فى الحجاب]

شاد الملوك قصورهم وتحصّنوا من كلّ طالب حاجة أوراغب
غالوا بأبواب الحديد لعزها وتنافسوا فى قبح وجه الحجاب
فإذا تلطف للدخول عليهم راجع تلقّوه بمنذر كاذب
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن بادى الضراعة طالباً من طالب

هى لمحمود الورّاق .

وقال أبو مسهر : أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الكافى فحجبني ، فكتبت إليه :

إني أتيتك للتسليم أمس فلم تأذنّ عليك لي الأستار والحجب
وقد علمتُ بأنّى لم أردّ ولا والله ماردٌ إلا الحلم والأدب

فأجابني بهذا القول :

لو كنتَ كافات بالحسنى لقلت كما قال ابن أوس وفيما قاله أدبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لى أملاً إن السماء ترجى حين تحتجب^(١)

وقال حبيب :

سأترك هذا الباب ما دام إذنه على ما أرى حتى يلين قليلاً
فما خاب مَنْ لم يأتِه متعمداً ولا فاز من قد نال منه وصولاً
ولا جعلت أرزاقنا بيد امرئ حمى بابه من أن يُنال دخولاً
إذا لم أجد للأذن عندك موضعاً وجدت إلى ترك الجحى سبيلاً

وحُجِبَ أبو العتاهية عن بعض الهاشمين ، وقال له : تكون لك
عودة فقال :

لئن عدتُ بعد اليوم إني لظالمُ سأصرف نفسي حيث تُبغى المكارمُ
مَتَى يظفرِ الفسادی إيليك بحاجة ونصفك محجوبٌ ونصفك نائمٌ !

قال المتنبي :

أصبحت تأمرُ بالحجاب خلوةً هيهات لست على الحجاب بقادر^(٢)
مَنْ كان ضوء جبينه ونواله لم يحجباً لم يحتجب عن ناظرٍ
فإذا احتجبت فأنت غير محجبٍ وإذا بَطَّنت فأنت عينُ الظاهرِ

وقال جرير :

قومٌ إذا حضر الملوك وفودهم تُنَفَّتْ شواربهم على الأبواب^(٣)

(١) ابن أوس : هو أبو تمام والبيت في ديوانه ٢٢ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٧ .

(٣) ديوانه ٥٦ .

وقال آخر :

نهيت جميع الناس عن كل خطة يدبرها في رأيها ابن هشام
فلما وردنا الباب أيقنت أننا على الله والساطان غير كرام

وقال آخر :

وكل خفيف الشأن يدعى مشمراً إذا فتح البواب بابك إصبعا
ونحن الجلوس الماكثون توقراً حياء إلى أن يفتح الباب أجمعا

قوله : عض أزل ، أى اشتد زمان ، والأزل : ضيق العيش من الجذب
والقحط ، وعض : قبض بأسنانه . فل : كسر . غرب : حد . بمنابه :
بكفايته . انحت : انكسر . ناب : سن ، يقول : إن عضت الشدائد الناس
وأضرّت بهم دفعها وكسر أنيابها بمواهيه وخيره لمن أقهرته . ومن مالمح
ما قيل في هذا المعنى قول المتنبي :

أظمتني الدنيا فلما جئته مستسقياً مطرت على سحائباً^(١)
حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إلى منها تائباً

نقل المتنبي اللفظ والمعنى من قول أبي تمام :

كثرت خطايا الدهر في وقد يرى لنداك وهو إلى منها تائب^(٢)
والم به الحصني أيضاً في قوله :

وقد تحسن الأيام بعد إساءة ويذنب صرّف الدهر ثم يتوب

وقال ابن المعتز :

وعوقني الدهر عن قرب زمانا فقد تاب عن ظله

وقال ابن الرومي :

أساءت لي الأيام يا بن محمدٍ وهنّ إلى اليوم معذرات
رأين مطافى حول عفوك عائداً فهنّ لما أبصرته حذرات

وقال أبو تمام :

إذا العيس لاقت بي أبا دلف غداً تقطع ما بيني وبين النوائب

وقال أبو نواس :

أخذتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ أمنتُ به من طارق الحدائيرِ
تغطّيت من دهرى بظلّ جناحه فعميت ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام عني ما درتُ وأين مكاني ما عرفن مكاني

وقال أيضاً :

أنا في ذمة الخصب مقيمٌ حيث لا تهتدى صروفُ الزمانِ
قد عرفنا من الخصب خلالاً آمَنَّا طوارقَ الحدائيرِ
كيف أخشى من الليالي اغتيالاً ومكاني من الخصب مكاني

* * *

وجديرٌ بمن لبّ وفطن ، وقربَ وشطن ، أن أذعن
لقريرِ زمن ، وجابرِ زمن ، مذكّرِ ندى لبانه ، خصّ
بإفاضة تهتانه . نَمَشَ وفرَجَ ، وصافرَ فأبهجَ ، ونافرَ فأزعجَ ،
وفاءً بحقّ أبليج ، أتعَبَ من سيلي ، وقرّظَ إذ هزّ ويلي ، وتوجّ
صِفاته ، بحُبِّ عُفاته .

فَلَا خَلَا ذَا بَهْجَةٍ يَمْتَدُّ ظِلُّ خَصْبِهِ
فَإِنَّهَ بَرٌّ يَمُنْ آنَسَ ضَوْءُ شَهْبِهِ
زَانَ مَزَايَا ظَرْفِهِ بُلْبُسِ خَوْفِ رَبِّهِ

* * *

قوله : جدير ، أى حقيق . لبّ : كان ليبيبا وعاقلا . شطن : بُعد . أذعن :
ذلّ وانقاد . القريع : السيد يدفع ضرّ الزمن ويقرعه . جابر زمن ، أى معنى
فقير ، والزمن الفقير الذى لازمه الفقر أو المريض الذى لازمه المرض ، وبه
زمانة ، وأصل ذلك من زمن . لبانه، أى لبن أمه، وقال فى الدرة^(١) وقولهم :
الرضيع الإنسان ارتضع بلبنه ، صوابه بلبانه ، لأن اللبن هو المشروب ، واللبن ،
هو مصدر لابنه ، أى شاركه فى شرب اللبن ، هذا معنى كلامهم الذى نحوا إليه
ولفظوا به . التهتان : سيلان المطر ، وإفاضته : صبه ، وأراد فى لبن أمه ، ارتضع
الجود فداوم عليه، كقول المتنبي :

سموا للعلى وهم صديّةٌ وسادوا وقادوا وهم فى المهود^(٢)

وقد غا ط المتنبي فى هذا، ونُسب فيه إلى الكذب والحال الفاضح ، لأن سيادة
الأطفال فى المهود وقود الجيوش من أنحلّ الحال ، وهذا وإن كان ظاهره
كذلك ، فقد اتسعت العرب وأهل الأدب فى هذا القدر ، وأقاموا تحمّل النجاسة
فى المولود فى مهده مقام وجودها فى كبره . ثم إذا وجدوا صفة السكّال فى الرجل
التامّ حكموا بكاملها ، لأنه رضعها فى ثدى أمه ، أو غذى بها فى بطن أمه ، ألا
ترى قوله : تعلمت العلم قبل أن يقطع سرك وسررك ، وقبل أن يقطع ذاك ، كان

في بطن أمه ، وهذا لم ينكره أحد ، ومن شعر الحماسة في الذي رأى المهلب في
مهدة فقال :

خذوني به إن لم يَسُدْ سرواتهم ويبرع حتى لا يصاب له مثل^(١)
وفيها أيضاً :

لئن فرحت بي معقل عند شيبتي لقد فرحت بي بين أيدي القوابل
وذلك لتخيل النجاة فيه في ذلك الوقت ، ألا ترى ما تثبت نساء العرب
من بلوغ السيادة لأبنائهن عند ترقيصهن ، وانظر إلى ذلك إن شئت في فصل
نظمناه في كتابنا الموضوع لاختصار نوادر أبي علي ، فقد سقط عن المتنبي والحريري
بهذا ما عيب عليهما ، وقال سوار بن أبي شراة :

تعرف السودد في مولودهم وتراه سيّدا إن أيفعا
نَعَسَ : رفع الضعيف بجوده . فَرَجَ : أزال همه . ضافر : فاخر . أبهج :
أدخل السرور على أحبابه إذا كان له الغلب . نافر : خاكم في النسب .
وكانوا في الجاهلية إذا تنازع الرّجلان الشرف تنافرا إلى حكمائهم فيفضلون
الأشرف ، وسميت منافرة^(١) لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة : أبنا أعزّ نفراً .

[منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة]

وأشهر منافرة في الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن
كلاب مع علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر ، حين قال له علقمة :
الرياسة لجدّي الأحوص ، وإنما صارت إلى عمك أبي براء من أجله ، وقد أسنّ
عمك وقعد عنها ، فأنا أولى بها منك . وإن شئت نافرْتُك ، فقال عامر : قد

(١) المنافسة : المفاخرة بالنسب ، وخبر المنافسة بين عامر وعلقمة في الأغاني ١٥ : ٥٠ -
ساسى ، مع تصرف واختصار .

سئت والله ؛ لأننا أكرم منك حسباً ، وأثبت نسباً ، وأطول قصباً ، فقال علقمة :
 أنا فرك وإني لبرّ وإنك لفاجر ، وإني لولود وإنك لعاقر ، وإني لعفّ وإنك
 لعاهر ، وإني لواف وإمك لغادر ؛ فقال عامر : أنا فرك ؛ أنا أسنى منك سنة ،
 وأطول قمة ، وأحسن لمة ، وأبعد جمّة ، وأبعد همة . فقال علقمة : أنت جسيم
 وأنا قضيف^(١) ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ؛ ولكن أنا فرك أنا أولى بالخيرات منك .
 فخرجت أم عامر فقالت : نافرهم أيكما أولى بالخيرات ، ففعلوا على أن جعلوا مائة
 من الإبل يعطاها الحكم الذي ينفر عليه صاحبه ، فخرج علقمة ببني خالد بن
 الأصفر وبني الأحوص ومعهم القباب والجزور والدور ؛ ينحرون في كل منزل
 يطعمون ، وخرج عامر ببني مالك ، وقال : إنها المقارعة عن أحسابكم ، فاشخصوا :
 بمثل ماشخص به ، وقال لعمه أبي براء : أعني ، فقال : سئبي ، فقال لا أسبك
 وأنت عمي ، فقال : وأنا لا أسب الأحوص وهو عمي ، ولكن دونك نعلي ،
 فإني ربت فيها أربعين سنة ؛ ولم ينهض معه . فجعلوا منافرتهم إلى أبي سفيان بن حرب
 ابن أمية ، ثم إلى أبي جهل بن هشام ، فلم يتولا بينهما شيئاً ، ثم رجعا آخر إلى هرة
 ابن قطبة بن سيار بن عمر الفزاري ، فقال : لعمري لأحكم بينكما ، فأعطيني موثقاً
 أطمئن إليه أن ترضياً بحكمي ، وتسليماً ما قضيت بينكما . ففعلوا ، فأقاموا عنده أياماً
 فأرسل إلى عامر فأتاه سرّاً ، فقال : قد كنت أحسب أن لك رأياً ، وأن فيك خيراً ،
 وما حبستك هذه المدة إلا لتصرف عن صاحبك ؛ أنا فرك وإنا لبرّ وإنك لفاجر ،
 وقومك إلا بابائهم ؛ فما الذي أنت به خير منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم ،
 ألا تفضل على علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها ، هذه ناصيتي فاجزها
 واحتكم في مالي ، فإن كنت ولا بد فاعلاً فسوّ ببني وبينه ، فقال له ما قال
 لعامر ، فقال له : أنا فخر رجلا هو ابن عمك في النسب وأبوه أبوك وهو مع ذلك
 أعظم منك غناء وأحد لقاء ، وأسمح سماحاً ؛ فما الذي أنت به خير منه ! فردّ

(١) قضيف ، أي نحيف

عليه علقمة ماردٌ عامر وانصرف وهو لا يشك أنه ينفر عامراً عليه . فأرسل هَرِمَ إلى بنيه وبنى أخيه ، وقال لهم : إني قاتل غداً بينهما قتالة ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينجرها عن علقمة ، وليطرد بعضكم مثلها فلينجرها عن عامر ، وفرّقوا بين الناس لا يكون بينهم جماعة . ثم أصبح هَرِمَ مجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا ، فقال هَرِمَ : إنكما يا بني جعفر قد تحاكما إلى ؛ أتماكر كبتى البعير الآدم الفحل تقعان على الأرض [معا] ^(١) ، وليس فيكما واحد إلا وفيه ماليس في صاحبه ، وكلا كما سيد كريم . ولم يفضل واحدا منهما على صاحبه لتلايح ب بذلك شرّاً بين الحيتين ، ونحرت الجزر وفترقت على الناس .

وعاش هَرِمَ حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هَرِمَ ، أى الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : لو قلت ذلك اليوم عادت جَزَعة ، ولبلغت شَعَفات هَجَر ، فقال عمر : نعم مستودع السرّ أنت يا هَرِمَ ، مثلك فليستودع العشيّة أسرارهم . والحكاية طويلة ، وقال فيه الأعشى ^(٢) :

حَكَمْتُمُوهُ قَضَى بَيْنَكُمْ أُبْلِجُ مِثْلُ الْقَمَرِ الْبَاهِرِ
لَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ فِي حَكْمِهِ وَلَا يَبَالِي غَيْرَةَ الْخَائِرِ

قوله : فاء ، أى رجع أبلج : بين ظاهر . أتعب من سَيْلِي ، يقول : إن الأمير الذى يأتى بعده فى تعب لأنه يروم أن يفعل مثل ما فعل فيمجز عنه ، وأعاد هذا المعنى منظوماً فى السابعة والثلاثين حين قال :

سَمَاحُهُ أَزْرَى بَيْنَ قَبْلِهِ وَعَدْلُهُ أَتَعْبَ مَنْ بَعْدَهُ ^(٣)

أخذه من قول رجل قال لأحد الأمراء وقد عزل عن عمله : أصبحت والله

(١) من الأغاني (٢) ديوان الأعشى ١٤١ . (٣) اللغات ٤١٤ .

(١٩ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

فاضحاً متعباً ، أما فاضحاً فلاكل وال قبلك بحسن سيرتك ، وأما متعباً فلاكل وال بعدك أن يلاحظك .

قرظ : مدح . هز : حرك بالثناء عليه . بلى : جرب : توج صفاته ، أى زينها وشرفها . عفاة : قصاده . بهجة : سرور ، وكفى بخصبه عن ماله ودعاه بالبركة والكثرة إذ جعله ممتد الظل . بر : مكرم . آنس : أبصر . شهيه : نيرانه الساطعة ، واحداً شهاب ، وأصل هائه الثقيل خففت ، وكانت العرب توقد النيران فيقصدوها الأضياف بالليل ، أراد أنه كثير الإكرام لمن يقصد ناره ، وأخذ اللفظ من قوله تعالى : ﴿ آنس من جانب الطور نارا ﴾^(١)

مزايا : فضائل . ظرفه : حسن هيئته وعذوبة لسانه ، وهو مصدر ظرف يظرف خرفاً فهو ظريف ، فمن قال : الظريف البليغ ، وقصره على اللسان لم يجز له أن يقول : ما أظرف زيد ؟ على الاستفهام ، ومن جعل الظرف حسن الوجه والهئية جاز له ذلك ، وكذلك من جعل الظرف عاماً فيكون معناه : أى شيء فيه من الظرف ؟ أوجه أم هيئته أم ذكاؤه وبلاغته ؟

بلبس : اختلاط ، أراد أنه يخلط الهزل بالجد ، والمزاح وخفة الطرب بالانقباض والحشمة ، وقد تقدم في صفة التنوخى مثل هذا . والمزاي : جمع مزية وهى التمام والكمال ، وأصلها من الزى .

فَلَيْمِنْ سَيِّدَنَا فَوْزُهُ بِمَفَاخِرِ تَأَثَّلَتْ وَجَلَّتْ ، وَقُوَّةُ
بِصْنَائِعِ تَمَّتْ وَنَمَتْ ، وَيُلَاقِمُ قَرَبَ حَضْرَتِهِ ، نَوْتُ رِقْوِهِ
بِحُظٍّ مِنْ حُظُولَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ تَلِيدٌ نَذْبٍ ، وَشَرِيدٌ جَذْبٍ ، وَجَرِيحٌ

نَوْبٍ أَثَّرْتُ ، وَنَاطِئُ قَلَائِدَ تَسَيَّرْتُ ، إِذَا جَاشَ خُطْبَةٌ فَلَا يُوجَدُ
فَائِلٌ ، ثُمَّ قَسَّ ثُمَّ بِاقِلٌ .

فَإِنْ حَبَّرَ قُلْتُ : حَبَّرْتُ تُنَمِّتُ ، وَخَلَّتْ رِيَاضًا قَدْ نَمَتْ ، هَذَا ثُمَّ
شَرُّهُ بَرُّهُ ؛ وَقُوَّتُهُ قَرَضُ ، وَفَلَقُهُ غَسَقٌ ، وَجَلْبَابُهُ خَلَقٌ . وَقَدْ
فَلَقَ لِتَوَغَّرِ غَرِيمٍ غَاشِمٍ ، يَسْتَحِثُّهُ بِحَقٍّ لَازِمٍ ؛ فَإِنْ مَنْ سَيِّدُنَا
بَكْفِهِ ، ، بِهَبَاتٍ كَفَّهُ ، تَوَشَّحَ بِمَجْدٍ فَاقَ ، وَبَاءَ بِأَجْرِ فَكَّى
مِنْ وَتَاقَ .

لَا خَلَّتْ سَجَايَا خُلُقِهِ ، تَرَفَّدُ شَائِمَ بَرَقِهِ ، بِمَنْ رَبِّ أَزَلِيٍّ ،
حَىَّ أَبَدِيٍّ

• • •

فوزه : ظفروه . تأملت : تقدمت واتصلت . جلّت : عظمت . فوقه : سبقه .
صنائع : أفعال جميلة . نمت : اشتهرت . يلائم : يوافق . حضرته : موضعه الذى
يحضر فيه ، والقرب : جمع قرية ، وهى ما يقترب به من أعمال البر إلى الله تعالى ومن
إلهدايا إلى الملوك . غوث : إغاثة وكشف ضرر . رقه : عبده . حظّ : نصيب .
حظوته : مكائنه ورفقته . تلبد ندب : تقول : ندبت القوم دعوتهم ، يريد أنه
عبدٌ للدعوة التى دعاه بها خصمه إلى الوالى ، والتلبد من العبيد : ما ولد عند
غيرك ثم اشتريته صغيراً ، فكبر عندك ، وجعل نفسه عبداً للدعوة لنا لتعبد بها ،
أو يريد بالتلبد القديم ، فإن التلبد والتالد المال القديم ، ولتندب : ألهم ، من
ندبت الميت ندباً ، فيريد أنه قديم هم ، ورجل ندب ، أى خفيف فى قضاء
الخواجج لأصحابه ، فيريد على هذا بتلبد ندب ، أى خفيف ومن هذه صفته

فقد وجبت حرمة . وشر يد جذب : طريد فقر وجوع ، والجذب ضد الخصب .
 نوب : نوازل . أثرت : أبقت به أثرا وأثرها أخذها ماله حتى عاد فقيراً ، فمن نظره
 رأى أثر النوائب عليه . ناظم قلائد : قائل قصائد . ورسائل تسيرت : مشت في
 الناس والبلاد ، جاش خطبة : تحرك صدره للكلام بها ، يريد أنه إذا أراد قول
 خطبة ازدحم الكلام في صدره وارتفع ، كما يحيش القدر ، أى يفلى ، ونقدم
 هذا الكلام .

قس : فصيح العرب ، ويأتى ذكره في الأربعين . ثم ، معناه هنالك . بأقل ،
 تقدم ، يريد أن قسا على فصاحته لوحضر مع الموصوف لنظم أو نثر لرجع فى عى
 بأقل ، والعادة إنما يذكر معه سبحانه للزوم الرسالة وقال حبيب وذكر ثلاثة من
 أصحاب عبد الله بن طاهر :

أول :

حازوا خلائق قد تيقنت العلا كلّ التيقن أنهنّ نجومها^(١)

ثان :

لو أن بأقلاً المفهّم ينبرى فى مدحها سهلت عليه حُزومها

ثالث :

ولو أن سبحانه يسحب ذيله فى ذمها لم يدر كيف يذمها^(٢)

ح : قال شعرا أورسالة ، وأصل حَبَر : وثنى وزين . حَبَر : ثياب موشاة .

نُتِمَت : زينت ورقمت . نمت : تحركت بالروائح العطرة .

وقال الصابى فى المهلبى وكأنه يصف هذا الكلام :

وإن استنطق الأنامل جاءت ببيان كالجواهر المنضود^(٣)

فى سطور كأنما نشرت يمينه منها عصائباً من بُرود

فقرّ لم يزل قصيرا إليها كلّ مبدى بلاغة ومعين

يَفْتَدِي الْبَارِعَ الْمَفِيدَ لَدَيْهَا لَاحِقًا بِالْمَقْصَرِ الْمُسْتَفِيدِ
بِبَيَانٍ شَافٍ وَلَفْظٍ مَصِيبٍ وَاخْتِصَارٍ كَافٍ وَمَعْنَى سَدِيدٍ

وله في مثله أيضاً :

وَكَمْ مِنْ يَدٍ بِيضَاءَ حَازَتْ جَمَاهَا يَدُكَ لَا تَسْوَدُ إِلَّا مِنَ النَّفْسِ^(١)
إِذَا رَقَشَتْ بِيضَ الصَّحَائِفِ خِلَتَهَا تَطَرَّزَ بِالظُّلُمَاءِ أُرْدِيَةِ الشَّمْسِ

وقال السري رحمه الله تعالى :

شَغَلْتِكَ عَنْ حَسَنِ الشَّامِ مَدَامُحٌ حَسَنْتَ فَمَا تَنْفَكُ تَطْرِبَ سَامِعاً^(٢)
زَهراً إِذَا صَافَحَ سَمْعَ مَعَانِدٍ خَفَضَ الْكَلَامَ وَغَضَّ طَرَفَا خَاشِعَا
جَاءَكَ مِثْلَ بَدَائِعِ الْوُشْيِ الَّذِي مَازَالَ فِي صَنْعَاءٍ يَتْعَبُ صَانِعَا
أَوْ كَالرَّبِيعِ يَرِيكَ أَخْضَرَ يَانِعاً مَتَوَرِّداً شَرْقاً وَأَصْفَرَ فَاقِعَا

وله أيضاً في مثله :

سَأَبِثُ الْحَمْدَ مُوشِئاً سَبَائِبُهُ إِلَى الْأَمِيرِ صَحِيحاً غَيْرَ مُؤْتَشِبِ^(٣)
إِنَّ الْمَدَامُحَ لَا تَهْدِي لِنَاقِدِهَا إِلَّا وَأَلْفَظُهَا أَصْفَى مِنَ الذَّهَبِ
كَمْ رُضْتُ بِالْفَكْرِ مِنْهَا رَوْضَةً أَنْفَاً تَفْتَحُ الزَّهْرَ فِيهَا عَنْ جَنَى الْأَدَبِ
لَفْظُ يَرْوَحُ لَهُ الرِّيحَانُ مَطْرَحَا إِذَا جَعَلْنَاهُ رِيحَانَا عَلَى النَّخْبِ

قوله: شَرِبَهُ ، أى حظه من الماء . بَرَضَ : قليل . قَرْض : سلف ، والقرض مأخوذ ليعوّض منه . وَفَلَقَهُ : ضوء صبحه . غَسَقَ : ظلام ، يريد أن حاله متغيرة . جلبابه : ثوبه . خَلَقَ : بال . توغّر : توقّد واشتدّ غضبه ، والتوغّر : التوقّد . لشدة الغيظ ، والوغر شدة الحر . غاشم : ظالم جاف . يستعجنه : يستعجله . لازم :

(١) ينيعة الدهر ٢ : ٢٤٩ .

(٢) ديوان السري ١٦١ .

(٣) ديوان السري ٣٩ .

واجب . من : أنعم وأحسن . بكفه : برده . عنى . هبات : عطايا . توشح :
 تمحزم وتمزين ، وتوشح الرجل بثوبه : جعله موضع الوشاح وتمحزم . فاق : فضل
 بهذا المجد كل أحد . باء : رجع . فكى : إنقاذى . وثاق : شد وربط . سجايا :
 طبائع . ترفد : تصل وتعين ، والرّفْد : المعونة : شائم برقه : راجى خيره ونازل
 أمره ، ونزل البرق منزلة الجود لأنه يأتى بالمطر والمطر يشبه به الجود : بمن :
 بإحسان وإنعام . أزلى : قديم . أبدى : باقى مع الأبد وهو الدهر .

وإذ قد فرغنا من شرح هذه الرسالة على صعوبتها ، فإننا نعتذر إلى مَنْ وقف
 على شرحنا لها من صعوبة هذا المقام ، فإن هذه الرسالة وأمثالها إنما يؤتى بها على
 جهة الملح والاعتدال ، لا على أنها من نفيس الكلام الفصيح ، ألا ترى الحريرى
 كيف اعتذر فى مثلها حيث قال : أجلّ الأبيات العرائس ، وإن لم يكن نفائس ؛
 ولا شك أن الشارح لمثل هذه الرسالة يقارب تعب منشئها فى أنه يفوص على
 تلك الاستعارات البعيدة ، فيريد أن يبرز المعنى فى غاية البيان ، واللفظ فى أغلبها
 موضوع على غاية الإبهام ، فوقع التمانع ، فلا يصل إلى عبارة متوسطة تتعلق بالمعنى ،
 ولا تبعد من اللفظ إلاّ بعد جهد ، فهذا عذرنا فى هذه الرسالة الرقطاء والتهميرية
 والخيفاء المتقدمتين ، وما علمت أحداً شرحها شرحنا ولا بلغ منها مبالغنا ، والله
 منشئها من عالمٍ بارع ! فما اتفق له إنشاؤها إلا بعد التبجّر فى علوم اللغات حتى
 كأنّ أبا حفص بن برد يخاطبه بهذه الأبيات :

أهدى لك الودّ محضاً غير مقطوب	أبا العلاء استمع تعريض ذى مقّة
فى العلم والظرف والآداب والطيب	أنت الذى لم نعاشر مثله رجلاً
وكُنْه علمك شيء غير محسوب	تحصيل فضلك للحساد معجزة
وعيت منها ولا أشياخ يعقوب	أما اللغات فما يعقوب يبلغ ما

قَالَ : فَلَمَّا اسْتَشَفَّ الْأَمِيرُ لَآلِيَهَا ، وَلَمَحَ السَّرَّ الْمودَعِ
فِيهَا ، أَوْعَزَ فِي الْحَالِ بِقَضَاءِ دِينِي ، وَفَصَلَ بَيْنَ خَصْمِي وَبَيْنِي .
ثُمَّ اسْتَخْلَصَنِي لِكَاثَرَتِهِ ، وَاخْتَصَنِي بِأَثَرَتِهِ . فَلَبِثْتُ بِضْعَ سِنِينَ
أَنْعَمَ فِي ضِيَاقَتِهِ ، وَأَرْتَعَ فِي رَيْفِ رَأْفَتِهِ ؛ حَتَّى إِذَا غَمَرَتْنِي مَوَاهِبُهُ ،
وَأَطَالَ ذَيْلِي ذَهَبُهُ . تَطَافْتُ فِي الْأَرْتِحَالِ ، عَلَى مَا تَرَى مِنْ
حُسْنِ الْحَالِ .

قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ شُكْرًا لِمَنْ أَتَّاحَ لَكَ لُقْيَانِ السَّمْعِ الْكَرِيمِ ،
وَأَنْقَذَكَ مِنْ ضَنْطَةِ الْغَرِيمِ . فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سَعَادَةِ الْجَدِّ ،
وَالْخُلُوصِ مِنَ الْخَضَمِ الْأَلَدِّ . ثُمَّ قَالَ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ أَنْ
أُحْذِيكَ مِنَ الْعَطَاءِ ، أَمْ أَتِحَفَّكَ بِالرَّسَالَةِ الرَّقْطَاءِ . فَقُلْتُ : إِمْلَأْ
الرَّسَالَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ ، فَقَالَ : وَهُوَ وَحَقُّكَ أَخَفُّ عَلَى . فَإِنَّ نِجْلَةَ
مَا بَلِجُ فِي الْأَذَانِ ، أَهْوَنُ مِنْ نِجْلَةِ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْدَانِ . ثُمَّ
كَأَنَّهُ أَنْفَ وَاسْتَحْيَا ، فَجَمَعَ لِي بَيْنَ الرَّسَالَةِ وَالْحَذْيَا ، فَفَزْتُ مِنْهُ
بِسَهْمَيْنِ ، وَفَضَلْتُ عَنْهُ بِعُثْمَيْنِ ، وَأَبْتُ إِلَى وَطَنِي قَرِيرَ الْعَيْنِ ، بِمَا
حَزَتْ مِنَ الرَّسَالَةِ وَالْعَيْنِ .

* * *

قوله : استشف ، نظر . لآليها : جواهر كلامها . امح : رأى . الودع :
المضن المجمعول ، وعنى بالسرّ ما ذكر من النقط لحرف والترك لآخر . أوعز : تقدم .
فصل : قطع . استخلصني : ضمني وأنقذني منه . لكآثرته : لزيادة عدده ، يريد
أن الأمير خلّصه من غريمه وضمه إليه ، وجعله فيمن حواليه فكثروا به . اختصني
بأثرته : أفردني بمطيقته ، وآثرني بها على غيري . لبثت : أقيمت .
بضع سنين : قال أبو عبيدة رحمه الله : البضع من واحد إلى أربعة ، وقال

الأخفش: من واحد إلى عشرة، وقال الفراء: مادون العشرة، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: البضع من الثلاثة إلى عشرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر لما نزلت ﴿فِي بَضْعِ سَنِينَ﴾: البضع ما بين السبع والتسع، قال ابن سلام: فلما انقضت سبع سنين ظهرت الروم على فارس. وقال أبو محمد في الدرة: البضع أكثر ما يستعمل فيما بين الثلاث إلى العشر، وأسر ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سِيغْلِبُونَ﴾ في بضع سنين، وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل الكتاب والمشركون يميلون إلى أهل فارس، لأنهم أهل أوثان، فلما بشر الله المسلمين بأن الروم سيغلبون سرّ المسلمون. ثم إن أبا بكر رضى الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم، فقال له أمية بن خلف: خاطرنى على ذلك، فحاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن البضع، فقال: ما بين الثلاثة إلى العشرة، فأخبره بخطاره مع ابن خلف، فقال له: ما حملك على تقريب المدة؟ قال: الثقة بالله ورسوله، فقال له: عد إليهم فزدهم في الخطر، وازدد في الأجل، فزادهم قلوبين وزادوه سنتين، فظفرت الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثاني تصديقاً لتقدير أبي بكر رضى الله عنه. ويقال: البضع بغير هاء للمؤنث مثل خمس وبضعة للمذكر مثل خمسة.

أرتع: آكل وأتعم، والريف: الخصب، والرأفة: الرفق. غمرتني مواهبه: غطتني عطاياه، وأراد بإطالة ذيله كثرة ماله حتى صار منه فضول، وصار يجرد ذيله تبخيراً. تلطفت: تسالت برفق. أتاح: قدّر. لقيان: لقاء. الضعطة: التضييق، وضعفه: ضيق عليه. الجّد: الحظ والسعد. الألد: الشديد الخوصومة. أحذيك: أعطيك. أتخفك: أهديك. وإملاء الرسالة: إلقاؤها عليه ليكتبها. نحلة: عطية. يلج: يدخل. الأردن: الأكام. أنف: كبر ذلك عليه واستنكفه. والحذايا: العطية فصلت: زلت. أبّت: رجعت: قرير العين: مسرورا بالفائدة. حزت: جمعت، وصار في حوزي، أى في ملكي. والعين: الذهب الأحمر.

المقامة السابعة والعشرون وهي الوبرية

حكى الحارث بن همام، قال: مِدْتُ في رَيْقِ زَمَانٍ الَّذِي غَبَرَ،
إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْوَبْرِ؛ لَأَخْذَ أَخْذِ نَفُوسِهِمِ الْإِيَّةَ، وَالْأَسْتِثِمِ
الْعَرَبِيَّةَ، فَشَمَرْتُ تَشْمِيرَ مَنْ لَا يَأْلُو جُهْدًا، وَجَعَلْتُ أَضْرِبُ
فِي الْأَرْضِ غَوْرًا وَنَجْدًا؛ إِلَى أَنْ اقْتَنَيْتُ هَجْمَةً مِنَ الرَّاغِيَةِ
وَاللَّغِيَةِ، ثُمَّ أُوتِيتُ إِلَى عَرَبِ أَرْدَافِ أَقْيَالٍ، وَأَبْنَاءِ
أَقْوَالٍ، فَأَوْطَنْوْنِي أَمْنَعَ جَنَابٍ، وَفَلُّوا عَنِّي حَدَّ كُلِّ نَابٍ،
فَمَا تَأَوَّبَنِي عِنْدَهُمْ هَمْ، وَلَا قَرَعَ صَفَاتِي سَهْمٌ.

...

غَبَرَ، تقدم. أهل الوبر: أصحاب البوادي: الذين ما لهم الإبل، وكُنِيَ بالوبر
عنها. الأبيَّة: العريضة التي تَأْبَى الذِّلَّ. يَأْلُو جُهْدًا: يقصر في الاجتهاد. أَضْرِبُ:
أَمْشِي فِي الْأَرْضِ. وَغَوْرًا وَنَجْدًا: مرتفعًا ومنخفضًا. اقْتَنَيْتُ: اِكْتَسَبْتُ
لِنَفْسِي لَا لِلْبَيْعِ.

وشرح الحريري ألفاظًا في المقامة فنقتصر فيها على شرحه إلاً بقدر ما يزيد
السلام بيانًا، مثل قوله: أَخْذَ أَخْذِ نَفُوسِهِمْ، أَيْ اتَّخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ،
وَيَقَالُ: لَوْ كُنْتُ مِثْلَنَا لَأَخَذْتُ بِأَخْذِنَا، بِكَسْرِ الهمزة وفتحها، أَيْ بِخُلُقِنَا وَشَكْلِنَا،
وَاسْتَعْمَلَ فَلَانٌ عَلَى الشَّامِ وَمَا أَخْذَ أَخْذَهُ، أَيْ وَمَا وَاوَلَاهُ وَكَانَ حَيْزُهُ. وَقَوْلُهُ: إِرْدَافِ
أَقْيَالٍ؛ يَفْسِّرُ الْقَيْلَ بِالْمَلِكِ وَبِرَدْفِ الْمَلِكِ، وَقِيلَ: الْقَيْلُ بِالْمَشْرِقِ كَالْقَائِدِ

بالأندلس والرّدافة في الجاهلية كالوزارة في الإسلام ، والرّدافة : بأن يرتد مع الملك على مركوبه ، وأن يستخلفه في موضعه متى غزا . أويت : رجعت واتخذته مأوى . أوطنوني : أنزلوني . جناب : جانب . فّلوا : كسروا . ناب : ضرس . تأوّبني : أتاني ليلاً ولا قرع صفاتي سهم ، أي لم ينالني ضرر .

* * *

إلى أن أضلّت في لَيْلَةٍ مُنِيرَةٍ الْبَدْرَ ، لِقَحَّةٍ غَزِيرَةِ الدَّرِّ ؛
فَلَمْ أَطِبْ نَفْسًا بِالْعَاءِ طَلَبَهَا ، وَإِلْقَاءِ حَبْلِهَا عَلَى غَارِبِهَا ؛
فَتَدَثَّرْتُ فَرَسًا مُحْضَارًا ، وَاعْتَقَلْتُ لَدُنَا خَطَّارًا ، وَسَرَيْتُ لَيْلَتِي
جَمْعَاءَ ، أَجُوبُ الْبَيْدَاءِ ، وَأَقْتَرِي كُلَّ شَجَرَاءٍ وَمَرْدَاءِ ، إِلَى أَنْ
نَشَرَ الصُّبْحُ رَايَاتِهِ ، وَحَيَّعَ الدَّاءِي إِلَى صَلَاتِهِ ، فَزَلْتُ عَنْ مَتْنِ
الرَّكُوبَةِ ، لِأَدَاءِ الْمَكْتُوبَةِ . ثُمَّ حُلْتُ فِي صَهْوَتِهَا ، وَفَرَرْتُ
عَنْ شَحْوَتِهَا ، وَسِرْتُ لَا أَرَى أَنْزَارًا إِلَّا قَفْوَتُهُ ، وَلَا نَشْرًا
إِلَّا عُلُوَّتُهُ ، وَلَا وَادِيًا إِلَّا بَجَزَعَتُهُ ، وَلَا رَاكِبًا إِلَّا اسْتَطْلَعَتُهُ ،
وَجَدْتُ مَعَ ذَلِكَ يَذْهَبُ هَدْرًا ، وَلَا يَجِدُ وَرْدَهُ صَدْرًا ، إِلَى أَنْ
حَانَتْ صَكَّةُ عُمِّي ، وَلَفَحَ هَجِيرٌ يُذْهِلُ غَيْلَانَ عَنْ مِيٍّ .

. . .

أضلت: ألتفت، وضلت الناقة وأضلها ربها. منيرة: مضيئة. اللقحة: الناقة لها لبن. غزيرة الدّر: كثيرة اللبن. إلقاء: ترك. غاربها: أعلى سنامها. اللدن: الرمح اللين. الخطّار: الطويل المضطرب. واعتقلت الرمح: جعلته ما بين سرجك ورجلك. أجوب البيداء: أقطع الفقر. وفسر « حيعل » بأنه قول المؤذن: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، وشاهده:

أَلَا رَبَّ طَيْفٍ بَاتَ مِنْكَ مَعَانِي إِلَى أَنْ دَعَا دَاعِيَ الصَّلَاةِ خِيَةً لَا
وَقَالَ آخِرُ :

أَقُولُ لَهَا وَدَمَعَ الْعَيْنُ جَارِيَهُ أَلَمْ تَحْزَنْكَ حَبِيلَةُ الْمَنَادِي
وَمَعْنَى حَيٍّ ، هَلَمْ وَأَقْبَلُ ، وَالْفَلَاحُ : الْفَوْزُ ، وَأَفْلَحَ الرَّجُلُ ، إِذَا فَازَ وَأَصَابَ
خَيْرًا ، وَالْمَفْلُحُونَ : الْفَائِزُونَ ، وَقِيلَ : الْفَلَاحُ الْبَقَاءُ ، أَيْ أَقْبَلُوا عَلَى بَيْتِ الْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ .
وَالْمَفْلُحُونَ : الْبَاقُونَ . وَالصَّلَاةُ : الْعُلُومَةُ ، وَالصَّلَاةُ : الرَّحْمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُولَئِكَ
عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « اللَّهُمَّ صَلِّ
عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » ، وَالصَّلَاةُ بِمَعْنَى الدَّعَاءِ كَالصَّلَاةِ عَلَى الْمَيِّتِ ، وَكَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيَجِبْ فَإِنْ كَانَ مَفْطَرًا فَلْيَأْكُلْ وَمَنْ
كَانَ صَائِمًا فَلْيَصِلْ » . أَدَاءُ : قَضَاءُ . حُلَّتْ فِي صَهْوَتِهَا : رَكِبَتْ ظَهْرَهَا وَوَثِبَتْ
عَلَيْهَا . فَرَرَتْ : كَشَفَتْ . قَفَوْتُهُ : اتَّبَعْتُهُ . نَشَرَا : مَرْتَفَعَا . اسْطَلَعْتُهُ : اسْتَخَرْتُهُ
وَسَأَلْتُهُ . جِدَدِي : عِزِّي وَاجْتِهَادِي . هَدَرًا : بَاطِلًا . وَرَدُّهُ صَدْرًا ، أَيْ سَوَّالَهُ
خَيْرًا ، وَالْوَرْدُ إِيَّانُ الْمَاءِ ، وَالصَّدْرُ : الرَّجُوعُ عَنْهُ . لَفَّحَ : تَحَرَّكَ . هَجِيرٌ : حَرٌّ .
يَذْهَلُ : يَشْغَلُ .

[أَخْبَارُ ذِي الرُّمَةِ مَعَ مَيٍّ]

غِيلَانُ اسْمُ ذِي الرُّمَةِ ، وَهُوَ غَيْلَانُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ بِيهَسَ بْنِ مَسْعُودَ بْنِ حَارِثَةَ ،
عَدَاةُ فِي الرَّبَابِ ، وَالرَّبَابُ : عَدَى بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ وَتَيْمٌ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ وَعُسْكَلٌ ، وَهُوَ
عُوفُ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ ، وَثُورُ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ ، وَضَبَةُ بْنُ أَدُوهُوَ عَمَّهُمْ ، وَأَدُ بْنُ طَابِخَةَ
ابْنِ الْيَاسِ بْنِ مُضَرَ ، وَسَمِيَ ذَا الرُّمَةِ ، لِقَوْلِهِ يَصِفُ وَتَدًّا :
وغير مرضوخ القفا موتود أشعث باقي رُمّة التقليد^(١)
نعم فأنّت اليوم كالعمود^(٢) من الهوى أو شبه المورود

(١) ديوانه ١٥٥ . مرضوخ القفا : مدقوق ، يعنى الوتد . والرمة : القطعة من الحبل .

(٢) الديوان : « كالعمود » ، قال في شرحه : العمود ما انضمت عليه الضلوع .

بمى ذات الميسم المبرود^(١) والمقلتين وبياض الجيد
وقيل: سُمي به لأنه خشى عليه من المس، فأتى به رجل من الحى فكتب له
معاذة علمت في عنقه، وشُدَّت بحبل. وقيل: سمته بذلك خرقاء التي يذكرها في
شعره، وذلك أنه رآها وهي في جوارٍ على سنّها فأعجبته وأدام الالتفات إليها،
ثم قال لها: يا جارية أخرجي لي هذه القربة. فعملت مراده، فقالت له: إني خرقاء،
فولّى وفي يده قطعة حبل بال فنادته: يا ذا الرّمة إن كنتُ خرقاء، فجاريتي صنّاع،
فاذهب إليها، فمضى عليه ذو الرمة، وسمّاها في شعره خرقاء، فمضت
عليها^(٢).

وهي مى بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم، وتُكنى أم ثور،
وغلبت عليه حتى عرف بها، فقيل غيلان مى كما قيل كثير عزة.

وأول أمره مع مى - فيما حكى الأصبهاني عن أمة لأم مى - قالت^(٣): كنّا
نازليين بأسافل الدّهناء ورهط ذى الرّمة بجاورون لنا، فجلست مية تغسل ثيابا لها
ولأمها، في بيت رث فيه خروق، وهي فتاة أحسن من رأيت حين بدا ثدياها،
فلما فرغت لبست ثيابها وجلست عند أمها، وأقبل ذو الرّمة يُنشد ضالة، فدخل
وجلس ساعة ثم خرج، فقالت مية: إني لأرى أن هذا العذرى قد رآني منكشفة
واطلع على من حيث لا أشعر، فإنّ بنى عذرة أخبث قوم في الأرض - فاذهبي

(١) في الديوان: «بمى ذات الميسم»

(٢) الخبر في الأغاني: «.. وكان اجتاز بجباها وهي جالسة جنب أمها فاستسقاها ماء،
فقالت لها أمها: قومي فاسقيه. وقيل: بل خرق لإداته لا رآها وقال لها أخرجي لي هذه، فقالت:
والله ما أحسن ذلك فإني لخرقاء - قال: والخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على
قومها - فقال لأمها: مر بها أن تسقيني ماء، فقالت لها: قومي يا خرقاء، فاسقيه ماء، فقامت
فأعطته ماء؛ وكانت على كتفه رمة، وهي قطعة من حبل، فقالت: اشرب يا ذا الرمة.. فنلقب
بذلك. الأغاني ١٨: ١

(٣) الأغاني ١٨: ١

فَقَعَى أثره ، فقالت : قصصتُ أثره فوجدته قد تردّد أكثر من ثلاثين مرة ، كل ذلك يدنو فيطّلع عليها ، ثم يرجع على عقبه ثم يعود فأخبرتها بذلك ، ثم لم ينشب أن جاء ناشعره فيها من كل وجه ومكان .

وحدث أيضا بسنده عن عمارة بن ثقيف ،^(١) أن ذا الرّومة حدّثه أن أول أمره معها أنه خرج مع أخيه وابن عمّه في بقاء إبل لهم ، فوردوا على ماء ، وقد جهدهم العطش . قال : فأنيت خباء عظيما أستسقي لهما ماء ؛ فإذا عجوز جالسة في رواقه ، فالتفتت وراءها وقالت : يامى ، اسق الغلام ، فدخلت عليها وهى تنسج شقة ، فقالت لى : لقد كلّفك أهلك السفر ، على ما أرى من حدّانة سنك ، ثم قامت تصبّ في ركوتى ماء وعليها شوذب^(٢) ، فلما انحطت على القربة رأيت مرأى لم أر أحسن منه ، فلهوت بالنظر إليها ، وهى تصبّ الماء فيذهب يمينا وشمالا . فقالت العجوز : يا بنى أهلك مى عما بعثك له أهلك ، أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا ؟ قلت : أما والله ليطولن هيامى بها ، ثم أنيت بالماء أخى وابن عمى فلففت رأسى ، وانتبذت ناحية وقلت :

قد سَخِرْتُ أخت بنى لبيدر مئى ومن سَلَمَ ومن وَليدٍ
رأت غلامى سفر بعيد يدّرعان الليل ذا السدود
* مثل ادّراع اليلق الحديد *^(٣)

وهى أول قصيدة^(٤) قلت : ثم مكثتُ أهيم بها فى ديارها عشرين سنة .
وأما ابن^(٥) قتيبة فقال : مكثت مى تسع شعر ذى الرّومة ولا تراه ،

(١) الأغاني ١٨ : ١٨ (٢) الشوذب : الثوب الطويل (٣) اليلق : العباء

(٤) ديوانه ١٥٥ - ١٦٣ ، ومطلعها :

هل تعرف المنزل بالوحيد قفرا محام أجد الأيد

(٥) الشعر والشعراء ٥٠٩

لجعلت لله أن تنحصر بدنه يوم تراه - وكانت من أجل الناس - فلما رأته دميما أسود صاحت : واسوءناه ! واضيعة بدنتاه ! فقال :

على وجه مَيّ مَسْمُوعَةٍ من مَلَاَحَةٍ وتحت الثياب الشَّيْنُ لو كان باديا
فكشفت عن جسدها ، وقالت : أشينا ترى لا أمّ لك ! فقال :

ألم تر أن الماء ينجث طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافيا
فقلت له : قد رأيت ما تحت الثياب ، فلم يبق إلّا أن أقول لك : هلمْ
فَذُقْ ما وراه ، فوالله لاذقت ذلك أبدا^(١) . ثم صالح الأمر بينهما ، فعادا لما
كانا من حبهما .

وهو شاعر مجيد مكثر وصاف للأطلال والديار والصبر على قطع القفار .
أبو الفرج^(٢) : كان سليمان بن أبي شَيْخ ، رواية لشعر ذى الثرمة ، فأنشد
يوما قصيدة له وإعرابي من بني عدى بسمعه فقال : أشهد أنك فقيه تحسن
ما تلوته ، وكان يحسبه قرآنا .

وكان أهل البادية يعجبهم شعره ، وكان جرير والفرزدق يحسدانه .
وقال حماد الراوية : ما أحرّ القوم ذكره إلا لحدائث سنه ، وأنهم حسدوه .
وقال أبو الطارف : لم يكن أحد منهم في زمانه أبلغ منه ، ولا أحسن جوابا ،
وكان كلامه أحسن من شعره .

وقال مولى لبني هاشم : رأيته بسوق المربد وقد عارضه رجل فقال :
يا أعرابي - يهزأ به - أتشهد بما لم تر ؟ قال : نعم ، قال : بماذا ، قال : أن أباك
نأك أمك .

(١) في خير الأغاني ١٨ : ٢٨ فقال :

فياضيعة الشَّعر الذى لَجَّ فاهضى بمَيّ ولمْ أملك ضلال فؤاديا

(٢) الأغاني ١٨ : ٧ .

الأصمعيّ ما أعلم أحداً من العشاق شكّا أحسن من شكوى ذى الرّثمة،
مع عفة وعقل .

أبو عبيدة: يخبر ذو الرّثمة فيحسن الخبر، ثم يردّ على نفسه فيحسن الردّ، ثم
يمتدّر فيحسن التخلّص، مع حسن إنصاف في الحكم وعفاف .

وقال ذو الرّثمة: من ^(١) شرى ما ساعدنى فيه القول، ومنه ما أجهدت نفسى
فيه . ومنه ما جننت فيه جنونا، فأما الذى طأوعنى فيه القول فقولى :

خِلِيّ عَوْجًا فى صُدُورِ الرّواحِلِ بِمَجْهُورِ حُزْوَى فابْكِيَا فى المَنَازِلِ ^(٢)
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يَمُتِّبُ رَاحَةَ مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفَى نَجَى الْبَلَابِلِ
وأما ما أجهدت نفسى فيه فقولى :

أَنْ تَوَسَّمتَ مِنْ خرقاءَ مَنْزِلَةً مَا الصَّبَابَةُ مِنْ عَيْنِكَ مَسْجُومٌ ^(٣)
كَأَنَّهَا بَعْدَ أَحْوالٍ مَضِينٍ لَهَا بِالْأَشِيمِينَ يَمَانٍ فِيهِ تَسْهِيمٌ
وأما الذى جننت فيه جنونا فقولى :

حَابَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ مَرْبٌ ^(٤)
بِرَاقَةِ الْجَيْدِ وَاللَّيَاتِ وَاضِحَةٌ كَأَنَّهَا ظَبِيَّةٌ أَفْضَى بِهَا لَبٌ ^(٥)
زَيْنُ الثِّيَابِ وَإِنْ أَنْوَابُهَا اسْتَلْبَتْ فَوْقَ الْحَشِيَّةِ يَوْمَا زَانِهَا السَّلْبُ
إِذَا أَخُو لَذَّةِ الدُّنْيَا تَبَطَّنَهَا وَالْبَيْتُ فَوْقَهُمَا بِالسَّتْرِ مُحْتَجِبُ
سَاقَتْ بِظَبِيَّةِ الْعَرْنَيْنِ مَارُئُهَا بِالْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْمَهْدَى مُحْتَضِبُ
لِمَاءٍ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسَ وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ
كَلَاءٍ فِي بَرَجٍ ، بِيضَاءٍ فِي دَعَجٍ كَأَنَّهَا فَضَّةٌ قَدْ زَانَهَا ذَهَبُ
وهذه القصيدة من المطولات التى نَيْفَتْ عَلَى الْمِائَةِ وَرُبْعِهَا ، وَتَصَرَّفَ فِيهَا

(١) الأغانى ١٨ : ٢٢ (٢) ديوانه ٤٩١ . والجهور : العظيم من الرمل

(٣) ديوانه ٦٧ والأشيمان جبلان من جبال الرمل

(٤) ديوانه ١ (٥) اللب: منقطع الرمل .

ماشاء من أوصاف الأطلال والديار والثور والحمار والكلاب والظبي وغير ذلك .
وفي خلال ذلك يأتى بقشيبات بديعات . وهو أشعر الشعراء الإسلاميين في
التشبيه ، وكان يقول : إذا قلت « كَأَنَّ » فلم أجد نخرجا فقطع الله لساني .
واحتمذى في ذلك حذوه من المولدين ابن المعتز ، وقصده الحريري في هذا
الموضع لمعنيين : أحدهما لأنه كان صادقاً في حب مية فكان لا يشغله عنها شيء ،
لامثل كثير عزة وغيره ممن لا يصدق في حبه ، والثاني أنه يكثر في شعره صبره .
على قطع الهواجر لمية مثل قوله :

وهاجرة من دون مية لم تقل قلوصى بها والجنذب الجون يرمح^(١)
إذا جعل الحرباء مما أصابه من الحر يلوى رأسه ويرنح
لئن كانت الدنيا على كما أرى تباريح من مية فلاموت أروح
ولما شكوت الحب كيما تشينى بودى قالت إنما أنت تمزح
فذكر الحريري أن هذه الهاجرة شغلته عن ذكر مية حتى طلب ظلاً بلوذ به

* * *

وكان يوماً أطول من ظل القناة ، وأحر من دمع المقلات
فأيقنت أى إن لم أستكن من الوقدة ، وأستحم بالرقدة ، وأذنفنى
الغوب ، وعلقت بى شعوب . فعبت إلى سرحة كشيقة الأغصان ،
وريقة الأفنان ، لأغور تحتها إلى المغيربان ؛ فوالله ما استروح
نفسى ، ولا استراح نفسي ؛ حتى نظرت إلى سائح ، فى هيئة
سائح ؛ وهو يذجع نجعتى ، ويشد إلى بقعتى ، فكرهت
انسياجه إلى معاجى ؛ فاستعدت بالله من شر كل مفاجى . تم

(١) ديوانه ٨٦ . لم تقل ، من القيلولة والفلوس : الناقه الفتية . والجون : الأبيض أو
الأسود ، من الأضداد . يرمح : يضرب الأرض برجله من شدة الحر .

تَرْجَيْتُ أَنْ يَتَصَدَّقَ مِنْشَدًا ، أَوْ يَتَبَدَّى مُرْشِدًا . فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ
سَرَحَتِي ، وَكَادَ يُحِلُّ بِسَاحَتِي ، أَلْفَيْتُهُ شَيْخَنَا السَّرُوجِيَّ ، مُتَّسِحًا
بِجَرَابِهِ ، وَمُضْطَمِّنًا أَهْبَةً تَجَوَّابَهُ ، فَأَنْسَى إِذْ وَرَدَ ، وَأَنْسَانِي مَاشِرَدَ ،
ثُمَّ اسْتَوْضَحْتُهُ مِنْ أَيْنَ أَثَرُهُ ، وَكَيْفَ عُجْرُهُ وَبُجْرُهُ .

أَسْتَكِنَ : أَسْتَرُ وَأَطْلُبُ كِنًا . الْوَقْدَةُ : شِدَّةُ الْحَرِّ . أَسْتَجِمُّ : أَسْتَرِيحُ
فَأَتَقَوَّى . أَدْفِنِي : أَمْرَضَنِي . الْفُغُوبُ : التَّعَبُ .

وذكر طول اليوم وأنشد عليه في الشرح: « ويوم كطل الرمح... » ، وذكر
أنَّ اليوم القصير يوصف بإبهام القطاة ، ولم ينشده عليه شيئًا . وقال جرير :

ويومٍ كإبهام القطاة محبٍ إلى صباه غالبٍ لي باطله^(١)
رزقنا به الصَّيْدَ الغزير فلم يكن كمن نبله محرومةً وحباؤه
وذلك يومٌ خيرُهُ قبل شرِّه تقيب واشيه وأقصر عاذله

قال الأصمعي : قال لي خلف الأحمر : ويحه فما ينفعه حين يثول إلى الشرِّ ؟
قلت : فكيف يجب أن يقول ؟ قال : خيرهُ دون شرهِ ، قلت : والله لا أرويه
بعدها إلا هكذا .

عُجْتُ : مَلْتُ . مَرَّحَةٌ : شَجَرَةٌ . كَثِيفَةٌ : مُلْتَفَةُ الْأَغْصَانِ . وَرِيقَةٌ : كَثِيرَةٌ
الورق . والأفنان : الأغصان ، أو ما تفرع منها . وما أحسن ما نظم في الفرار
من الحرِّ إلى الظلِّ المنازي كاتب مروان صاحب ميا فارقين حين قال :

وَقَانَا وَقْدَةَ الرَّمْضَاءِ رَوْضٍ سَقَاهُ مَضَاعِفُ الطَّلِّ^(٣) الْعَمِيمِ

(١) ديوانه : ٤٧٩ ، مع اختلاف في الرواية . (٢) فصح الطيب ٤ : ٢٨٨ .

(٣) فصح الطيب : النبش .

(٢٠ شرح مقامات الحريري ج ٣)

قصَدنا دَوْحَهُ فحنا علينا حُنُوَّ الوالداتِ على الفطيمِ
يراعى الشمس أُنَّى قابَلَتُنَا فيحببها ويأذُنُ للنسيمِ

وهذا ما يتعلق بالفرض ، وزاد فيه معنى بديعا بقوله :

ويستقينا على ظلمٍ زلالاً أَلَذَّ من اللدام مع الكريمِ^(٢)
يَرُوعُ حصاه حالية الفَوَانِ فتلمس جانب العقد النظيمِ

تأمل هذه الصفة تجدها غاية في بابها ، وتخيّل هذه الجارية كيف نظرت
بياض الحصى في الماء ، فارتاعت وحسبت عقدها تنائر ، فالتمسته بيدها .

وقال الهبي فأحسن :

أدِرْها فقد ألّوم إحدى الفنائِمِ ولا نخش إثمًا لست فيها بآئِمِ^(١)
ولا عيش إلا في اعتصامِ بقهوة يَرُوحُ الفتى منها خضيبَ المعاصِمِ
ولا ظل إلا ظل كَرَمٍ معرشٍ تغنيك من قُطْرِبِهِ وَرُقُ الحائمِ
سما غصونٍ تحجب الشمس أن ترى على الأرض إلا مثل نثر الدَّراهِمِ

وقال ابنُ بُنَالٍ في متنزّهٍ بشريش يسمى أجانة :

أيا حبذا إجانة كيفما اغتدتْ زمان ربيع أو زمان عصيرِ^(٢)
مذاب ماء كاللجين على حصى كدرَ بلا ثقب أغرّ ثبيرِ
ورمل إذا ما ابتلّ بالماء عطْفُهُ غنيينا به عن عنبرٍ وذَرورِ
وتين كما قامت على حَلَمَاتِهَا نهودُ عذارى الزنج فوق صدورِ
كأن القباب الخزّ فيها عرائسُ على سُرُرٍ مفروشة بحريرِ

وله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

كأن جنى القوطى في روث الضحى وقد حملته راحة الورقاتِ

نهود عذارى زُحزحت عن مقرّها فقامت على الأطراف والحافات
 قوله : استروح نفسى ، أى استنشقت الريح فتنفّست فيه من التعب ، أى
 ما سكنت عني أنفاس التعب ، واستروحت الشيء ، وجدت ريحه . سأنح : عابر
 بسيمح فى الأرض ، أى يمشى فى جهاتها ، ويقال للمكدى : سأنح ، لأنه يسيمح فى
 طلب الكدية . ينتجع نجعتى ، أى يقصد قصدى فى طلب الراحة . والانتجاع :
 طلب المرعى . يشتدّ : يجرى . بُقعتى : موضعى . انعياجه : انعطافه . معاجى :
 مكائى الذى عجت إليه . مقاجى : آت على غفلة . يتصدّى : يتعرّض . منشدا :
 دالاً على الشيء . تقول : نشدت الضالة : طلبتها ، وأنشدتها : دلت عليها طلبها .
 مرشدا : هادياً للطريق . ساحتى : موضعى الذى أنا فيه . ألفيته : وجدته . متشعّحاً :
 بجرابه ، أى جعل جرابه موضع الوشاح . أهبة تجوابه ، أى عدة جَوْلانه . ورد :
 وصل . ماشرود : ما نقر ، يعنى الضالة . استوضحته : سألته أن يوضح لى أمره .

* * *

فأنشد بديها ، ولم يقل إيهيا :

قُلْ لِمُسْتَطْلِعٍ دَخِيلَةٍ أَمْرِي لَكَ عِنْدِي كَرَامَةٌ وَعَزَاةٌ

أنا ما بين جوبِ أرضٍ فأرضٍ

وَسُرِّي فِي مَفَاذٍ فَمَفَاذَةٍ

زَادِي الصَّيْدُ وَالْمَطِيَّةُ تَعْلِي وَجَهَاذِي الْجَرَابُ وَالْمَكَاذَةُ

فَإِذَا مَا هَبَطْتُ مَصْرًا فَبَيْتِي غُرْفَةُ الْخَانِ وَالْتِدِيمُ جُزَاةٌ

لَيْسَ لِي مَا أَسَاءُ إِنْ فَاتَ أَوْ أَحْزَ

نُ إِنْ حَاوَلَ الزَّمَانُ ابْتِزَاةً

غير أنى أبيتُ خلوا من الهمِّ ونَفْسِي عن الأَسَى مُنْجَازَه
أُرْقِدُ اللَّيْلَ ملءَ جفني وقلبي باردٌ من حَرَارَةِ وَحْزَا زَه
لا أبالي من أَى كَأْسٍ تَفَوَّقْتَ ولا ما حَلَاوَةٌ من مَزَا زَه
لا ولا أَسْتَجِيزُ أنْ أَجْعَلَ الذَّلَّ مجازاً إلى تَسَنَّى إِجَا زَه
وَإِذَا مَطْلَبٌ كَسَا حُلَّةَ العَا رَفِيعُداً لِمَنْ يَرُومُ نَجَا زَه
وَمَتَى اهْتَزَّ للدَّعَاءِ نِكْسٌ عَافَ طَبْعِي طِبَاعُهُ وَاهْتَزَا زَه
فَالْمُنَايَا ولا الدُّنَايَا وخَيْرٌ

مِنْ رُكُوبِ الْخَنَاءِ رُكُوبُ الْجِنَا زَه

بديها: مرتجلا من غير فكرة . المستطام: الذي يجب أن يقطع على الأمر
دخيلة أمرى: باطنه . عزازة: عزة ورفعة . جوب: قطع . سرى: مشى الليل .
مفازة، قال الأصمعي: هي المهلكة سميت بذلك تفاؤلا لسالكها بالفوز، كما
سمى اللديغ سليما تفاؤلا بالسلامة، قال ابن الأعرابي: هي مأخوذة من فوز الرجل،
إذا هلك، والعرب تسمى النعل مطية مجازاً حيث يستعان بها على قطع المفازة .
وأنشد أبو علي الفارسي رحمه الله:

رَوَّاحِلُنَا سِتُّ وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ نَجْتَبِهِنَّ الْمَاءَ فِي كُلِّ مَشْرَبٍ^(١)
وقال أبو نواس:

إِلَيْكَ أبا العباس يا خَيْرَ مَنْ مَشَى عَلَيْهَا امْتَطَيْنَا الْحَضْرَمَى الْمَلْسَنَا^(٢)
قَلَانِصَ لَمْ تَعْرِفْ حَنِينًا إِلَى طَلَاً وَلَمْ تَذَرِ مَاقِرِعَ الْفَنِيقِ وَلَا الْهِنَا^(٣)

(١) شرح العكبري ١: ٣٠٣ من غير نسبة . وفيه: « من غير منهل » .

(٢) ديوانه ٧٦، شرح العكبري ١: ٣٠١ . (٣) الهنا: القطران .

وأخذه أبو الطيب فقال :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسَّوط يوم الرَّهان أَجْهِدُهَا^(١)
شِراكها كُورها ومِشْقَرها زمامُها والشَّسُوع مِقْوَدُها
أشدَّ عصف الرياح يسبقه تحيَّ من خَطْوِها نأْيُها
وكان السَّروجي أكثرَ عدَّة من أبي الشَّمِمْق^(٢) في قوله :

كلِّمًا كنتُ في جموع فقالوا قَرَّبوا للرَّحِيل قَرَّبْتُ نَعْلِي^(٣)
أترى أنْتى من الدهر يوماً لى فيه مطية غير رِجْلِي
حيثما كنتُ لا أخلف رَحْلاً مَنْ رَأَى فقد رَأَى ورَحْلِي

ومن أبيات المعاني في نعل :

وسوداء المناسب يَمَقِّطُهَا أخو الحاجات ليس له نَكِيرُ
ويحملها وتعمله وفيها منافع حيث يبتدر السَّفِيرُ
على أن السَّفار ينال منها فيرقعها إذا جَدَّ المسيرُ

السفير : ورق الشجر ، والمِسْفَرَة المكفسة . والجهاز : ما يحتاج إليه المسافر من العِدَّة . والعُكَّازة : العصا . مصرى : بلدا . الخان : الفندق . والتديم : الصاحب على الشراب ، وجُرَّازة ، قيل : إنه خليعٌ مشهور عندهم ، وهذا لا يبعد . وأخبرني الأستاذ أبو ذرٍّ وغيره أنها القراطيس الصفراء ، يكتب للناس فيها صفة حاله فيستجديهم بها ، فيريد أن نديمه إذا دخل بلدة قطع من قرطاس يجرّزها ورقة كبيرة ، يكتب فيها بما يجلب تما يُؤكل ويشرب ، والجزازة : ما يسقط من الشيء تجزؤه ، كالفصاصة ما يسقط مما يُقص ، والنُّحانة والقُلَّامة وغير ذلك ، فلما كانت القطعة الصغيرة تسقط من الورقة سمَّوها جُرَّازة ، ثم اشتهر عندهم ماصفر

(٢) اسمه مروان بن محمد .

(١) ديوانه ١ : ٣٠٩

(٣) كتاب « شعراء ساسيون » ٣٥ ، والمقد ٣ : ٤٤ / ٢٥٥ .

من القراطيس بهذا الاسم . قال الفنجديهي : جزازة ، أى قطعة كاغد عليها شيء مكتوب ، والجزازة : ما يقطع من الشيء . قال : وأنشد بعضهم :

وقالوا كيف حالك قلتُ حالي تُقضى حاجتي وتنفوت حاجي
نديمي مررتي وسميرُ أنسى دفاتيري ومعشوقي سراجي
أساء : أصاب فيه بسوء ، وأحزن عليه . حاول : طلب . ابتزازه : تجريده وإزالته . خلو : فارغ البال الأسمى : الحزن . منجازه : متنجية ومنعزلة ومنقبضة . وانحاز : انعزل . ملء جفنى : أى أرقد هنيئاً لقله هـى ، فتمتلىء عيني بالنوم ، وهو من قول المتنبي :

* أنا مملء جفوني عن شوارديها ^(١) *

والجزازة فى القلب : تأثير الهمِّ كأنه يحزّ فيه ، أى يقطع . وقال الشاعر :
إذا كان أولاد الرجال حزازةً فأنتَ الحلالُ الحلو والبارد العذبُ
والجزازة هنا : الولد السوء ، ولا شيء أنكى للقلب من هـه ، والجزازة أيضاً الحقد والغيط ، وفى قلبى منه حزازة ، أى حرقة وحزن . تنفوت ، أى شربت فواقها ، وهو أخذها مافىها شيئاً فشيئاً ، وما بين عبّة وعبّة فواق ؛ وأصله ما بين حلبة من الصرع وحلبة . مزازة : بين الحوضة والحلاوة . مجازاً : طريقاً يجاز عليه . تسنى : تيسر . إجازة : عطية وصلة . يروم : يطلب . نجازة : قضاءه وتماه ، ولبعضهم فى هذا المعنى :

أشدُّ من عَيْلَةٍ وجُوعٍ إغضاه حرّة على الخضوع
فدفع من الدهر قوتَ يومٍ وأنتَ بالنزولِ الرفيع
ولاً ترد ثروة بـمالٍ يُنالُ بالذلِّ والخشوع

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٧ ، وبقية .

* وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَحْتَمِمُ *

وارْجُلْ إِذَا أُجْدِبْتَ بِلَادٍ مِنْهَا إِلَى الْخِصْبِ وَالرَّيْعِ
الدَّاءَةُ : الفعل القبيح . نِكَسَ : دنى . عَافَ : كَرِهَ . اهْتَزَّاهُ : طَرَبَهُ وَخَفَّتَهُ .
ولبعضهم في هذا المعنى :

وَيَحْتَنِبُ اللَّيْبُ وَرُودَ مَاءٍ إِذَا كَانَ الْكَلَابُ يَلْفَنَ فِيهِ
كَمَا سَقَطَ الذَّبَابُ عَلَى طَعَامٍ فَتَرَكَهُ وَنَفْسُكَ تَشْتَهِيهِ

وقال أبو محمد المصري يخاطب المعتد وقد فرّ منه :

رَحَلْتُ فِي الْقَلْبِ بَجَرُ الْفَضَى وَهَجَرِي لَكُمْ دُونَ شَكِّ صَوَابُ
كَمَا تَهْجُرُ النَّفْسُ حُرَّ الطَّعَامِ إِذَا مَا تَسَاقَطَ فِيهِ الذَّبَابُ

النايا ولا الدنيا ، أى إلتئان المنية ولا فعل الدنية ، قال أوس بن حارثة :
مَلَكَ الْمَنِيَّةُ وَلَا الدُّنْيَا ، فِي وَصِيَّةٍ طَوِيلَةٍ ، وَالْمَنِيَّةُ مَعْنَاهَا الْمَقْدُورَةُ الْمَحْكُومُ بِهَا ،
وَهِيَ مَفْعُولَةٌ مِنَ السُّنَى وَهُوَ الْمَقْدَرُ وَالْقَدَرُ ، يُقَالُ : مَنَّكَ اللَّهُ بِمَا يَسْرُكَ ، وَأَصْلُهَا
مَمْنُوءَةٌ فَصُرِفَتْ مَفْعُولَةٌ فَعِيلَةٌ ، كَمَطْبُوحٍ وَطَبِيخٍ ، وَأَدْعَمْتَ الْيَاءَ فِي الْيَاءِ . الْخَنَا :
الْفَسَادُ . الْجَنَازَةُ : النَعْمَشُ .

* * *

ثُمَّ رَفَعَ إِلَى طَرَفِهِ ، وَقَالَ : لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرُ أَنْفِهِ ، فَأَخْبَرْتُهُ
خَبْرَ نَاقَتِي السَّارِحَةِ ، وَمَا عَانَيْتُهُ فِي يَوْمِي وَالْبَارِحَةِ ، فَقَالَ : دَعِ
الْإِلْتِفَاتَ ، إِلَى مَا فَاتَ ، وَالطَّمَّاحَ إِلَى مَا طَاحَ ، وَلَا تَأْسَ عَلَى مَا ذَهَبَ ،
وَلَوْ أَنَّهُ وَاذِمٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَا تَسْتَمِلِ مَنْ مَالَ عَنْ رِيحِكَ ،
وَأَضْرَمَ نَارَ تَبَارِيحِكَ ، وَلَوْ كَانَ ابْنُ بُوحِكَ ، أَوْ شَقِيقُ رُوحِكَ ،
ثُمَّ قَالَ : هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَقِيلَ ، وَتَتَحَامَى الْقَالَ وَالْقِيلَ ؟ فَإِنَّ

الْأَبْدَانُ أَنْضَاءُ تَعَبَ ، وَالْهَاجِرَةُ ذَاتُ لَهَبٍ ، وَلَنْ يَصْنُقَلَ الْخَاطِرُ ،
وَيَنْشَطُ الْفَاتِرُ ، كَقَائِلَةِ الْهَوَاجِرِ ، وَخُصُوصًا فِي شَهْرِى نَاجِرٍ فَقُلْتُ :
ذَاكَ إِلَيْكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، فَافْتَرَشَ التُّرْبَ وَاضْطَجَعَ ،
وَأُظْهِرَ أَنْ قَدْ هَجَعَ ، وَارْتَفَقْتُ عَلَى أَنْ أُحْرُسَ ، وَلَا أُنْعَسَ ، فَأَخَذْتَنِي
السَّنَةَ ؛ إِذْ زُمْتُ الْأَلْسِنَةَ ، فَلَمْ أَفِئْ إِلَّا وَاللَّيْلُ قَدْ تَوَلَّجَ ، وَالصُّبْحُ قَدْ
تَبَلَّجَ ، وَلَا السَّرُوجَى وَلَا الْمُسْرَجَ .

* * *

قوله : «لَأْمِرٍ مَا جَدَعَ قَصِيرُ أَنْفِهِ» أى ماجدع قصير أنفه إلا لعنى ، وكذلك
أنت ما خرجت في هذا الوقت لشدة حره إلى هذه القفار الخوفة إلا لعنى ، فأخبرتني
به ، فلذلك قال : «فأخبرته خبر ناقتي» ، وأيضاً فإن أول الكلام يدل عليه ، لأنه
قال : فاستوضحته من أين أثره ، فأخبره السروجى في الشعر بقصته ، فلما أكملها
سأل ابن همام عن قصته ، فأخبره بالناقة الضائعة . والسارحة : التى سرحت ، أى
مشت حيث شاءت . عاينته : شاهدهته ورأيتة . الالتفات : النظر إلى جهة .
والطامح : ارتفاع العين بالنظر وطامح : ذهب وتلف . لا تأس : لا تعزن .
ولا تستعمل : تستدع حبه وأن يميل إليك بوجه . مال : انحرف . عن ربيعك :
عن طريقك وهواك . أضرمت : أوقدت . تباريحك : أحزانك . ثقل : تنام في
القالا : تتعاضى : تتباعد عنها . أنضاء : جمع نضو وهو المهزول ، أى قد أهزل
التمب أبداننا . الهاجرة : القائلة تسمى هاجرة لأنها تهجر البرد ، أولائها
أكثر حرراً من سائر النهار ، يقال : فلان أهجر من فلان ، إذا كان أضخم منه .
لهب : نار .

وشهري ناجر : يونيه وبوليه ، وهما أشد الحر . قال الأزهرى : هما حزيان

وتموز ، النجران : العطشان . ابن سيده : ظن قوم أنهم حَزيران وتموز ، وهذا غلط ، وإنما هما وقت طلوع نجمين من نجوم القيظ .

الليث : كل شهر في صميم الحر فاسمه ناجر ، لأن الإبل تنجر فيه ، أي تشتد عطشاً حتى تبيس جلودها ، فلا تكاد تروى من الماء .

هجم : رقد . وارتفتت : توكت على مرفقي . السنة : النوم القليل . زمت : ربطت ومنعت . فأولج : دخل . تبلج : أضاء وظهر . المسرج : القرس عليه سرجه .

فبتَ بَدِيلَةً نابغةً ، وأحزابٍ يَعْقُوبِيَّةَ ، أساورُ الوجُومِ ،
وأساهرُ النجومِ ، أفكرُ تارةً في رُجَلَتِي ، وأخرى في رَجْعَتِي ،
إلى أن وَضَحَ لي عِنْدَ اقْتِرَارِ تَغْرِ الضَّوءِ في وَجْهِ الجَوِّ ، رَاكِبٌ
يَحْدُ في الدَّوِّ ، فألمتُ إِلَيْهِ بِشَوْبِي ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُعَرِّجَ إلى صَوْبِي ،
فَلَمْ يَغْبَأْ بِإِلْمَاعِي ، ولا أَوَى لِإِلْتِياعِي ، بَلْ سَارَ على هِينَتِهِ ، وَأَصْمَأَى
بِسَهْمِ إِهَاتَتِهِ ، فأوفضتُ إِلَيْهِ لِأَسْتَرْدِفَهُ ، وَأُحْتَمِلَ تَغَطُّرُهُ . فلَمَّا
أَذْرَكْتُهُ بَعْدَ الْإَيْنِ ، وأجلتُ فيه مَسْرَحَ الْعَيْنِ ، وَجَدْتُ نَاقَتِي
مُطِيَّتَهُ ، وَضَالَّتِي لِقَطَّتَهُ ، فَمَا كَذَّبْتُ أَنْ أَذَرِيتهُ عَنْ سَنَامِهَا ،
وَجَاذَبْتُهُ طَرَفَ زَمَامِهَا ، وقلتُ له : أنا صَاحِبُهَا وَمُضِلُّهَا ، ولي
رَسَلُهَا وَنَسْلُهَا ، فلا تَكُنْ كَأَشْعَبَ ، فُتُتِبَ وَتَتَّبَ .

أساور : أوائب . الوجوم : السكوت على غيظ ، والمعنى : أن الغيظ إذا اشتد عليه عالج كظمه ودفعه عن نفسه ، فكأنه يوائبه . أساهر : أسامر ، والسهر امتناع النوم . الرُّجْلة ، بضم الراء : القُدرة على المشى ، ورجل يرجل رجلاً ورجلةً ، إذا مشى في السفر وحده بلا دابة . وضع : تبين . افتزار : انكشاف ، وافتَرَ : كشف أسنانه عند الضحك . يخذ : يسرع . الدو : الصحراء ، والراكب : من يركب البعير . والجو : نواحي السماء . يعرج إلى صوبى : يميل إلى جهة وقصدى . يعبأ : يبال . الماعى : إشارتى ، وهو مصدر ألمت إليك ، أى أشرت إليك ، فإذا بعد عنك الرجل فلم يسمع صوتك جردت ثوبك وأشرت إليه ، والإشارة بالثوب هى الإملاع . أوى : أشفق . التياعى : تحزنى وتوجعى . هينته : سكينته . أصامى : أصاب مقتلى . إهاتته : احتقاره . أوفضت : أمرعت . أسترده : أطلب إليه أن يرُدنى . تغطرفه : تكبره ، والغطريف : السيد العظيم . الأبن : الفتور . أجلت : صرفت . مسرح : موضع تسرحها وجو لانها بالنظر . واللقطة : ما يجده الإنسان قد سقط لغيره ، فيأخذه ويلتقطه . أذريته : رميت به عنها . مضلها ، أى الذى ضلّ له . رسلها : لبّنها .

[ذكر أشعب وبعض نوادره]

أشعب : الطماع ، رجل مدنى صاحب نوادر وملاٍ وله صنعة فى الفناء ، وكان أبخل الناس وأكثرهم طمعاً . ويقال فى المثل . أطمع من أشعب ، ولهذا قال الحريرى : فلا تك كأشعب ، أى لا تطمع فى أخذ الناقة فتكون مثله فى طمعه فى مال غيره . فتعجب من تعلقت له بشيء ، وتعجب ، أنت معه فى الخاصة .

ومن حكايات أشعب : قلل سالم بن عبد الله بن عمر لأشعب : ما بلغ من طعمك ؟ قال : لم أنظر إلى اثنين يتساران فى جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لى بشيء .

وقال له ابن أبي الزناد : ما بلغ من طعمك ؟ قال : ما زفّت بالمدينة امرأة ،
إلا كنست يتي رجاء أن يُغلط بها إلى .

وكانت عائشة بنت عثمان كفلته مع ابن أبي الزناد ، فقال أشعب :
تربيت معه في مكان واحد ، وكنت أسفل ويملو حتى بلغنا ما ترون .

وقيل لعائشة : هل آنست من أشعب رشداً ؟ فقالت : أسلمته منذ سنة
في البر ، فسألته بالأمس : أين بلغت في الصناعة ؟ فقال : يا أمه ، قد تعلمت نصف
العمل وبقي نصفه ، تعلمت الذشر في سنة ، وبقي على تعلم الطي .

وسمعه اليوم يخاطب رجلاً وقد ساومه قوس بندق ، فقال : بدينار ، فقال
أشعب : والله لو كنت إذا رميت عليها طائراً وقع في حجرى مشوياً مع
رغيفين ، ما اشتريتها بدينار ، فأى رشديؤنس منه !

ونظر إلى رجل يعمل طبقاً ، فقال له : أسألك بالله إلا ما زدت في سعة
طوقاً أو طوقين ، فقال له الرجل : ما معنى ذلك ؟ فقال : لعله أن يهْدَى إلى
يوماً فيه شيء :

وقيل له : أرايت أطمع منك ؟ قال : نعم ، خرجت إلى الشام مع رفيق
لى ، فتلاحينا عند دير فيه راهب ، فقلت له : الكاذب منا ، أيرُ الراهب في
استه ، فنزل الراهب من صومعته وقد أنعط ، فقال : أيكما الكاذب ؟ ثم قال :
دعوا هذا ، امرأتى أطمع مني ومن الراهب ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال :
إنها قالت : ما يخطر على قلبك شيء يكون بين الشك واليقين إلا وأنا أتيقنه ،
ودعوا هذا ، شاتى أطمع مني ومنها ، قيل : وكيف ؟ قال : صعدت على سطح ،
فنظرت إلى قوس قزح فظننته جبل قَت ، فأهوت إليه فسقطت فاندقت
عنقها .

وقيل له : هل رأيت أطمع منك ؟ قال : كلبة آكل فلان ، رأت رجلاً يعض علكاً فتبعته فرسخين ، نظن أنه يأكل شيئاً .

وقيل له : ما بلغ من طمعك ؟ قال : أضجرتني الصبيان يوماً ، فأردت أن أشغلهم عني ، فقلت لهم : إن بموضع كذا عرساً ، فامضوا نحوه . فلما ذهبوا ظننت أن ثمَّ عرساً ، فتبعتهم .

وقال ابن شرف :

وما بلوغ الأماني في مواعدها إلا كأشعب يرجو وعد عرقوب^(١)
وقد تخالف مكتوب القضاء به فكيف لي بقضاء غير مكتوب .

وقال ابن حجاج :

فديت من نفسي من كل ما لقيته والحق لا يفضب
فقلت : يا عرقوب أطمعني فقال : لم نفسك يا أشعب

* * *

فأخذ يلذع ويصبي ، ويتقح ولا يستغي ، وينا هو ينزو
ويلين ، ويستأسد ويستكين ؛ إذ غشنا أبو زيد لابساً جلد
النمر ، وهاجماً هجوم السيل المنهر ، فخفت والله أن يكون
يومه كأمسه ، وبدره مثل شمس ، فألحق بالقارظين ، وأصير خيراً
بعد عين . فلم أر إلا أن أذكرته اليهود المنسية ، والفعلة الإمسية ،

وَنَامَدْتُهُ اللَّهَ : أَوَافَى لِلتَّلَافِي ، أَمْ لِمَا فِيهِ إِتْلَافِي ؟ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ
أُجْهِزَ عَلَى مَكْلُومِي ، أَوْ أُصِلَ حُرُورِي بِسُمُومِي ؛ بَلْ وَافَيْتُكَ
لَأُخْبِرَكَ كُنْهَ حَالِكَ ، وَأَكُونُ يَمِينًا لِمَمْلُوكِكَ . فَسَكَنَ عِنْدَ ذَلِكَ
جَاشِي ، وَانْجَابَ اسْتِنِحَاشِي ، وَأَطْلَعَتْهُ طِلْعَ اللَّقْحَةِ ، وَتَبَرَّقَعَ صَاحِبِي
بِالْقَحَّةِ .

* * *

قوله : يَتَقَفَّحُ ، أى يبدى الوقاحة : ينزو : يقفز . يستأسد : يتشبه بالأسد
فيتقوى . يستكين : يذل ، يريد أنه كان مرة يتقوى ومرة يذل . غشيناً :
جاءنا فجأة . لابساً جلد النمر ، أى وقحا شجاعا . هاجما : آتيا على غفلة . المنهمر :
الكثير الانصباب ، وتقدم أثر خبر بعد عين ، الإسمية : المنسوبة إلى أمس .
- الفنجديهي : رأيت بخط الحريري النسبة إلى أمس إمسي ، وهو من شاذ -
النسب - نانشده : حلقته . أَوَافَى : أجا وأوتى . التلافي : التدارك قبل فوته . معاذ الله ،
أى أستجير بالله مما ذكرت . أجهز : أتم عليه . مكلومى : مجروحى ، وفى
أخبار على رضى الله عنه أنه ما أجهز على مكلوم قط . أخبر : أعلم . كنه :
حقيقة جاشى : نفسى ، قاله ابن سيده : وقيل : الجأش القلب ، وقيل : رباطته
وشدته عند الشيء يسمعه ، ما يدرى ما هو . وقيل : جاشى : رَوْع قلبى
واضطرابه عند الفزع . واستوحش من الشيء : لم يأنس به . انجباب : انشع
وزال . أطلعت طلمها ، أخبرته سرها وعلوت طلع الأكمة ، أى مكانا يطلع
منه على ما حولها ويشرف عليه والقحة : صلابة الوجه ، كأنه جعل منها برقعاً
على وجهه .

* * *

فنظر إليه نظريث العريسة ، إلى الفريسة . ثم أشرع قبله الرمح ،
وأقسم له بمن أنار الصبح ، لئن لم ينج منجى الذباب ، ويرض من
الغنيمة بالإياب ، ليوردن منانه وريده ، ليفجعن به وليده ووديده .
فبذ زمام الناقة وحاص ، وأفلت وله حصاص ، فقال لي أبو زيد :
تسلمها ونسئها ، فإنها إحدى الحسنيين ، وويل أهون من ويلين .
قال الحارث بن همام : فحرت بين لوم أبي زيد وشكره ، وزنة
نفعه بضره . فكأنه نوجى بذات صدرى ، أو تكهن ما خامر
سرى . فقابلنى بوجه طليق ، وأنشد بلسان ذليق :

يا أخى الحامل ضيى دون إخوانى وقومى
إن يكن سامك أمسى فلقـد سرك يومى
فاغفر ذاك لهذا وأطرح شكرى ولومى

ثم قال : أنا تيق ؛ وأنت متيق ، فكيف تنفق ! وولى يفرى
أديم الأرض ، ويركض طرفه أيما ركض ، فاعدذت أن اقتعدت
مطيتنى ، وعدت لطيتى ، حتى وصلت إلى حلتى ، بعد اللتى والتى .

. . .

العريسة : مأوى الأسد . والفريسة : الصيد يفرسه ، أى يكسر عنقه ،
وهى أكلة الأسد . أشرع : صوب . أنار : نور . بذج منجى : مخلص مخلص ،
وشبه خلوصه بخلوص الذباب ، لأنه يقع على الجسد أو الطعام فيقتذر الإنسان

بمقره فيشرده ، وهو واحد عليه ، فينجو الذباب ، سالما بعد أذائته .

[مما قيل من الشعر في الذباب والبعوض]

وأخذه من قول إبراهيم بن العباس الصولي لـ محمد بن الزيات :
 كن كيف شئت وقل ما تشاء وأبرق يميننا وأرعِدْ شِمَالَنَا^(١)
 نجا بك قومك منجى الذباب حمته مقاديره أن ينالا
 وأخذه إبراهيم من قول الآخر :

أسمعني عبد بن مسمع فصنت عنه النفس والعرضا^(٢)
 ولم أجبه لاحتماري له ومن يعرض الكلب إن عضا !
 ومن قول الآخر :

قوم إذا ما جنى جانبيهم أمنوا للؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا
 وهو كثير ، وإنما اخترع إبراهيم لفظ الذباب .
 وعرض - أى بعض الأدباء - على صاحب له بمحضر جماعة شعرا ، فجعل
 يعرض عن محاسن الشعر ويتبع مواضع النقد حسدا ، فقال له صاحب الشعر :
 أراك كالذباب تعرض عن المواضع السليمة ، وتتبع قروح الجسد .
 وقال ابن الرومي :

تأمل العيب عيب ما بالذى قلت ريب
 والشعر كالشعر فيه مع الشئبة شيب

(١) ديوانه ١٦٣ .

(٢) إنباه الرواة ١ : ١٤٠ وفيه : « شاعني » .

فليصفح الناس عنه فطعنهم فيه عيبٌ

ومنكيات الذباب لابن آدم كثيرة ، منها نزوله على الوجه عند النوم ،
فيلقى منه بلاء ، أو في الصلاة فيصير أضرّ من إبليس للتشاغل ، وأما إذا تساقط
في الطعام فتتغيبه وتنفيه للطباع أضرار لا تخفى ، وقد قدمت آنفاً في ذلك من
الشعر شيئاً ، ولذلك تضرب به العرب المثل فتقول : أجرأ من ذباب ، لأنه ينزل
على الأسد والأمير .

ونذكر هنا ما هو أشدّ أذية منه وهو البعوض ، ولولا أن أيامه قلائل
لأخلى البلاد ، قال ابن رشيق ينسكاه :

ياربّ لا أقوى على دفع الأذى وبك استعنت على الضعيف الموذى^(١)
مالي بعثت إلى ألف بعوضة وبعثت واحدة إلى نمروذ !
وقال ابن شرف :

لك منزل كلمت بشارته لنسا لّلهو لكن تحت ذاك حديث^(٢)
غنى الذباب وظلّ يزمر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث
وقال آخر :

ليلُ البراغيث والبعوضِ ليلٌ طويلٌ بلا غموض
فذاك ينزو بفير رقصٍ وذا يُغنى بلا عروضٍ

وقوله : ويرضى من الغنيمة بالإياب ، منقول من قول امرئ القيس ، وقد

(١) نقله في التنف ٣٠

(٢) نقله في التنف ٩٤ . وينسبان لابن رشيق أيضاً .

الأَكْسِيَّةُ الغَلاظُ فاشترى له ما أراد ، فرجع إلى عتيبة ، فقال له اسمع :

سُئِلْتُ فلم تبخلْ ولم تُعْطِ طائِلًا فسيان لاذِمٌ عليك ولا تَحْمَدُ

وأنت امرؤ لا الجود منه سَجِيَّة

فَتُعْطِي وقد يُعْذِي على النَّاتِلِ الوُجْدُ^(١)

وامتدح أبو تمام إبراهيم بن المهدي ، فوجده عليلاً ، فقبل منه المدحة
وأنا له ما يصلحه ، وقال له : عسى أن أقوم من مرضى فأكاثك ، فأقام شهراً
ثم كتب له :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرتجى من الصَّفَدِ^(٢)

كما الدنانير والدرام في البيع^(٣) حرام إلا يداً بيد

فقال لحاجبه : أعطه ثلاثين ألفاً ، وجئني بدواة ، فكتب إليه :

عاجلتنا فأتاك عاجلُ برتنا قُلَّا ولو أمهلتنا لم نُقَلِّلِ

نُخَذُ القليل وكن كأنك لم تُقَلِّ ونكون نحن كأننا لم نفعل

وقال الخوارزمي :

ولما أن رأيت ابني وليدٍ وبينهما اختلافٌ في الفَعَالِ

وهبت قبيح ذا لجيل هذا وأسلمت العواقب لليبالي

إذا اليدُ أحسنت منها يمينٌ تسوغنا لها ذنب الشمال

(١) الخبر والشعر في الأغاني ٢ : ١٦٨

(٢) الخبر في زهر الآداب ٣٧٦ ، وفيه : « دخل أبو تمام الطائي على أحمد بن أبي دواد »

(٣) زهر الآداب : « في الصرف »

قوله يفرى : أى يقطع . أديم الأرض : وجهها . يركض طِرْفه :
يجرى فرسه . أَيْمًا ، صفة لمصدر محذوف ، وفيه معنى التمتع من كثرة جريه ،
تقديره : يركض ركضًا ، أى ركض . اقدمت : ركب القمُود ، وتقدمت في
الأولى . ماعدوت : ماجاوزت ، أى ما عملت شيئًا قبل القمود على الناقة . حلتى :
موضعى الذى هو سكنى ونزولى . وحلّ : نزل .

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله : « رَيْقُ زَمَانِي وَرَائِهِ » ، يعني أوله ، وقد يخفف فيقال « رَيْقُ » .
وقوله : « آخِذْ أَخْذَ نَفُوسِهِمُ الْأَبْيَةِ » ، يعني أقتدى بهم ، يقال :
أخذه ، بكسر الهمزة وفتحها .

والهَجْمَةُ ، نحو المائة من الإبل .

والثَّلَّةُ : القطيع من الغنم .

والرَاغِيَةُ : الإبل . والثَاغِيَةُ : الشاء ، ومنه قولهم : ماله راغية ولا ثاغية ،
أى لا ناقة له ولا شاء .

وقوله : « أُرْدَافُ أَقْيَالٍ » ، أى يخلقون الملوك إذا غابوا .

وقوله : « أَبْنَاءُ أَقْوَالٍ » ، أى فصحاء ، يقال للمنطيق : إنه ابن
أقوال .

وقوله : « فَتَدَثَّرْتُ فَرْسًا مُحْضَارًا » ، التدَثَّرُ : الوثوب على ظهر
الفرس ، والمحْضَارُ والمَحْضِيرُ : الشديد العدو ، مأخوذ من الحَضَر ، وهو العدو .
وقوله : « أَقْتَرَى كُلَّ شَجَرَاءٍ مَرْدَاءً » الاقتراء : تتبّع الأرض .
والشجرَاء : ذات الشجر ، والمراد الخالية من النبات ، ومنه اشتقاق الأمرد ، خلوة
وجهه من الشعر .

وقوله : « حَيَّيْلُ الدَّاعِي إِلَى صَلَاتِهِ » ، يعني قول المؤذن : حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ
حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ، والمصدر منه الحَيْلَةُ ، ومثله من المصادر الهَيْلَةُ والحَيْدَلَةُ .

والخوذة والبسمة والحسبة والسبحلة والجعلفة ؛ فالحيلة حكاية قول : لا إله إلا الله . والحدلة : حكاية قول : الحمد لله . والحسبة حكاية قول : حسبنا الله ، والسبحلة حكاية قول : سبحان الله . والجعلفة حكاية قول : « جعلت فداك » . وقوله : « فنزلت عن متن الركوبة ، يعنى الركوبة ، يقال : ناقة ركوب وركوبة وحلوب وحلوبة ، وقد قرئ : ﴿ فنها ركوبتهم ﴾ .

والصهوة : مقعد الفارس . والشحوة : الخطوة . والجزع : قطع الوادى عرضاً . وقوله : « صكة عمى » يعنى قائم الظهيرة ، وقد اختلف فى أصله ، فقيل : كان عمى رجلاً مغواراً ، ففزا أقواماً عند قائم الظهيرة ، وصكهم صكة شديدة ، فصار مثلاً لكل من جاء ذلك الوقت ، وقيل : المراد به الظبي ، لأنه يسد فى الهواجر ، ويذهب بصره ، فيصطك ، وكذلك الحية ، واصطكاك الظبي بما يستقبله كاصطكاك الأعمى ، ثم صغر الأعمى تصغير الترخيم ، فقيل : عمى ؛ كما صغروا أسود وأزهر ، فقالوا : سويد وزهير .

وقوله : « وكان يوماً أطول من ظل الفناء » ، يوصف اليوم الطويل بظل الفناء ، كما يوصف اليوم القصير بإبهام القطاة ، والعرب تزعم أن ظل الرمح أطول ظل ، ومنه قول شبرمة بن الطليل :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاق المراه^(١)

وقوله : « أحر من دمع المقات » المقات هى المرأة التى لا يمشى لها ولد ، فدمعها أبداً حار لحزنها ، لأنه يقال : إن دمة الحزن حارة ودمة السرور باردة ، ولهذا قيل للمدعو له : أقر الله عينه ، مأخوذ من القر وهو البرد ، وقيل للمدعو عليه : أسخن الله عينه ، مأخوذ من السخنة ، وهى الحرارة ، وقيل : إن إقرار العين مأخوذ من القرار ؛ فكأنه دعا له أن يرزق ما يقر عينه حتى

(١) البيت فى المصنف والمنسوب ٦٢٦ ونسبه إلى ابن الطائرية .

لا تطمح إلى ما لغيره . وكانت الجاهلية تزعم أن : إن المقالات إذا وطئت على قتيل شريف عاش ولدها ، ولهذا أشار بشر بن أبي خازم في قوله :
تظلّ مقاتلُ النساءِ يطأنه يَقْلُنْ : ألا يُلقَى على المرءِ مِيزَرٌ^(١)
وقوله : « عَلِقَتْ بِي شَعُوبٌ » يعنى المنية ، ولا يدخل هذا الاسم أداة التعريف ، مثل دجلة وعرفة .

وقوله : « لأغور تحتها إلى المغيربان » ، التقدير : النزول إلى القائلة ؛ كما أن التعريس : النزول آخر الليل للتهويم أو الاستراحة .
والمغِيربان ، تصغير المغرب ، وكان قياس تصغيره المثيرب ، إلا أن العرب ألحقت آخره ألفاً ونوناً على طريق الشذوذ .

وقوله : « مضطفناً أهبة تجّوابه » ، الاضطفان : أن يحمل الشيء تحت حضنه ، والاضطبان أن يحمله تحت ضيقه ، والضّين : ما بين الإبط والكشح ، وكلاهما متقارب . ويقال : أول مراتب الحمل الإبط ثم الضّين ، وهو أسفل الإبط ثم الحضن ، وهو عند الجنب .

والتجّواب مصدر جاب ، وجميع المصادر التي جاءت على « تفعّال » هي بفتح التاء إلا قولهم : تميّان وتلقاء لاغير ، وزاد بعضهم : تيصال .
وقوله : « عَجْرِي وَبُجْرِي » يريد به جميع أمرى الظاهر والباطن ، وأصل العجر العُقد الناتئة في العصب ، والبجر : العقد الناتئة في البطن .

وقوله : « ولم يقل إيهيّا » ، أى لم يأمرنى بالكف ، يقال : للمستزاد : إيه .
وللمستنكف : إيهيّا .

وقوله : « لأمر ما جدع قصير أنفه » ، قصير هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان جدّع أنفه بيده حين قتلت الزباء مولاه ، ثم أتاها وأومئها أن عمرو بن

عدى ابن أخت جذيمة ، هو الذى جدع أنفه اتهاماً له بأنه غشّ خاله جذيمة إذ أشار عليه بقصدّها ، فَحَظَى بهذا القول عندها حتّى جَهَّزته مراراً إلى العراق ؛ فكان يأتية بالطرف منه إلى أن استصحب فى آخر نوبة الرجال فى الصناديق ، وتوصّل إلى قتلها ، والأخذ بثأر مولاه منها . وقصته مشهورة .

وقوله : « ولو كان ابن بُوحك » يعنى ولد الضُّلب ، إشارة إلى أنه ولد فى إاحة الدار ؛ وهى عرّصتها ، وجمعها بُوح . وقيل : إن البوح من أسماء الذّكر .
وقوله : « فى شهرى ناجر » هاشمرا الحرّ ، وقيل : إنها حرّيران وتموز .
وأنكر ابن دريد هذا القول ، وقال : هما طلوع نجمين .

وقوله : « بت بليلة نايغية » أوماً به إلى قول النابغة :

فبت كأتى ساورتنى ضئيلة من لرقش فى أنيابها السمّ نافع^(١)

وقوله : « فألعت إاليه بثوبى » يعنى أشرت إليه ، يقال منه : ألع ولمع بمعنى .

وقوله : « يلدغ ويبعى » ، هذا مثل يضرب لمن يظلم ويشكو ، يقال : صامت المقرّب تصمى صيئاً وصيئاً بفتح الصاد وكسرهما ؛ إذا صوتت ، وكذلك الفرخ ، وما أحسن قول ابن الرومى فى هذا المعنى :

تشكى الحبّ وتشكو وهى ظالمة كالقوس تُصمى الرّمايا وهى مرّنان^(٢)

وقوله : « ينزو ويلين » ؛ هذا مثل يضرب لمن يتعزّز ثمّ يذلّ ، ويقال : إن أصله أن الجدى ينزو وهو صغير فإذا كبر لان .

وقوله : « لا بسأجلد النمر » ، هذا مثل يضرب للمتّعجّج الجرى ، لأن النمر أجراً سنع وأقله احتمالاً للضيم ، ومن هذا اشتقاق قولهم : تنمر ، أى صار مثل النمر .

وقوله : « فألحقى بالقارظين » الأصل فى القارِظ الذى يجنى القَرِظ ، وهو النبات المدبوغ به ؛ والقارظان المشار إليهما أحدهما من عبّرة والآخر من النمر

ابن قاسط ، خرجا يجنّيان القَرَظ فلم يرجعا ، ولا عُرِفَ لهما خبر ، فَضُرِبَ بهما
المثل لكل غائب لا يُرْجَى إِيابُهُ ، وإليهما أشار أبو ذؤيب في قوله :

وَحَتَّى يَثُوبَ الْقَارِظَانِ كِلَاهُمَا وَيُنْشَرَ فِي الْقَتْلِ كَلِيبٌ لَوَائِلُ^(١)
وقوله : « حَرُورِي بِسُمُومِي » ، الحُرور : الرّيح الحارة ليلا ، والسّموم :
الريح الحارة نهاراً ، وقد يقام أحدهما مقام الآخر مجازاً . وقال بعضهم : الحُرور
يكون ليلا ونهاراً ، والسّموم يختصّ بالنهار .

وقوله : « لَيْثٌ عَرِيْسَةٌ » يعني مأوى السبع ، ويقال فيه . عَرِيْسٌ وعَرِيْسَةٌ
بإثبات الهاء وحذفها ، كما يقال : غاب وغاية وعرين وعريضة . فَأَمَّا الْغِيلُ وَالْخَيْسُ
فلم يلحقوا بهما الهاء .

وقوله : « أَفَلْتَ وَلَهُ حُصَاصٌ » هذا المثل يضرب لمن نجا من هلكة أشفى
عليها بعد ما كاد يَهْوِي فيها . وَالْحُصَاصُ : العُدُو ، وقيل إنه الضراط .

وقوله : « وَيَلُتُّ أَهْوُونُ مِنْ وَيَلِينَ » ، هذا المثل يضرب تسليّة لمن ناله
بعض المكروه ، ومثله قول الراجز^(٢) :

أَبَا مَنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَعْبَقِ بَعْضُنَا حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وقوله : « أَنَانْتُ ، وَأَنْتَ مَثْقٌ ، فَكَيْفَ تَتَفَقَّ » ، هذا المثل يضرب
للمتنافيين في الخلق ؛ فَإِنَّ التَّثَقُّ هُوَ الْمَتَلُ غِيظاً ؛ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : أَتَأَقَّتْ
الْإِنَاءُ ؛ إِذَا مَلَأْتَهُ . وَالتَّثَقُّ هُوَ الْبَاكِي ؛ فَكَأَنَّ التَّثَقُّ يَنْزِعُ إِلَى الشَّرِّ
لَغِيظِهِ ، وَالتَّثَقُّ يَضِيقُ ذَرْعاً بِأَحْمَالِهِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : أَنَا كَلِيفٌ ، وَأَنْتَ
صَلِيفٌ ، فَكَيْفَ نَأْتَلِفُ !

وقوله : « لَطَيْتِي » يعني لقصدى ووجهتى ، وقد يقال فيها : طِيَّةٌ ،
بالتخفيف .

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٤٤ .

(٢) البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ . هو من بحر الطويل ، وليس رجزاً .

وقوله : « بعد اللَّتْيَا والَّتِي » اللَّتْيَا تصغير الَّتِي ، وهو على غير قياس التصغير المطرد ؛ لأنَّ القياس أن يضمَّ أول الاسم إذا صُغِرَ ، وقد أُقِرَّ هذا الاسم على فتحه الأصلية عند تصغيره ، إلَّا أنَّ العرب عوّضته عن ضمِّ أوله ، بأن زادت ألفا في آخره ، وأجرت أسماء الإشارة عند تصغيرها على حكمه ، فقالت في تصغير الذي والَّتِي : اللَّذْيَا واللَّتْيَا ؛ تصغير ذا وذاك . وقد اختلف في معنى قولهم : بعد اللَّتْيَا والَّتِي ، ف قيل : هما من أسماء الداهية . وقيل : المراد بهما بعض صغير المكروه وكبيره .

المقامة الثامنة والعشرون وهي السمرقندية

حدّث الحارث بن همام قال : استبَضَعْتُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِي الْقَنْدَ ، وَقَصَدْتُ بِهِ سَمَرْقَنْدَ ؛ وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ قَوِيمَ الشَّطَاطِ ، جُمُومَ النَّشَاطِ ، أُرْمِي عَنْ قَوْنِسِ الْمِرَاحِ ، إِلَى غَرَضِ الْأَفْرَاحِ ، وَأُسْتَعِينُ بِمَاءِ الشَّبَابِ ، عَلَى مَلَامِيحِ السَّرَابِ ، فَوَافَيْتُهَا بُكْرَةَ عَرُوبَةٍ ، بَعْدَ أَنْ كَابَدْتُ الصُّعُوبَةَ ، فَسَعَيْتُ وَمَا وَنَيْتُ ، إِلَى أَنْ حَصَلَ الْيَتِ . فَلَمَّا نَقَلْتُ إِلَيْهِ قَنْدِي ، وَمَلَكَتْ قَوْلَ عِنْدِي ، عُجِبْتُ إِلَى الْحَمَامِ عَلَى الْأَثَرِ ، فَأَمَطَتْ عَنِّي وَعَثَاءَ السَّفَرِ ، وَأَخَذَتْ فِي غُسْلِ الْجُمُعَةِ عَلَى الْأَثَرِ .

° ° °

استبضعت : اتخذت بضاعة . القند . عسل السكر .

[ذكر سمرقند]

وَسَمَرْقَنْدُ : بِلَادٌ عَظِيمٌ مِنْ بِلَادِ خِرَاسَانَ ، غَزَاهَا مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْبَلَمِينِ اسْمُهُ شَمْرٌ ، فَلَمَّا كَسَّاهَا وَهَدَمَهَا فَسُمِّيَتْ شَمْرَكَنْدَ ، بِمَعْنَى خَرَابَةِ شَمْرٍ ، ثُمَّ عَرُبَتْ قَقِيلٌ : سَمَرْقَنْدَ ، وَأَهْلُهَا الشُّغْدُ . وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ لَمَّا انْتَهَى إِلَى الشُّغْدِ قَاتَلَهُمْ أَيَّامًا تَحَوَّلُوا إِلَى مَدِينَتِهِمْ فَنَاصَرَهُمْ حَوْلًا حَتَّى افْتَتَحَهَا عُنُودٌ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ وَسْبًا وَهَدَمَهَا ، ثُمَّ ثَابَ لَهُ رَأْيٌ ، فَأَمَرَ بِنَائِهَا ، فُبْنِيَتْ خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَخْرَةٍ فُبْنِيَتْ عِنْدَ بَابِهَا ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا : هَذَا بِنَاءُ مَلِكِ الْعَرَبِ لَا الْعَجَمِ ، شَمِيرُ الْمَلِكِ الْأَشْمِ . وَوُحِدَ فِي سُورِهَا لَوْحٌ مِنْ نَحَاسٍ فِيهِ كِتَابٌ ، وَهُوَ : « هَذَا مَا أَمَرَ بِنَائِهِ شَمْرٌ » ، وَقَدْ تَقَدَّمَ

أن فرغانة من أعمالها التي هي آخر خراسان ، وبين سمرقند وبغداد ستة أشهر ،
وتقدم أن مدينة سمرقند من أحسن بلاد الله تعالى ، ولما أشرف قتيبة بن مسلم
عليها ، فرأى ما أدهشه لإفراط حسنها . قال : كأنها السماء في الخضرة ، وكأن
قصورها النجوم والزهرة ، وكان أنهارها المجرّة .

* * *

قوله : قويم الشّطّاط ، أى معتدل القامة : جوم النشاط ، أى كثير
القوة والخفة . والراح : النشاط . والأفراح : جمع فرح ، و ماء الشباب :
نضارة الفتوة ونعمة الصبا . ملامح السراب : مواضع يلح السراب فيها ، أى
يلع ويظهر ، فأراد أنه استعان بقوة فتوته على قطع الصحراء . وافيتها :
أقبتها .

[يوم عروبة]

عروبة ، اسم يوم الجمعة ، سُمّيَ بذلك لحسنه حيث كان موسماً ، وهو من
قولهم : جارية عروب أى حسناء ، وكانت العرب تسمّى أيام الأسبوع بأسماء
يجمعها بيتان وهما :

أؤمل أن أعيش وأن يوى بأوّل أو بأهون أو جبار^(١)
أو التّعالى دُبار فإن أفتئ مؤنس أو عروبة أو شيار

وعروبة من الأسماء التي تدخلها الألف واللام مرّة وتسقط منها أخرى ،
قال الشاعر :

* يوم كيوم عروبة المتطاول *

(١) البيتان في اللسان : جبر ، دبر ، شير ، أنس ، هون . أول : الأحد . أهون : الاثنين .
جبار : الثلاثاء . دبار : الأربعاء . مؤنس : الخميس . عروبة : الجمعة . شيار : السبت .

وقال آخر :

* يوم العروبة أورادا بأوراد *

وحكوا أن سيبويه ، كان في حلقة بالبصرة فتذاكروا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر سيبويه حديثاً غريباً ، وقال : لم يرو هذا إلا سعيد بن أبي العروبة ، فقال له بعض الفضلاء : ماهاتان الزيادتان ؟ - يعني الألف واللام في العروبة - فقال سيبويه : هكذا ينبغي أن يقال ، لأن العروبة هي يوم الجمعة ، فمن قال : عروبة فقد أخطأ . قال محمد بن سلام : فذكرت ذلك ليونس بن حبيب ، فقال : أصاب : سيبويه لله درّه .

وسمى يوم الجمعة لما جاء في حديث سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمى يوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : لأن فيه جمع أبوك آدم . وقال بعضهم فذكر عروبة :

في العيد زار ، وكان يوم عروبة يا فرحتي بثلاثة الأعياد
وكان المتوكل صاحب بطليوس ينتظر وفود أخيه عليه من شفتيرين يوم الجمعة ، فأتاه يوم السبت ، فلما تلقاه عانقه ، وأنشد :

تخيرت اليهود السبت عيداً وقلنا في العروبة يوم عيد
فلما أن طلعت السبت فينا أطلت لسان محمّد اليهود

وقال ابن الرومي :

وحبّ يوم السبت عندي أننى ينادى فيه الذى أنا أحببت
ومن عجب الأشياء أنى مسلم حنيف ولكن خير أيامي السبت

* * *

قوله : كابدت ، أى قاسيت . سَعَيْت وما ونيت : خرجت وما فترت ، ويقال : ونى بنى ، أى ضعف ، والونى الضعف والفتور والإعياء . ملكت قول عندى ، يريد أن المسافر فى الطريق لا يحسب ماله مِلْكَاً له حتى يدخل المدينة ، لأنه متعرّض للهلاك فى الطريق ، فإذا دخل المدينة وحصل فى بيته ما-كه فصار « ملكت قول عندى » عبارة عن سلامة ماله وخلاصه من حوادث الأسفار نحو الفرق والنهب والفرق والفضب ، أو يكون عبارة عن الحصول فى البيت يقول : عندى كذا ، أى فى بيتى .

عُجْتُ ، أى ملت على الأثر ، أى فى الحين ، ورجع على الأثر أى أتى مستمعجلاً ، كأنه مشى على أثره فى طريقه قبل غيره ، فعنى عجت إلى الحمام على الأثر ، أى دخلته على الفور فى الحال . وقد ذكرنا باباً أدبياً من الشعر فى الحمام فى الرابعة ، ونذكر هنا فيه فنا آخر من الأدب .

[ذكر الحمام وماورد فيه من الشعر والحكايات]

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ستفتح عليكم أرض الأعاجم ، وتجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات ، فلا يدخلها الرجل إلا بإزار ، وامنعوا النساء أن يدخلنها إلا مريضة أو نفساء » .

وروى أن عبيد بن قرط الأسدى ، دخل مع صاحبين له بلدا فيها حمام فأحب صاحبا دخوله فيها ، فأتيا عبيد ، فأبيا إلا دخوله ، فما دخلاه رأيا فيه رجلا يقنور ، أى يستعمل النّورة فسألاه عنها . فأخبرهما بإذهابها الشّعر ، فاستعملها فلم يحسنا فأحرقتهما وأضرّت بهما ، فقال عبيد :

لعمري قد حذرتُ قرطا وجاره ولا ينفع التحذيرُ من ليس يحذرُ
 نيتهما عن نوزةٍ أحرقتهما وحمام سوء ناره تنسقرُ
 فما منهما إلا أثنائي موقعا به أثر من مسها يتقشرُ
 أحذكما لم تعلما أن جارنا أبا الحسل بالبيداء لا يقنورُ
 ولم تعلما حمامنا في بلادنا اذا جعل الحرباء في الجذب يحضرُ

ورد أعرابي البصرة ، فنزل على ابن عم له ، فلما رأى البصري شعث الأعرابي ، أراد أن ينظفه ، فقال له يوم الجمعة : إن الناس يتطهرون للجمعة ، وينظفون ، ويلبسون أحسن الملابس ، ففعل أذخلك الحمام لتنظف من قشf السفر والبادية ، وتتطهر للصلاة ، فدخل معه الحمام ، فعندما وطىء الأعرابي فرش أول بيت في الحمام ، لم يحسن المشى عليها لشدة ملاستها فزلق ، وسقط لوجهه ، وصادفت جبهته حرف مدخل البيت ، فشجّه شجرة منكورة فخرج مرعوبا وهو ينشد ، ودماؤه تسيل :

وقالوا تطهر إنّه يومُ جمعةٍ فأبى من الحمام غير مطهر
 تزوّدتُ منه شجرةٌ فوق حاجي بغير جهاد بلّسما كان متجري
 يقول لي الأعراب حين رأيتني به لا بظي بالأصريمة أعفر^(١)
 وما تعرف الأعراب مشيا بأرضها فكيف يبيت ذى رخام ومرمرًا

وقال ابن سكرة : دخلت حماما ، فخرجت وقد سرق مدامي ، فعدت إلى داري حافيا وأنا أقول :

(١) نظر في ذلك إلى المثل : « به لا بظي أعفر » ، والأعفر : الأبيض ، يضرب للشهامة . وانظر بحم الأمثال ١ : ٩٠ .

إليك أذمَّ حَمَامُ ابنِ مُوسَى فإن فاقَ المُنى طيباً وحرّاً
تَكَاثَرَتِ اللَّصُوصُ عَلَيْهِ حَتَّى لِيَحْفَى مِنْ يَطِيفُ بِهِ وَيَعْرِى
وَلَمْ أَفْقِدْ بِهِ ثُوباً وَلَكِنْ دَخَلَتْ مُحَمَّدًا وَخَرَجَتْ بَشْرًا
— يَرِيدُ بَشْرًا الْخَافِي ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الزَّهَادِ ، وَلَزِمَ الْمَشَى حَافِيًا فَلَقَّبَ بِهِ .

وقوله : أمطت ، أى أزالت . وعشاء السفر : شدته ومشقته ، وفي الحديث :
« اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة القلب » ، وأصله من الوعث ، وهو
الدَّهْسُ ، أى الرمل الدقيق . وقيل : الوعث الرمل تغيب فيه القوائم ، وقيل : هو
الطريق الخشن الصعب . بالأثر ، أى بالحديث المروى . وفي حديث أبي هريرة
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة
ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الثانية فكأنما
قرب بقرة ، ومن راح في الثالثة فكأنما قرب كبشاً ، ومن راح في الرابعة
فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام
حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .

ثم بادرتُ في هيئة الخاشع ، إلى مسجدها الجامع ، لألحقَ
بِمَنْ يَقْرُبُ مِنَ الْإِمَامِ ، وَيُقَرَّبُ أَفْضَلَ الْأَنْعَامِ ، فَحُظِّيتُ بِأَنْ جَلِيتُ
فِي الْحَلْبَةِ ، وَتَخَيَّرْتُ الْمَرْكَزَ لِمُسْتِمَاعِ الْخُطْبَةِ ، وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يُدْخِلُونَ
فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، وَيَرِدُونَ فِرَادَى وَأَزْوَاجًا ؛ حَتَّى إِذَا اكْتَمَطَ
الْجَامِعُ بِحُفْلِهِ ، وَأَظْلَى تَسَاوِي الشَّخْصِ وَظِلِّهِ ، بَرَزَ الْخَطِيبُ فِي
أُهْبَتِهِ ، مُتَهَادِيًا خَلْفَ عُصْبَتِهِ ، فَارْتَقَى فِي مَنْبَرِ الدَّعْوَةِ ، إِلَى أَنْ

مَثَلٌ بِالذَّرْوَةِ ؛ فَسَلَّمَ مَشِيرًا بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى خَتِمَ نَظْمُ
التَّأْذِينَ .

* * *

الأنعام : هى الإبل والبقر والغنم . وقال فى الدرة : فرقت العرب بين النعم
والإنعام ، فجعلت النعم اسماً للإبل خاصة وللماشية التى فيها الإبل ، وتذكر وتؤنث ،
وجعلت الأنعام اسماً لأنواع المواشى مثل الإبل والبقر والغنم . حظيت : سعدت .
جلّيت : سبقت . والحلبة : جماعة الخيل ، وأراد بها الناس المبادرين للصلاة ، وأنه
سبقهم . المركز : الموضع تنتظر فيه الصلاة . دين : طاعة . أفواجاً : جماعات .
يردون : يأتون الجامع . اكتظّ : امتلأ وضاق بأهله . حفله : اجتماع الناس
فيه . أظل : دنا قرب . تساوى الشخص وظلّه ، يريد حديث عمر رضى الله عنه : أن
صلّ الظهر إذا صار ظلك مثلك . برز : خرج . أهبطه : عدّته للصلاة . متهاديا :
متمايلا لوقاره . عصبته : جماعة المؤذنين . ارتقى : طلع . مثل بالذروة : جلس
بأعلى المنبر أو ظهر بأعلاه . والمائل : اللاطيء بالأرض أو القائم المنتصب ، وهو
من الأضداد ، وسمى المنبر منبر الارتفاعه وعلوّه من المنبر ، وهو ارتفاع الصوت ،
ونبر الرجل نبرة : تكلم بكلمة فيها علو ، وأنشد أبو الحسن بن البراء :

إِنِّى لَأَسْمَعُ نَبْرَةً مِنْ قَوْلِهَا فَأَكَادُ أَنْ يُعَشِّىَ عَلَى سُرُورِ^(١)

مشيراً باليمين ، مذهب الشافعى رضى الله عنه أن الخطيب إذا جلس على
المنبر ، أشار إلى الناس بيمينه مسلماً من غير كلام . قال ابن عمر رضى الله عنهما :

(١) البيت فى اللسان - نبر من غير نسبة .

انطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قُباء ، فصَلَّى فيه ، فخرج على صهيْب ، فقلتُ : يا صهيْب ، كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ مَنْ يَسلم عليه ؟ قال : يشير بيده .

قوله : جلس ، قال الخليل : يقال لمن كان قائماً : أقعد ، ولن كان قائماً أو ساجداً : اجلس ، وهذا صحيح لأنَّ القعود هو الانتقال من علو إلى سفلى ، ولهذا يقال لمن أصيب برجله : مُقعد ، والجلوس هو الانتقال من سفلى إلى علو ، ورجل جالس : آتٍ نجداً ، وهو المكان المرتفع . وذكره الحريري في الدرّة^(١) . ختم : أكمل .

* * *

ثمّ قام وقال : الحمد لله المدوح الأسماء ، المحمود الآلاء ، الواسع العطاء ، المدعو لحسن الأواء ، مالك الأمم ، ومُصور الرّمم ، وأهل السماج والكرّم ، ومهلك عادٍ وإرم ، أدرك كلّ سيرٍ علمه ، ووسيع كلّ مُصيرٍ حلمه ، وعمّ كلّ عالمٍ طوله ، وهَد كلّ ماردٍ حوله . أَنحمده حمداً مُوحّداً مُسليماً ، وأدعوه دعاءً مؤملي مُسلمٍ ، وهو الله لا إله إلاّ هو الواحد الأحد ، العادل الصّمد ، لا ولد له ولا والدٍ ، ولا رِداءَ ممّةٍ ولا مُساعد . أرسل محمداً للإسلام مُمهّداً ، وللملّة مُوطّداً ، ولإدلة الرّسل مُوكّداً ، وللأشّود والأخمر مسدّداً .

. . .

قوله : الآلاء ، أى النعم الواسعة الكثيرة . حسم اللاؤاء : قطع الشدة .
 الرَّمم : العظام البالية . مصورها : منشئ صورها ، وأراد قوله تعالى : ﴿ قُلْ
 يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ^(١) ، عاد وإرم : أمتان قديمتان ، وقيل : إرم قبيلة
 من عاد فيها مملكة عاد . وقيل إرم : اسم لقبائل كثيرة ، كالعاليق وطسّم
 وجديس هلکوا ، وهم من ولد إرم بن سام بن نوح ، ومن لم يصرف إرم جمعه
 اسماً للقبيلة . وقال سابق البربرى فى ذهاب الأمم :

وكيف يَأْمَنُ رِيبَ الدهرِ مَرَّتَيْنِ بعدوة الدهرِ إن الدهرِ عَدَاةُ ^(٢)
 ألقى على الجبلِ مِنْ عادٍ كَلالَهُ قوم هود فهم هامٌ وأصداء
 وقال أيضاً :

أين الملوك التى عن خَطْبِها غفلتُ حتى سقاها بكأسِ الموت ساقِها
 غرت زمانا بملكٍ لادوامٍ له جهلا كما غرَّ نفساً مَنْ يَمْنِها
 وصبّحت قوم عاد فى ديارهمُ بمقطع يوم عادتهم عواذِها
 وتبعا وثمود الحِجرِ غادرهمُ ريب المنون رميا فى مغانيها
 فكيف يبقى على الأحداث غابرنا كأننا قد أَظْلَقْنَا دواهيها
 وقال الألبيرى :

أين الملوك وأين ماجعوا وماً ذخروه من ذهب المتاع القاهى
 ومن السوابغ والصورام والقنا ومن الصواهل : بُدْنٍ وشواذبِ
 كانت سوابقها تحمل منهم أقار أندية وأسد كتائبِ
 كانوا ليوث خفية لكتهم سكنوا غياض أسنة وقواضبِ
 قصفتهم ربيعُ ارْدَى ورمتهمُ كف المنون بكل سهم صائبِ

قوله : مصرّ ، أى مقيم على الذنب . والعالم : كل مخلوق ، وأراد به الحيوان .
 طولّه : فضله . هدّ : أذلّ وأهلك ، وهد البناء : كسره وهدمه . والمارد : العاقى
 وهو المبالغ فى الطغيان والفساد ، والكثير الشرّ . حوله : قوته ، مؤمّل : راجٍ .
 مسلم : مفوّض . الصمد ، من أسماء الله تعالى والسيد المطاع ، والصمد : الذى لا يولد
 له ، وقيل : الصمد الذى لا جوف له .

وقال ابن الأنبارى : أجمع أهل اللغة بلا خلاف على أنّ الصمد الذى ليس
 فوقه أحد ، الذى يصمد إليه الناس فى أمورهم ، وأنشد لورقة بن نوفل :

سبحان ذى العرش سبحانا يدوم له ربّ البرية فردّ واحد صمدٌ

وأنشد : * بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد ^(١) *

وأنشد : * ولا رهينة إلا سيد صمدٌ *

وأنشد : * خذها حذيف فانت السيد الصمد ^(١) *

قوله : رده : معين ، وأردأتك على الأمر : أعتك . مساعد : موافق لمراده .
 ممدّا : باسطاً . والملة : الدين . الأحمر ، أراد به الأبيض وأراد لكل الناس ،
 وقيل : الأحمر العجم مثل الروم والفرس ، لأنهم يبيضّ ثملهم حمرة ، والأسود
 العرب ، لأنهم لسكناتهم الصحارى تغلب السمرة على ألوانهم .

* * *

وَصَلِّ الْأَرْحَامَ ، وَعَلِّمَ الْأَحْكَامَ ، وَوَسَمَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ،
 وَرَسَمَ الْإِحْلَالَ وَالْإِحْرَامَ ، كَرَّمَ اللَّهُ تَحْلَهُ ، وَكَمَّلَ الصَّلَاةَ
 وَالسَّلَامَ لَهُ ، وَرَحِمَ آلَهُ الْكَرْمَاءَ ، وَأَهْلَهُ الرِّحْمَاءَ ، مَا هَمَرَ

رُكَّام ، وَهَدَّرَ حَمَام ، وَسَرَحَ سَوَام ، وَسَطَا حُسَام . انْعَمَلُوا رَحِمَكُمُ
 اللَّهُ عَمَلِ الصَّلَحَاء ، وَاكْدَحُوا لِمَعَادِكُمْ كَدَحَ الْأَصِحَّاء ، وَازْدَعُوا
 أَهْوَاءَكُمْ رَدَعِ الْأَعْدَاء ، وَأَعِدُّوا لِلزَّحَلَةِ إِعْدَادَ السَّعْدَاء ، وَإِدَّرِعُوا
 حُلَلَ الْوَرَع ، وَدَاوُوا عِلَلَ الطَّمَع ، وَسَوُّوا أَوْدَ الْعَمَلِ ، وَعَاصُوا
 وَسَاوِسَ الْأَمَل ، وَصَوَّرُوا لَأَوْهَامِكُمْ حُتُولَ الْأُخُول ،
 وَحُلُولَ الْأَهْوَالِ ، وَمُسَاوِرَةَ الْأَعْلَال ، وَمَصَارِمَةَ الْمَالَ
 وَالْآل .

. . .

الأرحام في الأصل: الفروج ، ثم يكتنى بها عن القرايات للذين بينهم رَحِمٌ .
 وسم : بين ، وجعل له علامة ، والسَّمة : العلامة . رسم : كتب وبين وأصل
 الرسم الأثر ، ورسمت الشيء : أثرت به أثرا . الإحلال : الدخول في الحِلِّ .
 الإحرام : الدخول في الحرم ، وأراد أنه علم موضع الحِلِّ والحرم . آله : أهله .
 هَمَّرَ رُكَّام : انصبَّ سحاب . هَدَّرَ : صَوَّت . وسرح : نفرَّق في المرعى ، سوام
 لابل راعية . سطا : اهتزَّ ليقطع . اكْدَحُوا : اعملوا ، والكدح عمل الإنسان
 من خير وشر ، واكتسابه للدنيا والآخرة . لمعادكم ، أى ليوم بعثكم ، والمعاد
 المرجع . الْأَصِحَّاء : جمع صحيح . اردعوا : كَبُّفُوا . ادَّرِعُوا : البسوا الخوف .
 أَوْدَ : اعوجاج . وساوِسَ الأمل : أحاديث الطمع والرجاء . أوهامكم : نفوسكم .
 حُتُول : تغير . حُلُول : نزول . الأهوال : المخاوف . مساورة : موائبة . الإعلال :
 الإصابة بعلَّة ، مصارمة : مقاطعة . الآل : الأهل والقراة .

* * *

وَادِّكُرُوا الْحِمَامَ وَسَكْرَةَ مَضْرَعِهِ ، وَالرَّمْسَ وَهَوْلَ

مَطْلَعِهِ ، وَالْأَخْدَ وَوَحْدَةَ مُودَعِهِ ، وَالْمَلَّكَ وَرَوْعَةَ سُؤَالِهِ
وَمَطْلَعِهِ . وَالْمَحْوَا الدَّهْرَ وَلَوْثَمَ كَرَّهُ ، وَسُوءَ مَحَالِهِ وَمَكْرِهِ .
كَمْ طَمَسَ مَعْلَمًا ، وَأَمَرَ مَطْعَمًا ، وَطَحَّطَعَ عَرْمَرَمًا ، وَدَمَّرَ
مَلِكًا مُكْرَمًا .

• • •

اذْكُرُوا الْحَمَامَ : اذْكُرُوا الْمَوْتَ . الرَّمَسَ : تَرَابُ الْقَبْرِ . هَوْلَ مَطْلَعِهِ :
خَوْفَ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِيهِ . الْآخِدَ : الْحَفِيرَةَ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ . مُودَعَهُ : الْجَمْعُ
فِيهِ ، كَأَنَّهُ وَدِيعَةٌ فِيهِ . الْمَلَّكَ : مَنَكَرٌ وَنَكِيرٌ ، اللَّذَانِ يَفْتِنَانِ النَّاسَ فِي قُبُورِهِمْ
رَوْعَةً : تَقْرِيعٌ وَتَخْوِيفٌ . الْمَطْلَعُ : الْمَاتِي .

قال الجوهري ، رحمه الله تعالى : يقال : أين مطلع هذا الأمر ؟ أى مآثاه ،
وهو موضع الاطلاع من إشراف إلى احدار ، وجاء هَوْلَ الْمَطْلَعِ فِي الْحَدِيثِ ،
حَدَّثَ وَائِلَةُ بْنُ الْأَسْقَعِ وَغَيْرُهُ قَالُوا : خُطِبْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اذْكُرُوا الْمَوْتَ وَهَوْلَ مَطْلَعِهِ وَمَا تَقْدُمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَإِنَّمَا
أَنْتُمْ عَابِرُونَ سَبِيلًا إِلَى دَارِ الْخُلُودِ . ازْهَدُوا فِي دُنْيَانَا قِصَّةَ غَيْرِ زَائِدَةٍ ، مَفْرَقَةَ غَيْرِ مَجْمُوعَةٍ ،
وَارْغَبُوا فِي دَارٍ لَا تَخْرَبُ قُصُورُهَا وَلَا يَبْلَى سُرُورُهَا ، وَلَا يَمُوتُ سَاكِنُهَا . أَعْمَارُ
أَهْلِ الْجَنَّةِ : أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، مَكْحُولُونَ بِأَكْلُونِ وَبَشْرَبُونَ ، لَا يَخْرُجُ
مِنْ أَجْوَانِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا يَعْرِقُونَ ، عَرَقَهُمْ ذَلِكَ مَسْكٌ ، فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْجَنَّةِ ، نَامَ طَالِبُهَا ،
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ النَّارِ ، نَامَ هَارِبُهَا » .

وقال ابن سكرة :

نَحْمَدُ مَا أَعَدَدْتَ لِلتَّرَبِّ وَالْيَمَلِ وَلِلْمَلَائِكَةِ الْوَاقِفِينَ عَلَى الْقَبْرِ ^(١)

وأنت مصرٌّ لا تراجع توبةً ولا ترعوى عما يذمُّ من الأمر^(١)
 سيأتيك يومٌ لا تحاول دفعه فقدم له زاداً إلى البعث والحشر
 وتقدم الباب موفى حقه في الحادية عشر .

[مما قيل في الأمل والطمع من الشعر]

نذكرُ هنا بعض ما قيل في الأمل والطمع المانعين للناس من أعمال البر .
 قال أبو العتاهية :

تملّقتُ بآمال	طوالِ أى آمال ^(٢)
فأقبلت على الدهر	ملحاً أى إقبال
أيا هذا تجهز لـ	فراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت	على حالٍ من الحال

وقال أبو تمام :

أناؤمل في الدنيا تجدد وتعمُرُ	وأنت غداً فيها تموتُ وتُقبَرُ
تلقحُ آمالاً وترجو نتائجها	وعمرُك مما قد تُرجِيه أقصرُ ^(٣)
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوءه	وليلته تنعاك لو كنت تشمرُ
تحوُم على إدراك ما قد كفيته	وتقبل بالآمال فيها وتدبرُ

(١) بعده في البيتة :

تَبَيَّتْ على خَيْرٍ تَعَاوَرُ دَنَهَا . وتصبح مخموراً مريضاً من الخمر .

(٢) ديوانه ٢١٣ ، وفيه :

تمسكت بآمالٍ طوالِ أى آمالٍ

(٣) ديوانه ٤٨٢ .

رزقك لا يعدوك إماماً معجلاً على حاله يوماً وإماماً مؤخراً
وقال محمود الوراق :

علام يسعى الحريص في طلب الرزق بطول الرواح والدَّلَجِ
يا قارع الباب ربّ مجتهد قد أدمن القرع ثم لم يَلَجِ
فاطوِ على الهمّ كفّ مصطبرٍ فآخرُ الهمِّ — أولُ الفرجِ

وقال عبد الصمد بن المعدّل :

وأعلم أنّ بنات الرجا تحلّ العزيز محلّ الدليل
وأنّ ليس مستغنيا بالكثرة ير منّ ليس مستغنيا بالقليل
قوله : الحوا : انظروا . كرهه : رجوعه . محاله : شدّته ومعاداته وخداعه .
طمس : محاً وأذهب . معلماً : موضعاً مرتفعاً ، تعلم به الجهة التي هو فيها . طحطح :
أهلك وفرّق . عرمرم : جيشاً كبيراً . دمر : أهلك ، والدمار : الهلاك .

[ذم الدهر وما قيل فيه من الشعر والحكايات]

ونذكر بعض من ذم الدهر من ملوك الإسلام .

من ذلك أنّ سليمان بن عبد الملك لبس في يوم الجمعة لباساً شهي به ، ودعا
بضخت فيه عاتم ، وبيده امرأة ، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد أخرى ، وأرخى سدولها ،
وأخذ بيده منحصرة ، واعتلى منبره ناظراً في عطفية ، وجمع حشمه ، وقال : أنا
الملك الشاب ، السيد الجبّاب ، الكريم الوهاب . فتمثّلت له إحدى جواربه ،
فقال : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ فقالت : أراه منّي النفس وقرة العين ، لولا
ماقال الشاعر :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
أنت خلّو من العيوب ومما يكره الناس غير أنك فاني

فدمعت عيناه ، وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من صلاته رجع ودعا الجارية ، وقال لها : ما حالك على ما قلت؟ قالت : والله ما رأيتك ولادخلت عليك . فأكبر ذلك ، ودعا بقية جواريه فصَدَّقَتْهَا على ذلك ، فراءه ذلك ولم يبق إلا مُدِيْدَةً حتّى مات^(١) .

الفضل بن الربيع ، قال : كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه ، فنزلنا بعض المنازل ، فدعا بني وهو في قُبَّتِهِ إلى حائط ، وقال : ألم أنهمكم أن تدعُوا العامة تدخل هذه المنازل : فيسكتبون فيها ما لا خير فيه ، قلت : وما هو ؟ قال : ألا ترى ما على الحائط مكتوبا :

أبا جعفرٍ حانت وفاتك وانقضت سنوك ، وأمر الله لا بدَّ نازلُ
أبا جعفر ، هل كاهن أو منجم يردُّ قضاء الله أم أنت جاهل ؟

قلت : والله ما على الحائط شيء ، وإنه لنقى أبيض ، قال : والله ، قلت : والله . قال : إنها والله نفسى نعت إلى الرحيل ، بادربى إلى حرم الله وأمنه هارباً من ذنوبى وإسرائى على نفسى ، فرحلنا ، وثقل حتى بلغ بئر ميمون ، فقلت له : قد دخلت الحرم ، قال : الحمد لله ، وقُبِضَ من يومه ، ولما حضرته الوفاة ، قال : هذا هو السلطان ، لاسلطان من يموت^(٢) .

على بن يقطين ، قال : لما كنا مع المهديّ بما سبذان ، قال لى : أصبحت جائعاً فائتنى بأرغفة ولحم بارد ، فأكل ونام في البهو ، فما استيقظ إلا لبعكائه ، فبادرنا فقال : أما رأيتم ما رأيتم ، وقف على رجل لو كان في ألفٍ ما خفي علىّ ، فقال :

(١) الخبر والشعر في العقد ٤ : ٣٢٥ . (٢) الخبر والشعر في السعوى ٣ : ٣١٧

كأني بهذا القصر قد باد أهله وأوحش منه ربعةً ومنازلهُ
وصار عييد الملك من بعد بهجةٍ إلى قبره تُحنى عليه جناذهُ
فلم يبقَ إلا ذكرهُ وحديثهُ ينادى عليه معولاتٌ حلائلُهُ
فما أنت عليه عشرة أيام حتى توفي.

قال الأصمعي : دخلت على الرشيد يوماً ، وهو ينظر في كتاب ، ودموعه
تنحدر على خده ، فالتفت وقال : اجلس ، رأيت ما كان مني ؟ قلت : نعم ،
قال : أما إنه لو كان من أسرار الدنيا مارأيت هذا ، ثم رمى إليّ به ، فإذا فيه مكتوب
لأبي العتاهية :

يا مؤثر الدنيا بلذتها والمستعدّ لمن يفاخره^(١)
نلّ ما بدالك أن تنال من الدنيا فإنّ الموت آخره
هل أنت معتبر بمن خربت منه غداة قصى عساكره^(٢)
وبمن خلت منه أسرته وبمن خلت منه منابرهُ
أين الملوك وأين غيرهم صاروا مصيراً أنت صائرهُ

ثم قال : كأني أخطب بهذا دون كلّ الناس ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات.
ولما رجع المؤمنون من غزونه التي انتفع فيها أربعة عشر حصناً نزل على
عين تعرف بالعشيرة ، ينتظر رجوع رسله من الحصون ، فأعجبه برؤ ماؤها
وصفاؤه ، وحسن بياضه وكثرة الخضرة والخصب بالموضع ، وجلس على خشب
بسط له على الماء ، وطرح فيه درهم ، فقرأ كتابته في قرار الماء لصفائه ، ولم يقدر
أحدٌ يدخل الماء لشدة برده ، فلاحتم سمكةٌ نحو الذراع ، كأنها سبيكة فضة ، فنزل
بعض الفراءشين فأخذها ، فاضطربت في يده وتلملت ، ووقعت في الماء ، فنضج
منه على صدر المؤمن ، ثم أخذها ووضعها بين يديه في مندبل ، تضطرب ، فأصر

(٢) الديوان : « دساكره » .

(١) ديوانه ١٢٣ والمسنودي ٣ : ٣٧٦ .

بأن تُقَلَّى الساعة ، فأخذته رعدة من ساعته ، ولم يقدرْ يتحرك ، فغطَّى بالاحف ، وهو يرتعد ، ويصيح : البرد ، فأَتَى بالسمة فلم يقدر عليها ، وسال على جسمه عرق كالرَب لم يعرفه الأطباء ، فلما ثقل قال : أخرجوني أنظر إلى عسكري ، وأنظر إلى مالي وملكي ، وذلك ليلا ، فأشرف على الجيش وانتشاره ونيرانه ، فقال : يا مَنْ لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ، فلما ثقل رنا بطرفه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناه دموعاً ، فقال : يا مَنْ لا يموت ارحم مَنْ يموت ، وقُضِيَ عليه من ساعته ^(١) .

وكان كثيراً ما ينشد :

وَمَنْ لَمْ يَزَلْ غُرْضاً لِلْعَنُو ن تتركه ذات يوم عميداً ^(١)
وإن أخطأت مرة نفسه فيوشك مخطئها أن يعوداً
فينا يحيد ومخطئنه قصدن فأعجلنه أن يحيداً

وذكر أبو المواريث قاضي نصيبين ، أنه رأى في المنام ليلة قائلاً ، يقول :
يا نائم الليل في جِمان يقظان ما بال عينيك لا تبكي بتهتان ^(٢)
إن الليالي لم تحسن إلى أحدٍ إلا أساءت إليه بعد إحسانٍ
هلا رأيت صروف الدهر ما فعلت بالهاشمي وبالفتح بن خاقان
- يعني المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان - قال : فأتى البريد بقتلها في تلك الليلة .

وقال سابق البربري :

وربَّ أعيدَ ساجي الطرف معتصبٍ بالتاج نيرانه للحرب تستعمرُ
يظلّ مفترش الديباج محتجباً إليه تبنى قباب الملك والحجرُ
قد غادرته المنايا فهو مستلبٌ مجنّدل ترب الخلدن منعفرُ

* * *

(١) السعدي ٤ : ٤٥٠ .

(٢) الأبيات للحسين بن الضحاك ، ديوانه ١١٣ .

هَمْهُ سَكُّ الْمَسَامِعِ ، وَسَحُّ الْمَدَامِعِ ، وَإِكْدَاءُ الْمَطَامِعِ ،
وإِرْدَاءُ الْمُسْمِعِ وَالسَّامِعِ . عَمَّ حُكْمُهُ الْمُلُوكَ وَالرَّعَاعَ ، وَالْمُسُودَ
وَالْمُطَاعَ ، وَالْمَحْسُودَ وَالْحُسَادَ ، وَالْأَسَاوِدَ وَالْآسَادَ ، مَا مَوَّلَ
إِلَّا مَالَ ، وَعَكَسَ الْأَمَالَ ، وَمَا وَصَلَ إِلَّا وَصَالَ ، وَكَلَّمَ الْأَوْصَالَ ،
وَلَا سَرَ إِلَّا وَسَاءَ ، وَلَوْثُمْ وَأَسَاءَ ، وَلَا أَصَحَّ إِلَّا وَلَدَ الدَّاءَ ،
وَرَوَّعَ الْأَوْدَاءَ .

اللهُ اللهُ ، رَعَاكُمْ اللهُ ! إِيْلَامَ مَدَاوِمَةِ اللّهُو ، وَمُوصَلَةِ السَّهْوِ ،
وَطُولِ الْإِضْرَارِ ، وَخَلِّ الْأَصَارَ ، وَاطْرَاحُ كَلَامِ الْحِكْمَاءِ ، وَمُعَاصَاةُ
إِلَهِ السَّمَاءِ !

* * *

هَمْهُ : مراده . سَكُّ الْمَسَامِعِ : قطع الآذان ، وقد سَكَّ أذنه ، إذا استأصلها
بالقطع ، والمقطوع الأذن ، يقال له : أَسَكَّ ، وسَكَّكَ الشَّيْءُ فاستَكَّ ، أى سدّدته
فانسَدَّ . سَحَّ : صبَّ . إِكْدَاءُ : قطع ومنع . إِرْدَاءُ : إهلاك . الرعاع : سقط
الناس . المسود : مَنْ ليس بسَيِّد . المطاع : الذى يقول ما أَرَادَ فيطاع ولا يعصى ،
الأساود : الحَيَات . والآساد : جمع أسد . مَوَّلَ : أعطى مالا . مال : انخرِف
وخرج عن طريقه . عكس : قلب . الآمال : جمع أمل وهو الرجاء ، وقال
مسلم بن الوليد :

الدَّهْرُ أَخَذُ مَا أُعْطِيَ مَكْدَرُ مَا أَصْنَفِي وَمَفْسِدُ مَا أَهْوَى لَهُ بِيْدِ (١)
فَلَا يَفْرَنْكَ مِنْ دَهْرٍ عَطِيَّتُهُ فَلَيْسَ يَفْرَنْكَ مَا أُعْطِيَ عَلَى أَحَدٍ

وقال أبو تمام :

أقول لنفسي حين مالت بصفوها إلى خطراتٍ قد نَجَّجْنَ أمانياً^(١)
 فهبني من الدنيا ظفرتُ بكلِّ ما تَمَنَّيتُ أو أُعْطِيتُ فوقَ مُنَالِيَا^(٢)
 أليسَ الليالي غاصباتي مُهَجَّتِي كما غصبت قُبلي القرون الخواليَا

قوله : صَال : صاح وهدر . كَلَم : جرح . الأوصال : المفاصل ، وهو موصل
 نظم عضو في عضو . لَوَم : صار لثيماً . رَوَعَ الأوداء : أفرغ الأحاب . السَّهْو :
 الغلط . الإصرار : الإقامة على الذنب . الآصار : الأتقال ، يربد إقبال الذنوب .
 أطراح : تَرَكَ ورمى .

° ° °

أَمَّا الْهَرَمُ حَصَادُكُمْ ، وَالْمَدَرُ مِهَادُكُمْ ! أَمَا الْحِمَامُ
 مُذَرِكُكُمْ ، وَالصَّرَاطُ مَسْلُكُكُمْ . أَمَا السَّاعَةُ مَوْعِدُكُمْ ،
 وَالسَّاهِرَةُ مَوْرِدُكُمْ ! أَمَا أَهْوَالُ الطَّامَةِ لَكُمْ مُرْصَدَةٌ ! أَمَا دَارُ
 الْعَصَاةِ الْحَطَّةُ الْمُؤْصَدَةُ ، حَارِسُهُم مَالِكٌ ، وَرُؤَاؤُهُمْ حَالِكٌ .
 وَطَعَامُهُمُ السُّمُومُ ، وَهَوَاؤُهُمُ السَّمُومُ . لَا مَالٌ أَسْعَدَهُمْ وَلَا وَلَدٌ ،
 وَلَا عَدَدٌ حَمَاهُمْ وَلَا عُدَدٌ . أَلَا رَحِمَ اللَّهِ أَمْرًا مَلَكَ هَوَاهُ ، وَأَمَّ
 مَسَالِكَ هُدَاهُ ، وَأَخْكَمَ طَاعَةَ مَوْلَاهُ ، وَكَدَّ وَكَدَحَ لِرَفْحِ
 مَأْوَاهُ ، وَعَمِلَ مَا دَامَ الْعُمُرُ مُطَاوِعًا ، وَالذَّهْرُ مُوَادِعًا ، وَالصَّحَّةُ
 كَامِلَةً ، وَالسَّلَامَةُ حَاصِلَةً ، وَإِلَّا دَهَمَهُ عَدَمُ الْمَرَامِ ، وَحَصَرَ

(١) ديوانه ٤٨٤ ، وفيه : « قد فتحن » .

(٢) في الديوان : « هبني ... أمانيا » .

الْكَلَامَ ، وإِلَامَ الْآلَامِ ، وَمُحُومَ الْحِمَامِ ، وَهُدُوءَ الْحَوَاسِ ، وَمِرَاسِ الْأَرْمَاسِ .

...

مسلككم : طريقكم . السَّاهِرَةُ : وجه الأرض ، وقيل الأرض البيضاء .
المورد : موضع الماء الذي يَرِدُهُ الناس والبهائم ، ولا غناء لأحد عن قصد الماء ،
فجعل الساهرة مورداً على هذا المعنى . أهوال الطَّامَّة : مخاوف القيامة وما فيها
من الهول والخوف ، وأصابَت الناس طامَّة أى داهية وأمر عظيم ، وقد طَمَّ
الأمر ، إذا عظم وجاوز الحدَّ . مُؤَصِّدَةٌ : مُعَدَّة ينتظرون بها . والحُطْمَةُ : التي
تحطم الناس ، أى تَكْسِيرُهُمْ ، يعنى جهنم أعادنا الله منها ، وهو اسم علم من
أسماء جهنم دخلته اللام إيداناً بالصفة . المؤصِّدَةُ : اللقطة . رواؤم : منظرهم الحسن .
حالك : أسود . السُّمُوم : جمع سَمٍّ . والسُّمُوم : الريح الحارة . أمّ : قصد .
أحكم : أتقن . كدح : عمل . رَوْح مأواه : راحة مسكنه . موادعا : متاركا
ومصالحاً . قال ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل
بعضه « اغتقم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ،
وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك » .

دهمه : غشيه وأتاه فجأة ، ودهمه يدهمه لفة . المرام : المطلب . حصر :
حبس . إلام : نزول . الآلام : الأسقام : مُحُوم الحِمَام : دنو الموت . هدو :
سكون . الحواس : الإدراكات ، وهى التى يحس بها الإنسان الأشياء ويدركها
وهى خمسة : العين يدرك بها النظر ، والأنف والأذن يدرك بها الشم ، والسمع
واللسان واليد يدرك بهما الذوق ، واللمس ، فيريد أن هذه الجوارح تَسْكُنُ
بالموت ولا تتحرك .

[مما قيل في عجز الأطباء حين يحىء الأجل]

ونفشد هنا أبياتاً لها بالموضع بعض تعلق ، ونذكر فيها الأطباء الذين لا حيلة لهم في الموت ، قال عدى بن زيد :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدهم وثمود^(١)
بينما هم على الأسرة والأنساط أفضت إلى التراب الخدود
والأطباء بـمـدم لـحقـومهم ضل عنهم سعوهم واللدود
وصحيح أضحى يعود مريضاً وهو أدنى للموت ممن يعود
وقال الخليل بن أحمد :

فكن مستعداً لداعى الفناء فإن الذى هو آت قريب^(٢)
وقبك داوى المريض الطيب فماش المريض ومات الطيب
ولابن الرومى - وفصده بعض الأطباء ، فزعم أن الفصد زاد في علته ، فقال :

غلط الطيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار^(٣)
والناس يلحون الطيب وإنما غلط الطيب إصابة المقدار
وقال غيره :

قد قلت لما قال لي قائل قد صار نمان إلى رمسه
فأين ما يذكر من طبه وحذقه بالماء مع جسده

(١) ديوانه ١٢٢ .

(٢) نزعة الألباء ٤٧ .

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٥٢ .

هيات لا يدفع عن غيره . من كان لا يدفع عن نفسه .

ومنه قول الآخر :

أقول لنعمان وقد ساق طِبُّهُ نفوساً نفيسات إلى باطن الأرضِ
أبا منذرٍ أفيت فاستبقِ بعضنا حنائيك بعض الشر أهون من بعض^(١)

ويحكى أن القاضي ابن منظور بلغه أن أبا العلاء بن زهر مرض فضحك ،
وقال : فأين طِبُّه ؟ فبلغت أبا العلاء فقال :

قالوا ابن منظور تبسم هازناً لما مرضت فقلت يعثر من مشي
قد كان جالينوس يمرض دائماً فمن الإمام المرتضى قبل الرشا

وقال المتنبي :

لا بُدَّ للإنسان من ضَجَعَةٍ لا تقلب الإنسان عن جَنِبِهِ^(٢)
ينسى بها ما مرَّ من عَجَبِهِ وما أذاق الموت من كربِهِ
نحن بنو الموتى فما بالنا نعاثُ ما لا بُدَّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هي من كَسْبِهِ
فهذه الأرواح من جَوِّهِ وهذه الأجساد من تربِهِ
يموت راعي الضأن في جهله مودة جالينوس في طِبِّهِ

أصيب الجرمي في عينيه فقال :

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فبعض الشيء من بعض قريبُ
يَمْنِيهِ الطيبُ شفاء عيني وما غيرُ الإله لها طيبُ

* * *

قوله : مِرَاس ، أصله معالجة الشيء الشديد ، وكل شيء التصق بشيء

(١) هذا البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ .

(٢) ديوانه ١ : ٢١٠ .

واحتكَّ به فقد مارسه . ومرست الدواء بالماء : دلكته . والأمراس : القبور ، واحداها رمس ، فيريد بها ما يلقاه الإنسان في قبره من الدواهي ، وتقدّمت في الحادية عشر ، ويروى : الأمراس : جمع مرس ، وهو حبل من ليف يُقتل على ثلاثة . مراسه : جريانه على البكرة ، فالبكرة تأكل قوته كل يوم فتقطعه ، كما أن الأيام تأكل قوة ابن آدم فتقطعه ، فإذا مات أكل بدنه القبر .

* * *

واهاً لها حسرةً أَلَمُها مؤكّد ، وأمدُّها سرمد ، وممارسُها مُكمد ، مالولِهِ حاسم ، وَلَا لِسَدَمِهِ راحم ؛ ولا مِمَّا عَرَاهَ عاصِم ، أَلْهَمَكُمُ اللهُ أَحْمَدَ الْإِثْمَام ، وردّاكُمْ رِداءَ الإِكرام ، وأحلَّكُمْ دارَ السَّلام ، وأسأَلُهُ الرَّحْمَةَ لَكُمْ وَلِأَهْلِ مِلَّةِ الْإِسْلَام ، وهوَ أَسْمَحُ الْكِرام ، والمسلمُ والسَّلام .

. . .

آها : كلمة توجع . حسرة : فجيمة ، والهاء في «لها» كناية عن الحسرة أضمرها بشرطة التفسير ، أى ما أعظمها من حسرة ، آها ، أى تأوَّها . أَلَمُها مؤكّد ، أى وجعها شديد متتابع . سرمد : دائم . ممارسها : معالجها ومخالطها . مكمد : مهموم محزون . وله : حزنه . حاسم : مزيل قاطع . سدমে : حيرته ، عراه : قصده . عاصم : مانع . أَلْهَمَكُم : ذكركم ونهكم . أَحَلَّكُمْ : أنزلكم . دار السلام : الجنة ، من دخلها سلم من العذاب وبقي في سلامة . ملة : دين . أَسْمَحُ : أكرم . السلام : الذى هو من أسماء الله سبحانه وتعالى ، ومعناه المسلم لعبده أو هو على حذف المضاف ، ومعناه ذو السلام ، أى صاحب السَّلام ، ويحتمل أن يريد به

اللفظة التي يقطع بها الكلام ، كما تقول لمن تقطع كلامه : والسلام ، أى لا زيادة عندي على هذا ، أو أردت : والسلام عليكم . خذفت اختصاراً .

وفى تأويل « السلام عليكم » وجهان : أحدهما أنه اسم الله بمعنى « الله تعالى عليكم » ، أى على حفظكم ، أو بمعنى السلامة عليكم ، فالسلام جمع سلامة قال ابن الأنباري : السلام في كلام العرب على أربعة أقسام : السلام التسليم ، تقول : سلمت سلاماً ، والسلام الله تعالى ، والسلام جمع سلامة ، والسلام شجر عظام واحدها سلامة قال الأختل :

ورابية السكران قهرّفاً بها لهم شبحٌ إلا سلامٌ وحرمل^(١)

* * *

قال الحارث بن همام : فلما رأيت الخطبة نجبةً بلا سقط ، وعروساً بغير نقت ، دعاني الإعجاب بنمطها العجيب ، إلى استجلأه وجه الخطيب ، فآخذت أتوسمه جدّاً ، وأقلب الطرف فيه مجداً ، إلى أن وضعت لي بصدق العلامات ، أنه شيخنا صاحب المقامات ، ولم يكن بدّ من الصمت ، في ذلك الوقت ؛ فأمسكت حتى تحلل من الفرض ، وحلّ الانتشار في الأرض ، ثم واجهته تلقاءه ، وابتدرت لقاءه .

فلما لحظني خف في القيام ، وأخفى في الإكرام ؛ ثم استصحبني إلى داره ، وأودعني خصائص أسرارهِ ، وحين انتشر جناح الظلام ،

(١) ديوانه ٢

(٢) السكران : موضع بالشام . والحرمل : نبت .
(٣) - ٢٣ - شرح مقامات الحريري ج ٣

وَحَانَ مِيقَاتُ الْأَنَامِ ، أَخْضَرَ أَبَارِيقَ الْمُدَامِ ، مَعْكُومَةً بِالْفِدَامِ .
 فَقُلْتُ : أَتَحْسُوهَا أَمَامَ النَّوْمِ ؛ وَأَنْتَ إِمَامُ الْقَوْمِ ! فَقَالَ : مَهْ ؛ أَنَا
 بِالنَّهَارِ خَطِيبٌ ، وَبَاللَّيْلِ أَطِيبٌ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي : أَأَعْجَبُ مِنْ
 تَسْلِيكِكَ عَنْ أَنْبَاسِكَ ، وَمَسْقَطِ رَأْسِكَ ، أَمْ مِنْ خَطَابَتِكَ مَعَ أَذْنَابِكَ
 وَمَدَارِ كَأْسِكَ .

* * *

نَجْبة : مختارة . سَقَطَ : لفظ ردى . استجلاء : نظر . أتوسمه : أنظر سَمَتَهُ ،
 أى علامته التى يعرف بها . جدّاً : كثيراً . مجدّاً : مجتهداً . وضح : تبين .
 ذو المقامات : صاحب المجالس . البَدَّ : الفرار ، قال القراء رحمه الله تعالى : يقال :
 لا بُدَّ اليوم من قضاء حاجتى ، أى لا فرار ، ويقال : ليس لهذا الأمر بدٌّ ، أى لا محالة .
 الصمت : السكوت والإنصات لاستماع الخطبة فرض عند الشافعى رضى الله
 عنه لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ^(١) أى لاستماع
 الخطبة .

وقال جماعة من المفسرين : إنه إنما نزلت الآية فى السكوت لاستماع الخطبة .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا قُلْتَ
 لِمُصَاحِبِكَ وَالْإِمَامِ يَخْطُبُ : أَنْصِتْ فَقَدْ لَفُوتُ » .

أبو هريرة وأبو سعيد ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 « مَنْ خَرَجَ إِلَى الْجُمُعَةِ وَعَلَيْهِ الْوَقَارُ ، ثُمَّ رَجَعَ ، ثُمَّ أَنْصَتَ إِلَى أَنْ جَلَسَ الْإِمَامُ ،
 فَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَنْزَلَ ، ثُمَّ صَلَّى الْجُمُعَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا » .

تَحَلَّلُ مِنَ الْفَرْضِ : تَخَلَّصَ مِنَ الصَّلَاةِ . الْإِنْتِشَارُ : انْحِلَالُ الْجُمُوعِ مِنَ الصَّلَاةِ
وَانْبِسَاطُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ . مِيقَاتُهُ : وَقْتُهُ . مَعْكُومَةٌ : مَشْدُودَةٌ ، وَعَكَمَتِ الْبَعِيرُ
شَدَّتْ فِيهِ ، وَالْوَعَاءُ : شَدَّدَتْ رَأْسَهُ . الْفِدَامُ : خَرَقَةٌ يَشُدُّ بِهَا فَمُ الْإِبْرِيْقِ لِيَصْنَعِيَ
مَا فِيهِ . تَحْسُوهَا : تَشْرِبُهَا . وَأَنْتَ إِمَامُ الْقَوْمِ : تُوْبِيخُ لَهُ عَلَى قَبْحِ فِعْلِهِ مَعَ الْفَضْلِ
الَّذِي سَبَقَ لَهُ ، وَالْعَيْبُ الْكَبِيرُ يَصْغُرُ فِي حَقِّ أَهْلِ الرِّيبِ ، كَمَا أَنَّ الصَّغِيرَ يَعْظُمُ
فِي حَقِّ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ ، وَقَالَ الْمُتَنَبِّيُّ فِي الْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الْبَابِ :

وَمَا يُوجِعُ الْحَرَمَانَ مِنْ كَفِّ حَازِمٍ كَمَا يُوجِعُ الْحَرَمَانَ مِنْ كَفِّ رَازِقٍ^(١)
وَقَالَ الْخَزُومِيُّ :

وَالْعَيْبُ فِي الْجَاهِلِ الْمَغْمُورِ مَغْمُورٌ وَعَيْبُ ذِي الشَّرَفِ الْمَذْكُورِ مَذْكُورٌ
كَفُوفَةُ الظَّفَرِ تَخْفَى مِنْ حَقَارَتِهَا وَمِثْلُهَا فِي سَوَادِ الْعَيْنِ مَشْهُورٌ
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ :

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْتَى مَشْهُورٌ وَالْعَيْبُ بِالرَّجُلِ الْكَبِيرِ كَبِيرٌ
لَحَلَّتْ مُنْزَلَةَ الَّذِي يَحْتَلُّهُ وَلَسَكَانٌ مُنْزَلُنَا هُوَ الْمَهْجُورُ
مَهٌ : اسْكُتْ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : أَنَا بِالنَّهَارِ خَطِيبٌ ، وَبِاللَّيْلِ أَطِيبٌ ، مِمَّا وَقَعَ فِي
كِتَابِ مِفْتَاحِ السَّرُورِ وَالْأَفْرَاحِ ، حِكَايَةٌ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ قَاصًّا يَقْصُ
غَدَاةَ يَوْمٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بِالْعَشِيِّ فِي حَانَةِ الْقَدَحِ فِي يَدِهِ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ فَقَالَ :
أَنَا بِالْغَدَاةِ قَاصٌّ ، وَبِالْعَشِيِّ عَاصٌ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ لِابْنِهِ الْفَضْلِ حِينَ بَعَثَ فِيهِ أَهْلُ
خُرَّاسَانَ كِتَابًا إِلَى الرَّشِيدِ : إِنَّهُ مُشْتَغَلٌ بِالصَّيْدِ وَإِدْمَانُ اللَّذَاتِ ؛ فَرُمِيَ بِهِ إِلَى يَحْيَى
وَقَالَ : يَا أَبْتَ اكْتُبْ إِلَيْهِ بِمَا يَرُدُّهُ ، فَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِ الْكِتَابِ :

(١) ديوانه ٢ : ٣٤٢ .

(٢) الغوف : البياض الذي يكون في أظفار الأحداث .

حفظك الله يا بنى ، وأمتع بك . فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه
من التشاغل بالصيد وإدمان اللذات ، فعاود ما هو أليق بك وأزين لك ، فإنه من
عاد إلى ما يزينه ، وترك ما يشينه ، لم يعرفه أهل دهره إلا به . وقد قلت أحياناً
فالتزمها ، وإن جاوزتها عزلتك عن سخط ، ولم أكلمك حولاً ، وكتب إليه :

انصب نهاراً في طلاب العُلا	واصبر على فقد لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليل أتى مقبلاً	واستترت فيه عيون الرقيب
فبائس الليل بما تشتهي	فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً	قد لقي الليل بأمر عجيب
ألقي عليه الليل أثوابه	فبات في لهو وعيش خصب
ولذة الأحق مشهورة	يرصدها كل حُسد رقيب

فامتثل ما فيها حتى عزل عنها .

وقال الحلواني في ضده :

أنت الذى قسمَ الزمان لنفسه	قسمين بين رياسة ومتاب
أعطى لمرتبة العلاء نهاره	منها وجنح الليل للمحراب

وقال الفنجدي في قوله : أنا بالنهار خطيب وبالليل أطيّب ، معناه أنا
صالح المنظر ، فاسد المحبر ، أنظر في مرآة المرامات ، وأستمر مساواة المساءات ،
وأديم المناجاة جلوة ، وأقيم المداجاة خلوة ، أمر الناس بالرشاد ، وأنا أتوسّد
وسادة الفساد .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حِينَ يَرَاهُ النَّاسُ ، ثُمَّ أَسَاءَهَا حِينَ يَخْلُو ، فَتَكَ اسْتِهَانَةٌ
يَسْتَهِنُ بِهَارِبِهِ » .

قوله : تسليك عن أناسك ، أى اشتغالك عن أهلك وبلدك ، وهو مستقط رأسه ، أى الموضع الذى سقط فيه رأسه عند ولادته . خطابتك : فصاحتك فى خطبتك . إدفاسك : عيبك وتلطيف عرضك . مدار : دورانه فى أيدى الشاربين .

* * *

فأشاح بوجهه عني ، وقال : اسمع مني :

وَدُرْ مَعَ الدَّهْرِ كَيْفَمَا دَارَا	لَا تَبْكُ إِلَّا نَأَى وَلَا دَارَا
وَمَثَلِ الْأَرْضِ كُلِّهَا دَارَا	وَاتَّخَذَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَسْكَنًا
وَدَارِهِ فَالْلَّيْبُ مَنْ دَارَى	وَاضْبِرْ عَلَى خُلُقٍ مِنْ تَعَاشِرِهِ
تَذَرِي : أَيَوْمًا تَعِيشُ أُمَ دَارَا	وَلَا تُضِيعْ فُرْصَةَ الشُّرُورِ فَمَا
وَقَدْ أَدَارَتْ عَلَى الْوَرَى دَارَا	وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمُنُونَ جَائِلَةٌ
مَا كَرَّرَ عَصْرُ الْمَحْيَا وَمَا دَارَا	وَأَقْسَمَتْ لَا تَزَالُ قَانِصَةٌ

فكيف تُرجى النجاة من شرك

لم يَنْجُ مِنْهُ كِسْرَى وَلَا دَارَا

* * *

أشاح : نحى معرضا ، وأشاح فى الأمر : صمم عليه .

إلغا : صاحباً . نأى : بعد ، يقول له جواباً للومة : لا تبك صاحباً بعد عنك ، ولا منزلاً تفرقت عنه ، وتقلب مع الدهر كما يتقلب مع أهله . ودُرْ ، من الدوران . سكننا : أهلاً وإلغا تسكن إليه . ومثل الأرض كلها دارا ، أى

بلداً ، والدار البلد في قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ بِهَا دَارُكَ ﴾ ^(١) وَاذْكُرْ دَارُكَ ^(٢) . داره : لا يَفْهَمُ وسأيسره . اللبيب : العاقل . دارى : أحسن مخالطة الناس ، وأصلها الخداع ، تقول العرب : دريت الصيد أدريه درياً ، وداريته أدريه مداراةً ، والدرية : بعير يقعد عنده الصائد ، يستتر به فيجىء الصيد فيأنس بالبعير ، فيرميه من قرب . وكان الحسن يقول : المداراة تستحلب مودة القلوب فتخدعهم في عقولهم . وفي الحديث : « أحبُّ الناس تحبباً إلى الله أكثرهم تحبباً إلى الناس » وفيه : « إذا أحب الله عبداً حبَّبه إلى الناس » .

وقال ابن عبد ربه :

وجهٌ عليه من الحياء مهابةٌ ومحبةٌ تجرى مع الأنفاس ^(٣)
وإذا أحبَّ الله يوماً عبده ألقى عليه محبة للناس

كتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص : إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى الناس ، واعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، وأعلم أن مالك من الله بمنزلة ما للناس عندك .

وقال بعضهم : أتيت الخليل فوجدته على طينفةٍ صغيرة ، فوسَّع لى ، فكرهت أن أضيق عليه فتأخرت ، فأخذ بعضدى ، وقدمنى إلى نفسه ، وقال : لا يضيق سمَّ الخياط بمتحابين ، ولا تسع الأرض متباغضين ، أخذه ابن عبد ربه فقال :

صِلْ مَنْ هُوَ مِنْ هَوِيَّتِهِ وَإِنْ أَبْدَى مَبَاغِضَةً فَاطْبِيبِ الْعَيْشِ وَصِلْ بَيْنَ الْفَيْنِ ^(٣)
واقطع حبال خدنٍ لا تلامه فقلما تسع الدنيا بغيضين

(٢) سورة هود ٦٥ .

(١) سورة العنكبوت آية ٣٧

(٣) العقد ٢ : ٣١٦

ولأبي محمد بن أبي الوليد الماتقي :

صيرَ فؤادك للمحبوب منزلةً سمَّ الخياطَ مجالاً للمحبِّين
ولا تسامح بغيضا في معاشره فقلَّما تسع الدنيا بغيضين

ولابن الزقاق :

ألا اذنُ وإن ضاق الندى فإنه رحيب بودَ ضُمَّنته الأضالع^(١)
يضيق الفضاغن صاحبين تباغضا وسمَّ خياطٍ بالحبيبين واسع

وقال التهامي :

بين المحبين مجلسٌ واسعٌ والودَّ حال يقرب الشاسع^(٢)
والبيت إن ضاق عن ثمانية متسع بالوداد للتاسع
فرصة : نهزة وغنيمة . دارا : دهرأ وقال السري^(٣) .

قم فانتصف من صروف الدهر والنوب

واجمع بكأسك بين اللهو والطرب^(٤)

واخلع عذارك واشرب قهوة مُزجت بقهوة الفلاج المسول والشنب
توج بكأسك قبل الحادثات يدي فالكأس تاج يد المثرى من الأدب
جائلة : دائرة .

[ذكر كسرى]

كسرى ، اسم ملك الفرس ، وكسرى ملك الملوك أنوشروان بن قباد بن

(١) ملحق ديوانه ١٤١ . (٢) لم أجدهما في ديوانه

(٣) ديوانه ٢٦ (٤) بعده في الديوان

أما ترى الضَّبَّح قد قامت عساكره في الشرق تنشر أعلاماً من الذهب
والجوَّ يختال في حجبٍ مُمسَّكة كأنما البرق فيها قلب ذى رُعْب

فيروز بن يزدجرد بن بهرام ، الملك العادل ، ملك العرب والعجم ، كان موصوفاً بالعدل ، معروفاً بحسن الرعاية والفضل ، وشهرته في كتب الآداب مغنية في ذكره عن الإطناب . قيل : كان مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لاثنتين وأربعين سنة مضت من ملكه ، وملك تسعاً وأربعين سنة .

وكسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، كان ملكاً شديداً البطش ، نافذ الرأي ، قد بلغ من الظفر ومسالة الدهر حداً لم يبلغه ملك من الملوك ، كان ملكه ثمانى وثلاثين سنة .

وفي سنة ثلاثين من ملكه بُعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وحدث خالد بن ربوة - وكان رأساً في الجوس ، فأسلم - قال : كان كسرى إذا ركب ركب معه رجلان ، فيقولان له ساعتئذ : أنت عبدولست برب ، فيشير برأسه أن نعم ، فركب يوماً ، فقالا ذلك له فلم يُشر برأسه ، فشكواه إلى صاحب الشرطة ، فركب ليعانيه . وكان كسرى قد نام فلما وقع صوت حوافر الدواب في أذنه استيقظ ، فدخل عليه صاحب الشرطة ، فقال : أيقظتموني ، إني رأيت كأنه رُقي بي فوق سبع سموات ، فوقفت بين يدي الله تعالى ، وإذا رجل بين يديه ، عليه إزار ورداء ، فقال لي : سلم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا ، أأنت المأمور بكذا فلم تفعل ! وإني أردت أن أقولها فاستردّها مني فأيقظتموني . وصاحب الإزار والرداء هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعث له رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بن قيس ، وكتب له : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله النبي إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل فأني

رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ،
فأسلم تسلم ، فإن آيت فإن إثم المجوس عليك .

فلما قرأ الكتاب شقه ، وقال : يكتب إلى بهذا وهو عبدى ! فبلغ الخبر
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مَرَّقه مَرَّقَ اللهُ مَلَّسه . » أو قال : « اللهم
مَرِّقهم كل مَرَّق » .

ثم كتب كسرى إلى باذان ، وهو على اليمين : أن ابعث إلى هذا الرجل
الذى بالحجاز رجلين جلدَيْن يأتينى به . فبعث باذان قهرمانه - وكان كاتباً حاسباً ،
وهو بابومة ، وبعث معه برجل من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبابومة : وبلك ! انظر
من الرجل ، وكلمه ، واثنتى بخبره . فخرجا حتى قدما الطائف ، فسألا عنه فقالوا :
هو بالمدينة ، واستبشر أهل الطائف ، وقالوا : نصب له كسرى ، كفيتم الرجل ،
فخرجا حتى قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلّمه بابومة وقال :
إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى باذان يأمره أن يبعث إليك من
يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك لتنطلق مئى ، فإن فعلت كتبت فيك إلى ملك
الملوك بكتاب ينفعك ، ويكف عنك به ، وإن آيت فهو من قد علمت ، وهو
مهلكك ومهلك قومك ، ومخرّب بلادك . فقال لهما : ارجعا حتى تأتينا غداً .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر أن الله تعالى قد سلّط على كسرى
ابنه شيرويه ، فقتله في ليلة كذا في شهر كذا ، بعد ماضى من الليل كذا ، سلّط
الله عليه ابنه ، فقتله . فقالا : هل تدري ما نقول ؟ فإننا قد خفنا منك ما هو أيسر
من هذا ، أفنكتب به عنك ونخبر الملك ؟ قال : نعم ، أخبراه ذلك عني وقولا
له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك
الناس تحت يدك ، ومملكك على قومك من الأبناء . فخرجا من عنده حتى قدما
على باذان ، فأخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل

نبيًا ، فإن كان ما قال حقًا ، فهو نبي مرسل ، فإن لم يكن فسأرى فيه رأيا . فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه ، وفيه : أمّا بعد ، فإنني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس ، مما كان استحلّ من قتل أشرافهم ؛ فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك ، وانظر إلى الرجل الذي كتب لك فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه ، فقال باذان : إنّ هذا الرجل رّسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس .

وكسرى أنوشروان هو الذي بنى سور الأبواب وهو من عجائب الدنيا فلما بناه هادته الملوك وكاتبته . وهو الذي افتتح كثيرا من بلاد الشام الرومية ، ونقل منها الرخام إلى العراق . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم ولد لاثنتين وعشرين سنة من ملكه ، وقيل : إنه ولد في آخر ملكه كما قدّمنا .

ثم ولى من بعده ابنه هرمز ، وكان مضطّعا ، غزته الملوك وطمعت فيه ، ثم خلعتة الفرس ، وسلمت عينيه .

وعقد الملك لابنه أبرويز في حياته ، فبعد حروب شديدة اجتمع لأبرويز أمره ، وكان وزيره بُرْزُجمهر أ كثر الفرس حكما ومواعظ .

وفي ملكه كانت وقعة ذى قاربين بكر بن وائل ، والهرمز صاحب أبرويز ، لأربعين سنة لمولد النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل إنها كانت في غزوة بدر - وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نصرته » .

وكان على مربوط أبرويز خمسون ألف دابة وألف فيل ، فخرج في أحد أعياده ، وقد صفّت له الجيوش وأحدثت به مائة ألف فارس دون الرجال ، و صفّت له الفيلة ، فلما بصّرت به سجدت له ، فما رفعت رءوسها حتى رفعت خراطيمها بالحاجن ، فأعلم بذلك وقال : وددت أنها فارسية ، ولم تكن هندية ، انظروا إلى

أدبها من بين سائر الدواب . ثم هدم الله تعالى هذا الملك العظيم بالإسلام ،
قال الأليبرى :

فطفِ البلاد لكى ترى آثارَ مَنْ قد كان يعمُرُها من الأقيالِ
عصفت بهم ربيعُ الرَّدَى فذرتهم ذرَّوْ الرياح المَوج حقف رمالِ
فتقطعت أسسُ بابهم وتمزَّقت ولطالما كانوا كنظم لآلى

قيل لأبرويز - وكان حكيما : ماشهوه ساعة ؟ قال : الجماع ، قيل : فما شهوة
يوم ؟ قال : دخول الحمام ، قيل : فما شهوة جمعة ؟ قال : غسل الثياب ، قيل :
فما شهوة شهر ؟ قال : تجديد الثياب ، قيل : فما شهوة سنة ؟ قال : تزوج الأبقار .
قيل : فما شهوة الأبد ؟ قال : أميا في الدنيا فشاهدة الإخوان ، وأما في الآخرة
فنعيم الجنة .

ونظر إلى قذاة في طعام ، فدعا الطباخ فقال : ما هذا ؟ فقال : حاولته بالليل
في وقت لم يكن فيه ماء معين ، فأمر بضرب عنقه ، فغضب الطباخ ؛ وقال :
يابن الأشتوربان - تفسيره يابن سائس الدواب - فعفا عنه ، وقال : إنما معشر
الملوك نعاقب في الصغير ، ونعفو عن الكبير .

[ذكر دارا]

وأما دار بن دارا بن بهمن ، وهو آخر ملوك الفرس الأول ، فإنه كان ضخم
الملك ، ذا قدرة ومكانة ، وهو الذى بنى بأرض الجزيرة مدينة دارا مجرد ، وكانت
جندة ستمائة ألف ، ولقبه الإسكندر بالجزيرة ، فدارت بينهم الحروب أربعين يوما ،
وخندق دارا على عسكره خمس خنادق ، وجعل على كل خندق اثني عشر ألف
رجل ، وكانت النوبة لاتصيب الرجل إلا يوما في كل خمسة أيام ، فوجد
الإسكندر من ذلك وجدا شديدا ، فبعث إلى دارا : إنما كدنا نتفانى ، ورأيت

رأياً فيه البقاء لنا ولك ، وذلك أن تفرج لى ، فأخرج صفك خرقاً إلى جانب بلادك ، وأرجع إلى بلادى ، فإننا لا نرى الفرار من الزحف ، وهو عار لا يفسل . فأجابه دارا : لا سبيل إلى ذلك - فلما رأى الإسكندر ذلك وضع البرنس ، وحسر عن رأسه ، وقال : يامعشر الروم ، هذا هو العجز والذلّ عن الانتصار ، هل فيكم من يحتال لى فى هذا الأمر ، وله نصف مال الروم والعجم ، ونصف مافى بيوت الأموال ؟ فقد أدركتنى الحمية . فبلغ الخبر إلى صاحب حرس دارا فقال : أنا أفعل ذلك وأخذ مالا عظيماً . فلما التحم القتال حمل على دارا فطعمه بحربة فى ظهره ، فوقع على الأرض وانهزم عسكر دارا . فجاء الإسكندر ووضع رأس دارا فى حجره ، ومسح التراب عن وجهه ، وقبّله وبكى ، وقال : الحمد لله الذى لم يجعل قتلك على يدي ، ولا على يد أحد من جنديى ؛ فسل ما بدا لك أقضه ، فقال له دارا : من حاجتى عندك ألاّ تخرب بيوت النهران ، وأن تنصفنى من قاتلى قبل موتى ، فإنه إن بقى عندك سيكفر معروفك ، كما كفر معروفى . فقال له الإسكندر : حاجتى عندك أن تزوجنى بنتك روشنك ، فقال دارا : على أن تحمل الملك من بعدك لولدك منها ، فأجابه إلى ذلك وزوجه ابنته ، وأخذ الإسكندر قاتله وقطعه أربع قطع ، واستولى على جميع مملكته .

وملك دارا أربع عشرة سنة ، وقيل : ست سنين ، وقسم الإسكندر غنائم عسكره فى ثلاثين يوماً . وشاور الإسكندر معلمه أرسطاطاليس فى أن يقتل من بقى من الفرس ، فقال له : لا تفعل ، ولكن ولّ على كلّ جهة شريفاً من أهلها فيتنافسون ، فلا يجمعهم ملك أبداً ، ففعل فهم ملوك الطوائف ، حتى انتزع أردشير منهم الملك ، وقال : إن كلمة فرقنا خمائة سنة وتسع عشرة سنة - يعنى كلمة أرسطاطاليس - لكلمة بالغة .

وملوك الفرس الأول ستة عشر ملكاً ، وملوك الفرس الثانى اثنان وثلاثون ،

منهم امرأتان . وملك بعد أردشير سابور ، وهو من عظمائهم ، ففتح الحصون ومدن المدن ، وبنى الإيوان وهو بالجانب الشرقي من المدائن ، وهو من عجائب البنيان ، وعجائب الفرس كثيرة ، وفي هذه النبذة غنية توافق ما شرطنا .

قَالَ : فَلَمَّا اعْتَوَرْتَنَا الْكُتُوسَ ، وَطَرَبَتِ النُّفُوسَ ، جَرَّعَنِي الْيَمِينُ
الْعَمُوسَ ، عَلَى أَنْ أَحْفَظَ عَلَيْهِ النَّامُوسَ . فَاتَّبَعْتُ مَرَامَهُ ، وَرَعَيْتُ ذِمَامَهُ ،
وَنَزَلْتُهُ بَيْنَ الْمَلَأِ مَنْزِلَةَ الْفَضِيلِ ، وَسَدَلْتُ الذَّلِيلَ عَلَى خَازِي اللَّيْلِ ،
وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَابَهُ وَدَابِي ، إِلَى أَنْ تَهَيَّأَ إِيَّابِي . فَوَدَّعْتُهُ وَهُوَ مُصْرٌّ عَلَى
التَّذْلِيسِ ، وَمُسِرٌّ حَسَنًا خَلْدَرِيسَ .

قوله : اعتورتنا ، أى قصدتنا ودارت علينا .

الْعَمُوسُ : الشديدة ، وهى فى الجاهلية التى تفسس صاحبها فى العار ، وفى
الإسلام تفسس صاحبها فى الأوزار ، والْعَمُوسُ ارتباط الشيء فى ماء ، أو صَبْنِغ
حتى اللقمة فى الخل .

والْعَمُوسُ قيل إنها اليمين التى يقطع بها الرجل حق غيره فيحلف كاذباً .
الليث رحمه الله : هى اليمين التى لا استثناء فيها ، وفى الحديث : « اليمين
الْعَمُوسُ تدع الديار بلاقع » ، أى قفراً فارغة من كل رزق .

والنَّامُوسُ : إظهار فعل الخير ، وتنامس الرجل إذا ظهر بما لا يعقده ،
وأصل النَّمَسِ السر ، وكل شيء سترت به شيئاً فهو ناموس له ، وناموس الرجل
صاحب سره ، ويقال : لصاحب سرّ الخير ناموس ولصاحب سرّ الشر جاسوس .
قال أبو عبيدة : هما بمعنى .

غيره: الناموس: صاحب سر الملك ، وقد تمس ينمس عسا، ونامسته منامسة.
مرامه: مطلبه ومراده. رعيت ذمامه: حفظت حقّه ، وما بيني وبينه مما يجب
أن يراعى. الملا: الجماعة.

[ذكر الفضيل]

الفضيل: هو ابن عياض التميمي، كنيته أبو علي، وهو من شهر بالزهد
والخير، وهو من رجال رسالة القشيري، قال صاحبها أبو علي: خراساني من
فاحية مرو، ولد بسمرقند، ومات في الحرم سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكان شاطراً يقطع الطريق، وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو ذات
يوم يرتقي الجدار إليها، إذ سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ
لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(١)، فقال: يارب قد آن، فرجع فأوى إلى خربة،
فإذا فيها رقعة فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً في
الطريق فيقطع علينا، فأمّهم وسار معهم حتى بلغوا، وجاور الحرم.

قال الفضيل: إذا أحب الله عبداً أكثرهم، وإذا أبغض عبداً وسع
عليه دنياه.

وقال: الكامل المروءة من برّ والديه، وأصلح ماله، وأنفق ماله وأنفق
من فضله، وأكرم إخوانه، وحسن خلقه، ولزم بيته.

وقال: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت، وقلت: أخلو برّبي، وإذا أبصرت
الصبح استرجعت كرامة أن يحيى من يشغنى.

وأطلع عليه بعض إخوانه من كوة ولحيته تقطر دموعاً، فقال: يا هؤلاء،

(١) سورة الحديد ١٦.

ليس هذا زمن حديث إنما هو زمن : احفظ لسانك ، وعالج قلبك ، وأخف مكانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر .

وقال : لو أن الدنيا بمخافيرها عُرِضَتْ عَلَى لا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثيابه .

وقال : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس هو الشرك .

قال أبو علي سليمان الداراني : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيت ضاحكا ولا متبسما إلا يوم مات ابنه علي ، فقلت له في ذلك ، فقال : إن الله تعالى إذا أحبَّ أمراً ابتلاه .

وقال : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق حمارى .

وأخباره كثيرة ، وهذه اللمعة دالة عليها .

قوله : سدت ، أى أرخيت . مخازى : قبائح ، وما يخزى عليها فاعلمها . لو اطلع على فعله . دأبه ودأبى : عاداته وعاداتى . إيابى : رجوعى . مصر : مقيم التدليس : تلبيس الأمر وكتمان العيب .

ويشبهه عدل ابن همام السروجى فى شرب الخمر ثم مساعدته إياه بمد لومه وشربه معه ، قول ابن أبى ربيعة^(١) ، وهو أحسن ما قيل فى المساعدة :

وخلّ كنتُ عينَ النصح منه إذا نظرتُ ومستمعا سمياً
أطاف بغيّه فنهيت عنها وقلت له : أرى أمراً شنيعاً
أردت رشاده جَهْدِي فلما أبى وعصى أتيناها جميعاً

وقال أعرابي :

وكنـت إذا علقت حبال قومـي
فأحسنُ حينَ يحسنُ محسنوم
أشـاء سـوى مشيتهم فآتى
صحبـتهمُ وشيـمى الوفاء
وأجتنـب الإساءة إن أساءوا
مشيتهم وأترك ما أشاء

المقامة التاسعة والعشرون وهي الواسطية

حكى الحارث بن همام قال : أَلْجَأَنِي حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٍ ، إِلَى أَنْ
أَتَجْعَ أَرْضَ وَاسِطٍ ، فَقَصَدْتُهَا وَأَنَا لَا أَعْرِفُ بِهَا سَكَنًا ، وَلَا أَمْلَاكًا
فِيهَا مَسْكَنًا . وَلَمَّا حَلَلْتُهَا حُلُولَ الْحَوْتِ بِالْبِيدَاءِ ، وَالشَّعْرَةَ الْبَيْضَاءِ
فِي اللَّمَّةِ السَّوْدَاءِ ، قَادَنِي الْحِظُّ النَّاقِصُ ، وَالْجُدُّ النَّاكِصُ ، إِلَى خَانٍ
يَنْزِلُهُ شَذَاذُ الْآفَاقِ ، وَأَخْلَاطُ الرِّفَاقِ ، وَهُوَ لِنِظَافَةِ مَكَانِهِ ، وَظَرِافَةِ
سُكَّانِهِ ، يَرْغَبُ الْغَرِيبَ فِي إِيطَانِهِ ، وَيُنْسِيهِ هَوَى أَوْطَانِهِ .
فَاسْتَفْرَدْتُ مِنْهُ بِحَجَرَةٍ ، وَلَمْ أَنْفَسْ فِي أُجْرَةٍ ، فَاكَانَ إِلَّا كَلَمَحٍ
طَرَفٍ ، أَوْ خَطِّ حَرْفٍ ؛ حَتَّى سَمِعْتُ جَارِي يَتَ يَتَ ، يَقُولُ لِنَزِيلِهِ
فِي الْبَيْتِ :

...

أَلْجَأَنِي : اضْطَرَّنِي : قَاسِطٌ : جَائِرٌ . أَتَجْعَلُ : أَقْصِدُ لَطْلُبَ الرِّزْقِ .

[ذَكَرَ وَاسِطَ]

واسط : بلد معروف بناه الحجاج وسط المسافة التي بين البصرة والكوفة ،
منها إلى كل واحدة منهما خمسون فرسخاً ، وسكنه ، ومات فيه .

قل اليمقوني : واسط مدينتان على حافتي دجلة ، فالمدينة القديمة التي هي :

(٢٤ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

منازل الدهاقين هي الشرقية من دجلة ، وهي مدينة كَسْكَر . وابتنى الحجاج مدينة في الجانب الغربي ، وجعل بينهما جسرا من السفن ، وبنى بها قصره والقبة الخضراء التي يقال لها خضراء واسط والمسجد الجامع ، وعليها سور ، ونزلتها الولاية بعد الحجاج . وهي بين البصرة والكوفة والأهواز متوسطة ، فسميت واسط بذلك .

قال الطبري^(١) خرج الحجاج يرتاد منزلا لأهل الشام ، فأمن حتى نزل أطراف كَسْكَر ، فبينما هو كذلك إذ هو براهب قد أقبل على أتان له ، فعبّر دِجْلَةَ ، فلما كان بموضع واسط ، تفاجت الأتان فبالت ، فنزل الراهب فاحتفر ذلك البول وحمله^(٢) حتى رمى به دجلة ، وذلك بعين الحجاج ، فقال : على به ، فلما أتاه^(٣) قال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : إنا نجد في كتبنا أنه يُبنى في هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه^(٤) ما دام أحد في الأرض يوحدّه ، فاختط الحجاج مدينة واسط ، وبنى المسجد في ذلك الموضع ، وذلك سنة ثلاث وثمانين .

* * *

قوله . سكنا ، أى صاحباً يُسكن إليه ويؤنس به ، والمسكن : المنزل الذي يُسكن فيه . البيداء : الصحراء ، أراد أنه غريب ليس له صاحب ولا منزل كالخوت في الصحراء . واللّمة : الجُلمة من الشعر تُلمّ بالمنكب . قاذى : ساقى . الحظ : النصيب . والجُدّ : السعد . الناكص : الراجع إلى خلفه ، يريد أن سعده يمشى إلى جهة خلف ، ونكص ينكص : رجع القهقري . خان : فندق . والشذاذ : الغرباء الذين شذّوا عن أوطانهم ، أى فروا منها وبعدوا ، والشذاذ : التفرق ، وكلمة شاذة : مفترقة من جنسها ، وشذّ الرجل : انفرد عن أصحابه .

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣٨٤

(٢) الطبري : « احتمله »

(٤) ط : « يوجد » تحريف

(٣) الطبري : « فأتى به »

والآفاق : النواحي . أخلاط الرفاق : من لا يتخصص منهم ولا يجمعين .
إبطانه : سكناه . هوى أوطانه : حب بلاده . استفردت : سكنها مفرداً .
والحجرة : البيت . أنافس : أغال ، من قولهم : نفستُ عليه بالشيء ، إذا ضنفتَ
به ، ولم تحبَّ أن يصير إليه . لمح الطرف : نظر العين . بيت بيت ، أى بيته ملاصق
ببني ، وهما اسمان جعلاً كاسم واحد ، وبنياً على الفتح . نزله : النازل معه .

* * *

قَمِّ يَا بَنِيَّ ، لَا قَمَدَ جَدِّكَ ، وَلَا قَامَ ضِدِّكَ ، وَاسْتَصْحِبْ ذَا الْوَجْهِ
الْبَدْرِيَّ ، وَاللَّوْنَ الدَّرِّيَّ ، وَالْأَصْلَ النَّقِّيَّ ، وَالْجِسْمَ الشَّقِيَّ ، الَّذِي قُبِضَ
وُنُسِرَ ، وَسُجِنَ وَشُهِرَ ، وَسُقِيَ وَقُطِمَ ، وَأُدْخِلَ النَّارَ بَعْدَ مَا لَطِمَ .
ثُمَّ اذْ كُضْ إِلَى السَّوْقِ ، رَ كُضَ الْمَشُوقُ ، فَقَايِضُ بِهِ اللَّاقِحُ
الْمُلْقِحُ ، الْمُفْسِدَ الْمُصْلِحُ ، الْمُكْمِدَ الْمُفْرِحَ ، الْمُعْنَى الْمُرُوحَ ، ذَا
الزَّفِيرِ الْمُخْرِقِ ، وَالْجَنِينِ الْمُشْرِقِ ، وَاللَّفْظِ الْمُفْنَعِ ، وَالثَّبَلِ الْمُفْتِنِ ،
الَّذِي إِذَا طُرِقَ ، رَعَدَ وَبَرَقَ ، وَبَاحَ بِالْحَرْقِ ، وَنَفَثَ فِي الْحَرْقِ .

* * *

جَدُّكَ : سعدك . ضِدِّكَ : عدوك الخالف لك . البدرى : الأبيض المستدير
كالبدري ، يريد الرغيف ، شبهه بالبدر في بياضه واستدارته . وقال ابن الرومي :
مررتُ بجنّازٍ ييسط الرقاق كأمرع من رجوع الطرف ، ما بين أن ترى السجين
في يده كالكرة حتى يندحى فيصير كالقمر ، إلا مقدار لحظة ، فشبهت سرعة
انبساطها ، بسرعة الدائرة في الماء يذف فيه بالحجر فقلت :

مَا أَنَسَ لَا أَنَسَ خَبَازًا مَرَرْتُ بِهِ

يَدْحُو الرِّقَاقَ كَوْشَكَ الْمَلْحِ بِالْبَصْرِ^(١)

مَا بَيْنَ رُؤْيَيْهَا فِي كَفِّهِ كَرَةً وَبَيْنَ رُؤْيَيْهَا قِوَاءٌ كَالْقَمَرِ

إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ فِي صَفْحَةِ الْمَاءِ يُرْمَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

• • •

[مما قيل من الشعر في الغلمان]

ويتعلق بهذا مما قيل من الشعر فيمن ليس له نباهة من الغلمان : كان ابن
وضاح جالسا مع جملة من الأدباء ، فقرأ بهم غلام تغليف يبيع الخبز ، فلم يتجده
لأحد فيه شيء إلا ابنُ وضاح ، فإنه قال :

خَازِرُ الْخَبْزِ ظَرِيفٌ عَذِبَتْ فِيهِ الْخُتُوفُ

خَامِلُ الْأَنْسَابِ لَكِنْ هُوَ فِي الْحَسَنِ شَرِيفٌ

خَمْرُهُ أَهْيَفُ شَخْتٍ^(٢) وَكَذَا الْفَزْلَانُ هَيْفٌ

مَنْ يَخَاصِمُ مَقْلَتِيهِ حُكِّمَتْ فِيهِ السِّیُوفُ

ونظر إدريس بن اليماني إلى غلام وسيم بالحمام عليه أسمال ، فقال :

تَوَشَّحَ بِالظُّلَمَاءِ وَهُوَ صَبَاحٌ وَأَمْرُضُ بِالْأَجْفَانِ وَهِيَ صِبْاحٌ

وَوَضَّحَ فَوَادِي طَائِرًا عَنْ جَوَائِحِي وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفَرَامُ جَنَاحٌ

(١) نقله البارودي في مختاراته ٤ : ٧١

(٢) شخت ، أي ضامر .

قَضِيبُ صَبَاحٍ فِي وَشَاحٍ دُجْنَةٍ أَلَا لَيْتَنِي تَحْتَ الْوَشَاحِ وَشَاحُ
وَلَا عَجَبُ أَنْ أَفْسَدْتَنِي جُفُونُهُ فَكَلَّ فُسَادٌ فِي هَوَاهُ صَلَاحُ

وَقَالَ الرَّصَافِيُّ :

يَقُولُونَ لِي يَوْمًا وَقَدْ مَرَّ ضَارِبًا بِمَعْوَلِهِ ضَرَبَ الْمَرْجَمَ بِالْقَتِيبِ^(١)
تَعَلَّمَ صَفَّارًا فَقُلْتُ : اسْتَعَارَهَا غَدَاةَ رَنَاءٍ مِنْ صِبْغَةِ الْعَاشِقِ الصَّبِّ
يَعُودُ النِّجَاسُ الْأَحْمَرُ الْقَبْرَ عَسْجَدًا
بِكَفِّهِ عِنْدَ السَّبْكِ وَالْمَدِّ وَالضَّرْبِ
فَحَمَرَتُهُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ حَيَاتِهِ وَصَفَرَتُهُ مِمَّا يَخَافُ مِنَ الْقَتْبِ

قوله الدرّى : الأبيض الذى يشبه الدرّ فى لونه ، ويقال : كوكب درّى
منسوب إلى الدرّ ، مشبّهًا به لصفائه وحسنه ، بضم الدال وتشديد الياء ، ودُرّى
بالضم والهمز ، ودِرّىء بكسر الدال مع الياء ومع الهمزة ، ودِرّىء بالفتح
والهمز ، فن كسر وهمز فهو فَعِيل ، من درأ الكوكب ، إذا جرى فى أفق
السماء ، ومن كسر بلا همز فلاجل الياء بمد الراء ، ومن ضم وهمز فخطأه
الفراء ، قال : فَعِيل ليس فى أبنية العرب ، وأثبتته سيبويه . قال أبو عبيدة :
أصله دَرَوَى مثل سَبَّوح ، فَعَمِلُوا الْوَاوِيَاءَ ، وَجَعَلُوا الضَّمَّةَ قَبْلَهَا كَسْرَةً ،
ومثله عَتَوَّ وَعِئَّى .

قوله : الأصل النقى ، يعنى القمح الذى صنع منه كان نقيًا من الزبل وغيره .
وشقاء جسمه ، قد فسّر فى التاسعة عشر ، وهو الآن يبيّن بعض شقائه ، قَبِضُ
ونشر . وقت المعجن ، أو وقت الخبز ، لأنه يقطع قبضة ثم يُدَسَّطُ للخبز . سجن :

حُزِنَ قَمَحُهُ فِي الْحَازِنِ . وَشُهِرَ : أُبْرَزَ مِنْهَا لِلسُّوقِ وَشُهِرَ عَلَى النَّاسِ ، أَوْ يَكُونُ
سَجْنَهُ الْقُرْنِ ، وَشُهِرَتْهُ الْبَيْعُ فِي السُّوقِ ، أَوْ عِنْدَمَا يُطَافُ بِهِ عَلَى الْأَسْوَاقِ : وَقَالَ
لِلْعَرِيِّ يُلْفِزُ فِي الْقَمَحِ :

وَمَمَرَاءُ فِي بَيْضِ الْحَسَانِ شَرِيقُهَا بَصْفَرٍ مِنَ الْعَيْنِ الشَّيْبَةِ بِالشَّمْسِ
وَقَدْ غَيِّتْ فِي الْخَلْدِ عَصْرًا مَصُونَةً مَحْجَبَةً عَنْ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
فَلَمَّا بَدَتْ عَنْهُ بَدَتْ سَيْمَةُ النَّوَى عَلَيْهَا وَلَمْ تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ الْأَمْسِ
فَأَهْلًا بِأَنْثَى لَمْ تَرَدْ يَدَ لَامِسٍ بِسَوْءٍ وَلَا أَبَدَتْ نَفَارًا مِنَ اللَّامِسِ

سُقِيَ : جُمِلَ الْمَاءُ عَلَيْهِ لِلْجَيْنِ . فُطِمَ : قُطِعَ عَنْهُ لِلْإِسَاءِ . لَطِمَ : سَوَّى
بِالْكَفِّ ، وَعَامَتْنَا تَشَدُّدَ الطَّاءِ . اِرْكُضْ : أَمْرٌ ع . الْمَشُوقُ : الْكَثِيرُ الشَّوْقِ ،
وَشَاقَكَ الشَّيْءُ : يَشُوقُكَ ، إِذَا هَاجَكَ . قَابِضٌ : عَاوِضٌ ، وَقَابِضَتِ الرَّجُلُ
فَعَلَتْ مَعَهُ مَا يُفْعَلُ مَعَكَ . اللَّاقِحُ فِي الْأَصْلِ : النَّاقَةُ يَعْلُوهَا الْفَعْلُ ، فَتَحْمِلُ مِنْهُ .
وَلَقَحَتْ : حَمَلَتْ ، وَالْمَلْقَحُ : الْفَعْلُ يَعْلُوهَا عِنْدَ السَّفَادِ ، وَقَدْ يَبَيَّنُ أَنَّهُ يَرِيدُ حَجَرِ
الزَّيْتِ ، جُمِلَ لِأَنَّهُ حَامِلٌ بِالنَّارِ ، وَمَلْقَحًا لِأَنَّ بِهِ تَخْرُجُ النَّارُ مِنَ الزَّيْتِ ،
فَكَأَنَّهُ أَلْقَحَهُ بِالنَّارِ ، أَيْ جَعَلَهَا فِيهِ . وَالزَّيْتُ أَيْضًا لَاقِحٌ مَلْقَحٌ ، لِأَنَّ النَّارَ لَا تَوْجَدُ
فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى انْفِرَادِهِ ، وَالنَّارُ تُصْلِحُ فِي مَوْضِعٍ وَتُفْسِدُ فِي آخَرٍ ، فَلِذَلِكَ
وَصَفَهُ بِهِمَا . وَالْغَنَى : الْمَتْعَةُ بِإِحْرَاقِهِ . الْمَرْوُوحُ : الْمُدْخُلُ الرَّاحَةُ بِإِصْلَاحِهِ ، وَإِنْ
جَعَلَهُ الزَّيْتُ ، فَعِنَاهُ إِذَا شَخَّ ، وَمَرْوَحٌ إِذَا أَوْرَى ، وَنَحْوَهُ . الْمَكِيدُ ، أَيْ الْحَزَنُ .
الْمَفْرُوحُ : ضِدُّهُ . وَالزَّيْفِيرُ : التَّنْفِيسُ ، وَزَفْرَةُ الْحَجَرِ هِيَ النَّارُ ، وَهِيَ تَحْرِقُ كُلَّ
مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ . وَهُوَ الْجَيْنُ ، أَيْ الْمُسْتَوْرُ فِي الْحَجَرِ ، فَإِذَا ظَهَرَ أَشْرَقَ وَأَضَاءَ .
وَاللَّفْظُ : صَوْتُ الْحَجَرِ فِي الزَّيْتِ ، فَإِذَا أَبْدَى النَّارُ أَقْنَعَكَ وَاسْتَكْفَيْتَ بِهِ . وَهُوَ
نَيْلُهُ ، أَيْ عَطَاؤُهُ . وَالْمَبْتَعُ : الْكَثِيرُ وَقَلِيلُ النَّارِ كَثِيرٌ ، وَقَدْ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : إِنَّ
السَّقَطَ يَحْرِقُ الدَّوْحَةَ ، أَرَادَ مَا يَسْقُطُ مِنَ الزَّيْتِ مِنَ النَّارِ الضَّعِيفَةِ يَحْرِقُ الشَّجَرَ

الكثير الملتف . طُرِق : ضُرب . رَعَد : صَوَّت . برق : لمعت ناره . باح : أظهر ما يستر فيه . الحرق : التهاب القلب بالهَم ، فكنى به عَمَّا فى الحجر من النار . نفت : بزق . الحرق : التى تسقط فيها نار الزند ؛ وهذه ألفاظ كلها متقاربة ، بعضها يفسر بعضها ، لأنها من مליح الكلام .

* * *

قال : فلما قرئت شِقْشِقَةُ الهادر ، ولم يَبْقَ إِلَّا صَدْرُ الصَّادِر ، بَرَزَ فَتَى يَمِيسُ ، وَمَا مَعَهُ أُنَيْسُ ، فرأيتها عَضْلَةً تَلْعَبُ بالعقول ، وتُغْرِى بالدَّخُولِ فى الفضول ، فانطلقتُ فى أثرِ الغلام ، لأخْبِرَ فَحْوَى الكلام ، فلم يَزَلْ يَسْعَى سَعَى العَفَارِيتِ ، وينفقدُ نَضَائِدَ الحَوَانِيتِ ، حَتَّى انْتَهَى عِنْدَ الرَّوَّاحِ ، إلى حجارة القَدَّاحِ . فَنَاولَ بِأَمْعَاهَا رَغِيفًا ، وتناول مِنْهُ حَجَرًا طَيفًا . فعجبت مِنْ فِطَانَةِ المرسلِ والمرسلِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّهَا سَرُوجِيَّةٌ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلْ ، وَمَا كَذَّبْتُ أَنَّ بَادَرْتُ إِلَى الْخَانَ ؛ مُنْطَلِقَ الْعِنانِ ؛ لِأَنْظُرَ كُنْهَ فَهْمِي ، وَهَلْ قَرَطَسَ فى التَّكْهِنِ سَهْمِي ؛ فَإِذَا أَنَا فى الْفِرَاسَةِ قَارِسٍ ، وَأَبُو زَيْدٍ بَوَصِيدِ الْخَانَ جَالِسٍ . فَتَهَادَيْنَا بُشْرَى الْإِلْتِقَاءِ ، وَتَقَارَصْنَا تَحِيَّةَ الْأَصْدِقَاءِ .

* * *

قرت : سكنت . الهادر : الفحل . وشِقْشِقْتُهُ : ما يخرج من لَهَاتِهِ . وتقدّمت فى الأولى ، ويزعمون أنها لا توجد عند نحر الفحل ، وكذلك بيضه لا يوجد ، قال : وأنشد بشر بن المعتمر :

خصيته تطلّ من حظه عند حدوث الذبح والنحر
 ما إن يرى الرايون من بعدها شِقْشِقَةً مائلة المذر

وأراد به : سكّت المتكلم . صدر الصادر : خروج الخارج من الماء بعد
 شربه . برز : خرج . يمس : يقبخر ويقثنى . عضلة : داهية وأمر صعب .
 تُغرى : تحرض وتلصق . فحوى : معنى . يسى : يجرى . الفاريت : شرّ
 الشياطين وأدّهاها . نضائد : ما جعل شيئاً على شيء . الرّواح : العشي .
 القدرّاح : حجر الزند تقدح النار منه . ناول : أعطى . لطيفاً : دقيقاً . فطانة :
 ذكاء . وما كذّبت ، أى ما خيّبت . منطلق العنان : مسيّب حيث شاء . كنه :
 حقيقة . قرطس : أصاب الغرض مرة بعد أخرى ، والقرطاس يُجعل غرضاً ،
 فإذا توالى ضربه قيل : قرطس . والتسكهن : الحديث بما يكون . والفراصة :
 النظر بالظن . وصيد الخان : فناء الفندق ، وقيل بابه ، من أوصدت الباب ، أغلقته ،
 وقيل : عتّبة بابه . تهاديننا : أهديته وأهدانى . البشرى : السرور ، أى فرح
 كل واحد منا بصاحبه . فتهاديننا البشرى : تقارضنا : اندفعنا بالسّلام ، يريد
 حالة الصديقين إذا التقيا بعد سفر ، فيبالغ كل واحد منهما فى سلام صاحبه
 ويتابعه . والتحية : السلام ، ومنه التحيات لله ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ
 بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾^(١) ، أى سلّم عليكم . وقيل : التحية : الملك ، وكان
 الملك يُحيّا بأنعم صباحا ، وأييت الامن ، وقيل : معناه البقاء لله ، وقال زهير
 ابن جناب :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلْتُهُ إِلَّا التَّحِيَّةَ مِنْ إِلَهٍ قَادِرٍ
 أَى الْبَقَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : مَا الَّذِي نَابَكَ ، حَتَّى زَانَيْتَ جَنَابَكَ ؟ فَقُلْتُ : دَهْرُهُ
 هَاضَ ، وَجَوْرُهُ فَاضَ . فَقَالَ : وَالَّذِي أَنْزَلَ الْمَطَرَ مِنَ الْغَمَامِ ، وَأَخْرَجَ
 الثَّمَرَ مِنَ الْأَكْطَامِ ؛ لَقَدْ فَسَدَ الزَّمَانُ ، وَعَمَّ الْمُدُونُ ، وَعُذِمَ
 الْمِعْوَانُ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعْمَانُ ؛ فَكَيْفَ أَفَلْتُ ، وَعَلَى أَيْ وَضْفِيكَ
 أَجْفَلْتُ ! فَقُلْتُ : اتَّخَذْتُ اللَّيْلَ قَيْصًا ، وَأَدْلَجْتُ فِيهِ خَيْصًا . فَأُطْرَقَ
 يَسْكْتُ فِي الْأَرْضِ ، وَيَفْكُرُ فِي ارْتِيَادِ الْقَرْضِ وَالْفَرْضِ . ثُمَّ
 اهْتَزَّ هِرَّةٌ مَنَ أَكْشَبُهُ قَنْصٌ ، أَوْ بَدَتْ لَهُ فُرْصٌ ، وَقَالَ :
 قَدْ عَلِقَ بِقَلْبِي أَنْ تُصَاهِرَ مَنْ يَأْسُو جِرَاحَكَ ، وَيَرِيشُ جَنَاحَكَ ،
 فَقُلْتُ : وَكَيْفَ أَجْمَعُ بَيْنَ غُلٍّ وَقُلٍّ ، وَمَنْ الَّذِي يَرْغَبُ فِي .
 ضُلِّ ابْنِ ضُلٍّ ! فَقَالَ : أَنَا الْمَشِيرُ بِكَ وَإِلَيْكَ ، وَالْوَكِيلُ لَكَ وَعَلَيْكَ ،
 مَعَ أَنْ دِينَ الْقَوْمِ جَبْرُ الْكَسِيرِ ، وَفَكَ الْأَسِيرِ ، وَاحْتِرَامُ الْعَشِيرِ ،
 وَاسْتِنصَاحُ الْمُشِيرِ ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ لَوْ خَطَبَ إِلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَمَ ،
 أَوْ جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهِمْ ؛ لَمَّا زَوَّجُوهُ إِلَّا عَلَى خَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، اقْتِدَاءً
 بِمَا مَهَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوْجَاتِهِ ، وَعَقْدَ بِهِ أَنْكَحَةَ
 بَنَاتِهِ ؛ عَلَى أَنَّكَ لَنْ تُطَالَبَ بِصَدَاقٍ ، وَلَا تُنْجَأَ إِلَى طَلَاقٍ . ثُمَّ
 إِنِّي سَأُخْطِبُ فِي مَوْقِفِ عَقْدِكَ ، وَجَمْعِ حَشْدِكَ ، خُطْبَةً لَمْ تَفْتَقِ
 رَتْقَ سَمْعٍ ، وَلَا خُطْبٍ بِمِثْلِهَا فِي جَمْعٍ .

* * *

نابك : نزل بك . جنابك : بلدك وناحيتك ، والجناب : فناء الدار . هاض :

كسر . قاض : كثر . الغمام : السحاب . والتمر : الثمار . وأكلمها : ما يكون فيها
ثمرها ، وكل ما وارى شيئاً فهو كالم له . وكمّ . عمّ . شمل . العدوان : الفساد .
للعوان : ما يستعان به . وقال الشاعر :

لله دَرَأِيكَ أَيْ زَمَانِ أصبحت فيه وأَيَّ أَهْلِ زَمَانِ
كُلُّ يَدَانِيكَ الْحَبَّةَ جَاهِلًا يعطى ويأخذُ منك بالمِيزَانِ
فَإِذَا رَأَى رُجْحَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ مالت مودَّتُهُ مع الرَّجْحَانِ
وقال ابن لنكك^(١) :

نَحْنُ مع الدهر في أعاجيب فنسأل الله صَبْرَ أَيُّوبِ
أَقْفَرَتِ الْأَرْضُ من محاسنها فابكٍ عليها بكاءً يَعْقُوبِ
وَصَفَيْنَاكَ : حالتيك من الخير والشر ، وهى حالة السفر . أَجْفَلْتُ : هربت
مسرعا ، والإجفال : الهروب ، ثم قال : مشيت في ظلام الليل ، فصار لى
كالقميص . أدلجت : مشيت في السحر . خميصا : جائعا . أطرق : أُمال رأسه
ساكنا . ينكُت : يخطّ في الأرض . ارتياد : طلب . القرض من العطية ؛
ما فرضت على نفسك عطاءه ، على ألا تجازى عليه . والقرض : ما أعطى من
غير قرض .

قال الحريري : القرض باللقاف : ما يستعاد عوضه ، والقرض بالفاء : مالا
عوض فيه ، وأنشد في الدرّة^(٢) لأبي عبد الله التّمريّ يرثى أبا عبد الله
الأزدى :

مضى الأزدى والتّمريّ يمضى وبعض الشّكلِ مقرون ببعضِ
أخى واجتني ثمرات ودّي وإن لم يحزني قرضي وبرضي

(١) هو محمد بن محمد بن لنكك البصري ، وله ترجمة في اليتيمة ٢ : ٢٣٠ - ٢٢٤ ،
وفيها البيتان .

(٢) درة القواس ص ٤٧ .

قوله : أ كُتِبَ ، أى دنا منه . قَنَصَ : صَيَدَ . فرص : جمع فرصة ، وهى كالغنيمة . يَأْسُو : يَطْبُ . يَرِيشُ : يجعل عليه الريش . الْغُلَّ : الزوجة هنا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : إنما النساء أغلال فلينظر أحدكم غلاً يجعل فى عنقه .

وتقول العرب للمرأة السيئة الخلق : غُلَّ قِيل ^(١) .

وعوتب الكسائى فى ترك التزوج فقال : وجدت معاناة العِفَّة أيسر من معاناة العيال .

الْقُلَّ : القِلَّة . وَضُلَّ ابن ضُلَّ : مجهول لا يعرف ، وفلان ضُلَّ إذا كان مجهولاً متمكناً فى الضلال . المشير بك وإليك ، يقال : أشار به إذا رفعه وأشار النارَ وأشار بها وتشوَّرها ، أى رفعها ، فعنى أنا للمشير بك ، أى أرفعُ قدرك ، وأعظم منزلتك ، أى أثنى عليك بخيرٍ فى غيبتك عند إصهارك ، والمشير إليك إذا حضرت ، أشرت إليك أن تزوج فيهم إذا رأيتهم أكفاءك .

والوكيل لك عليهم حتى يزوجوك ، والوكيل عليك ، لتمثل ما أمرك به من الزواج فيهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . قيل فيه : الكافى هو ، قال الفراء : يكون المعنى : كافينا الله ونعم الكافى ، كقولك : رازقنا الله ونعم الرازق . ابن الأنبارى وهو أحسن فى اللفظ من قولك : كافينا الله ونعم الوكيل . دينهم : عاداتهم . جبر : إصلاح . فك : حل . احترام : إعزاز وتقريب ، وهو افتعال من الحرمة ، أى يجعلونه فى حرمتهم ، المشير : الصاحب . استنصاح المشير ، أى مَنْ أشار عليهم بشئ رأوه ناصحاً .

(١) قال فى اللسان : « أصله أنهم كانوا يفلون الأسير بالقد وعليه الشعر ، فيتقمل القد فى عنقه » .

[ترجمة إبراهيم بن أدهم]

إبراهيم بن أدهم ، هو من شيوخ الصوفية ، وهو من رجال رسالة
القشيري^(١) ، قال صاحبها : فمنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن
إسحاق البلخي من كورة بلخ ، من أبناء الملوك .

وحدث إبراهيم بن بشار ، قال : صحبت إبراهيم بن أدهم بن منصور بن
إسحاق البلخي بالشام ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، خبرني عن بدء أمرك كيف
كان ؟ فقال : كان أبي من ملوك خراسان ، وكنت شاباً ، فركبت يوماً على دابة
ومعى كلب ، وخرجت إلي الصيد فأثرت ثعلباً ، فبينما أنا في طلبه ، إذ هتف
بي هاتف : ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ؟ ففزعت ووقفت ، ثم عدت فركضت
الثانية ، ففعل مثل ذلك ثلاث مرات ، ثم هتف بي من قربوس السرج : لا والله
ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . قال : فنزلت وصادفت راعياً لأبي ، فأخذت
منه جبة من صوف ، فلبستها وأعطيته الفرس ، وما كان معي . ثم دخلت البادية
متوجّهاً إلى مكة ، فبينما أنا يوماً في مسيري إذا برجل يسير ، وليس معه إناء
ولا زاد ، فلما أمسى وصلى المغرب حرّك شفتيه بكلام لا أفهمه ، وإذا أنا بإناء
فيه طعام وإناء فيه شراب ، فأكلت وشربت ، وكنت على ذلك معه أياماً ،
وعلمني اسم الله الأعظم ، ثم غاب عني ، وبقيت وحدي أنا ذات يوم
مستوحش من الوحدة ، دعوت الله فإذا أنا بشخص آخذ بحجزتي ،
فقال لي : سل تعط ، فراعني صوته ، فقال : لا روعة عليك ولا بأس ، أنا أخوك
الخير ، إن أخى داود علمك اسم الله الأعظم فلا تدع على أحد يدينك وبينه شحنة
فهلكه ، ولكن ادع الله به أن يقوى ضعفك ، ويؤنس وحشتك ، وتجدد به
في كلّ يوم نيتك ورغبتك ، ثم تركني وانصرف .

وصحبه سفيان الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها . وكان
يأكل من عمل يده ، مثل الحصاد وحفظ البساتين .

وكان كبير الشأن في الورع ، وقال : أطب مطعمك ولا عليك ، ألا تقوم
بالليل ولا تصوم بالنهار .

ركان عامة دعائه : اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك .

وقال لرجل في الطواف : اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز
ستّ عقبات ، وهي أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، وتغلق باب العزّ
وتفتح باب الذلّ ، وتغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، وتغلق باب النوم
وتفتح باب السهر ، وتغلق باب الفنى وتفتح باب الفقر ، وتغلق باب الأمن
وتفتح باب الاستعداد للموت .

وقال محمد بن المبارك الصوري : كنت مع إبراهيم بن آدم في طريق بيت
المقدس ، فزّلنا وقت القيولة تحت شجرة رمان ، فصلينا ركعات ، فسمعت
صوتا من أصل الرمان : يا أبا إسحاق ، أكرمنا بأن تأكل مناشيتنا ، فطأطأ رأسه
فقال ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : يا محمد ، كن شفيعا إليه ليقناول مناشيتنا ،
فقلت : يا أبا إسحاق ، لقد سمعت ، فقام وأخذ رمانتين ، فأكل واحدة وناولني
الأخرى ، فأكلتها وهي حامضة ، وكانت قصيرة ، فلما رجعنا مررنا بها وهي
شجرة عالية ورُمتانها حلو ، وهي تثمر في كل عام مرتين ، وسموها رمانة
العابدين .

وركب إبراهيم في مركب ، فهاجت ريح شديدة ، فلف إبراهيم رأسه
بعباءة وطرح نفسه مع الغاس ، فسمعوا صوتا من البحر يقول : لا تخافوا فنيكم

إبراهيم بن آدم ، وصاح الناس في المركب : أين إبراهيم بن آدم ؟ ثم سكنت
الريح ، فخرج وما عرفوه .

قال له رجل : من أين كسبك ؟ فقال :

نرَقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبق ، ولا ما نرَقعُ

وأخباره في كتب التصوف كثيرة تطول .

[ذكر جبلة بن الأيهم]

وأما جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث
الأكبر بن عمرو بن جَفْنَة ، وفي نسبه اختلاف .

وهو آخر ملوك غسان ، وكان طوله اثني عشر شبرًا ، فإذا ركب مسح
الأرض بقدميه .

ولما أراد أن يُسلم كتب إلى عمر ليستأذنه في القدوم عليه ، فسُرَّ بذلك
وكتب إليه : أن أقدم ، فلك مالنا وعليك ما علينا ، فخرج في مائة فارس من
عَكَّ وجفنة ، فلما دنا إلى المدينة ألبسهم ثياب الوثنى المنسوجة بالذهب الأحمر
والحرير الأصفر ، وجلّل الخيل بجلال الديباج ، وطوّقها أطواق الذهب والفضة ،
وليس تاجه وفيه قرطامارية ، فلم يبق في المدينة إلا من خرج إليه ، وفرح
المسلمون بقدومه وإسلامه .

ثم حضر الموسم مع عمر ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره
رجل من فزارة فحله ، فالتفت إليه جبلة مغضبًا ، فلطمه فهشم أذنه ، فاستعدى
عليه الفزاريّ عمر ، فقال : ما دعاك إلى أن لطمت أخاك ؟ فقال : إنه وطئ
إزاري ، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه ، فقال له عمر : أما

أنت قد أقررت ، فإما أن تُرضيه وإما أن أقيدَه منك ، قال : أتقيدهُ مني ، وهو رجل سوقه لـ قال : قد شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلا بالعافية ، قال : قد رجوتُ أن أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية ، فقال : هو ذاك ، قال : إذا أنتصرت . قال : إن تنصرت ضربت عنقك . واجتمع وفد فزاره ووفد جبلة ، وكادت تكون فتنة ، فقال جبلة : أنظرني إلى غد يا أمير المؤمنين . قال : ذلك إليك .

فلما كان في جُنح الليل خرج في أصحابه إلى القسطنطينية فتنصّر ، وأعظم هرقلُ قدومه وسرَّ به وأقطع له الأموال والرتب ، فلما بعث عمر رضى الله عنه رسوله إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فأجابه إلى المصالحة ، ثم قال للرسول : أرايت ابن عمك الذي أتانا راغباً في ديننا ؟ يعني جبلة ، قال : لا . قال : ألقه ثم ائتني وخذ الجواب . فذهب فوجد على باب جبلة من الجمع والحجاب والبهجة مثل ما على باب قيصر .

قال : فتلطفتُ في الأذن حتى دخلتُ عليه : فرأيت رجلاً أصهب اللحية فأنكرته ، فإذا هو قد دعا بسُحالة الذهب فذرّها على لحيته ، حتى عاد أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير . فلما عرفني رفعتني معه على السرير ، وجعل يسألني عن المسلمين ، فقلت : قد أضعفوا إضعافاً على ما تعرف ، وسأل عن عمر رضى الله عنه ، فقلت : بخير حال ، فأعظم بسلامة عمر ، فأحدثتُ عن السرير فقال : لِمَ تأبى الكرامة ؟ فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا ، قال : نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقّ قلبك من اللّنس ولا تبالي علام فعلت ، فطمعت فيه عند صلاته على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ويحك يا جبلة ألا تسلم ! وقد عرفت الإسلام وفضله ؟ قال : أبعد ما كان مني ! قلت : نعم ، قد فعل رجل من فزاره أكثر مما فعلت ، ارتدّ وضرب أوجه المسلمين

بالسيف ثم أسلم ، وقبِل منه وخَلَفَتْهُ بالمدينة مسلماً .

قال : زدني من هذا ، إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ويؤتيني الأمر من بعده ، رجعت إلى الإسلام . فضمنت له التزويج ، ولم أضمن الخلافة . فأوماً إلى وصيف بين يديه ، فذهب مسرعاً فإذا موائد الذهب قد نُصبت بصحائف الفضة ، فقال لي : كُلْ ، فقبضت يدي ، وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة ، فقال : نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نق قلبك ، وكل فيما أحببت . فأكل في الذهب والفضة ، وأكملت في الخَلَنج^(١) . ثم جاء بطشت من الذهب ، ففسل يديه فيها ، وغسلت في الصُّفَر . ثم أوماً إلى خادم عن يمينه ، فذهب مسرعاً ، فسمعت حساً ، فإذا خدّم معهم كرامىً مرصعةً بالجواهر ، فوَضِع عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره . وإذا عشر جوار في الشعور ، عليهن ثياب الوشى ، مكسرات في الخَلِي ، قعدن عن يمينه ، وقعد مثلهن عن يساره ، وإذا بجارية قد خرجت كالشمس حسناً ، وعلى رأسها ناج عليه طائر ، وفي يدها اليمنى جَام ، وفيه مسك وعنبر فتيت ، وفي يدها اليسرى جام فيه الورد ، فصغرت للطائر ، فوقع في جام ماء الورد ، فاضطرب فيه ، ثم وقع في جام المسك ، فتمرغ فيه ، ثم طار فوقع على صليب في تاج جبلة ، فرفرف حتى نفخ إماماً في ريشه عليه ، ونحك جبلة من شدة السرور ثم قال للجواري اللاتي عن يمينه : بالله أضجِكنننا فاندفنن بفنن ، تحفّق عيدانهن يقلن : —

لله دَرَّ عَصَابَة نادمتهنَّ يوماً بِحَلَقٍ في الزمان الأول^(٢)

(١) الخَلَنج : شجر تتخذ منه الأواني .

(٢) ديوان حسان ص ٣٠٨ .

يَسْتُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرَدَى يَهْفَقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ^(١)
 أَوْلَادَ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرُ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمَفْضَلِ
 يُفْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبَلِ
 بَيْضُ الرَّجْوِهِ نَقِيَّةٌ أَحْسَابُهُمْ شَمَّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ
 فضحك ثم قال : أتدرى من قائل هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسان بن ثابت
 شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال للاتي عن يساره : بالله أبكيننا ، فاندفعن بعيدانهنَّ يَغْنَيْنِ :
 لِمَنِ الدَّارُ أَقْفَرَتْ بُعْمَانِ بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ وَالصَّمَّانِ^(٢)
 ذَاكَ مَعْنَى لَّالِ جَفْنَةٍ فِي الدَّهْرِ وَحَقُّ تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ
 قَدْ أَرَانِي هُنَاكَ دَهْرًا مَكِينًا^(٣) عِنْدَ ذِي التَّاجِ تَجَلِّسِي وَمَكَانِي
 تَكَلَّمْتُ أُمَمَهُمْ وَقَدْ تَكَلَّمْتُهُمْ يَوْمَ حَلُّوا بِحَارِثِ الْجَوْلَانِ
 وَدَنَا الْفِصْحُ فَالْوَلَانْدُ يَنْظُمُ نِ سَرَابِئَا أَكَلَةَ الْمَرْجَانِ
 فبَكَى حَتَّى سَالَتِ الدَّمُوعُ عَلَى لَحْيَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : وَهَذَا لِحَسَانٍ أَيْضًا ،
 ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

تَنْصَرَّتِ الْأَشْرَافُ مِنْ أَجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرُ
 تَكَنَّفَنِي فِيهَا لَجَاجٌ وَنَحْوَةٌ وَبَعْتُ بِهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَرِ
 فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَنِي رَجَعْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي قَالَ لِي عُمَرُ
 وَيَا لَيْتَنِي أَرَعَى الْخَاضَ بِقَفْرَةٍ وَكُنْتُ أَسِيرًا فِي رِبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ

(١) لحسان بن ثابت ، ديوانه ٣٠٨ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات

(٢) البريس وبردَى : نهران بالشام . ويصفق يمزج .

(٣) لحسان ، ديوانه ٤١٤ ، وفيه : « أوحشت بعمان » وفيه أيضاً : « فالخام » بدل

« الصمان » قال شارحه : وهى مواضع بأكناف دمشق .

(٤) الديوان « حق مكين »

ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر
ثم سألتني عن حسان ، أحيى هو ؟ قلت : نعم . ثم أمر بمال وكسوة ونوق
موقورة برءا ، وقال : أقرئه سلامي ، وادفع له هذا إن وجدته حيا ، وإن
وجدته ميتا ، فادفنه إلى أهله ، وانحر الجمل على قبره .

قال : فلما قدمت على عمر أخبرته الخبر ، فقال : هلا ضمنت له الأمر ، فإذا أسلم
قضى الله علينا بحكمه ! ثم بعثت إلى حسان ، فأقبل وقد كُفّت بصره ، فلما دخل
قال : يا أمير المؤمنين إني وجدت ربيع آل جفنة ، قال : نعم ، هذا رجل أقبل من
عنده قال : هات يا بن أخي ما بعث به إليّ معك ؟ قلت : وما علمك ؟ قال :
إنه كريم من عصبة رجال كرام مدحهم في الجاهلية ، فحلف ألا يلقى أحدا
يعرفني إلا أهدى إليّ معه شيئا . فدفعته إليه وأخبرته بأمره في الإبل ، فقال :
وددت أني كنت ميتا فنحرت على قبري ، ثم أخذها وانصرف وهو يقول :

إن ابن جفنة من بقتة معشر لم يَغْذُم أباهم بالأسوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربها كلاً ولا متنصراً بالروم
يعطى الجزيل ، ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم
وأنتيته يوما تقرب مجلسي وسقى ورواني من الخرطوم

وذكر أن رسول عمر لما أرسله إلى قيصر ، قال : وأمرني أن أضمن
لجيلة ما شرط ، فلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته ،
فعلت أن الشقا . قد غلب عليه ^(١) .

— وحُدثت أن صاحب برطونة ^(٢) اليوم من ذريته . وذكر الثعالبي
أنه وجد للصابي فصلا من كتاب استظرفه جدا ، يذكر صلة وصلت إليه

(١) برطونة : بلدة على الفرات مقابل رجنة مالك بن طوق - ياقوت .

(٢) انظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤١ .

من الصاحب ، وهو : وصل أطل الله بقاء سيدنا أبو العباس أحمد بن الحسين ، وأبو محمد أحمد بن جعفر بن شعيب حاجين ، فعرّجا إلى ملهين ، وعاجا على مسلمين ، فحين عرفتهما ، وقبل أن أرد السلام عليهما مددت اليد إلى مامعهما ، كما مدّها حسان بن ثابت إلى رسول جيلة بن الأيهم ، ثقة منى بصلته ، وشوقاً^(١) إلى تكريمته ، واعتماداً^(٢) لإحسانه ، وألنا الموارِدَ لإنعامه ، وتيقنّا أن الخطرة منى على باله ، مقرونة بالنصيب من ماله ، وأن ذكره مشغوعة يجدوا^(٣).

رجع ما انقطع . فريد أنه لو خطب لهؤلاء القوم ابنُ أدم على زهده وفضله ، أو ابن الأيهم على ملوكيته وعزته لسوّوا بينهما في الصّدّاق اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

[ذكر مغالاة الصّدّقات]

وجاء في الترمذى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لاتغالوا في صدقات النساء ، فإنها لو كانت مكرمة أو تفوى عند الله ، لكان أولام بها نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وما أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً من نسائه ، على أكثر من اثنتى عشرة أوقية .

قال ابن عيينة : والأوقية عند أهل العلم أربعون درهما ، واثنتا عشرة أوقية أربعمائة وثمانون درهما .

وفي غير الترمذى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تيامروا في الصّدّاق » وكانت صدقات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على عظم قدره ، وعلو مرتبته

(٢) البئيمة : « واعتبادا »

(١) اليقمة : « تشوقا »

(٣) بئيمة الدهر ٢ : ٢٢٢

اثنى عشرة أوقية ونشاً ، والنَّشَ عشرون درهما ، فذلك خمسمائة درهم .

وروى عن عمر رضى الله عنه : أنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا لاتغالوا في صدقات النساء ، فإنه لا يبلغنى عن أحد أنه ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال . فمرضت له امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، كتاب الله أحق أن يُتبع أو قولك ؟ قال : كتاب الله تعالى . ثم قال : فيم ذلك ؟ قالت : الله تعالى يقول : ﴿ وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنَطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ ^(١) . فقال عمر رضى الله عنه : كل أحد أقره من عمر ! ثم رجع إلى المنبر ، فقال : إني كنت نهيتكم عن أن تغالوا في صدقات النساء ، فليفعل كل رجل منكم في ماله ما أحب .

فرجع عمر عن اجتهاده إلى ما قامت عليه الحجة فأباحه للناس واستعمله في نفسه ، فأصدق أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضى الله عنهم أربعين ألفاً . والقنطار ألف دينار ومائتا دينار ؛ إلا أن الميامرة في الصداق أحب عند أهل العلم من المغالة .

ومن الملح في صداق خمسمائة ، ما حدث به ابن أبي شيبة قال : كان حجاج جارئاً ، فسمعه يقول لأبيه : تزوجت أمي على خمسمائة درهم ، وبقيت أنا لك ربماً ، فقال له أبوه : من سخنة عين هذا الرجح أخشى .

قوله : مَهْرَ : يقال : مَهْرَ المرأةَ يَمْهَرُها ، وأمهرها : عَيَّنَ لها مهرأ . لن تطالب بصداق ، أى أن القصة ليس لها حقيقة . فليس ثم من يطالبك بصداق ولا طلاق . حشدك : جمعك ، وأصله مصدر ، ثم استعمل لجماعة الناس . تفتق : تشق . رتق : غلق . والسمع : الأذن .

قال الحارث بن همام : فازدّهاني بوصف الخطبة المتلوّة ، دُونَ
الخطبة المجلوّة ؛ حتى قلت له : قد وَكَلْتُ إِلَيْكَ هَذَا الْخَطْبَ ؛
فدبره تَذْيِيرَ مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ . فنهَضَ مُهَرِّولاً ، ثُمَّ عَادَ مُتَهَدِّلاً ،
وقال : أَبَشِيرُ بِإِعْتَابِ الدَّهْرِ ، وَاحْتِلَابِ الدَّرِّ ؛ فَقَدْ وُلِّيتُ الْعَقْدَ ،
وَأَكِفِلْتُ النَّقْدَ ، وَكَأَنَّ قَدْ ثُمَّ أَخَذَ فِي مَوَاعِدَةِ أَهْلِ الْخَانِ ،
وَإِعْدَادِ حَلَوَاءِ الْخِوَانِ . فَلَمَّا مَدَّ اللَّيْلُ أَطْنَابَهُ ، وَأَغْلَقَ كُلُّ ذِي
بَابٍ بَابَهُ ، أَدْنَى فِي الْجَمَاعَةِ : أَلَا أَحْضَرُوا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ؛ فَلَمْ يَبْقَ
فِيهِمْ إِلَّا مَنْ لَبَّى صَوْتَهُ ، وَحَضَرَ بَيْتَهُ . فَلَمَّا اصْطَفَوْا لَدَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ
الشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ عَلَيْهِ ، جَعَلَ يَرْفَعُ الْأُصْطِرْلَابَ وَيَضَعُهُ ، وَيَلْحَظُ
التَّقْوِيمَ وَيَدْعُهُ ، إِلَى أَنْ نَعَسَ الْقَوْمُ ، وَغَشِيَ النَّوْمُ ، فَقُلْتُ لَهُ :
يَا هَذَا ضَعِ الْفَاسَ فِي الرَّاسِ ، وَخَلِّصِ النَّاسَ مِنَ الثُّعَاسِ . فَنَظَرَ
نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ، ثُمَّ انْتَشَطَ مِنْ عُقْلِهِ الْوُجُومَ ، وَأَقْسَمَ بِالنُّظُورِ ،
وَالْكِتَابِ الْمُسْتَطُورِ ؛ لَيَنْكَشِفَنَّ سِرُّ هَذَا الْأَمْرِ الْمُسْتُورِ ،
وَلَيَنْتَشِرَنَّ ذِكْرُهُ إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ . ثُمَّ إِنَّهُ جَمًّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ،
وَاسْتَرْعَى الْأَسْمَاعَ لَخَطْبَتِهِ ،

ازدهاني : دعاني إلى الزهو ، وهو المُعْجَب والكبر ، أي أعجبت بوصفها ،
المتلوّة : المقرّوءة . الخطبة : الزوجة الخطوبة . المجلوّة : التي كشف وجهها لينظر
إليها . وَكَلْتُ : أسندت إليك ، وجعلتك القائم . الخطب : الأمر .

طبّ : أصلح حال العليل . فيقول : دبّر هذا الأمر تدير الطبيب أمر

حبيبه إذا كان عليلاً ، وطبّه أى عناه ، وقيل : معنى طبّ حذق بالشئ . وجاد فيه ذهنه ، والطّبّ : الحاذق بالأمر ، فيكون معناه ، دبّر أمرى تدير المميز الحاذق أمر حبيبه .

قال ابن الأنبارى : قولهم : مَنْ حَبَّ طَبَّ ، أى من أحب حَذَقَ وفطن واحتال لمن يحب ، والطّبّ فى اللغة : الحِذْقُ والْفِطْنَةُ ، ورجل طيب وطبّ ، إذا كان حاذقاً ، وسمّى الطّيب لِفِطْنَتِهِ .

ومعنى حَبَّ أَحَبَّ . وقال البصريون : لا يقال : حَبَّ يُحِبُّ ، وجاء عنهم : محبوب ، على فعل لا يُتَكَمَّمُ به . الكسائى والقراء : يقال : حبيت وأحببت ، وحبّ فى المثل يدلّ على صحته . والبصريون يقولون . حبّ إتباع لطف .

مهرولا : مسرعاً . متهدلاً : مستبشراً . إعتاب : إرضاء . الدّرّ : اللبن . ولّيت العقد ، أى أعطيت النكاح ، أى جعلنى أبو الزوجة وثياً لها . أُكْفِلْتُ النقد ، أى جمعت كفيلاً على أخذه ، والكفيل : الضامن ، أو يكون معنى أُكْفِلْتُ : ضمن لى وأعطيت كفيلاً . والنقد : المال الحاضر . وكان قد ، أى وكان قد أحضر المال وتيسر النكاح . الخوان : المائدة . أذن : صاح . لبي : أجب وقال : لبيك . الأصطرب : آلة للمنجّمين يأخذون بها الأوقات . يلحظ : ينظر . التقويم : التعديل . غشيّ النوم : غطى العيون وخمرها . ضع الفاس فى الراس ، أى اقصد إلى عين الخبر ، وهى كلمة تقال عند التوكيد فى العزم على الأمر ، ومعناه : اقطع ما تريده من الأمر وافعله .

والذى نظر نظرة فى النجوم ، هو إبراهيم عليه السلام ، لأنه تفكر ما الذى يصرفهم عنه إذا كلّفوه الخروج معهم ، فقال : إني سقيم . انتشط : انحلّ . والعقلة : ما ينشب فيها الإنسان فتعقله ، ويقال : لقان عقلة يعتقل بها الناس ، وذلك إذا صارهم عقل أرجلهم . والوجوم : العبوس والحزن الشديد ، أراد

أنه كان في تقويمه طالع نحس ، فكان مغبساً حزيناً ، فلما زالت ساعته ودخلت ساعة طالع سعد ، استبشر وزال عبوسه ، وإنما عقد هذا النكاح ليلاً لأن قصده السكر ، ولأنهم كانوا يختارون نكاح آخر النهار على أوله . قال بعض العلماء : ذهبوا في ذلك إلى اتباع السنة في الفأل ، فأثر الناس استقبال الليل بمقدام النكاح ، تيمناً بما فيه من الهدوء والاجتماع على صدر النهار ، لما فيه من التفرق والانتشار ، وذهبوا إلى تأويل القرآن لأن الله سَمَى الليل في كتابه «سَكَنًا» ، وجعل النهار «نشوراً» كما يستحبون النكاح يوم الجمعة للاجتماع ، وقال الشاعر :

ويوم الجمعة التنعيم فيه وتزويج الرجال من النساء

الطور : جبل موسى عليه السلام الذي آانس من جانبه النار وكلمه الله عنده . سرّ هذا الأمر ، أراد ما أضمره لهم من الخداع ، أى أنه سينكشف ويتحدث به إلى يوم القيامة . جثا : يَجْثُو جُثُوًا : جلس على ركبة . استرعى : استدعى . الأسماع : الآذان ، ويقال : أرعنى سمعك ، أى اسمع منى ، وأخل أذنيك لاستماع حديثي .

* * *

وقال : الحمد لله الملك المحمود ، المالك الودود ، مصور كل مولود ، ومآل كل مطرود ، ساطح المهاد ، وموطد الأطواد ، ومرسل الأمطار ، ومسهل الأوطار ، عالم الأسرار ومذكرها ، ومدمر الأملاك ومهلكها ، ومكور الدهور ومكررها ، ومورد الأمور ومصدرها . عمّ سماحه وكَمَلْ ، وهطل رُكامه وهمل ، وطاوع

السُّؤْلُ وَالْأَمَلُ . وَأَوْسَعَ الْمَرْمِلِ وَالْأَرْمَلِ . أَحْمَدُهُ حَمْدًا مَمْدُودًا مَدَاهُ ،
وَأَوْحَدَهُ كَمَا وَحَدَهُ الْأَوَاهُ ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا لَهُ لِلْأُمَمِ سِوَاهُ ، وَلَا صَادِعَ
لِمَا عَدَلَهُ وَسِوَاهُ . أَرْسَلَ مُحَمَّدًا عَلَمًا لِلْإِسْلَامِ ، وَإِمَامًا لِلْحُكَّامِ ، وَمُسَدِّدًا
لِلرَّعَاعِ ، وَمَعْطَلًا أَحْكَامَ وَدِّ وَسُوءِ ، أَعْلَمَ وَعِلْمٌ ، وَحَكَمَ وَأَحْكَمُ ،
وَأَصَلَ الْأُصُولَ وَمَهْدٌ ، وَأَكَّدَ الْوُعُودَ وَأَوْعَدَ ؛ وَاصِلَ اللَّهِ لَهُ
الْإِكْرَامُ ، وَأَوْدَعَ رُوحَهُ دَارَ السَّلَامِ ، وَرَحِمَ آلَهُ وَأَهْلَهُ
الْكَرَامِ ؛ مَا لَمَعَ آلٌ ، وَمَلَعَ رَالٌ ، وَطَلَعَ هَالٌ ، وَشَمِعَ
إِهْلَالٌ .

...

قوله : مَالٌ ، أى ماجأ . مطرود : مَنَفَى . ساطع : باسط . للهاد : الأرض .
موطد الأطواد : مثبتت الجبال . والأوطار : الحاجات . مدمر الأملاك ، أى
مهلك الملوك ، والأملاك : جمع ملك .

[أشعار فى التطبير من الدنيا والزهد فيها]

وهذا كما قال عدى بن زيد :

أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشِرُ وَإِنْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ^(١)
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامِ مَلُوكِ الرُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
وَأَخُو الْخَفِيرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذَا دَجَّ جَلَّةٌ تَجْبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ^(٢)

(١) الأغاني ٢ : ١٣٨ ، ١٣٩ من قصيدة مطلعها :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالذِّهْرِ أَنْتَ الْمُبْرَأُ الْمَوْفُورُ

(٢) الخابور : اسم لنهر كبير فى أرض الجزيرة ، والحضر : قصر بتكريت .

وتفكر رب الخورنق إذ أشرف يوما وللهدي تذكير^(١)
 لم يهنبه ربُّ المنون فباد الملوك عنه فبابه مهجور
 ثم بعد القلاع والملك والإمرة وارثهم هناك القبور
 ثم راحوا كأنهم قصب جف فآلوت به الصبا والدبور

وقال الأسود بن يعفر :

ولقد علمت لو أن علي نافي أن السبيل سبيل ذى الأعواد^(٢)
 ماذا أوصل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد
 جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد^(٣)
 ولقد غنوا فيها بأكرم غنية^(٤) في ظل ملك ثابت الأوتاد
 فإذا النعيم وكل ما يلهي به يوما يصير إلى بلى ونفاد

الأصمعي: أصيب في حفير حول الحيرة تابوت ، فيه رجل عليه خفان ، وعند
 رأسه لوح فيه : « أنا عبد المسيح بن حيان بن ببيعة .

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المني فوق الزيد
 وكأفت الأمور وكأفتني ولم أخضع لمضلة كشود
 وكدت أنال بالشرف الثريا ولكن لاسبيل إلى الخلود

(١) بعده الأغاني :

شاده مرمراً وجله كل ساء فلطير في ذراه وكور

(٢) المفضليات ٢١٦ ، وروايته : « ولقد علمت سرى الذى نبأتني »

(٣) المفضليات : « فكأنما كانوا » .

(٤) المفضليات : « عيشة » .

دخل أُرطاة بنُ سهيَّة على عبد الملك ، فقال : كيف حالك ؟ - وكان قد
أسنَّ - فقال : ضَمَف حالي ، وقلَّ مالي ، وكثر مني ما كنت أحب أن يقلَّ ،
وقلَّ مني ما كنت أحب أن يكثر ، قال : فكيف أنت في شعرك ؟ فقال :
والله ما أغضب ، ولا أطرب ، ولا أُرهب ، وما الشعر إلا من نتائج هذه ، على
أني القائل :

رأيت الرء تاكلهُ الليالي كأكل الأرض ساقطة الحديدِ
وما تبغى النية حين تأتي على نفس ابن آدم من مزيدِ
وأعلم أنها عما قليلٍ ستوفي نذرها بأبي الوليدِ

فارتاع عبد الملك ، ثم قال : بل تُوفي نذرها بك ، مالي ولك ! قال : يا أمير
المؤمنين لا تُرْع ، فما عَنيتُ إلا نفسي ، فقال : أما والله لتلِمَن بي .
وأبو الوليد كنية اعبد الملك ولأرطاة .

* * *

والتكوير : إدخال الليل على النهار والنهار على الليل ، وكُوتَرُ الشيء
رُدَّتَه ، ولويتَ بعضه على بعض . هطل وهمل ، معناهما صب . الركام : السحاب
المتراكم . الشؤل : المطلوب . أوسع : أغنى . المرمِل : الذي نَفِد زاده . الأرمِل :
الفقير ، أو الذي ماتت زوجته ، أو التي مات زوجها ، يقال لها أرمِل وأرملة ،
ومنع قوم أن يقال للفاقد زوجته : أرمِل ، وأجازوه بعضهم .

مداء : غايته . الأوَّاه : إبراهيم عليه السلام ، وهو من التأوّه ، وهو التوجّع
والتحرّز والنطق بأوَّاه أوَّاه ! صادع : مفسد ، والصدع : الشقّ في زجاجة أو
حائط . علما ، أي إماما يهتدى به . مسدّداً : مصلحاً . والرعا : السقاط

وَالضَّعْفَةُ مِنَ النَّاسِ . وَدَّ وَسُوءًا : ضَمَانٌ . حَكَمَ : قَضَى . أَحْكَمَ : أَتَقَنَ . أَصْلَ :
ثَبَّتَ الْأَصُولَ . مَهَّدَ : سَوَّى وَوَسَّطًا . الْوَعْدُ : جَمْعُ وَعْدٍ . أَوْعَدَ : هَدَّدَ وَخَوَّفَ .
وَاصِلَ : دَاوَمَ . أَوْدَعَ رُوحَهُ دَارَ السَّلَامِ : أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ . آلَ : سَرَابٌ . مَلَعَ :
أَسْرَعَ . رَالَ : فَرَخَ النِّعَامَ . إِهْلَالَ : رَفَعَ الصَّوْتَ بِالتَّلْبِيَةِ بِمَسْكَةٍ .

اعْمَلُوا رِعَاكُمْ اللَّهُ أَصْلَحَ الْأَعْمَالِ ، واسْتَكُوا مَسَالِكَ الْحَلَالِ ،
وَاطَّرَحُوا الْحَرَامَ وَدَعُّوهُ ، واسْتَمِعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَعُوه ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ
وَرَاعَوْهَا ، وَعَاصُوا الْأَهْوَاءَ وَارْذَعُوهَا ، وَصَاهَرُوا لَحْمَ الصَّلَاحِ
وَالْوَرَعِ ؛ وَصَارُوا رَهْطَ اللَّهِ وَالطَّمَعِ . وَمُصَاهِرُكُمْ أَطْهَرُ الْأَخْرَارِ
مَوْلِدًا ، وَأَسْرَأُكُمْ سُودْدًا ، وَأَخْلَافُكُمْ مَوْرِدًا ، وَأَصَحُّهُمْ مَوْعِدًا .
وَهَاهُوَ أَمْرُكُمْ ، وَحَلَّ حُرْمَتُكُمْ ، مُعْلِكَاءَ عُرُوسِكُمُ الْمَكْرَمَةِ ،
وَمَا هَرَّاهَا كَمَا مَهَرَ الرَّسُولُ أُمَّ سَلَمَةَ ، وَهُوَ أَكْرَمُ صِهْرٍ أَوْدَعَ
الْأَوْلَادَ ، وَمُلْكٌ مَا أَرَادَ ، وَمَا سَهَا مُمْلِكُهُ وَلَا وَهَمٌ ؛ وَلَا وَكَيْسَ
مُلاَحِظُهُ وَلَا وَصِيمٌ ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَكُمْ إِحْمَادَ وَصَالَهُ وَدَوَامَ إِسْعَادِهِ ،
وَأَتْلُوهُمْ كُلًّا إِصْلَاحَ حَالِهِ وَالْإِعْدَادَ لِمَعَادِهِ . وَلَهُ الْحَمْدُ السَّرْمَدُ ،
وَالْمَدْحُ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ .

...

اطَّرَحُوا : اَتْرَكُوا وَارْمَوْا بِهِ . عُوه : احْفَظُوهُ . الْأَرْحَامُ : الْقَرَابَاتُ ،
الوَاحِدَ رَحِمٌ ، وَالْأَرْحَامُ مِنَ النِّسَاءِ الْوَاحِدَ رَحِمٌ ، رَاعَوْهَا : احْفَظُوهَا وَحَامَوْا
عَلَيْهَا . الْأَهْوَاءُ : دَوَاعِي النَّفْسِ . ارْذَعُوهَا : كَفُّوهَا . صَاهَرُوا : نَاكَحُوا .

لحم : قرابات ، ولحمة النسب : التعام القرابة وانضمامها . صارموا : قاطعوا .
مصاهركم : ختنكم المتزوج إليكم . أسراهم : أشرفهم وأكثرم مروءة ، وقد
سرى فهو سري . أمكم : قصدكم . حل : نزل حرمكم : بلدكم وموضعكم ،
الذي هو كالحرم في أمته . مملكا : متزوجا ، والإملاك : التزويج الذي تملك
به المرأة .

قال ابن هشام : أم سلمة بنت أمية بن المغيرة ، تزوج بها رسول الله صلى الله
عليه وسلم قبل وقعة بدر في سنة اثنتين من التاريخ ، واسمها هند بنت أمية زاد
الركب بن المغيرة ، وفي حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم
تزوج أم سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم .

سها : أخطأ . مملِكه : منكحه الذي أعطاه ولتيته . وكس : غبن ،
وورم . في الحساب : غلط فيه ، وملاحه : أى مصاهره . ووصم : عيب ،
والوصم : العيب ، وأحمد الرجل أحاداً ، أى صار أمره إلى الحمد ، أراد أنه من
أهل الأحساب فلا ينقص من مصاهره . الإعداد للمعاد ، أى الاستعداد لليوم
الذى يصاد فيه إلى نشأته الأولى . الترمذ : الدائم . والرسول : الذى يتابع أخبار
الذى بعثه ، أخذنا من قولهم : جاءت الإبل أرسالا ، أى متتابعة ، ويثنى
رسولان ، ويجمع رسل . ومنهم من يوحدّه في كل حال ، قال الله تعالى :
(أنا رسول رب العالمين) ^(١) وحده ، لأنه في معنى الرسالة ، وأنشد :

فأبلغ أبا بكر رسولا سريعة فمالك يا بن الحضرمي وماليا

قال القراء رحمه : الله وحده اكتفاء بالرسول من الرسولين ، وأنشد :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرِّسْوِ لَ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخُسْبِ^(١)
أراد الرّسل ، فاكتفى بالواحد عن الجمع .

* * *

[بعض خطب النكاح]

وإذ كملت الخطبة فلنسق من خطب النكاح ما يحسن بالوضع .

ومن مشاهير الخطب فيه خطبة أبي طالب في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله عنها وهي :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ،
وجعل لنا حرمًا آمنًا وبيتًا محجوجًا ، وجعلنا الحكماء على الناس . ثم إن محمد
ابن عبد الله ابن أخي ، ممن لا يوازن فتى في قريش إلا رجح به برًا ، وفضلا ،
وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان في المال قلّ فإنما المال ظلّ زائل ،
وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتهم
من الصّداق فعلى .

فهذه الخطبة من أفضل خطب الجاهلية .

وعن يحيى بن أكرم : أراد المؤمن أن يزوج ابنته من عليّ الرضا ، فقال :
يا يحيى تكلم ، فأجلّت أن أقول : أنكحت ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت
الحاكم الأكبر والإمام الأعظم ، وأنت أولى بالكلام ، فقال :

الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بشيئته ، ولا إله إلا الله إقراراً برؤيته ،
وصلى الله على سيدنا محمد عند ذكره وعترته . أما بعد ، فإن الله سبحانه قد
جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً ، وأنزله وحياً ، ليكون سبباً للمناسله وإلى قد
زوّجت ابنة المأمون من عليّ بن موسى الرضا ، وأمهرتها أربعمائة دينار ،
اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف
الصالح ، والحمد لله رب العالمين .

وحضر المأمون إملاكا وهو أمير ، فسأله مَنْ حضر أن يخطب ، فقال :
الحمد لله ، والصلاة على المصطفى رسوله ، وخير ما عمل به كتاب الله : ﴿ وأنكحوا
الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾^(١) ، ولو لم يكن فى المناكحة آية منزلة
ولا سنة متبعة إلا ما جعل الله فى ذلك من تأليف البعيد ، وبرّ القريب ، لَسارع
إليه الموفق المصيب ، وبادر إليه العاقل اللبيب .

وفلان قد عرفتموه فى نسبٍ لم تجهلوه ، خطب إليكم فتانكم فلانة ، وقد
بذل لها من الصداق كذا ، فشفعوا شافعنا ، وأنكحوا خاطبنا ، وقولوا خيرا
تحمّدوا عليه وتؤجروا فيه .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ، فقال عمر :
الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد فإن الرغبة
منك دعت إلينا ، وإن الرغبة منا فيك أجابت بنا ، وقد أحسن بك ظنا مَنْ
أودعك كريمته ، واختارك ولم يحتر عليك ، وقد زوّجناك على كتاب الله تعالى ،
إمساك بمعروف أو تسريع بإحسان .

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول في خطبة النكاح بعد الحمد والثناء .
أما بعد فإن الله تعالى جمع لهذا النكاح الأرحام المنقطعة ، والأنساب
المتفرقة ، وجعل ذلك في سنة من دينه ، ومنهاج من أمره ، وقد خطب فلان
إليكم ، وعليه وعليكم من الله نعمة ، وهو يبذل من الصدق كذا ، فاستخيروا
الله ، وردوا خيرا ، يرحمكم الله !

الأصمعي رحمه الله : كانوا يستحسنون من الخاطب أن يطيل ليدل على
الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإنجاز ليدل على الإجابة .

* * *

فلما فرغ من خطبته البديعة النظام ، العريضة من الإعجام ، عقد
العقد على الخمس المثني ، وقال لي : بالرِّفَاءِ والبنين . ثم أحضر
الحلواء التي كان أعدها ، وأبدي الأبدية عندها . فأقبلت إقبال
الجماعة عليها ، وكذت أهوى يدي إليها ، فزجرني عن المؤاكلة ،
وأنهضني للمأولة ؛ فوالله ما كان بأسرع من تصافح الأجفان ، حتى
خر القوم للأذقان . فلما رأيتهم كأعجاز نخل خاوية ، أو كصرعى
بنت خاية ؛ علمت إنها لإحدى الكبر ، وأم العبر ؛ فقلت له :
يا عدى نفسي ، وعبيد فلسيه ، أعددت للقوم حلوى ، أم بلوى ؟
فقال : لم أعد خبيص البنج ، في صحاف الخلنج . فقلت : أقسم بمن
أطلعها زهراً ، وهدى بها السارين طراً ؛ لقد جئت شيئاً نكراً ، وأقيت
لك في المخزيات ذكراً !

قوله : البديعة النظام : أى الغريبة التأليف . المربة من الإعجام ، أى العاطلة من النقط . الرقاء : السكون والالتحام ، ويدعى للمتزوج ، يقال له : بالرقاء والبنين ، أى بالاتفاق مع الزوجة ووجود البنين مما يكون منها ، وهو من رفات الثوب ، إذا ضمت بعضه إلى بعض ، ومن رفوت الرجل إذا سكنته ، قال أبو زيد رحمه الله : هو من المرافاة غير مهموز ، وهى الموافقة .

تزوج عَقِيل بن أبى طالب فقيل له : بالرقاء والبنين ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رفا أحدكم أخاه فليقل : على الخير والبركة ، برك الله لك وبارك عليك » .

الآبدة : الداهية ، وجاء بآبدة ، أى بكلمة أو خصلة وحشية منكورة ، واشتقاقه من الأوابد ، وهى الوحش ، وكذلك الآبد ، يقال : أبد الشاعر ، إذا أتى بالعويص فى شعره ، فعنى أبدى الآبدة ، أى أظهر الداهية التى يبقى ذكرها على الأبد . زجرنى : نهانى . أنهضنى : أقامنى وقدمنى . المناولة : إعطاء الطعام . تصافح الأجفان : غلقها وفتحها بسرعة ، كقولك : طرفة العيون . خرّوا للأذقان ، أى سقطوا على وجوههم ، والدّقن جمع اللّحيين يعبر به عن الوجه ، لأن العرب تسمّى الشئ ببعض ما فيه ، وإذا خرّ على وجهه ، فأقرب شئ إلى الأرض ذقنه ، فخصّه بالدّكر لهذا ، قال الله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾^(١) أعجاز : أصول . خاوية : فارغة متأكلة ، ويقال : خاوية ساقطة بالية . صرعى : قتلى ، وأراد به السكارى ، . وبنت الخاوية : ، هى الخمر ، ومعنى الخاوية التى تخبأ فيها الأشياء ، مأخوذ من خبأت ، فُبْنيت على ترك الهمز ، ويقال : خبأت الشئ وخبأته وخبّيته ، وقرأت الشئ وقريته . إحدى الكبر : واحدة من الكبار .

(١) سورة الإسراء آية ١٠٧ .

أم العبر : أى أعظم الدواهي ، وما يُتمّظ به . لم أعد : لم أتجاوز . الخبيص : نوع من الحلواء . البنج : نبات يسكر منه ، وهو ابن الخشخاش البرى المعروف بالأفيون . والخنج : ضرب من الخشب . زهرا : مضينة ، يعنى الكواكب . السارين : الماشين بالليل . طرا : جمعا . نُكراً : منكرا . والخزيات : جمع مخزية ، وهى الخصلة الرديئة يحتزى صاحبها متى ذكرت له ، والخزى الهوان .

* * *

ثم حُرْتُ فِكْرَةً فى صَيُورِ أَمْرِهِ ، وخيفةً من عدوى عَرِّهِ ،
حتى طَارَتْ نَفْسِي شَمَاعًا ، وأُزْعِدْتُ فَرَائِصِي ارْتِياعًا . فلما رأى
استِطَارَةَ فَرَقِي ، واستِشَاظَةَ قَلْقِي ، قال : ما هذا الفِكرُ المُرْمِضُ ،
والرَّوعُ المُوْمِضُ ؟ فإنْ يَكُنْ فِكرُكَ فى أَجَلِي ، من أَجَلِي ؛ فأنا
الآن أرتع وأطفر ، وأقوى هذه البُقْمَةَ مِنِّي وأقفر ، وكَمْ مِثْلِهَا
فارقُتها وهى تَصْفِرُ ؛ وإنْ يَكُنْ نَظْرًا لِنَفْسِكَ ، وحذرًا من حَبْسِكَ ،
فتناولَ فُضالَةَ الخَبِيبِ ؛ وطَبَّ نَفْسًا عن القَمِيصِ ؛ حتى تَأَمَّنَ المُسْتَعْدِي
والمُعْدِي ، وَيَتَمَهَّدَ لَكَ المَقَامُ بَعْدِي ؛ وإلا فالمرَّ المَفْرَّ ؛ قبل أن تُسْحَبَ
وتُجَرَّ : ثم عَمَدَ لامتِخارجِ ما فى البيوت ، من الأكياس والتخوت .
وجعلَ يَسْتَخْلِصُ خالصةَ كلِّ مخزون ، ونجبةَ كلِّ مَذْرُوعٍ
وموزون ؛ حتى غادر ما أُلغاه فُخُّهُ ، كمَظْمٍ اسْتُخْرِجَ مُخُّهُ .

...

صَيُور : آمال ورجوع ، أى ما يصير إليه أمره . عدوى عَرِّهِ ، أى انتقال

ضرره ، والمرت : الجرب ، والقَدَوَى انتقال المرض إلى الصحيح ، ومعناه عند العرب : إذا كان الجرب بواحدة من الإبل سرى في غيرها ، وفي الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عَدَوَى ولا طَيِّرَة ولا صَفَرٌ ولا هامة ، ولا يورد مُنْرَضٌ على مُصَحَّ » . فقار أعرابي : يارسول الله ، فما بال الإبل التي تكون في الرمل ، كأنها الظباء فيجىء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجر بها كلها ؟ وقال : فمن أعدى الأول . وقال النابغة :

فلا تتركني بالوعيم — كَأَنِّي إلى الناس مطلى به القار أجرب^(١)
فأراد أنه خاف أن يؤخذ بذنب السروجي . شعاعا : متفرقة في كل جهة ، يقال نفس شعاع ، أي تفرقت هممتها ، ورأى شعاع ، أي متفرق . والفرائص : جمع فريصة ، وهي بضعة عند الكبد تُرْعَد عند الفزع ، قال مروء القيس :

* وَرُعْدُ مَنْهِنِ الْكُلَى وَالْفَرِيصُ *

ارتياحا : فزعا . استطارة فرقى : انتشار فزعى . واستشاطة : التهاب واحتراق . المرمض : المحرق ، وهو من لَفَظ الرَّمْضَاء : والرَّوْع : الفزع . المومض : الذي يدع صاحبه مبهوتا شاخص البصر من شدته ، وأومضت المرأة بعينها إذا برقت . الأجل ، بالتحريك : التأخير ؟ وبسكينها الجنابة يقول : إن تفكّرت في تأخيري من الهرب بسبب جنائتي ، فالآن أجمع أموالهم وأفرّ ، قال الفجديهي : إن يكن فكرك في أجلى ، أي في جنائتي ، يقال : أجل الرّجل عليهم شرّا بأجل وبأجل أجلا أي جنابة . وهيجته من أجلى أي من جرأني . ارتع : آكل أموالهم . أظفر : أفر هاربا ، وطفّر : وثب وسار مسرعا . أفوى

(١) ديوانه ١٣ .

(٢) ط : « الفرائص » ، والبيت لامرئ القيس ، ديوانه ١٨٣ ، وقبله :

* فيشربن أفاسا وهن خوالف *

وأقفر : ، معناهما أخلى موضعي ، وأقفر الرجل من أهله : انفرد عنهم وبقي وحده والدار خلت وكذلك أقوت وقويت وأقفرت الأرض من الكلاء ، ورأسه من الشعر ، وجسده من اللحم ، وأقوى وأقفر لا يتعديان . تصفر : تصوت ، وهذا عجزُ بيت لتأبطُ شراً ، وصدره :

* فآبَتْ إِلَىٰ فَهْمٍ وَمَا كَدَتْ آيَا^(١) *

تصفر ، أى تنفخ ندما على فتوى ، والنادم على الشيء يتابع النفخ ، يقول : كم مثل هذه الخصلة فارقتها ، وهى تصفر قندماً على ما فاتها . تناول : خذ . فضالة : بقية . طب نفساً ، عنه ، أى لتكن نفسك طيبة على فقده ، فإنك إذا أكلت الخبيص ، سكرت فجردت فصرت فى جملة مَنْ أَكَلَ مَالَهُ فَتَأْمَنَ بِذَلِكَ . المستمدي : هو الشاكي . والمعدي : هو الحاكم ، ويقال : استعديت الحاكم فأعداني ، أى استمته فأعاني . يتمهد : يتوطأ . المفرّ : أى بادر الفرار ، وتُسحب ، هو تجرّ . الأكياس : أوعية الدراهم والدنانير . الثخوت : أوعية الثياب . يستخلص : يختار . خالصة : خيار ، وكذلك نخبة . مذروع : مكيل بالذراع ، يعنى الثياب . موزون : ، يعنى الجواهر وما فى معناها مما يباع بالوزن ، مثل المعطريات وغيرها من شبهها . الفخ : آلة للصيد يحسن أن يكفى به عن المكيدة .

فلما همّن ما اصطفاه ورزّم ، وشمرّ عن ذِرَاعَيْهِ وتحزّم ؛ أقبل على إقبال من لبس الصّفّاقة ، وخلع الصّدّاقة ، وقال : هلك فى المصاحبة إلى البطيحة ، لأزوّجك بأخرى مليحة . فأقسمت له بالذى جعله مباركاً

(١) الأغاني ١٨ : ٢١٥ - ساسى ، وبقيته :

* وكم مثلها فارقتها وهى تصفر *

أينما كان ، ولم يجعله مِمَّنْ خانَ في خان ؛ إنه لا قبل لي بنكاح حُرَّتَيْنِ ،
ومُعاشرةِ ضُرَّتَيْنِ . ثم قلت له قول المتطلع بطباعه ، الكائل له بصاعه :
قد كفتني الأولى فخرًا ، فاطلب آخر للأخرى .

فتبسّم من كلامي ، ودلف لإلزامي . فلويتُ عنه عذارى ،
وأبديت له ازوراري ، فلما بَصُرَ بانقباضي ، وتجلّى له إعراضى
أنشد :

...

هَمَن : شدّه بالهميان وهو نوع من التّسكّة . اصطفاه : اختاره . رَزَم : جعله
رُزْمَةً ، والرّزْمَة في كلام العرب : التي فيها ضُروب من الثياب وأخلاق يقال :
رازَم الرجل في أكله ، إذا اخلط بعضه ببعض ، ورازمت الدّابة : خلطته ،
وقد يريد به ما شدّه على وسطه من المال بهميانه . الصفاة : صلابة الوجه .
خلم : أزال

البطيحة : قرية عامرة بقرب البصرة من جهة واسط ، وبينها وبين البصرة
وواسط جهة كبيرة ، تعرف بالبطاح وتتوسطها البطيحة .

معاشرة ضرتين : مصاحبة زَوْجَيْنِ . المتطّيع بطباعه : المتخلّق بخلقه .
الكائل له بصاعه ، أى الذى أعطاه من الهزل مثل ما أعطاه . دلف : أسرع .
الترامى : معاتقى وضى له لوبت : عطفت ، أى أعرضت عنه بوجهى .
ازورارى : انقباضى . تجلّى : ظهر . إعراضى : تركى إقبالى عليه .

يا صارفاً عَنِّي المودَّةَ والزَّمانَ لَهُ صروفٌ
ومعْنَى في فَضَحَ مَنْ جَاوَزَتْ تَعْنِيفَ العُصُوفِ
لا تَلَحْنِي فِيمَا أَتَيْتُ فَإِنِّي بِهِمْ عَرُوفٌ
ولقد نزلت بِهِمْ فلمْ أَرَهُمْ يُرَاعُونَ الضُّيُوفَ
وَيَلَوْنَهُمْ فوجَدْتُهُمْ لَمَّا سَبَكْتُهُمْ زُيُوفُ
ما فِيهِمْ إِلَّا خِيفٌ إِنْ تَمَكَّنَ أَوْ خُوفٌ
لا بالصَّفَى ولا الوَفَى ولا الحَفَى ولا العُطُوفَ
فَوُثِّبَتْ فِيهِمْ وَثْبَةُ الذَّنْبِ الضَّرِىِّ عَلَى الخُرُوفِ
وتركهم صَرَعى كَأَنَّهُمْ سَقَوْا كَأْسَ الحُتُوفِ
وَتَحَكَّمْتُ فِيمَا اقْتَنَوْا هُ يَدِى وَهُمْ رُغْمُ الأَنُوفِ

...

صارفاً : منحنيًا : المودَّة : المحبة . صروف : دفعوع . معْنَى : موبخى ولائى . فَضَحَ :
كشف . والعُصُوف : الآخذ بجهالة قبل التجربة . تَلَحْنِي : تلمنى . يُرَاعُونَ :
يحفظون حقوقهم . يَلَوْنَهُمْ . خبرتهم ، ومثله سَبَكْتُهُمْ . زُيُوف : دراهم رديئة ،
يريد أنهم قوم لا خير فيهم . خِيف : مضرّ مفزع . إِنْ تَمَكَّنَ : ارتفع وكانت
له مكانة . خُوف : لا يقدم عليه خوف ضرره . الصَّفَى الوَفَى . الصادق الود .
الحَفَى : المكرم لصديقه المعتنى به . العُطُوف : الرحيم . الضَّرِىِّ : المعناد الذى
ضرى أخذ الخرفان . صَرَعى : مطرحون على الأرض . والحُتُوف : جمع حُتَفٍ
وهو الهلاك . اقْتَنَوْا : اكتسبوه . رُغْم : إذلال .

...

ثُمَّ انْثَنَيْتُ بِمَنْعَمٍ حُلُوَ الْمَجَانِي وَالْقُطُوفُ
وَلَطَّالَمَا خَلَفْتُ مَكْلُومَ الْحَشَا خَلْفِي يَطُوفُ
وَوَتَرْتُ أَرْبَابَ الْأَرَا ئِكَ وَالْدَّرَائِكَ وَالسَّجُوفُ
وَلَكُمْ بَلِغْتُ بِحِيلَتِي مَا لَيْسَ يُبْلَغُ بِالسَّيُوفُ
وَوَقَفْتُ فِي هَوْلٍ تَرَا عِ الْأَسْدُ فِيهِ مِنَ الْوُقُوفُ
وَلَكُمْ سَفَكْتُ وَكَمْ فَتَكْتُ وَكَمْ هَتَكْتُ حَمَى أَنْوَفُ
وَكَمْ ارْتِكَاضٍ مُوَبِقٍ
لِي فِي الذَّنُوبِ وَكَمْ خَفُوفُ
لِكَيْتَنِي أَعْدَدْتُ حُسْنَ الظَّنِّ بِالْمَوْلَى الرَّءُوفُ

...

انثنت ، أى رجعت . المجانى : ما يحنى من الثمار . والقُطُوف : ما يقتطف
منها ، وهى جمع قُطْف وهو العنقود . خلّفت : تركت خلفى . مكْلُوم :
مجروح . الحشأ : إسقاط الجوف . وترت : أخذت منهم ثأرى وحقى . أرباب
الأرائك : أصحاب الأسرّة . والدرائك : البسط . السجوف : جمع سَجَف ،
وهو السر ، والأرائك : جمع أريكة ، والدّرَانك واحدها درنوك . الهول :
الأمر المفزع . ترأع : تفزع ، وفيه : متعلقه وقوف ، يريد أن الأسد تفزع أن
تقف فى الهول الذى وقف فيه . سفكت : قتلت . فتكت : عتيت . هتكت
قطعت . رَجِمَ : ما يحصى ويمنع . أنوف : كثير الأنفة والحية . ارتكاض : جرى
واضطراب وتحرك . موبق : مهلك . خفوف : إسراع : الرءوف : الكثير
الرفق والرحمة .

[مما قيل في الاعتراف بالذنوب والطمع في رحمة الله وعفوه]

قال ابن رشيقي في معنى هذا الخروج بعد تعدد ذنوبه :

إذا أتى الله يوم الحشر في ظللٍ وحاسب الخلق مَنْ أحصى بقدرته
وَجِءَ بِالْأُمَمِ الْمَاضِينَ وَالرَّسُلِ (١)
وَلَمْ أَجِدْ فِي كِتَابِي غَيْرَ سَيِّئَةٍ
تَسُوْنِي وَعَسَى الْإِسْلَامُ يَسْلُمُ لِي
رَجَوْتُ رَحْمَةَ رَبِّي وَهِيَ وَاسِعَةٌ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ أَرْجَى لِي مِنَ الْعَمَلِ
وَلَا بِنَنْكَكَ :

إذا خفق اللواء على يوماً
وَقَدْ أَخَذَ أَمْرُ الْقَيْسِ اللَّوَاءَ (٢)
رَجَوْتُ اللَّهَ لَا أَرْجُو سِوَاهُ
لَمَّا لَمْ يَرْحَمْ مِنْ أَسَاءِ

وقال ابن الزقاق :

يا عالم السرّ مني اصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنِّي (٣)
مَنِّتُ نَفْسِي بِعَفْوِ مَوْلَايَ مِنْكَ وَمَنِّي
وَكَانَ ظَنِّي جَمِيلاً فَكُنْ إِذَا عِنْدَ ظَنِّي

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما يشاء » .

توفي رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مسرفاً على نفسه ، فلما حضرته الوفاة رفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عليه ، فقال لهما : ما يبكيكما ؟ قالّا : نبكي لإسرافك على نفسك ، قال : فلا تبكيّا ، فوالله ما يسرنى أن الذي بيد الله من أمرى بأيديكما . فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم

(١) نقله صاحب التنفّص صفحة ٦٢ .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٠ .

(٣) دَوَانُهُ ٢٧٤ .

فأخبره أن فتى توفى اليوم ، فاشهده فإنه من أهل الجنة ، فاستكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويته عن عمله ، فقالا : ما علمنا عنده شيئاً من خير إلا أنه قال عند الموت كذا .

قال : من هاهنا أتى حسنُ الظنِّ بالله من أفضل العمل عنده .

وعن أنس رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يموتنَّ أحدكم حتى يُحسن ظنه بالله تعالى ، فإن حسنَ الظنِّ ثمن الجنة » .

أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسن الظنِّ من حسن العبادَةِ » .

وكان محمد بن نافع الواعظ صديقاً لأبي نواس ، قال : فلما بلغني موتهُ أشقت عليه ، فرأيتُه في النوم ، قُلت : أبا نواس ، فقال : لاتَ حينَ كِنَاية ! قُلت : الحسن ، قال : نعم ، قُلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر الله لي ، قُلت : بأي شيء ؟ قال : بتوبة تبتها قبل موتي ، بأبيات قُلتها ، قُلت : أين هي ؟ قال : عند أهلي . فسرت إلى أمه ، فلما رأتني أجهشت بالبكاء ، قُلت : إني رأيت كذا ، فكانها سَكَتَتْ ، وأُخْرِجَتْ إلى كُتُبها مقطعة ، فوجدت بخطه كأنه قريب :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرةً	فلقد علمت بأن عفوك أعظم ^(١)
إن كان لا يرجوك إلا محسن	فمن الذي يدعو ويرجو المجرم ^(٢)
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً	فإذا رددت يدي، فمن ذا يرْحَمُ !
مان إليك وسيلة إلا الرجا	وجميل ظني ثم أنى مسلمُ

(١) ديوانه ١٩٩ : ٢٠٠ . (٢) الديوان « فمن يُلَوِّذ ويستجير المجرم » .

وإنما قال: «لات حين كناية» لأنَّ العرب لاتكنى الميت إنمادعوه باسمه،
قال الراجز :

وقام نسوة بجنب حُفَرَتِي بنات أختي وبنات إخوتي
* يدعون باسمي وتناسوا كنيتي *

وقال آخر :

فقد جعلت تدعى كلاب بن جعفرِ بأسمائها لا با لكنى لا تُجِيبُهَا

* * *

قال : فلما انتهى إلى هذا البيت لَجَّ في الاستِخبار ، وألظَّ
بالاستفغار ، حتَّى استمالَ هَوَى قلبِ المنحرف ، وَرَجَوَتْ لَهُ
ما يُرْجَى للمقترفِ المعترف . ثمَّ إِنَّهُ غَيَّضَ دمعَه المُنهل ، وتَأَبَّطَ
جِرَابُهُ وأنسلَّ ، وقال لابنه : احتملِ الباقي ، والله الواقِ .
قال المخبر بهذه الحكاية : فلما رأيتُ أنسيابَ الحَيَّة والحَيَّة ،
وانتهاءَ الداءِ إلى الكيَّة ، عَلِمْتُ أَنَّ تَرِيثِي بالخان ، مجلبة للهوانِ ،
فضممتُ رُحَيْلي ، وجمعتُ للرَّحْلة ذَيْلي ، وبِتَ ليلتي أسرى إلى
الطَّيب ، وأحتسبُ اللهَ على الخطيب .

. . .

قوله : لَجَّ في الاستِخبار ، أى أكثر في البكاء . ألظَّ : ألحَّ ، وألظَّ به : دار
عليه . استمال : استعطف وأماله إليه . المنحرف : المائل عنه . المقترف : المكتسب

الإثم ، ويقال : قرَف فلان فلاناً ، إذا ألصق به عيباً وكسبه ذنباً ، واقترف فلان ذنباً ، أى اكتسبه وألصقه بنفسه . المقرَف : المقرَّب بذنبه .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عزَّ وجل ملائكة يترحمون على المقرَّين على أنفسهم بالذنوب » .

وروى أبو ذرٍّ عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « ابن آدم إنك إن يبلغ ذنبك عنان السماء ، ثم تستغفرنى أغفر لك ولا أبالي » . غِيَّض : جَفَّ وغَيَّب ، من غِيَّض الماء إذا انتقص وجفَّ . المنهل : السائل . تأبط : أى جمعه تحت إبطه . انسل : خرج مُخْفِياً نفسه متحزراً أن يراه أحد . انسياب : مشى لا يحسُّ به . الحية : ، معنى الشيخ ، سماه حية لإذايته أهل الخان بالبنج : فجعله كسم الحبة فيمن ألقته ، ويقال أيضاً فى تصغير الحية حَوِيَّة ، وأصلها الواو لأنها من تحوَّت أى تلوت ، وقيل : هى من الحياة لطول عمرها . انتهاء الداء إلى الكتيبة : ، مثل يضرب لانهاء الداء إلى أقصاه ، تقول العرب : آخر الطبِّ الكى ، تريد أن المريض يعالج بكلِّ دواء فلا يوافقه فإذا عولج بالكى لم يبق بعده دواء ، وإلاَّ فهو الموت ، فيريد أنه إن أقام بعدها انتهى إلى هوان وعذاب . تريثي : تثبطي ، وتربث بالمكان : أطال الجلوس فيه . مجلبة ، أى سبب جلبه وسوقه رُحَيْلَه : يريد متاعه وصغره لفقره وقلة ما عنده ، ورحل الإنسان ماله ومتاعه فى السفر . أسرى : أمشى بالليل . الطيب : قرية بالعراق بمقبرة واسط بينها وبين الباطيحة المتقدمة ، وسميت الطيب لطيب هوائها وخصبها .

احتسب : أدعو وأقول : حسبه الله ، ومجازيه على قبيح أفعاله ، والاحتساب طلب الأجر ، فعنى أحسب الله على الخطيئ ، طلب إلى الله تعالى الثواب بإنكارى على الخطيئ ، والله تعالى ربى عليه توكلت وإليه أنيب .

المقامة الثلاثون وهي الصورية

حكى الحارث بن همام، قال : ارتحلتُ من مدينة المنصور ، إلى بلدة صور ؛ فلمّا حصلتُ بها ذارِ فَعَةً وخَفَضَ ، ومالكَ رَفَعَ وخَفَضَ ؛ تقّتُ إلى مصرَ تَوَقَّانَ السَّقِيمَ إلى الأُساة ، والكريمَ إلى المَواساة ؛ فرفضتُ علائقَ الاستقامة ، ونفَضتُ علائقَ الإقامة ، واعزَّورتُ ظهَرَ ابنِ النِّعامة ، وأجفَلتُ نحوَها إجفَالَ النِّعامة . فلَمّا دخلتها بَمَدَ مُعانةَ الأَينِ ، ومَدانةَ الحَينِ ، كلفتُ بِهَا كَلَفَ النِّشْوَانِ بِالاصْطَبَاحِ ، والحيرانِ بِتَنفُوسِ الصَّبَاحِ .

* * *

[ترجمة للمنصور]

قوله : مدينة المنصور ، هي بفسطاط ، والمنصور هو أمير المؤمنين أبو جعفر بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ، استُخلف بعد أخيه السفاح ، وبويع له يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة . وهو ابنُ إحدى وأربعين سنة وعشرة أشهر ، وكان حاجباً وقت وفاة السفاح ، فَعَقَدَ له البيعة عُثم موسى بن عليّ بن عبد الله بالأنبار ، وورد الخبر على المنصور في أربعة عشر يوماً .

وقد بشر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونظر إلى عمه العباس ، فقال :

هذا عمى أبو الخلفاء الأربعين أجود قریش كفًا ، ومن ولده السّفاح والمنصور .
والمهدى .

وقال المنصور : رأيتُ في المنام كأنى في المسجد الحرام ، فنودى : أين عبدُ الله ؟ فقامت أنا وعبد الله بن يحيى نستبق ، حتى وصلنا إلى الدرجة العليا ، فجلس هو وأخذ بيدي ، فأصعدت ، وأدخلت الكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر وعمر وبلال . قال . فأقعدنى وأوصانى بأمتي ، عممى ، فكان كورُها ثلاثًا وعشرين كوراً ، وقال : خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة .

وقال المنصور : الخليفة لا يُصاحبه إلاّ التقوى ، والسلطان لا يُصلحه إلاّ الطاعة ، والرعية لا يُصلحها إلاّ العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه .

وولد المنصور في سنة خمس وأسمين في اليوم الذي مات فيه الحجاج ، ومات بمكة بيئر ميمون لستِ خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة .

* * *

[ذكر مدينة صور]

سور : مدينة بالشّام ، بينها وبين دمشق ثلاثون فرسخاً .

وقال شيخنا ابن جبير^(١) : مدينة صور يضرب بها المثل في الحصانة ، لأنّ تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد أعدّها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم ،

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ باختصار .

وجعلوها مثابةً لأمانهم . وحَصَانَتِهَا وَمَنَاعَتِهَا^(١) أعجب ما يحدث به ، وذلك
أَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى بَابَيْنِ ، أَحَدُهُمَا فِي الْبَرِّ وَالْآخَرُ فِي الْبَحْرِ ، وَالْبَحْرُ يُحِيطُ بِهَا
إِلَّا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَالْبَرِّيُّ يُفِضُ إِلَيْهَا^(٢) بَعْدَ وَلُوجِ ثَلَاثِ أَبْوَابٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ ،
كُلُّهَا فِي سِتَائِرٍ مَشِيدَةٍ مُحِيطَةٌ بِالْبَابِ ، وَالْبَحْرِيُّ يَدْخُلُ إِلَيْهِ بَيْنَ بُرْجَيْنِ
مَشِيدَيْنِ إِلَى مَرَسَى لَهُ ، لَيْسَ فِي الْبِلَادِ أَعْجَبُ مِنْهُ وَصْفًا ، يَحِيطُ بِهِ سُورُ الْمَدِينَةِ
مِنْ ثَلَاثَةِ جَوَانِبَ ، وَيُحَدِّقُ بِهِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ جِدَارٌ مَعْتَوِدٌ بِالْجِصِّ ، وَالسُّفُنُ
تَدْخُلُ تَحْتَ السُّورِ وَتُرْمَى فِيهِ ، وَيَعْتَرِضُ مِنَ الْبُرْجَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ سَلْسَلَةٌ
عَظِيمَةٌ مَعْقُودَةٌ تَمْنَعُ عِنْدَ اعْتِرَاضِهَا الدَّخْلَ وَالْخَارِجَ ، وَلَا مَجَالَ لِلْمَرَاكِبِ إِلَّا عِنْدَ
إِزَالَتِهَا ، وَعَلَى الْبَابِ حُرَّاسٌ ، لَا يَدْخُلُ الدَّخْلَ وَلَا يَخْرُجُ إِلَّا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ،
فَشَأْنُ هَذَا الْمَرَسَى شَأْنٌ عَظِيمٌ ، وَعِنْدَ الْبَابِ الْبَرِّيِّ عَيْنٌ مَعِينَةٌ ، تَنْحَدِرُ إِلَيْهَا
عَلَى أَدْرَاجٍ ، وَالْأَبَارُ وَالْجُبَابُ بِهَا كَثِيرَةٌ ، لَا تَخْلُو دَارَ مِنْهَا ، وَلَا بَسَاتِينَ بِهَا
إِنَّمَا تُجَلِّبُ لَهَا الْفَوَاكِهَ مِنْ أَقْطَارِهَا الَّتِي بِالْقَرَبِ مِنْهَا .

وَلَهَا أَعْمَلَةٌ^(٣) مُتَّصِلَةٌ ، وَالْجِبَالُ بِالْقَرَبِ مِنْهَا مَعْمُورَةٌ بِالضِّيَاعِ ، وَمِنْهَا
نَجَى الثَّمَرَاتُ إِلَيْهَا ، وَالْمُسْلِمِينَ الْبَاقِينَ بِهَا مَسْجِدَانِ .
وَأَعْلَمَنِي أَحَدُ أَشْيَاخِنَا أَنَّهَا أَخَذَتْ مِنْ أَيْدِيهِمْ سَنَةً ثَمَانِ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةً
بَعْدَ مُحَاصَرَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَبِهَا كَانَتْ دَارُ الصَّنْعَةِ وَمِنْهَا تَخْرُجُ مَرَاكِبُ الْمُسْلِمِينَ
لِلْفُرُوزِ .

* * *

قوله : ذارفة ، أى عزّة ومكانة . خفض : طيب عيش ، ومعنى مالك
رفع وخفض ، أى صاحب أحوال تُرْفَعُ عَلَى الْإِبْلِ فِي السَّفَرِ ، وَتُحَطُّ عَنْهَا لِلانْزُولِ ،

(١) ابن جبير : « ومنعتها » (٢) ابن جبير : « إليه » (٣) ابن جبير : « ولها عمالة متسمة »

ويريد أنه ذو قدرة وتمكّن يخفض ويرفع من أراد . قوله : نُقِتْ ، أى اشتقت .

[ذكر مصر]

مصر : قال الهمداني : سميت بمصر بن هرمس بن هروس جد الإسكندر .
وقال أهل اللغة : المصر الحدّ فسميت مصر لأنها حد بين للشرق والمغرب .
ابن دريد كل بلد عظيم مصر ، نحو البصرة والكوفة .

طول مصر من الشجرتين اللتين بين أمج والعريش إلى أسوان ، وعرضها من برقة إلى أيلة ، فهي مسيرة أربعين ليلة . وافتتحت كلها في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، على يدى عمرو بن العاص بن وائل السهمي .
ولما افتتحت مصر ، أتى أهلها إلى عمرو ، فقالوا له : أيها الأمير ، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : ما ذاك ؟ فقالوا له : إذا كان اثنتا عشرة ليلة تخلو من بثونة من أشهر المعجم ، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها ، وحلنا عليها من الحل والحلل أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في النيل .
فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله .
فأقاموا بثونة وأيب ومسرى . وهي أسماء ثلاثة أشهر للقبض - لا يجرى النيل فيها لا قليلا ولا كثيرا ، حتى هموا بالجللاء منها . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فكتب عمر بطاقة ، وكتب إلى عمرو : إني بعثت إليك بطاقة فألقها في النيل . فأخذ عمرو البطاقة فإذا فيها من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد ، فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار ، هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . فألقى البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيا أهل مصر للجللاء ، فلما أتى البطاقة في النيل أصبحوا يوم الصليب ، وقد أجرا .

الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، فقطع الله تعالى تلك السنة السوء من أهل مصر .

قال ابن جبير : ومدينة مصر كبيرة عامرة ، مختلفة الأسواق من المدن التي سارت بأوصافها الرقاق ، وهي على شط النيل ، وعلى النيل في مقابلتها قرية كبيرة الشأن ، كثيرة البنيان ، تعرف بالجزيرة ، وتمتد بينهما جزيرة فيها مساكن حسان وعلالي مشرفة ، وهي مجتمع لمو أهل مصر ومنزاههم ، وبينها وبين مصر خليج يذهب بطولها نحو الميل ، ولا يخرج له . وبالجزيرة جامع يُخطب فيه .

[ذكر المقياس]

ويتصل بهذا الجامع للمقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة فيض النيل كل سنة ، وابتدأه من شهر بثونة ، ومنظم انتهائه أغشت وآخرها أول أكتوبر . والمقياس : عمود رخام مُرَّم في موضع ينحصر فيه الماء عند انتهائه إليه ، وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً ، وكل ذراع مفصلة على أربعة وعشرين قسماً أقساماً متساوية تعرف بالأصابع ، فإذا استوى الماء تسع عشرة ذراعاً في الفيض ، فهي الغاية عندهم في طيب العام ، وربما كان الماء فيها كثيراً لعموم الفيض ، والمتوسط ما استوى سبع عشرة ذراعاً ، وهو أحسن مما زاد عليه . والذي يستحق به السلطان خواجه ست عشرة ذراعاً فصاعداً ، وعليها تُعطى البشارة للذي يراقب الزيادة في كل يوم ، ويعلم بها ميأومة ، وإن قصر عن ست عشرة فلا يجي* لذلك السلطان في ذلك العام ، ولا خراج إلا ما يعول عليه ، وبقرية الجزيرة يوم الأحد سوق عظيمة يتحدث بها .

[ذكر الأهرام]

وعلى نحو سبعة أميال في الصحراء التي يفضى منها إلى الإسكندرية ،
الأهرامُ القديمة ، المعجزة البناء الغربية للنظر ، المربعة الشكل ، كأنها القباب
المضروبة قد قامت في جو السماء ، لا سيما الاثنان منها في سعة الواحد منهما من
ركنه إلى ركنه ثلاثمائة خطوة ، وست وستون خطوة محدّدة الأطراف في رأى
العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع
ما يكون من الرحاب ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، ورُكبت تركيباً
بديع الإصاق ، يكاد يُعجز أهل الأرض نقض بنيانها .

[بعض معالم مصر]

ويعصر أيضاً المسجد المنسوب إلى عمرو بن العاص ، وبها الجبّانة المعروفة
بالقرفة ، وهى من عجائب الدنيا ، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء ، وأهل
البيت والصالحين والعلماء وذوى الكرامات من أهل الزّهد .

وبها قبر آسية امرأة فرعون ، وبها مساجد معمورة بالليل والنهار ، يبيت
بها الصالحون .

وبها قبر الشافعى محمد بن إدريس الإمام رضى الله عنه ، وهو من المشاهد
العظيمة احتفالاً واتساعاً .

والمشهد العظيم الشأن الذى بالقاهرة ، حيث رأسُ سيدنا الحسين بن علىّ
رضى الله عنهما ، هوى تابوت من فضّة مدفون ، قد بُنى عليه بنيان يقصر الوصف
عنه ، مجلّل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمدة الكبار ، شمعا أبيض أكثرها
موضوع فى أتوار الفضة ، وحُفّ أعلاه كلّه بأمثال التفافيح ذهباً فى مصنع شبه
الروضة ، بهر الأبصار حسناً وجمالاً ، وفيه من أنواع الرّخام المجزّع الغريب
(٢٧ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

الصنعة ، البديع ، التصنيع ، مالا يتخيله المتخيلون ، والمدخل إليها على مسجد على مثالها في التأنيق ، حيطانه كلها رخام ، وأغرب ما فيه حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الهندية ، وتزاحم الناس على القبر وانكباهم عليه وتمسحهم به وبالكسوة التي عليه مرأى هائل .

وأخبار مصر كثيرة فلنقتصر على هذه النبذة .

* * *

الأساة : الأطباء . المواساة : أن يحملك أسوة نفسه في ماله فيقاسمك فيه .
رفضت : تركت . علائق : أسباب تتعلق به فتحبسه . نفضت : أزلت واطرحت ، ونفضت ثوبي من الغبار : أزلته عنه . عوائق : موانع ، وهي ما يصرف الإنسان عن وجهه الذي يمر فيه ويريده . اعروريت : ركبته عربا .

ابن النعامة : الطريق ، وقيل صدر القدم قال عنتره :

* وابن النعامة عند ذلك مرّ كجي^(١) *

وقيل : ابن النعامة الساق ، وقيل : عرق في الرّجل . وقيل الفرس القارة
أجفلت : أسرع . النعامة : واحدة النعام . معاناة : مقاساة . الأيّن :
الفتور من التعب مداناة الحين : مقارنة الهلاك . كلفت بها ، أي أحبتها وولعت
بها . النّشوان : السكران ، يريد أنه فرح فرح السكران ، إذا أصبح للشرب ،
وهو الاصطباح والمهموم بالليل إذا طلع ضوء النهار انجلي هم ، فجعل بياض
الفجر . تنفّس أي انتشر في الظلام .

(١) صدره : « ويكون مركبك القلوس ورحله » وهو في اللسان - نعم ، منسوب
لخزرج بن لوزان .

فبينما أنا يوماً بها أطوف ، وتحتي فرسٌ قَطُوف ؛ إذ رأيت
على جُرْدٍ من الخيل ، عُصْبَةً كَمَصَابِيحِ اللَّيْلِ ؛ فَسَأَلْتُ لَانْتِجَاعِ
النَّزْهَةِ ، عن الْعُصْبَةِ وَالْوَجْهَةِ ؛ فَقِيلَ : أَمَّا الْقَوْمُ فَشُهُودٌ ،
وَأَمَّا الْمَقْصِدُ فإِمْلَاكُ مَشْهُودٍ ؛ فَحَدَّثَنِي مَنِعَةُ النَّشَاطِ ، على أَنَّ
سِرْتُ مَعَ الْفُرَاطِ ؛ لِأَفُوزَ بِحَلَاوَةِ اللَّقَاطِ ، وَأُحُوزَ حَلَوَاءَ
السَّمَاطِ ؛ فَأَفْضِيْنَا بَعْدَ مُكَابَدَةِ الْعَنَاءِ ، إِلَى دَارِ رَفِيعَةِ الْبِنَاءِ ،
وَمِيعَةِ الْفِنَاءِ ، تَشْهَدُ لِبَآئِهَا بِالثَّرَاءِ وَالسَّنَاءِ . فَلَمَّا نَزَلْنَا عَنْ
صَهَوَاتِ الْخَيُْولِ ، وَقَدَّمْنَا الْأَفْدَامَ لِلدَّخُولِ ، رَأَيْتُ دِهْلِيزَهَا
مُجَلَّلًا بِأَطْمَارٍ مَخْرَقَةٍ ، وَمُكَلَّلًا بِمَخَارِفَ مُعَلَّقَةٍ ، وَهُنَاكَ شَخْصٌ
عَلَى قَطِيفَةٍ ، فَوْقَ دَكَّةٍ لَطِيفَةٍ .

* * *

قَطُوفٌ : مُتَقَارِبُ الْخَطْوِ ، كَأَنَّهُ يَقْطِفُ خَطْوَهُ ، أَيْ يَقْطَعُهُ . جُرْدٌ :
مُلْسٌ ، وَالْأَجْرَدُ : الْفَصِيرُ الشَّعْرُ . عُصْبَةٌ : جَمَاعَةٌ . مَصَابِيحُ : سُرُجٌ ، وَيُرِيدُ
بِهَا النُّجُومَ . قَوْلُهُ : الْوَجْهَةُ كَالْجَهَةِ ، وَهُوَ كُلُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلَتْهُ وَقَصَدَتْهُ
وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ . إِمْلَاكٌ : نِكَاحٌ ، وَأَمْلَاكَ الرَّجُلُ إِمْلَاكَ : تَزَوَّجَ ، وَأَمْلَكَهُ
غَيْرُهُ : زَوَّجَهُ . وَشَهِدْنَا إِمْلَاكَهُ ، أَيْ عَرَسَهُ .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ شَهِدَ
إِمْلَاكَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، فَكَأَنَّمَا صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَوْمَ بِسَبْعِمِائَةِ » . مَشْهُودٌ :
أَيُّ مُحْضُورٍ . حَدَّثَنِي . سَأَقْتَنِي . مَنِعَةُ : حَذَّةٌ وَنَشَاطٌ ، وَالْمِيعَةُ أَوَّلُ الشَّبَابِ ،
وَأَوَّلُ جَرْنِ الْفَرَسِ ، وَمِيعَةٌ كُلُّ شَيْءٍ مُعْظَمُهُ . وَالْفُرَاطُ : السَّبَاقُ الْمُتَقَدِّمُونَ ،

الواحد قارط . اللُّقَاط : ما يلتقط من العرس بما ينثر فيه للحاضرين ، نحو الكعك والخليص ، وما يُنثر فيه يسمى نثراً ، وكان تثار العرب في عرسهم التمر . أخوز : أحصل . السماء : السوق التي جوانبها صفان متقابلان ، والسماط أيضاً أن يصطف العسكر صفين متقابلين ، والسماط في الطعام : أن تلتصق مائدة بأخرى ، ويجلس الناس عليها صفين متقابلين ، والسماط الصف منه ، ومنه سَمَط الجوهر ، ومنه الشعر للسمط ، وهو الذي أبياته منصلة على أجزاء متقابلة ، وقد نَبَهْنَا عليه في الحادية عشرة^(١) . مكابدة : مقاساة ، وهي من الكبد كأن الكبد يتعب بها . والعناء : التعب . رفيعة البناء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبده أنفق ماله في البناء » .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بَنَى بِنَاءً فِي غَيْرِ ظَلَمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظَلَمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ ؛ فَإِنْ أَجْرُهُ جَارٍ مَا انْتَفَعَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الرَّحْمَنِ » .

وقال بعض الحكماء : إذا أيسر الرجل ابتلى بثلاثة أشياء : صديقه القديم يحفوه ، وامراته يزوج عليها ، وداره يهدمها ويبنينا .

وعلى قوله : أما القوم فشهود ، جاء فيهم حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكْرِمُوا الشُّهُودَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْرِجُ بِهِمُ الْحَقَّ ، وَيُدْفَعُ بِهِمُ الظَّالِمَ » .

قوله وسيمة ، أي واسعة ، والفناء : الساحة ، وهي ما حول الدار . الثراء : كثرة المال . السناء : الشرف والرفعة . صهوات : ظهور . دهليز : مدخل الدار ، الذي تسميه عامتنا الأسطوان ، والأسطوان عند العرب : السواري ، واحدها أسطوانة : وأنشد أبو موسى الخاض^(٢) في نوادره وذكر الدهليز قال :

(١) في الجزء الثاني ص ١٧ (٢) ط « الماحظ » تحريف .

أوبت في الدهليز مذ أربع ولم أكن آوى الدهاليزاً^(١)
خبزي من السوق وشعري لكم تلك لعمري قسمة ضيزى

بجلاً : مغطى . أطمار : ثياب خلقة . مكلاً : محلقاً . مخارف : قف أو
تعالق للأرباء ، يعملون فيها ما يأخذونه من الصدقة ، والمخارف عند العرب : جمع
مخرف ، وهى قفيفة تشبه الزنبيل ، يُخْتَرَف فيها الإطاب ، أى يُجْتَنى فيها .
قطيفة : نوع من البسط . دكة : هى الدكان .

* * *

فرأبني عنوان الصَّحيفة ، ومَرَأى هذه البِدعة^(٢) الطريفة ،
ودعأني التَّطير بتلك المناحس ، إلى أن عمدتُ لذلك الجالس ؛ فعزمت
عليه بمصرف الأقدار ، ليعرفنى مَنْ ربُّ هذه الدار ، فقال :
لَيْسَ لَهَا مَالِكٌ مُعَيَّنٌ ، ولا صاحبٌ مُبَيَّنٌ ، إنما هِىَ مُصْطَبَةٌ
المقيقين والمدروزين ، ووليجةُ المُشَقِّقِينَ والمُجَلِّزِينَ . فقلت
فى نفسى : إنا لله على ضلَّةِ الْمَسْعَى ، وإِنَّمَالِ المرعى ؛ وهَمَمْتُ
فى الحال بالرجعى ، لَكُنِّى اسْتَهْجَنْتُ الْعُودَ من فَوْرِى ، والقَهْقَرَةَ
دونَ غَيْرِى ، فولَجْتُ الدَّارَ مُتَجَرِّعاً الْفَصَصَ ، كما يَلِجُ المصفورُ
الْقَقَصَ ، فإذا فيها أرائكٌ مَنقُوشَةٌ ، وَطَنَافِسٌ مَفْرُوشَةٌ ، ونَارِقٌ
مَضْفُوفَةٌ ، وسُجُوفٌ مَرْصُوفَةٌ ، وقد أَقْبَلَ الْمَلِكُ يَمِيسُ فى بُرْدَتِهِ ،
وَيَتَبَهَّنَسُ بَيْنَ حَمْدَتِهِ ، فحين جَلَسَ كَأَنَّهُ ابْنُ ماءِ السَّمَاءِ ،

(١) فى اللسان : الدهليز ، بالكسر : ما بين الدار والباب ؛ فارسى معرب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من ط

نَادَى مَنَادٍ مِنْ قَبْلِ الْأَحْمَاءِ : وَحُرْمَةِ سَاسَانَ ، أَسْتَاذِ الْأُمْتَازِينَ ،
وَقُدُوءِ الشَّحَازِينَ ، لَا عَقْدَ هَذَا الْعَقْدِ الْمُبْجَلِ ، فِي هَذَا الْيَوْمِ
الْأَغْرَّ الْمَحْجَلِ ، إِلَّا الَّذِي جَال وَجَابَ ، وَشَبَّ فِي الْكُدْيَةِ
وَشَابَ .



رَابِي : شَكَنِي وَخَوَفَنِي . عُنُون : دَلِيل . الصَّحِيفَةُ : الْكِتَابُ ، أَرَادَ
تَطَيَّرَ بِتِلْكَ الْحَارِفِ ، وَأَرَادَ أَنَّهَا دَارُ خِيبة وَحَرَمَانِ . وَكَانَ ابْنُ هَامٍ فِي هَذِهِ
الْقِصَّةِ طِفْلِيًّا عَلَى مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الرَّفَاهِيَةِ ، وَرَبَّمَا يَتَوَلَّعُ أَهْلُ الظَّرْفِ
وَالْأَدَبِ بِمِثْلِ هَذَا ، فَقَدْ حَكَيْنَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِيِّ وَإِسْحَاقَ الْمُوَصِّلِيِّ مِثْلَ
هَذَا فِي أَخْبَارِ الطِّفْلِيِّينَ عَلَى مَنَادَمَتِهِمَا لِلْخُلَفَاءِ وَكَثْرَةِ أُمُوهُمَا .

الْبَدْعَةُ : الشَّيْءُ الْمُبْدَعُ الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ قَبْلَهُ مِثْلُهُ . وَالطَّرِيفَةُ : الْغَرِيبَةُ الْمُسْتَظَرَفَةُ .
التَّطَيَّرُ : التَّشَاوُمُ . الْمَنَاحِسُ : جَمْعُ مَنْحُوسٍ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُ النَّحْسُ ، وَأَرَادَ
بِهِ الْخَارِقَ وَالْأَطْمَارَ الَّتِي قَدِمَ . مَصْرُوفُ الْأَقْدَارِ : هُوَ اللَّهُ تَعَالَى . رَبُّ الدَّارِ :
مَالِكُهَا أَوْ النَّازِلُ فِي إِصْلَاحِهَا مَا ذَكَرَهُ مِمَّا لَا يَفْهَمُ لَهُ مَعْنَى فَهُوَ بَسْطَةُ
الْمَسْكِينِ . وَقِيلَ الْمُقَيِّفُونَ جَمْعُ مُقَيِّفٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَقِفُوا آثَارَ النَّاسِ ، أَيْ يَقْبَعُهُمْ
يَطْلُبُ لَهُمْ شَيْئًا ، وَيَدْعُو لَهُمْ . وَالْمَدْرُوزِينَ : الْمَسْكِينِ ، وَدُرُوزَةُ كَلِمَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ
مَعْنَاهَا الْكُدْيَةُ . وَالْمُسْتَقْشِقُ : الَّذِي يَحَاكِي أَصْوَاتَ الطُّيُورِ فَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَيَصْطَادُهَا .
وَالْجُلُوزُ وَالْجُلُوزُ : الشُّرَطِيُّ الَّذِي يَتَصَرَّفُ حَوْلَ السُّلْطَانِ .

قَوْلُهُ : وَلَيْجَةٌ ، أَيْ مَدْخَلٌ ، وَالْوَلَيْجَةُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَلْبِغُ الْإِنْسَانُ فِيهِ ، أَيْ يَدْخُلُهُ
أَوْ كَهْفٍ يَسْتَرُّ فِيهِ . الْقَهْقَرَةُ : الرَّجُوعُ إِلَى خَلْفٍ . ضَلَّةٌ : ضَلَالَةٌ . الْمَسْعَى : الْمَشْيُ

بمعجلة ، أراد أن مشيه كان لغير فائدة . احوال : يبوسة وجفوف . فَوْرِي :
 حَيْنِي من قبل أن أسكن . النُصَص : جُمُع غَصَّة ، وهى ما يختنق بها ، وتجربتها
 صعب . أرائك . مُرَر مَزِينَة . طنافس : بُسْط . ونمارق : مخاد . سجوف :
 سُتُور . مرصوفة : مضدومة ملصقة ، وجعل البيت بهذه الأمتعة الكثيرة لأنه
 بيت عرس ، فهى تستعد له ، وإن كان قد رأى فى دهليزه مرقعات تدل على
 فقر ، فإن الغرباء فى البلاد يعلقون مرقعاتهم فى دهليز الفندق ، ويبتغى فى غاية
 الرفاهية ، والدار المذكورة ، إنما كانت فندقاً للفقراء الغرباء والمكدين .
 والجالس فى دهليزها : خادم الفندق ، وحين سألها عنها أخبره أنها ليس لها رب
 معين ، إنما هى دار المكدين والمحارفين^(١) . وقيل لأحد المكدين : أتبيع
 مرقعتك ؟ فقال : هل رأيت صائداً يبيع شبكته !

المُملِك : العروس . يُمِيس : يتبختر ويقبهنس ، مثله فى المعنى . حَفَدَتِه :
 خدمه وأتباعه ، ويقال : حَفَدَ العبد يحفدُ حفداً ، إذا خدم . وفى الدعاء : « وإليك
 نسعى ونحفد » ، أى نخدمك ونعمل لك ، وقال الشاعر :

حَفَدَ الْوَلائدُ يَبْنِهْنَ وَأَسْلَمْتُ بِأَكْفَرٍ - أَرْقَمَةُ الْأَجَالِ^(٢)

أبو عبيدة ، يقال : حَفَدَ يحفدُ ، وأحفدُ يحفدُ ، وفستر طاموس قوله تعالى :
 ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾^(٣) ، أى خدماً ، فهو مطابق للغة ، وفستره ابن مسعود
 رضى الله عنه بالأختان ، وهو مطابق لما فى المقامة ، لأن المكدين لاخدم لهم .
 وقال الفراء رحمه الله : الحفدة : جمع حافد ، ككامل وكملة .

[ذكر المنذر الملقب بابن ماء السماء]

ابن السماء ، الجوهري : ماء السماء لقب عامر بن حارثة الأزدي أبو عمرو
 مُزَيْقِيَاء ، الذى خرج من اليمن لما أحسن بسيل العِرم ، وُسِّمى ماء السماء ،

(١) المحارف : المحروم (٢) اللسان - حَفَدَ ، دون نسبة (٣) سورة النحل ٧٢

لأنه كان إذا أُجذب قومه ما نهم ، أى كفاهم مؤنتهم ، حتى يأتيهم الخصب ، فسكانه خلف من ماء السماء . وقيل لولده : بنو ماء السماء ، وهم ملوك الشام ، والعرب تسمى أيضاً بنى ماء السماء ، لأنهم يعيشون بماء السماء ، قال الأزهري رحمه الله : السماوة ماء بالبادية ، وكان اسم أم المنذر ماء السماء ، فسَمَّته العرب ابن ماء السماء .

وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى ، وأمه ماء السماء ، وهى امرأة من النعمر بن قاسط ، سُميت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى الذى اسمه قباد بن فيروز ، خرج فى أيامه رجل يقال له مزْدك ، فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم ، وألّا يمنع أحد أخاه ما يريد . فدعا قباد المنذر ليدخل فى هذا المذهب ، فأنف ، وأبى المنذر هذا الفعل الخسيس ، فطرده قباد من مملكته ، ونفاه عن الحيرة . ودعا الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المرار ، فأجابه . وكان الحارث شديد الملك ، فشدّد له ملكه ، وكانت أم أنوشروان بين يدي قباد يوماً ، فدخل عليه مزْدك ، فلما رآها قال لقباد : ادفعها إلىّ لأقضى حاجتى منها . قال له قباد : دونكها ، فوثب إليه أنوشروان ، فلم يزل يسأله أن يهب له أمّه حتى قبّل رجله ، فتركها له . فلما هلك قباد وتولّى أنوشروان ، وجلس فى مجلسه أقبل المنذر إليه ، وأذن للناس ، فدخل عليه مزْدك ، ودخل عليه المنذر ، فقال أنوشروان : كنت أتمنى أمنيّتين ، أرجو أن يكون الله تعالى قد جمعهما لى ، فقال مزْدك : وما هما أيها الملك ؟ قال : تمنيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف - يعنى المنذر - وأن أقتل هؤلاء الزنادقة ، فقال له مزْدك : أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم ؟ فقال : إنك لها هنا يا بن الزانية ! والله ما ذهب نثر ربيع جوربك من أنفى ، مذقت رجلك إلى يومى هذا ، وأمر به ، فقتل وصُلب . وقتل فى ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف ، وصلّ بهم ، وطلب الحارث ، فخرج

حارباً بجميع مامعه ، وأخذر المنذر في طلبهم ، فأخذ من بني آكل المرار ثمانية وأربعين رجلاً ، فضرب رقابهم وألح في طلب امرئ القيس ، فلحق بالسموئل .
وتمام القصة في الثالثة والعشرين^(١) .

* * *

قوله : الأحماء ، أى الأختان . ساسان : شيخ المكدين ، قال الفجديهي :
ساسان هو أستاذ المكدين ومقدمهم ، وواضع طرائقهم ومعلمهم . قال أبو الفتح
إسماعيل بن الفضل بن الإخشيد السراج المكدي في كتابه : حدثنا أبو بكر
البطائري المكدي ، حدثنا محمد بن علي بن أحمد الفقيه المكدي ، حدثنا مليك
ابن صالح المكدي ، قال : سمعت طرارة المكدي ، قال : قال ساسان : ألا أدلك
على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ قلت : بلى ، قال : هي الكدية .

وقوله : أستاذ الأستاذين ، حدث أحمد بن الحسن ، قال : كفت عند أبي الحسن
ابن أبي الفضل ، فدخل رجل فذكر أنه شاعر ، فقال : الشعراء ثلاثة : شاعر
وشعور وشعرة ، فأما الشاعر فالملق ، والشعور المستملح ، والشعرة المستثقل
لرداء شعره . والأستاذون ثلاثة : أستاذ في الدين كالعلماء والفضلاء ، وأستاذ
في الدنيا كالوزراء والعمال والولاة ، وأستاذ لادين عنده يتعلم منه ولا دنيا ينتفع
بها ، كاللجج ، يسمى أستاذاً والبناء والملاح . وبنو ساسان : ملوك الفرس .

قدوة : مقدم . الشحاذين : المكدين والشحاذ : الملح في المسألة ، وشحذت
السيف بالقت في صقالته . المبجل : المعظم ، يقال : بجلته تبجيلاً ، أى عظمته تعظيماً ،
مأخوذ من البجيل والبعجال ، وهو الرجل الضخم ، وفي الحديث : أصبتم خيراً
تبجيلاً ، أى كثيراً ضخماً . الأغرة : المشهور لحسنه . الحججل : الأبيض . شب :
ترعرع ونشأ .

(١) انظر ص ١٧٤ ، ١٧٣ من هذا الجزء

فأعجبَ رَهْطَ الصَّهْرِ ما أشارُوا إليه ، وأذِنُوا في إخْضَارِ
 المنصوصِ عليه ، فَبَرَزَ حينئذٍ شيخٌ قدْ أَمَالَ المَلَوَانَ قَامَتَهُ ،
 ونورَ الفَتَيَانِ ثَغَامَتَهُ ، فتبَاشَرَتِ الجَمَاعَةُ بِإِقْبَالِهِ ،
 وتبادَرَتِ إلى استِقْبَالِهِ ، فلَمَّا جَلَسَ على زُرِّيَّتِهِ ، وسكنتِ
 الضوضاءُ لَهَيْئَتِهِ ، اَزْدَلَفَ إلى مَسْنَدِهِ ، وَمَسَحَ سَبْلَتَهُ يَدِهِ ،
 ثم قال : الحمد لله المبتدئُ بالإفْضَالِ ، المبتدِعِ للنَّوَالِ ، المتقَرِّبِ
 إليه بالسؤالِ ، المؤمِّلِ لتحقيقِ الآمالِ ، الذي شرَعَ الزَّكَاةَ في
 الأموالِ ، وزَجَرَ عن نَهْرِ السَّوَالِ ، وندَبَ إلى مواساةِ
 المضطرِّ ، وأَمَرَ بِإِطْعَامِ القَانِعِ والمُعْتَرِّ ، ووصَفَ عبادَه المقَرَّبِينَ ،
 في كتابه المبينِ ، فقال وهو أَصْدَقُ القائلينَ : ﴿ وَالَّذِينَ فِي
 أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ والمحْرُومِ ۝ ﴾ .

أُحْمَدُهُ عَلَى ما رَزَقَ من طُعْمَةٍ هَنِيئَةٍ ، وَأَعُوذُ بِهِ من اسْتِمَاعِ
 دَعْوَةِ بِلَائِيَّةٍ . وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريكَ له ،
 إِلَهًا يَجْزِي المتصدقينَ والمتصدِّقاتِ ، ويمَحَقُ الرِّبَا ويرِيبي
 الصدقاتِ

المَلَوَانِ والفتيان : الليل والنهار . وثغَامَتُهُ : شَعْرَتُهُ . نورها : بَيَاضُهَا .
 والثَّغَامُ : نبت أبيض ، وهو ضرب من البُهْمَى ، منابته الجبال ، إذا يَدِسَ أبيضٌ
 بياضاً شديداً .

أبو حنيفة : تنبت الثغامة خيوطاً طُولاً دِقَاقاً من أصل واحد، فإذا جفّت ابيضّت كلها ، وإذا أمحل الثغام ، كان أشدَّ بياضاً ، وبشبهه به الشيب ، قال المرار الفقعسي :

أَعْلَاقَةٌ أُمُّ الْوَلِيدِ بَعْدَ مَا أَفْنَانُ رَأْسِكَ كَالثَّغَامِ الْمُخْلِسِ^(١)

وقال حسان رضى الله عنه :

إِذَا تَرَى رَأْسِي تَغَيَّرَ لَوْنُهُ شِمَطًا فَأَصْبَحَ كَالثَّغَامِ الْمَحُولِ^(٢)

والثغام : مرعى ، وتُغْلَفُه الخيل ، وقال بشر وذكر الخليل :

فَبَاتَتْ لَيْلَةً وَأَدِيمَ يَوْمٍ عَلَى الْبُهِمَى يَجْزُهَا الثَّغَامُ^(٣)

قوله : زُرُّ بيته : طِنَفْتَه ، والجمع الزَّرَابِي ، وقيل هي الوسائد ، وقيل الثياب المشاة . والضوضاء : الأصوات . ازدلف : قَرُبَ . مسنده : موضع إسناده . سَبَلْتَه : لحيته ، وقيل شاربه .

وهذه الخطبة التي ذكر ، ليس فيها لفظ إلا وهو يتضمن إشارة للكُدَيْة .

قوله : المبتدِع ، أى الفاعل له قبل أن يفعل . النوال : العطاء . المؤمِّل : المرجو . شرع : فرض : ونَهَرَ السُّؤَالَ ، من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾^(٤) ، وقال ابن عمران :

(١) اللسان - نفم : « المرار الأسدي »

(٢) ديوانه ٣١٠ .

(٣) لم أجده في ديوانه .

(٤) سورة الضحى .

إِنَّ ابْنَ آدَمَ حِينَ يُلْحِفُ سَائِلٌ يَنْقُدُ مِنْ حَنْقٍ عَلَيْهِ فَيَنْهَرُهُ
 وَاللَّهُ إِنْ يَقْصِدُهُ عَبْدٌ مُلْحِفٌ بِسْوَائِهِ يَدْنِيهِ مِنْهُ وَيَشْكُرُهُ
 فَسَلْ إِلَّا لَهُ وَلُذْ بِهِ لَا تَنْفَسَهُ فَاللَّهُ يَذْكُرُ عَبْدَهُ إِذْ يَذْكُرُهُ
 وَقَالَ أَيْضًا :

سَأَلْنَا دَعَاؤَنَا لِلْجَنَّةِ لَمْ عَلَيْنَا بِالْقَبُولِ مِنْهُ
 مَنْ سَأَلَ مِنْهُمْ وَبِكَ أُعْطِيَتْهُ وَلَوْ بِتَمْثِيرَةِ فَوَاسِيَتِهِ
 أَوْ أَجَلِ الرَّدِّ لَا تَنْهَرْتَهُ وَإِنْ يَكُنْ يُلْحِفُ فَاعْذَرْتَهُ

* وَادْعَ لَهُ اللَّهُ وَصَبَّرْتَهُ *

قوله : نَدَبَ : ، أى دَعَا وَحَرَّضَ . المضطر : الشديد الحاجة . القانع : المتذلل
 عند السؤال . والمعتَر : المتعرض للمعروف . والمحروم : الذى لا يسأل أحداً
 شيئاً وهو محتاج . طُعْمَةٌ هَيْئَةٌ : الكدية ، لأنَّ فائدتها تحصل بلا تحمل تكلف
 ولا مشقة . دعوة بلائِيَّة : قولك للسائل : الله يعطيك ووسع الله عليك
 ونحوه ، وأنشدوا فيهم :

- ورجالٌ ونساءٌ وبناتٌ وبنونا
 وإذا بدعَى لهم يو ما تَراهم يَغضبونا

وقال آخر :

أَلَمْ تَرَنِ أَبْغَضْتَ لَيْلِي وَذَكَرْهَا كَمَا أَبْغَضَ الْمَسْكِينُ دَعْوَةَ سَائِلِهِ

لأن السائل لا يطلب من المستول الدعاء ، إنما يطلب ما يشبع الأمعاء .

ومما يُستظرف من هذا ما حَكَى الأصمعيّ . قال : مرّ بي أعرابيٌّ سائلاً ، قلت له : كيف حالك ؟ قال : أسأل الناس إلحافاً فيعطوني كُرْهاً ، فلا يُؤجّرون على ما يعطوني ، ولا يُبارك لي فيما آخذ ، والعمر بين ذلك فان ، والأجل قريب والأمل بعيد .

سأل أعرابي رجلاً يكنى أبا عمرو عند داره ، فقال : يرزقك الله ، فعاد إليه يوماً آخر فقال بمثل ما قال أمسٍ وتنحنح ، فقلتُ منه ضرورة ، فقال الأعرابي :
 إن أبا عمرو لمكبوس الوسط إذا سألناه تمطى وضرط
 * إعطاؤه : يرزقك الله قطعاً *

قوله : أشهد أن لا إله إلا الله ، أى أعلم وأيقن ، ومنه : شهد الله ، أى أعلم وبين أنه لا إله إلا هو ، ومنه : شهد الشاهد عند الحاكم ، أى بين له ما عنده وأعلمه الخبر . يحق : يزيل ويستأصل . الربا : الحرام وأصله الزيادة . ويربى : يزيد ويكثر ، أى يضعفها له .

وأشهد أن محمداً عبده الرّحيم ، ورسوله الكريم ، اتبعته
 لينسخ الظلمة بالضياء ، وينتصف للفقراء من الأغنياء ، فرّق
 صلى الله عليه وسلم بالمسكين ، وخفّض جناحه للمُسْتَكين ،
 وفرض الحقوق في أموال المثرين ، وبين ما يجب للمُقلّين
 على الكثيرين ، صلى الله عليه صلاة تحظيه بالزُّلفة ، وعلى أصفياه
 أهل الصّفة . أما بعد :

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ النِّكَاحَ لَتَتَعَفَّفُوا ، وَسَنَ التَّنَاسُلَ لِكَيْ
تَتَضَاعَفُوا ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ . وَهَذَا أَبُو
الدَّرَّاجِ ، وَلَاجِ ابْنُ خَرَّاجٍ ، ذُو الْوَجْهِ الْوَفَّاحُ ، وَالْإِفْكُ الصُّرَاحُ ،
وَالْهَرِيرُ وَالصِّيَّاحُ ، وَالْإِبْرَامُ وَالْإِلْحَاحُ ، يَخْطُبُ سَلِيطَةَ أَهْلِهَا ،
وَشَرِيطَةَ بَغْلِهَا ؛ قَنْبَسُ بِنْتُ أَبِي الْعَنْبَسِ ، لَمَّا بَلَغَهُ مِنَ التَّحَافِيهِ
بِإِلْحَافِهَا ، وَإِسْرَافِهَا فِي إِسْفَافِهَا ، وَإِنْكَامِهَا عَلَى مَعَاشِهَا ، وَانْتِعَاشِهَا عِنْدَ
هَرَاشِهَا . وَقَدْ بَذَلَ مِنَ الصَّدَاقِ شِلَاقًا وَعُكَّازًا ، وَصِقَاعًا وَكَرَّازًا ،
فَأَنكَحُوهُ إِنْكَاحَ مِثْلِهِ ، وَصِلُوا حَبْلَكُمْ بِجَبَلِهِ ، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ
عِيْلَةً فَسَوْفَ يَغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ
يَكْثَرَ فِي الْمَصَاطِبِ نَسْلَكُمْ ، وَيَحْرُسَ مِنَ الْمَعَاطِبِ شَمْلَكُمْ .

* * *

يَنْسَخُ : يَزِيلُ . الْمُسْكِينُ : الضَّعِيفُ الدَّلِيلُ . وَخَفَضَ جَنَاحَهُ : أَلَانَ جَانِبَهُ ،
فَهُوَ مِثْلُ الْإِشْفَاقِ وَالْحَنَانِ ، وَأَصْلُهُ أَنَّ الطَّائِرَ إِذَا خَفَضَ جَنَاحَهُ عَلَى فِرَاقِهِ ،
وَيُلْحِقُهَا بِهِ شَفَقَةً عَلَيْهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ
الرَّحْمَةِ ﴾ ^(١) . وَاسْتَعَانَ : خَضَعَ وَذَلَّ ، وَهُوَ اسْتَفْعَلَ مِنْ كَانَ ، أَصْلُهُ اسْتَكُونُ ،
نَقَلْتُ حَرَكَةَ الْوَاوِ إِلَى اللَّكَّافِ ، فَانْقَلَبَتِ الْفَاءُ لِتَحْرُكَهَا فِي الْحُكْمِ وَانْفَتْحَ مَا قَبْلَهَا

فهى فى الأصل كاستقام وبابه ، أو يكون افضل من السكون لأن الخاضع يقلل الكلام ، وأصله استكن ، فوصلت فتحة الكاف بألف كقوله :

* قلت وقد جرت على الكمال *

أراد الكل كل ، وقال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَكْنُوا رَبَّهُمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ^(١) .

وأنشد أبو على :

* فَمَا اسْتَكْنَا لَمَّا لَاقَى وَلَا خَضَعَا *

قوله : المترين : الأغنياء . الزلفة : القربة ، يُقَرَّبُ بها إلى الله تعالى .
أصفياه : أحبابه .

الضُّفَّة : تشبه : القبلة ، والصفة كالسقيفة ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغرباء يظعنون إليه من الجهات ، وليس عندهم شيء ، فيسكنون سقائف المسجد ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحترض الناس على الصدقة عليهم ، وكان يجلس لهم ، فيعلمهم القرآن . وخصهم الحريرى بالذكور لأن لهم حالة يشبهون بها المكدين ؛ من لباس الخلقان ، والعيش من صدقات الناس ؛ فهم يتأسسون بأهل الضفة ، ويعملونهم حجة على من زجرهم .

ومما يحسن أن ينشد فى هذا المعنى قول ابن عمران :

السائلون عيال الله والمال لله فابذله فيهم خاب من لؤما
فجد على ثقة بالله من خلف يا ويح من كان للرحمن متيما
واحذر من الرد إن الله يمقته من غير عذر وشوم الشح قد علما

الشعوب : جمع شَعْب ، وهو أكبر من القبيلة . الدَّرَاج ، كناه بذلك لكثرة حركته . ولَآج : كثير ألؤلوج على الناس للكُدبة . خَرَّاج : كثير الخروج في طلب رزقه ، والولَاج : الخَرَّاج الذي يُحسن الدخول في أموره والخروج منها ، ويقال : فلان ولَآج خَرَّاج ، إذا كان متصرفاً في أموره نفّاعاً لأوليائه ، ضرّاراً لأعدائه . والإفك : سوء الكذب . الصُّراح : الظاهر البين ، يريد أنه إذا وصف حاله في كُدْبته لا يتكلم إلا بالكذب . الهَرِير : كثرة الصياح والشر ، وهرير الكلب : صوته دون نُباحه من قلة صبره على البرد . والإبرام : الإثقال والإضجار ، يريد أنه يوالى الصياح على من يكديهم ويثقل عليهم بالعتب على ترك الصّدفة حتى يفتدوا منه . والإلحاح : اللداومة والإكثار من السؤال .

وقدم الحطايئة للمدينة في سنة مجدبة ، فشى أشرافها بعضهم لبعض ، خوفاً من لسانه ، وقالوا : قدم علينا هذا الرجل ، وهو يأتي الشريف منا ، فإن أعطاه جَهْد نفسه ، وإن حرمه هجاه ، فجموا له يدينهم أربعمئة دينار فأتوه ، فقالوا : هذه صلة آل فلان ، وهذه صلة آل فلان ، فأخذها ، وظنوا أنهم قد كفوه المسألة ، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل وهو يقول : مَنْ يَحْمِلْنِي عَلَى بَغْلَيْنِ كَفَاهُ اللَّهُ كَيْتَةَ النَّارِ .

السَّليطة : الحديدة اللسان ، وقد سلطت فهي سليطة . شريطة : موافقة . بعلمها ، أي زوجها ، أي جاءت على شرط زوجها ، فهي مثله في خصالها كلها . قَنْبَس : اسمها ، وهو من القَبَس ، وهي الشعلة ، كأنها لحدتها شعلة نار تحرق ما مرّت به . عنبس : من العبوس ، ونونه ونون قنبس زائدان . التحافا : ارتدائها والتوائها فيه . إلحافا : إلحاحها في السؤال . إسفافا : تساقطها على ما تجمع من الناس ، والإسفاف : التتبع لمذاق الأمور ، والإسفاف : الدخول في الأمر الدنيء ، وقد أسف : تعرّض للأمر الدنيء . انكماشها : انخفاؤها واجتهادها

تَعْمَاشِهَا : قِيَامُهَا وَارْتِفَاعُهَا . هَرَّاشُهَا : مَشَارَتُهَا لِقَرَابَتِهَا ، وَالْمَهَارِشَةُ أَصْلُهَا
لِلْكَلَابِ ، وَهِيَ أَنْ يَتَرَفَعَ الْكَلْبَانِ وَيَقْنَبِحَا ، وَيَعْضُّ كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ ،
فَجَعَلَ مَدَافِعَهَا عِنْدَ الشَّرِّ لِأَقْرَانِهَا وَمُضَارَتِهَا كَالْهَرَّاشِ لِلْكَلَابِ ، وَلَا تَكْمَلُ
عِنْدَهُمْ نَجَابَتُهَا ، حَتَّى تَفُوقَ أَقْرَانَهَا فِي الشَّرِّ وَالسَّبِّ بِالْقَبَائِحِ وَضَرْبِ الْكَفِّ
عَلَى ذَلِكَ ، وَإِلَّا فَهِيَ نَاقِصَةٌ . بِذَلِكَ : أُعْطِيَ . شَلَّاقًا : ثَوْبٌ مَرْقَعٌ ، وَلَيْسَ
بِعَرَبِيٍّ ، وَقِيلَ هُوَ شِبْهُ الْمِخْلَاةِ ، وَقِيلَ هُوَ خَرِيطَةٌ تُجْعَلُ فِيهَا كِسْرُ الْخُبْزِ .
عُكَّازًا : عَصَا تُقَرَّعُ بِهَا الْأَبْوَابُ ، وَتَضْرَبُ بِهَا الْكَلَابُ . صِقَّاعًا : خَرَقَةٌ بِالْيَةِ
تَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِهَا . كَرَّازًا : إِنَاءٌ تَعْلَقُهُ فِي ذِرَاعِهَا ، تَجْعَلُ فِيهِ الصَّدَقَةَ . وَقِيلَ : الْكَرَّازُ
إِنَاءٌ لَشَرْبِ الْمَاءِ ، وَتَسْمِيَّتُهُ عَامِقْنَا الْكَرَّازَةِ ، فَكَانَ صَدَاقُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ثَوْبًا مَرْقَعًا
تَلْبِسُهُ لِلْكَذْبَةِ . وَخَرَقَةٌ بِالْيَةِ لِرَأْسِهَا وَعَصَا تُقَرَّعُ بِهَا الْأَبْوَابُ ، وَإِنَاءٌ إِمَّا أَنْ تَجْعَلَ
فِيهِ مَا يَدِقُّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَوْ تَجْعَلَ فِيهِ مَاءً لَشَرْبِهَا عِنْدَ طَوَافِهَا لِلْكَذْبَةِ ، وَالْكَرَّازُ
هُوَ الْخُرْجُ ، وَالْكَرَّازُ : كَبَشٌ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الرَّاعِي أَدَاتِهِ . عَيْلَةٌ : قَرَا . شَمَلَكُمْ :
عَدَدَكُمْ . الْمَاعِطُ : الْمَهَالِكُ .

وخطأ أبو محمد في الدرة^(١) من يذهب من الخواص بالعميلة إلى العيال، وقال:
إنما العميلة الفقر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا خِفَتُمْ عَيْلَةً﴾^(٢) وتصريف الفعل
منه عال يعيل فهو عائل، والجمع عائلة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَآغَيْنِي﴾^(٣)، وفي الحديث: «لَأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرَكَهُمْ
عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ». وأما الذين يغالون فهم عيال، واحدهم عيّل كجديد
وجياد، وجمع عيال على عيائل كركاب وركائب، وأعال فهو معيّل: كثر عياله،
وعالهم يُعولهم. وفي الحديث: «أبدأ بمن تعول»، ومن كلام العرب: والله

(٢) سورة التوبة ٢٨

(١) درة الفواص ٣٩

(٣) سورة الضحى ٨

لَقَدْ عَلِمْتُ حَتَّى عَلَتْ أَى صَنْتَ عِيَالِي حَتَّى افْتَقَرْتُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُ أَذْنَى أَنْ لَا تَعْمَلُوا ﴾ ^(١) فَمَعْنَاهُ أَلَّا تَجُورُوا . وَقَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ لِحَاكِمِ حُكَيْمٍ عَلَيْهِ بِمَا لَمْ يُوَافِقْهُ : وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى فِي الْحَكْمِ ، أَى جَرْتُ ، وَمَنْ قَسَرَ فِي الْآيَةِ ﴿ تَعْمَلُوا ﴾ يَأْنِ مَعْنَاهُ تَكَثَّرَ عِيَالُكُمْ فَقَدْ وَهَمَ .

. . .

[رسالة للصابي في التطفيل]

وإِذْ فَرَعْنَا مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْهَزْلِيَّةِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ ابْنَ هَمَامٍ فِي هَذِهِ الْمَقَامَةِ طُفِيلٌ ، فَنَذَكُرُ هُنَا الْعَهْدَ الَّذِي كَتَبَ الصَّابِيُّ بِأَمْرِ مَعَزِ الدَّوْلَةِ لِحَمْدِ ابْنِ فَرِيْمَةَ الطُّفِيلِ بَبْغَدَادَ ، وَقَدْ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى التُّطْفِيلِ ؛ فَإِنَّ هَذَا الْعَهْدَ يُوَافِقُ خُطْبَةَ الْمَقَامَةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَغْرَاضِهَا .

وَذَلِكَ عَهْدُ عَهْدِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ النُّعْمَانِ ، حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى سُنَّتِهِ ، وَاسْتَنْابَهُ عَلَى حِيَاطَةِ رَسُومِهِ وَسُنَّتِهِ ؛ مِنَ التُّطْفِيلِ عَلَى أَهْلِ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ أَرْبَاضِهَا وَأَكْنَافِهَا ، وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنْ سَوَادِهَا وَبَيَاضِهَا وَأَطْرَافِهَا ، لَمَّا تَوَسَّعَ فِيهِ مِنْ قَلَّةِ الْحَيَاءِ ، وَشِدَّةِ اللَّقَاءِ ، وَكَثْرَةِ اللَّقْمِ ، وَجُودَةِ الْخُضْمِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَقْوَسَ اسْمُ التُّطْفِيلِ وَمَعْنَاهُ ، وَيَعْرِفَ مَفْزَاهُ وَمَنْجَاهُ ، وَيَتَصَفَّحَهُ تَصَفِّحَ الْبَاحِثِ عَنْ حِفْظِهِ بِمَجْهُودِهِ ، غَيْرِ الْقَائِلِ فِيهِ بِتَسْلِيمِهِ وَتَقْلِيدِهِ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ نَسَبَ صَاحِبَهُ لِأَشْرِهِ وَالْفَنَمِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى الْجَشَعِ وَالْقَرَمِ ، فَهُمْ مِنْ غُلْطٍ فِي اسْتِدْلَالِهِ ، فَأَسَاءَ فِي مَقَالِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَحَّ بِمَالِهِ ، فَدَفَعَ عَنْهُ

باحتياله ، وكلا الفريتين مذموم ، وجميعها مُلِم ملوم ، ولا يتعلقان بعذر واضح ، ولا يتعريان من لباس فاضح . وقد عُرِفَت يا أخى بالتطفيل ، ولا عار فيه عند خوى التحصيل ، لأن التطفيل مشتق من العُفْل ، وهو وقت المساء وأوان العشاء ، فلما كَثُر استعماله في صدر النهار وعجزه ، وأوله وآخره ، كما قيل : القمران للشمس والقمر ، وكما قيل العمران لأبى بكر وعمر .

وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بمراياه ، ويسقط الأمر بسرياه ، فإنه يظفر من إرادته بالغنيمة الباردة ، ويصل بها إلى الغريبة الشاردة . فيجد بها من ظرائف الألوان ، للذة لسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة في الخلقوم ، مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لديهم ، لحذق صناعتهم وجودة أدواتهم ، وخِصْب ناديم ، وكثرة ذات أيديهم ؛ والله يوفر من ذلك حظنا ، ويُسدّد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا .

وأمره أن يحتلب التَّسَكُّمة ممن يحصل منهم ودّه ، ويستدعى بالتلطف نائله ويرفده ، وكثيراً ما يتفق ذلك للمداخلين ، ويتيسر للمتوصّلين .

وأمره أن يصادق قَهَّارمة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطايخ ومدبريها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعهم ومشارهم .

وأمره أن يعتمد أسواق المتسوقين ومواسم المتبايعين ؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها ، أو أطمعة قد احتشد منها ، أتبعها إلى القصد بها ، وشيئها إلى المنزل الحاوى لها ، واستسلم ميقات الدعوة ، ومن يحضرها من أهل اليسار والثروة .

وأمره أن يحتجب بمجامع العوامّ القليلين ، ومحافل الرّاع المتقرّين ، وألا ينقل إليها قدما ، ولا يغفر لِمَا كلها فمّا ، فإنها عصابة تجتمع على مضض النفوس والأحوال . وقلة الأحلام والأموال ، وفي التطفيل عليها إحجاف بها يؤلم . وإزراء بمروءة التطفيل يثلم .

وأمره أن يحوز الخوان إذا حصل، والطعام إذا نُقل، حتى يعرف بالحدس والتخمين عدد الألوان في الكثرة والقلة، وافتنانها في الطيب والمذاق، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي عند انتهائها، فلا يفوته نصيب من كثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظ من دقيقتها وجليلها. ومتى أحسن بنقلة الطعام وحجره، أمعن في أوله إمعان الكيس في سعيه، والرشيد في أمره، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون طرفا، ويقفون نادبا، ويظنون أن المائدة تُبلِّغهم إلى آخر حاجتهم، وتنتهي بهم إلى حد غايتهم، فلا يلبثون أن ينجلوا خجلة الوامق الراغب، وينقلبوا بحسرة الراهق الخائب.

وأمره أن يروض نفسه، ويفالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا، ويطوى دونه كشحا، ويستحسن الصمم عن الفحشاء، ويغض عن اللقمة الخسنة، وإن أته الوكزة في حلقه، صبر عليها لأجل الوصول إلى حقه، وإن وقعت الصفعة في راسه، عض عليها بمواقع أضراره، وإن لقيه لاق بالجلقاء، قابله باللفظ والصفاء، إذا كان ولج الأبواب، وخالط الأصحاب، وجلس مع الحضور، واختلط بالجمهور، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره، ويمر به المستغرب لوجهه، فإن كان حرا حسنا أمسك وتذم، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم. وأن يستعمل مع المخاطب له الملاينة، وأن يحتنب عند ذلك الخاشنة. ليرد غيظه ويقل حده، ويكف غرّبه ويأمن سعيه. وأمره أن يتعهد الجوارشات المعدة للعدد، والقوية للعد، للمشبهة للطعام، المسهلة لسبيل الانهضام، وأن يكون في اتخاذها كالكااتب الذي يخط أقلامه، والفارس الذي يصقل حسامه.

وأمره إذا غشى أبواب الملوك وأهل السلطان، أن يصانع البواب والحجاب، ويخدم القواد والسكرتاب، فإذا دخل السواد الأعظم، توسط الجمع لا يتأخر

ولا يتقدم ، بعد أن يحمل ثيابه ، ويحسن كلامه وجوابه ، فطعام الأمراء
تُدعى إليه الحفلاء احتفالا ، ويُتَكمَل بالوفود على العدوم اكتفالا .

فهذا العهد مطابق لأحوال هذه المقامة .

[بعض الخطب الهزلية]

وما يتصل بخطبة المقامة من الخطب الهزلية ما حدثوا :

أن رجلا خطب إلى قوم ، وجاء بخطب ، فاستفتح خطبة النكاح بحمد
الله فأطال ، ثم ذكر خلق السموات والأرض واقتصر ، ثم ذكر القرون حتى
ضجر من حضر ، ثم التفت إلى الخاطب فقال : ما اسمك أعزك الله ؟ فقال :
والله قد نسيت اسمي من طول خطبتك ، وهى طالق ثلاثا إن تزوجتها بهذه
الخطبة . فضحك القوم وعقدوا له في مجلس آخر .

أنكح خالد بن صفوان عبده أمتة ، فقال له العبد : لو دعوت الناس
فخطبت . قال : ادعهم أنت ، فدعاهم ، فلما اجتمعوا تسكلم خالد ، فقال : إن
الله أعظم وأجل من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبيين ، وأنا أشهدكم أنى
قد زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية .

خطب مُصعب بن حَيَّان خطبة نكاح ، فحصر فقال : لقنوا موتاكم « لا إله
إلا الله » . فقالت له الجارية : عَجَل الله موتك ، ألهذا دعوناك !

خطب ثقيف في تزويج فأطال ، فقام واحد من القوم ، وقال : إذا فرغ
الثقيف ، بارك الله لكم ، فإن على شغلا أريد المبادرة فيه .

وخطب رجل امرأة، فجعل يخطب ويُنْعِظُ، فضرب رأس ذكره بيده وقال:
مَهْ! إليك يساق الحديث .

فلما فرغ الشيخ من خطبته ، وأبْرَمَ لِلخَتَنِ عَقْدَ خِطْبَتِهِ ،
تَسَاقَطَ مِنَ الشَّارِ مَا اسْتَفْرَقَ حَدَّ الْإِكْثَارِ ، وَأَغْرَى الشَّجِيحَ
بِالْإِيْثَارِ . ثُمَّ نَهَضَ الشَّيْخُ يَسْحَبُ ذِلَالَهُ ، وَيَقْدُمُ أَرَاذِلَهُ .

قال الحارث بن همام : فتبعته لأنظر عُرْجَةَ القوم ، وَأَكْمِلَ
بَهْجَةَ اليوم . فعاج بهم إلى سِمَاطِ زَيْنَتِ طُهَاةِ ، وتناصفت في
الحُسْنِ جِهَاتِهِ . فحين رُبَعَ كُلُّ شَخْصٍ فِي رِبْضَتِهِ ، وَطَفِقَ
يَرْتَعُ فِي رَوْضَتِهِ ، انسلت من الصف ؛ وفرت من الزحف .
فحانت من الشيخ لَفْتَةٌ إِلَى ، ونظرة هجم بها طرفه عَلَى ، فقال:
إِلَى أَيْنَ يَا بُرْمَ ؟ هَلَّا عَاشَرْتَ مُعَاشِرَةً مِنْ فِيهِ كَرَمَ ! فقلت :
وَالَّذِي خَلَقَهَا طِبَاقًا ، وَطَبَّقَهَا إِشْرَاقًا ، لَأَذِتُ لِمَاقَا ، وَلَا لُسْتُ
رُقَاقَا ، أَوْ تَجَبَّرَنِي : أَيْنَ مَدْبُ صِبَاكَ ، وَمِنْ أَيْنَ مَهَبُ
صِبَاكَ ؟ فَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ مَرَارًا ، وَأَرْسَلَ الْبُكَاءُ مِذْرَارًا ، حَتَّى
إِذَا اسْتَنْزَفَ الدَّمْعُ ، اسْتَنْصَتَ الْجَمْعُ ، وَقَالَ لِي : أُرْعِنِي السَّمْعَ .

...

قوله : أبرم ، أى أحكم وسدّد . واختن : ولّى الزوجة مثل الأب والأخ وابن العم ، فهم الأختان ، وكل شيء من قبل الزوج ، فهم الأحباء ، واحدم حمًا مثل قفًا ، وحمو مثل أبو ، وحمّ مهموز ، والأصهار تجمعهم .

والخطبة : مراسلة المرأة للزواج . والنثار : ما نُثر عليه من الدراهم ، وقد نثرت الشيء نثرًا إذا رميت به متفرقًا ، وأصحابُ الزوج تدخلهم حمية عند ذلك فينثر كل واحد منهم من الدراهم ما أمكنه ، فتُجمع ويشتري منها أنواع الأطعمة ، ولذلك قال : أغرى الشحيح بالإيثار : أى حرّضه على أن يتكرّم . واستغرق : جاوز . وحدث ابن قتيبة عن أبي عثمان ، قال : مررت بمحضر قد اجتمع فيه خلق كثير ، فسألت بعضهم : ما جمعهم ؟ فقال : هذا سيّد الحى تزوج منّا فتاةً ، فتكلّم الشيخ فقال : الحمد لله وصلى الله على رسول الله ، أما بعد ؛ فإن الله جعل المناكحة - التى رضىها فعلا ، وأنزلها حياء - سبب المناصلة ، وإن فلانا ذكر فلانة ، وبذل لها من الصّدّاق كذا ، وقد زوّجته إياها ، وأوصيته بوصية الله فيها ، ثم قال : هاتوا نثاركم ، فقلبت على رؤوسنا غرائر التمر .

قوله : ذلاذله ، أى أطراف ثوبه ، والذلل : ما يلى الأرض من أسفل القميص ، أراذله : جمع أرذل ، وهو الدنى ، والرّذل والمرذل والرّذيل : الدون . والمُرّجة : التعريج ، ويقال : ما عليه عُرّجة ولا تعريج ، أى إقامة . وبهجة الشيء : حسنه ونضارته . وعالج : مال . والسّماط : كلّ مُستَوٍ على نسق ، وصُفّ الناس سماط وأراد به المائدة . والطّهاء : الطّباخون من الناس . تناصفت : اعتدلت ، وأنصف كلّ جزءٍ منها صاحبه ، والتناصف : اعتدال الحسن . ربّع : جلس ، يقال : ربعت بالمكان : أقمت به ، وربعت الحجر : رفعتة باليد ، لأنظر شدتى . وربّع : وقف وتحمّس . ربضته : موضعه الذى يقعد فيه ، والرّبضة : القطعة

الغليظة من الثريد . يرتع : يأكل ، وفلان يرتع ، أى هو مخصب لا يعدم شيئاً يريد . الروضة : موضع العشب ، وأراد بها ما بين أيديهم من الطعام . الزحف : الضرب والثوب إلى الثمر ، وأراد أنه لما جلس كل إنسان أن يأكل خشى هو إن جلس للأكل أن يفرم ويشتهر بأنه طفيل ، فيحتاج أن يتدافع ، وأن يتوابع مع صاحب الخانوت في ثمن ما أكل ، فقر من ذلك . والزحف : مشى الأعمى . لفتة : نظرة بالتواء ، كأنه يلوى عنقه فينظر ، ولفت إليه لفتاً والفتت : صرف وجهه إليه . وهجم : دَخَلَ عليه بغتة . بُرَم : بخيل ، وهو الذى لا يدخل مع القوم فيما دخلوا فيه من المكرم . والمعاشرة : ترك الخالفة في الصحبة . طباقاً : جمع طبق ، أى هى طبق فوق طبق ، يعنى السماء . وطبقها : ملأها وعملها ، يقال : طبَّق الغيمُ تطبيقاً إذا أصاب بمطره جميع الأرض . إشراقاً : نوراً وضوءاً . كماقا ، الأصمعى رحمه الله : هو ما يشرب ، فإن أردت نفيه ، قلت : ما ذقت لَمَاقاً ، وأنشد :

كَبُرَ لَاحُ يُعْجَبُ مَنْ رَأَاهُ وَلَا يَشْفِي الْحَوَائِمَ مِنْ لَمَاقٍ^(١)

الحوائم : المعطاش ، وحكى يعقوب أن اللماق بَصْلُح في الأكل والشرب ، قال ابن كيسان : هو الشيء اليسير من الطعام والشراب .

لُسْتُ رُمَاقاً : أكلت خبزاً مرّقاً ، واللّوس : تتبع بقية الشيء الحلو في فك . ابن سيده : لاس لوساً : تتبع الحلاوة ، فأكلها ، وماذاق لوساً ولا لواساً ، أى ذواقاً ، ولا يلوس كذا ، أى لا يتناوله .

أو تخبرنى : حتى تخبرنى . أين مدب صباك ، يريد أين ولدت فديت صغيراً . مهب صباك : محب ريمك ، وأراد أين بلدك . الصعداء : التنفس بتوَجّع .

(١) اللسان - لاق ، ونسبه إلى نهشل بن حري .

وهى من فعل المهموم . استنزف الدمع : استفرغه بالبكاء حتى انقطع ، ونزف
وأنزفه : أفناه بالبكاء ، واستنصت : أمرهم بالسكوت .

* * *

مَسْقَطُ الرَّأْسِ سَرُوجٌ وَبِهَا كُنْتُ أَمْوَجُ
بِلَدَةٍ يَوْجَدُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ وَيُرُوجُ
وَرَدُّهَا مِنْ سَلْسَبِيلٍ وَصَحَارِيهَا مُرُوجُ
وَبُؤْهَا وَمَقَانِيهِمْ بُحُورٌ وَبُرُوجُ
حَبَّذَا نَفْحَةُ رِيَّا هَا وَمَرَاها الْبَهِيْجُ
وَأَزَاهِيْرُ رُبَاهَا حِينَ تَنْجَابُ الثُّلُوجُ
مَنْ رَأَاهَا قَالَ مَرَسَى جَنَّةِ الدُّنْيَا سَرُوجُ
وَلَمَنْ يَنْزَاحَ عَنْهَا زَفَرَاتٌ وَنَشِيْجُ
مِثْلُ مَا لَاقَيْتُ مُذْزَحْ-زَحْنِي عَنْهَا الْعُلُوجُ
عَبْرَةٌ تَهْمِي وَشَجْوَةٌ كَلَّمَ قَرِيْبِيْجُ
وَهَمُومٌ كُلُّ يَوْمٍ خَطْبُهَا خَطْبُ مَرِيْجُ
وَمَسَاحٍ فِي التَّرَجَّى قَاصِرَاتُ الْخَطْوِ عَوْجُ
لَيْتَ يَوْمِي حُمٌّ لَمَّا حُمَّ لِي مِنْهَا الْخُرُوجُ

مَسْقَطُ الرَّأْسِ ، يريد الموضع الذى سقط فيه رأسه عندما ولد . أموج :
أنصرف وأتحرك ، والمائج : المضطرب . يروج : يتعجل . وردها : ماؤها .
السلسيل . عين فى الجنة ، والسلسيل المحر . والمروج : الموضع الحصبة . مقانيهم :

منازلهم . والبروج : منازل القمر، وأراد أنهم في الحسن والرفعة كالنجوم ، وأن دورهم في العلو والاستواء كالبروج .

[مما قيل في الحنين إلى الأوطان]

وسبقه الحلواني القيرواني إلى هذا التشبيه ، قال يتشوق إلى القيروان بعد خرابها :

ليت شعري وليت حرف تمين	رُبما علل الفـــــــؤاد السقيما ^(١)
كيف يا قيروان حالك لنا	ثر البين سلكك المنظوما
كنت أم البلاد شرقا وغربا	فحما الدهر وشيك المرقوما
نحن أولادها ولكن عققنا ^(٢)	بعد أن لم نطق بها أن نقيما
دمن كانت البروج وكنا	أمرأى في قبائها ونجوما

وقال السريّ يشوق إلى الموصل وكان بحلب :

أحمل صَبوتنا دعاء مشوق	يرتاح منك إلى الهوى الموموق ^(٣)
فتى أزور قباب مشرفة الذرا	فأدور بين النسر والعيوق
وأرى الصوامع في غوارب أكمها	مثل الهودج في غوارب نُوق
محمة الجدران يفتح طيبتها	فكانت مبنيّة بخلق
محرّا تلوح خلالها بيض كآ	فصّلت بالكافور بين ^(٤) عقيق
كلف تذكر قبل ناهية النهى	ظلمين : ظلّ هوى وظلّ حديق
فتفرقت عبراته في خده	إذ لا يحـيـر له من التفريق

(١) الذخيرة ٢٢٥/١/٤ . (٢) الذخيرة : « نحن أبناؤها ولكن غنينا . »

(٣) ديوانه ١٨٦ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

(٤) الديوان : « سبط عقيق . »

وقال الثعالبي : ما نظرت إلى الصوامع مذ برزت من نيسابور إلا ذكرت بيتته ، فأرى الصوامع ، واستأنفت العجب من حسن هذا التشبيه وبراعته .

قوله : نفحة رباها ، أى حركة رانحتها الطيبة . مرآها البهيج : منظرها الحسن . وأزاهير رباها : أنوار كداها ، وهى جمع أزهار ، وأزهار جمع زهر ، وهو النور . تنجاب : تزول .

ثم قال : سروج هى الموضع الذى أرسى به جنة الدنيا ، أى ثبتت فيه مكانه قال : جنة الدنيا هى سروج . وسروج هذه بلد بقرى و عمارات ، وهى من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة ، والجزيرة انقسمت قسمين : ديار ربيعة وديار مصر ، وسروج من كور ديار مصر ، وهى ثغرية إذا كان للمسلمين قوة يملكونها ، وإذا ضعفوا غلبهم الروم ، عليها وهى كثيرة الثلج والبرد .

قوله : ينزاح : يبعد . النشيج : البكاء . والزفرة : تنفس المهموم . زحزحى : نَحَّانِي . تهيمى : تسيل . شَجَوُ : حزن . قر : سكن . يهيج : يتحرك . خطبها : أمرها مَرِيج : مختلط . مساع : مواضع تصرفه ، ويكون المسمى مصدراً بمعنى السعى . قاصرات ، أى قصيرة ، وكذا استعمالها لأن فعلها قَصُر ، واسم فاعلها فَعِيل مثل ظرف فهو ظريف . انْخَطَوُ : جمع خطوة . عوج : مفوعة . يومى حم : أى يوم موتى قدر ، أراد : ليت أنى مت ولا أرى خروجى منها .

أنس رضى الله عنه قال : النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به ، فإن كان لا بد فاعلا ، فليقل : اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى : وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .

جابر رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تمننوا الموت فإن هول المطلع شديد ، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ، وأن يرزقه الله الإناة » .

وفي معنى وصفه سروج وبكائه عليها، قال الحصري^(١) الأعمى يشوق إلى القبران:
 أيا سقى الله أرض القبروان حياً كأنه عبراني المستهلات^(٢)
 فإنما لذة الجنات تربتها مسكية وحصاها جوهريات
 أرض أريضة، أقطار مباركة^٣ لله فيها براهمين وآيات

وحدثني الفقيه أبو عبد الله بن زرقون في بستانه بطريانة، أيام قراءتي عليه
 النوادر والسكامل، وكان رحمه الله ذا كراً بالطريقة الأدبية، مع تميزه بالطريقة
 الفقهية، فدارت بيني وبينه في إحدى العشيات أنواع من المذاكرات في فنون
 أدبيات، فاهتز رحمه الله، وهش، وأظهر السرور بي - وأنا يومئذ غلام ما يقل
 عذاري - فقال: لقد علمت أن بيني وبينك أخوة، قلت: وكيف ذاك ياسيدي؟
 فقال: إني ولدت ببلك شريش؛ فزدت بالحديث غبطة، واستزدت منه،
 فقال لي: ومع ذلك فتم قصة مستظرفة:

اعلم أنني كنت اجتزت بشرش قافلاً من العدو، مع الفقيه أبي بكر
 عبد الله بن العربي رحمه الله. فلما صرنا في بطاحها، وبين كرماتها وجنانها،
 أخذ الفقيه أبو بكر يثني عليها بكل لسان، على كثرة ما رأى من البلدان،
 ويقول: إن الأشياء التي جمعت فيها لا تكاد تجتمع في بلدة، من كثرة الزرع
 والضرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك، فقلت له: أعلمت أنني ولدت بها؟
 فقال لي أبو بكر: أقول أنت الآن:

* مسقط الرأس شريش *

قلت له مجيزا :

* وبها كنت أعيش *

قال أبو بكر :

* بلدة يوجد فيها *

قلت :

* كل شيء ويريش *

قال أبو بكر :

* وزدها من سلسبيل *

قلت :

* ومحمداً عريشاً *

ثم سرنا في طريقنا على قوافي السروجية ، فرددناها شريشية ، وقطعنا بها الطريق ونحن لانشر ، فكانت أمر عشيّة رأيت ، بمجالسة مثل هذا الفاضل وسنه قد تيف على الثمانين بسنتين ، يحدثني عن ابن عربي وابن عبدون الكاتب ونظرأهم ، في رياض كلمها نزهة على نهر إشبيلية ، وهي أمامنا على بهجتها وجمالها ، مادحا لي ولبلدي ، ليدخل على ذلك المسرة ، نسأل الله أن يبلغه غاية السرور في دار البقاء .

قال : فَلَمَّا بَيْنَ بَلَدَهُ ، وَوَعَيْتُ مَا أَنْشَدَهُ . أَيْقَنْتُ أَنَّهُ عَلَامَتُنَا
أَبُو زَيْدٍ ، وَإِنْ كَانَ الْهَرَمُ قَدْ أَوْثَقَهُ بِقَيْدٍ . فَبَادَرْتُ إِلَى مُصَاحَفَتِهِ ،
وَاعْتَنَمْتُ مُوََاكَلَتَهُ مِنْ صَفْحَتِهِ ، وَظَلْتُ مُدَّةَ مَقَامِي بِمِصْرَ
أَعْشُو إِلَى شُؤَاظِهِ ، وَأَحْشُو صَدَفَتِي مِنْ دُرِّ الْفَاطِئَةِ ، إِلَى أَنْ
نَعْبَ يَدِنَا غُرَابَ الْبَيْنِ ، فَفَارَقْتُهُ مَفَارِقَةَ الْجَفْنِ لِلْعَيْنِ .

* * *

قوله : وَوَعَيْتُ ، أَيْ حَفِظْتُ . عَلَامَتُنَا : عَلَامِنَا الْمَشْهُور بِالْعِلْمِ . أَوْثَقَهُ : رَبَطَهُ
وَشَدَّهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْقَبِيلُ مِنَ الْهَرَمِ فِي أَخْبَارٍ وَأَشْعَارٍ حَسَنَةٍ . مُصَاحَفَتِهِ :
مَعَانِفَتُهُ وَوَضْعُ كَفِّي عَلَى كَفِّهِ .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَيُّمَا
أَمْرٍ يُصَافِحُ أَخَاهُ لَيْسَ فِي صَدْرٍ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى أَخِيهِ إِحْنَةٌ لَمْ تَتَفَرَّقْ أَيْدِيهِمَا
حَتَّى يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمَا مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِمَا » .
الإِحْنَةُ : الْحَقْدُ .

اعْتَنَمْتُ : حَسِبْتُهَا غَنِيمَةً . مُوََاكَلَتُهُ : الْأَكْلُ مَعَهُ .

ابن عمر رضى الله عنهما : طَعَامُ السَّخَى دِمَاءٌ ، وَطَعَامُ الشَّعِيحِ دَاءٌ .

ظَلْتُ ، أَيْ دُمْتُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي ظَلَّتْ عَائِدُهُ عَاكِفًا ﴾ ^(١) ،
أَيْ دُمْتُ عَلَيْهِ مَقِيمًا . قَالَ سَيَبَوِيه رَحِمَهُ اللَّهُ : أَصْلُهُ : ظَلِمْتُ . اللَّيْثُ : يُقَالُ :
ظَلَّ نَهَارُهُ صَائِمًا . وَلَا تَقُولُ الْعَرَبُ : ظَلَّ إِلَّا لِكُلِّ عَمَلٍ بِالنَّهَارِ ، كَمَا لَا تَقُولُ :

بات إلا للعمل بالليل . أعشَوْ : أنظر يبصر ضعيف . شواظه . ناره ، والشواظ
لهبُ النارِ الذى لا دخان فيه . صدَقَتى : أذنى . نعب : صاح . البين : الفراق ،
والغراب إذا صاح عندهم تشاءموا به ، وقد تقدّم ذلك . مفارقة الجفن للعين ،
أى مسرعا بقدر ما تفتح عينك .

تم الجزء الثالث من كتاب شرح المقامات للشربشى ويليه الجزء الرابع
وأوله شرح المقامة الحادية والثلاثين .

فهرس المقامات

صفحة

- المقامة الحادية والعشرون الرازية ، تتضمن كون أبي زيد
واعظا وتعريضه بالأمير ينهاء عن الظلم ٣ - ٣٧
- المقامة الثانية والعشرون القراتية ، تتضمن تفضيل أبي زيد
لموضوعي الإنشاء والحساب ٣٨ - ٧٥
- المقامة الثالثة والعشرون الشعرية ، تتضمن كون أبي زيد
مدعيا على ابنه أنه سرق شعره ٧٦ - ١٧٣
- المقامة الرابعة والعشرون النحوية ، تتضمن إلقاء أبي زيد
على جلسائه مسائل في النحو ، على سبيل الإلغاز ١٧٤ - ٢٣٢
- المقامة الخامسة والعشرون الكرجية ، تتضمن كافات الشتاء ،
وطلب أبي زيد ثيابا يكتسى بها ٢٣٣ - ٢٥٩
- المقامة السادسة والعشرون الرقطاء ؛ تتضمن الرسالة
التي حروفها على نوعين ، نوع فيها منقوط ، والآخر من
غير نقط ٢٦٠ - ٢٩٦
- المقامة السابعة والعشرون الوبرية ، وتتضمن طلب الحارث
ابن همام ناقته الضالة ، وما حصل من أبي زيد معه في ذلك ٢٩٧ - ٣٢٩
- المقامة الثامنة والعشرون السمرقندية ، تتضمن وقوف أبي
زيد ببربوة يخطب خطبة عارية من الإعجام ٢٣٠ - ٣٦٨

المقامة التاسعة والعشرون ؛ تتضمن اجتماع الحارث بأبي
 زيد في الخان ، وكبف صرع أبوزيد أهل الخان بإطعامهم الحلواء
 وأخذه ما لهم

٣٦٩ - ٤١١

المقامة الثلاثون ؛ تتضمن كون أبي زيد خطيبا في تزويج
 مكديه لثلاثها

٤١٢ - ٤٤٧

فهرس الموضوعات(*)

صفحة	
٥٠٤	الطبع والتطبع
٦٠٥	الرعد
٨٠٧	ابن سمعون
١٣ - ١١	نبذ من الأقوال الحكيمة
١٤	نبذ من الأقوال الحكيمة أيضا
٢٠ - ١٧	الموت
٢٧ - ٢٣	ذكر الولاية والعزل والتشكى من الولاة
٢٩ ، ٢٨	مما قيل في اللثغ من الشعر
٣٣ ، ٣٢	ذكر سام وحام ويافث
٣٦ - ٣٣	أخبار عمرو بن عبيد
٤١ - ٣٨	سقى الفرات
٤٢ ، ٤١	ذكر بنى الفرات
٤٣ - ٤٢	التقعاع بن شور
٤٤ ، ٤٣	أشعار في وصف الجليس
٤٥ ، ٤٤	الحور والسكر
٤٧ - ٤٥	في وصف السفن
٥٢ - ٤٩	ذكر التقلأ
٥٣ ، ٥٢	ما جاء في البارء
٥٤ ، ٥٣	ما جاء في تسميت العاطس
٥٧ ، ٥٦	أصل اللثل : عند جهينة الخبر اليقين

صفحة

التبليغ	١٤٢، ١٤١
التصدير	١٣٢
الاستثناء	١٤٣
الالتفات	١٤٤
الاعتراض	١٤٧ - ١٤٤
الاستطراد	١٤٩ - ١٤٧
حكاية فرسى الرشيد والمأمون	١٥٠، ١٤٩
مراتب الخيل في الحلبة	١٥١، ١٥٠
أشعار في وصف الخيل	١٥٥ - ١٥١
فصل في كفران الصنيع	١٥٧، ١٥٦
مختار من الشعر في إشارة اللحظ	١٦٥ - ١٦٣
قصة السمود	١٧٣، ١٧٢
جذيمة ونديمة	١٨٠ - ١٧٦
الزباء	١٨٥ - ١٨٠
فصل في الرياض والبساتين وما ورد فيها من الشعر	١٩٧ - ١٨٥
مما قيل في الشيب والشباب	٢٠١ - ١٩٧
ترجمة سيديويه	٢٠٩ - ٢٠٦
بعض حكايات النحويين	٢١٢ - ٢٠٩
السكرج	٢٣٤، ٢٣٣
من مقامات البديع البخارية	٢٤١ - ٢٤٠
ذكر طيبة	٢٥٢ - ٢٥٠
ترجمة ابن سكرة	٢٥٧ - ٢٥٤
قصص في الفرج بمد الشدة	٢٦٨ - ٢٦٥
مما قيل في الحجرات	٢٨٥ - ٢٨٢

صفحة

٢٨٩ - ٢٨٧	. . .	مناقرة بين عامر بن الطفيل وعلقة بن علاثة
٣٠٤ - ٢٩٩	أخبار ذى الرمة ومي
٣١٦ - ٣١٤	ذكر أشعب وبعض نوادره
٣٢٠ ، ٣١٩	مما قيل من الشعر في الدباب والبعوض
٣٣١ ، ٢٣٠	ذكر سمرقند
٣٣٢ ، ٣٣١	يوم عروبة
٢٣٥ - ٢٣٣	ذكر الحمام وما ورد فيه من الشعر والحكايات
٣٤٣ - ٣٣٢	مما قيل في الأمل والطمع من الشعر
٣٤٦ - ٣٤٣	ذم الدهر ومما قيل فيه من الشعر والحكايات
٣٥١ - ٣٥٠	مما قيل في عجز الأطباء حين يحىء الأجل
٣٦٣ - ٣٥٩	ذكر كسرى
٣٦٥ - ٣٦٣	ذكر دارا
٣٦٧ - ٣٦٦	ذكر الفضيل
٣٧٠ - ٣٦٩	ذكر واسط
٣٧٣ - ٣٧٢	مما قيل من الشعر في النملان
٣٨٣ - ٣٨١	ترجمة إبراهيم بن أدهم
٣٨٨ - ٣٨٣	ذكر جبلة بن الأيهم
٣٨٩ ، ٣٨٨	ذكر المغالاة في الصدقات
٢٩٥ - ٣٩٣	أشعار في التطير من الدنيا والزهد فيها
٣٩٩ - ٢٩٨	بعض خطب النكاح
٤٠٨	مما قيل في الاعتراف بالذنوب والطمع في رحمة الله وعفوه
٤١٢	ترجمة النصور

صفحة

٤١٣	ذكر مدينة صور
٤١٥	ذكر مصر
٥١٦	ذكر المقياس
٤١٧	ذكر الأهرام
٤١٧	بعض معالم مصر
٤٢٣	أخبار النذر الملقب بابن ماء السماء
٤٣٧ - ٤٣٤	رسالة للصابي في التطفيل
٤٣٧	بعض الخطب الهزلية
٤٤٢	مما قيل في الحنين إلى الأوطان